التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة المؤمنون

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء الثامن عشر

الطبعة الثالثة

١٤٠٨ هـ — ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
تليفون ٩٠٧٣٧٩
س.ت ١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾

«صدق الله العظيم»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ — سورة « المؤمنون » من السور المكية ، وعدد آياتها ثمان عشرة آية ومائة ، وكان نزولها بعد سورة الأنبياء .

٢ — وقد افتتحت السورة الكريمة بالحديث عن الصفات الكريمة التى وصف الله - تعالى - بها عباده المؤمنين ، فذكر منها أنهم فى صلاتهم خاشعون وأنهم عن اللغو معرضون . وأنهم للزكاة فاعلون ...

ثم ختمت السورة تلك الصفات الجليلة، ببيان ما أعده الخالق -عز وجل- لأصحاب هذه الصفات فقال : « أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

٣ — ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى الحديث عن أطوار خلق الإنسان، فابتدأت ببيان أصل خلقه،وانتهت ببيان أنه سيموت، ثم سيبعث يوم القيامة ليحاسب على ماقدم وما أخر .

قال - تعالى - : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما . فكسونا العظام لحما . ثم أنشأناه خلقا آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .

٤ — وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على قدرته على البعث عن طريق خلق الإنسان فى تلك الأطوار المتعددة ، أتبع ذلك ببيان مظاهر قدرته

ـ تعالى ـ عن طريق خلق الكائنات المختلفة التى يراها الإنسان ويشاهدها وينتفع بها ...

فقال ـ سبحانه ـ : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » .

« وأنزلنا من السماء ماء بقدر ، فأسكناه فى الأرض ، وإنا على ذهاب به لقادرون ... » .

٥ ـ ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك فيما يقرب من ثلاثين آية بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فذكر جانبا من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة موسى مع فرعون وقومه .

ثم ختم هذه القصص ببيان مظاهر قدرته فى خلق عيسى من غير أب ، فقال ـ تعالى ـ : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » .

٦ ـ ثم وجه ـ سبحانه ـ بعد ذلك نداء عاما إلى الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أمرهم فيه بالمواظبة على أكل الحلال الطيب ، وعلى المداومة على العمل الصالح ، وبين ـ سبحانه ـ أن شريعة الأنبياء جميعا هى شريعة واحدة فى أصولها وعقائدها ، فقال ـ تعالى ـ : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

٧ ـ ثم تحدثت السورة الكريمة حديثا طويلا عن موقف المشركين من الدعوة الإسلامية ، وبينت مصيرهم يوم القيامة ، وردت على شبهاتهم ودعاواهم الفاسدة ، ودافعت عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن دعوته ، وختمت هذا الدفاع بما يسلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويثبت فؤاده .

قال ـ تعالى ـ : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ـ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ... » .

٨ ـ ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا من الأدلة على وحدانية الله وقدرته، منها مايتعلق بخلق سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم، ومنها مايتعلق بنشأتهم من الأرض، ومنها مايتعلق بإشهادهم على أنفسهم بأن خالق هذا الكون هو الله ـ تعالى ـ .

واستمع إلى قوله ـ تعالى ـ : «قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله، قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون» .

٩ ـ وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ ، أمر ـ سبحانه ـ نبيه أن يلتجيء إليه من شرورهم ومن شرور الشياطين، وأمره أن يقابل سيئات هؤلاء المشركين بالتي هي أحسن، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

قال ـ تعالى ـ : «وقل رب إما تريني مايوعدون . رب فلا تجعلني في القوم الظالمين . وإنا على أن نريك مانعدهم لقادرون . ادفع بالتي هي أحسن السيئة، نحن أعلم بما يصفون . وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون» .

١٠ ـ ثم صورت السورة الكريمة في أواخرها أحوال المشركين عندما يدركهم الموت، وكيف أنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ولكن هذا التمني لا يفيدهم شيئا، وكيف يوبخهم ـ سبحانه ـ على سخريتهم من المؤمنين في الدنيا .

قال ـ تعالى ـ : «إنه كان فريق من عبادي يقولون . ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون . إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون» .

١١ ـ ثم ختمت السورة الكريمة بهذه الآية التي يأمر الله ـ تعالى ـ فيها

نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالمواظبة على طلب المزيد من رحمته ومغفرته - سبحانه - فقال - تعالى - : «وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين».

١٢ - وهكذا نرى سورة «المؤمنون» قد طوفت بنا فى آفاق من شأنها أن تغرس الإيمان فى القلوب، وأن تهدى النفوس إلى مايسعدها فى دينها ودنياها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

صباح الأحد :

٢ من ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ

١٩٨٤/١١/٢٥ م

كتبه الراجى عفو ربه

محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

التفسير

قال الله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الذينَ هُمْ فِي صلاتِهِمْ خاشِعُونَ (٢) والذينَ هُمْ عن اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) والذينَ هُمْ للزَّكاةِ فاعِلُونَ (٤) والذينَ هُمْ لفُرُوجِهِم حافِظُون (٥) إلا على أزْوَاجِهِمْ أو ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم فإنَّهم غيرُ ملُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وراءَ ذَلِكَ فأُولئكَ هُمُ العادُونَ (٧) والذينَ هُمْ لأماناتِهِمْ وَعَهْدِهِم راعُونَ (٨) والذينَ هُمْ عَلَى صلَوَاتِهِم يُحافِظُونَ (٩) أُولئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ (١٠) الذينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فيها خالِدُونَ (١١) » .

أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : كان إذا نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الوحي ، نسمع عند وجهه كدوي النحل ، فأنزل عليه يوما ، فمكثنا ساعة فسرى عنه، فاستقبل القبلة ، فرفع يديه فقال : « اللهم زدنا ولاتنقصنا، وأكرمنا ولاتهنا، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وارضنا » .

ثم قال : لقد أنزلت على عشر آيات ، من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ : « قد أفلح المؤمنون » إلى قوله : « هم فيها خالدون »[1] .

وأخرج النسائي عن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة : يا أم المؤمنين، كيف كان خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فقالت: كان خلقه القرآن

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ١٨ ص ٢

ثم قرأت : «قد أفلح المؤمنون» حتى انتهت إلى قوله - تعالى - : «والذين هم على صلواتهم يحافظون» وقالت : هكذا كان خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - [١].

والفلاح : الظفر بالمراد ، وإدراك المأمول من الخير والبر مع البقاء فيه .

والخشوع : السكون والطمأنينة ، ومعناه شرعا : خشية في القلب من الله - تعالى - تظهر آثارها على الجوارح فتجعلها ساكنة مستشعرة أنها واقفة بين يدي الله - سبحانه - .

والمعنى : قد فاز وظفر بالمطلوب ، أولئك المؤمنون الصادقون ، الذين من صفاتهم أنهم في صلاتهم خاشعون ، بحيث لا يشغلهم شيء وهم في الصلاة عن مناجاة ربهم ، وعن أدائها بأسمى درجات التذلل والطاعة .

ومن مظاهر الخشوع : أن ينظر المصلي وهو قائم إلى موضع سجوده ، وأن يتحلى بالسكون والطمأنينة ، وأن يترك كل مايخل بخشوعها كالعبث بالثياب أو بشيء من جسده ، فقد أبصر النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه» .

قال القرطبي : «اختلف الناس في الخشوع . هل هو من فرائض الصلاة أو مكملاتها على قولين ، والصحيح الأول ومحله القلب ، وهو أول عمل يرفع من الناس ..» [٢] .

وقوله - سبحانه - : «والذين هم عن اللغو معرضون» بيان لصفة ثانية من صفات هؤلاء المؤمنين .

واللغو : مالا فائدة فيه من الأقوال والأعمال . فيدخل فيه اللهو والهزل وكل مايخل بالمروءة وبآداب الإسلام .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص ٤٥٤ .

(٢) تفسير القرطبي جـ١٢ ص ١٠٣ .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم ينزهون أنفسهم عن الباطل والساقط من القول أو الفعل، ويعرضون عن ذلك فى كل أوقاتهم لأنهم لحسن صلتهم بالله - تعالى - اشتغلوا بعظائم الأمور وجليلها : لا بحقيرها وسفسافها وهم كما وصفهم الله سبحانه - فى آية أخرى : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه . . . » وإذا مروا باللغو مروا كراما » .

أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقد بينها - سبحانه - بقوله : « والذين هم للزكاة فاعلون » .

ويرى أكثر العلماء : أن المراد بالزكاة هنا : زكاة الأموال. قالوا : لأن أصل الزكاة فرض بمكة قبل الهجرة ، وما فرض بعد ذلك فى السنة الثانية من الهجرة هو مقاديرها ، ومصارفها ، وتفاصيل أحكامها . أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يخرجون زكاة أموالهم عن طيب نفس .

ويرى بعض العلماء : أن المراد بالزكاة هنا : زكاة النفس . أى : تطهيرها من الآثام والمعاصى . فهى كقوله - تعالى - « قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين ، أنهم يفعلون ما يطهر نفوسهم ويزكيها .

قال ابن كثير رحمه الله : « ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا ، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال ، فإنه من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا »[1] .

ثم بين - سبحانه - الصفة الرابعة من صفاتهم فقال : « والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين . . . »

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٥٧

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين - أيضا - أنهم أعفاء ممسكون لشهواتهم لا يستعملونها إلا مع زوجاتهم التى أحلها الله - تعالى - لهم ، أو مع ما ملكت أيمانهم من الإماء والسرارى ، وذلك لأن من شأن الأمة المؤمنة إيمانا حقا ، أن تصان فيها الأعراض ، وأن يحافظ فيها على الأنساب ، وأن توضع فيها الشهوات فى مواضعها التى شرعها الله - تعالى - : وأن يغض فيها الرجال أبصارهم والنساء أبصارهن عن كل ما هو قبيح . . .

وما وجدت أمة انتشرت فيها الفاحشة ، كالزنا واللواط وما يشبههما ، إلا وكان أمرها فرطا ، وعاقبتها خسرا ، إذ فاحشة الزنا تؤدى إلى ضياع الأنساب . وانتشار الأمراض ، وفساد النفوس من كل قيمة خلقية مقبولة .

وفاحشة اللواط وما يشبهها تؤدى إلى شيوع الفاحشة فى الأمة ، وإلى تحول من تأتى تلك الفاحشة من أفرادها إلى مخلوقات منكوسة ، تؤثر الرذيلة على الفضيلة .

وجملة: فإنهم غير ملومين ، تعليل للاستثناء .

أى : هم حافظون لفروجهم ، فلا يستعملون شهواتهم إلا مع أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير مؤاخذين على ذلك . لأن مباشرة الأزواج وما ملكت الأيمان ، مما أحله الله تعالى .

وقوله ، فمن ابتغى وراء ذلك ، أى : فمن طلب خلاف ذلك الذى أحله الله - تعالى - ، فأولئك هم العادون ، أى : المعتدون المتجاوزون حدوده - سبحانه - ، الوالغون فى الحرام الذى نهى الله - تعالى - عنه . يقال : عدّى فلان الشيء يعدوه عدوا ، إذا جاوزه وتركه .

أما الصفة الخامسة من صفات هؤلاء المفلحين ، فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، .

والأمانات : جمع أمانة ، وتشمل كل ما استودعك الله تعـــالى إياه ، وأمرك بحفظه .

فتشمل جميـــع التـكاليف التى كلفنا الله - بأدائها ، كما تشمل الأموال المودعة ، والأيمان والنذور والعقود وما يشبه ذلك .

والعهود : جميع عهد . ويتناول كل ماطلب منك الوفاء به من حقوق الله - تعالى - وحقوق الناس .

قال القرطبي : «والأمانة والعهد، يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه ، قولا وفعلا ، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك. وغاية ذلك حفظه والقيام به . والأمانة أعم من العهد وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد»(١) .

وراعون : من الرعى بمعنى الحفظ . يقال : رعى الأمير رعيته رعاية : إذا حفظها واهتم بشئونها .

أى : أن من صفات هؤلاء المفلحين . أنهم يقومون بحفظ ما أتمنوا عليه من أمانات ، ويوفون بعهودهم مع الله - تعالى - ومع الناس، ويؤدون ما كلفوا بأدائه بدون تقصير أو تقاعس .

وذلك لأنه لا تستقيم حياة أمة من الأمم . إلا إذا أديت فيها الأمانات، وحفظت فيها العهود ، واطمأن فيها كل صاحب حق إلى وصول هـــذا الحق إليه .

أما الصفة السادسة والأخيرة من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ، فهى قوله - تعالى - « والذين هم على صلواتهم يحافظون » .

أى : أن من صفاتهم أنهم يحافظون على الصلوات التى أمرهم الله بأدائهـا محافظة تامة ، بأن يؤدوها فى أوقاتها كاملـــة الأركان والسنن والآداب والخشوع ولقد بدأ - سبحانه - صفات المؤمنين المفلحين بالخشوع فى الصلاة وختمها بالمحافظة عليها للدلالة على عظم مكانتها ، وسمو منزلتها .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ١٠٧ .

وبعد أن بين - سبحانه - تلك الصفات الكريمة التي تحلى بها أولئك المؤمنون المفلحون، وهي صفات تمثل الكمال الإنساني في أنقى صوره.

بعد ذلك بين - سبحانه - ما أعد لهم من حسن الثواب فقال: «أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون».

والفردوس: أعلى الجنات وأفضلها. وهو لفظ عربي يجمع على فراديس.

وقيل: هو لفظ معرب معناه: الذي يجمع ما في البساتين من ثمرات.

وفي صحيح مسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «إذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة».

أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة، هم الجديرون بالفلاح فإنهم يرثون أعلا الجنات وأفضلها، وهم فيها خالدون خلوداً أبدياً لا يمسهم فيها نصب، ولا يمسهم فيها لغوب.

وعبر - سبحانه - عن حلولهم في الجنة بقوله «يرثون» للإشعار بأن هذا النعيم الذي نزلوا به، قد استحقوه بسبب أعمالهم الصالحة، كما يملك الوارث ما ورثه عن غيره، ومن المعروف أن ما يملكه الإنسان عن طريق الميراث يعتبر أقوى أسباب المالك.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى -: «وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون».

وقوله - سبحانه -: «ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون» وحذف مفعول اسم الفاعل الذي هو «الوارثون» لدلالة قوله: «الذين يرثون الفردوس» عليه.

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد مدحت المؤمنين الصادقين مدحا عظيما

ووعدتهم بالفوز بأعلى الجنات وأفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وبعد الحديث عن صفات المؤمنين المفلحين، إنتقلت السورة إلى الحديث عن أطوار خلق الإنسان ، وأطوار نموه ، ونهاية حياته ، وبعثه للحساب يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ من سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعلناهُ نُطفةً فى قَرَارٍ مكِينٍ (١٣) ثمَّ خَلَقْنَا النُّطفةَ علَقَةً، فَخَلَقْنَا العَلَقةَ مضْغَةً ، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظاماً ، فكَسَوْنَا العِظامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنشأناهُ خَلْقاً آخر ، فتبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثمَّ إنكُم بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثمَّ إنكُم يومَ القيامةِ تُبعثُونَ (١٦) » .

والمراد بالإنسان هنا : آدم - عليه السلام - .

والسلالة : إسم لما سل من الشيء وإستخرج منه . تقول : سللت الشعرة من العجين ، إذا استخرجتها منه . ويقال : الولد سلالة أبيه . أى كأنه إنسل من ظهر أبيه .

والمعنى : ولقد خلقنا أباكم آدم من جزء مستخرج من الطين .

والتعبير بسلالة يشعر بالقلة ، إذ لفظ الفعالة يدل على ذلك ، كقلامة الظفر ، ونحاتة الحجر ، وهى مايتساقط منه عند النحت .

و « من » فى الموضعين: إبتدائية إلا أن الأولى متعلقة « بخلقنا » والثانية متعلقة بسلالة بمعنى مسلولة من الطين .

والضمير المنصوب فى قوله « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » يعود على النوع الإنسانى المتناسل من آدم - عليه السلام - .

وأصل النطفة : الماء الصافى ، أو القليل من الماء الذى يبقى فى الدلو

أو القـربة ، وجمعها نطف ونطاف . يقـال : نطفت القـربة ، إذ تقاطر ماؤها بقلة .

والمراد بها هنا : المنى الذى يخرج من الرجل ، ويصب فى رحم المرأة .

والمعنى : لقد خلقنا آباكم آدم بقدرتنا - أيضا - من منى يخرج من الرجل فيصب فى قرار مكين ، أى : فى مستقر ثابت ثبوتا مكينا ، وهو رحم المرأة .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : «ولقد خلقنا الإنسان» : الإنسان هو آدم - عليه السلام - لأنه إستل من الطين . ويجىء الضمير فى قوله «ثم جعلناه» عائدا على ابن آدم ، وإن كان لم يذكر لشهرة الأمر ، فإن المعنى لا يصلح إلا له ... »(1) .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : «ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ... »(2) .

وقوله - سبحانه - : «ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين »(3) .

ثم بين - سبحانه - أطوارا أخرى لخلق الإنسان تدل على كمال قدرته - تعالى - فقال : «ثم خلقنا النطفة علقة » أى : ثم صيرنا النطفة البيضاء ، علقة حمراء إذ العلقة عبارة عن الدم الجامد .

«فخلقنا العلقة مضغة» أى : جعلنا بقدرتنا هذه العلقة قطعة من اللحم، تشبه فى صغرها قطعة اللحم التى يمضغها الإنسان فى فمه .

«فخلقنا المضغة عظاما » أى : حولنا هذه المضغة من اللحم التى لم تظهر معالمها بعد ، إلى عظم صغير دقيق ، على حسب ما إقتضته حكمتنا فى خلقنا .

---

(1) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٠٩ .

(2) سورة السجدة الآيات ٦ - ٨ .

(3) سورة المرسلات الآيات من ٢٠ - ٢٤ .

« فكسونا العظام لحما » أى : فكسونا هذه المضغة التى تحولت بقدرتنا إلى عظام دقيقة باللحم ، بحيث صار هذا اللحم ساترا للعظام ومحيطا بها .

قال بعض العلماء: «وهنا يقف الإنسان مدهوشا، أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة فى تكوين الجنين ، لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيرا ، بعد تقدم علم الأجنة التشريحى .

ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم . وقد ثبت أن خلايا العظام هى التى تتكون أولا من الجنين ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا الهيكل العظمى للجنين . وهى التى يسجلها النص القرآنى فى قوله - تعالى - : « فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما » فسبحانه العليم الخبير»(١)

وقوله - تعالى - : « ثم أنشأناه خلقا آخر » بيان لما انتهت إليه أطوار خلق الإنسان .

أى : ثم صيرنا هذا الإنسان بشرا سويا ، بعد أن كان نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فعظاما ، فلحما يكسو هذه العظام ، وهذا كله يدل على كمال قدرة الله - تعالى - ، وعلى أنه حق ، إذ قدرته - سبحانه - لا يعجزها شىء .

قال صاحب الكشاف: وقوله - تعالى - : «ثم أنشأناه خلقا آخر» أى: خلقا مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعدها ، حيث جعله حيوانا بعد أن كان جمادا ، وناطقا وكان أبكم ، وسميعا وكان أصم. وبصيرا وكان أكمه ، وأودع باطنه وظاهره - بل كل عضو من أعضائه بل كل جزء من أجزائه - عجائب فطرته ، وغرائب حكمته ، لا تدرك بوصف الواصف ، ولا تبلغ بشرح الشارح . . . »(٢) .

---

(١) تفسير «فى ظلال القرآن» جـ ١٨ ص ١٧

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٧٨

« فتبارك الله أحسن الخالقين » أى: فكثر خير - سبحانه - ودام إحسانه وتقدس شأنه ، فهو - عز وجل - أحسن الخالقين على الإطلاق ، فقد أتقن كل شىء خلقه ، وأحكم كل شىء صنعه .

ولفظ « تبارك » فعل ماض لا ينصرف ، والأكثر إسناده إلى غير مؤنث .

وهو مأخوذ من البركة بمعنى الكثرة من كل خير ، أو بمعنى الثبات و لدوام وكل شىء دام وثبت فقد برك .

ثم بين - سبحانه - حالهم بعد أن يكونوا خلقا آخر فقال : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .

أى : ثم إنكم بعد ذلك الذى ذكره - سبحانه - لكم من أطوار خلقكم تصيرون أطفالا ، فصبيانا فغلمانا ، فشبابا ، فكهولا ، فشيوخا . . ثم مصيركم بعد ذلك كله ، أو خلال ذلك كله ، إلى الموت المحتوم الذى لا مفر لكم منه ، ولا مهرب لكم عنه . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون من قبوركم للحساب والجزاء .

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة تذكر الإنسان بأطوار نشأته . وبمراحل حياته . وبنهاية عمره . وبحتمية بعثه

وفى هذا التذكير مافيه من الاعتبار للمعتبرين ، ومن الاتعاظ للمتعظين ومن البراهين الساطعة على وحدانية الله - تعالى - .

وبعد أن ساق - سبحانه - ما يدل على قدرته عن طريق خلق الإنسان فى تلك الأطوار المتعددة ، أتبع ذلك ببيان مظاهر قدرته عن طريق تلك الكائنات المختلفة ، فقال - تعالى - :

« ولَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُم سَبْعَ طرائِقَ ، ومَا كُنَّا عن الخَلْقِ غافِلِينَ (١٧) وأَنْزَلْنَا من السَّماء ماء بِقَدَرٍ فأَسْكَنَّاهُ فى الأرضِ ، وإنَّا

على ذهابٍ بهِ لقادِرُونَ (١٨) فأنشأْنا لكم بهِ جنّاتٍ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ لكُم فيها فواكِهُ كَثيرَةٌ ومِنْهاَ تأكُلونَ (١٩) وشجَرةً تخرجُ من طُورِ سَيْناءَ تنْبتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكِلِينَ (٢٠) وإنَّ لكُم في الأنعامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُمْ مما فى بُطونِهاَ ، ولكُمْ فيهاَ منافعُ ومِنْهاَ تأكُلونَ (٢١) وعلَيْهاَ وعَلَى الفُلْكِ تُحمَلُونَ (٢٢) » .

والطرائق : جمع طريقة . والمراد بها السموات السبع ، وسميت طرائق لان كل سماء فوق الأخرى . والعرب تسمى كل شىء فوق شىء طريقة بمعنى مطروقه .

وهو مأخوذ من قولهم : فلان طرق النعل، إذا ركب بعضها فوق بعض.

فالآية الكريمة فى معنى قوله ـ تعالى ـ : « الذى خلق سبع سموات طباقا ... » .

وقيل : سميت طرائق ، لأنها طرق الملائكة فى النزول والعروج .

أى : ولقد خلقنا فوقكم ـ أيها الناس ـ سبع سماوات بعضهن فوق بعض ، وما كنا ، فى وقت من الأوقات ، عن الخلق غافلين ، بل نحن معهم بقدرتنا ورعايتنا وحفظنا ، ندبر لهم أمور معاشهم ، ونيسر لهم شئون حياتهم ، دون أن نغفل عن شىء ـ مهما صغر ـ ن أحوالهم ، لأننا لا تأخذنا سنة ولا نوم ، ولا يعترينا ما يعترى البشر من سهو أو غفلة .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض النعم التى تأتينا من جهة هذه الطرائق فقال : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض ... » .

أى : وأنزلنا لكم ـ أيها الناس ـ بقدرتنا ورحمتنا ، ماء بقدر ، أى أنزلناه بمقدار معين ، بحيث لا يكون طوفانا فيغرقكم ، ولا يكون قليلا

فيحصل لكم الجدب والجوع والعطش. وإنما أنزلناه بتقدير مناسب لجلب المنافع، ودفع المضار، كما قال ـ سبحانه ـ فى آية أخرى: «ومانزله إلا بقدر معلوم».

وقوله: «فأسكناه فى الأرض» أى: هذا الماء النازل من السماء بتقدير معين منا تقتضيه حكمتنا، جعلناه ساكنا مستقرا فى الأرض، لتنتفعوا به عن طريق استخراجه من الآبار والعيون وغيرها.

وفى هذه الجملة الكريمة إشارة إلى أن المياه الجوفية الموجودة فى باطن الأرض، مستمدة من المياه النازلة من السحاب عن طريق المطر.

وهذا ماقررته النظريات العلمية الحديثة بعد مئات السنين من نزول القرآن الكريم. وبعد أن بقى العلماء دهورا طويلة، يظنون أن المياه التى فى جوف الأرض، لا علاقة لها بالمياه النازلة على الأرض عن طريق المطر.

وقوله ـ سبحانه ـ: «وإنا على ذهاب به لقادرون» بيان لمظهر من مظاهر قدرته ورأفته ورحمته ـ تعالى ـ بعباده.

أى: وإنا على إذهاب هذا الماء الذى أسكناه فى باطن الأرض لقادرون، بأن نجعله يتسرب إلى أسفل طبقات الأرض فلا تستطيعون الوصول إليه، أو بأن نزيله من الأرض إزالة تامة، لأن القادر على إنزاله قادر على إزالته وإذهابه، ولكننا لم نفعل ذلك رحمة بكم، وشفقة عليكم، فاشكرونا على نعمنا وضعوها فى مواضعها الصحيحة.

قال صاحب الكشاف: «قوله: «على ذهاب به» من أوقع النكرات وأحزها للمفصل.

والمعنى: على وجه من وجوه الذهاب به، وطريق من طرقه، وفيه إيذان باقتدار المذهب، وأنه لا يتعايى عليه شىء إذا أراده، وهو أبلغ فى الإبعاد، من قوله: «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين».

فعلى العباد أن يستعظموا النعمة فى الماء . ويقيدوها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر »[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض . ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ... »[2] .

ثم بين - سبحانه - الآثار الجليلة المترتبة على إنزال الماء من السماء فقال : « فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ... » .

أى : فأوجدنا لكم بسبب نزول الماء على الأرض بساتين متنوعة ، بعضها من نخيل ، وبعضها من أعناب ، وبعضها منهما معا ، وبعضها من غيرهما .

وخص النخيل والأعناب بالذكر . لكثرة منافعهما ، وانتشارهما فى الجزيرة العربية ، أكثر من غيرهما .

« لكم فيها » أى : فى تلك الجنات « فواكه كثيرة » تتلذذون بها فى مأكلكم « ومنها » . أى : ومن هذه البساتين والجنات « تأكلون » ما تريدون أكله منها فى كل الأوقات .

والمراد بالشجرة فى قوله - تعالى - بعد ذلك : « وشجرة تخرج من طور سيناء ... » شجرة الزيتون . وهى معطوفة على « جنات » من عطف الخاص على العام .

أى : فأنشأنا لكم بسبب هذا الماء النازل من السماء ، جنات ، وأنشأنا لكم بسببه - أيضا - شجرة مباركة تخرج من هذا الوادى المقدس الذى كلم الله - تعالى - عليه موسى - عليه السلام ، وهو المعروف بطور سيناء . أى :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٨٠
(٢) سورة الزمر الآية ٢١ .

بالجبل المسمى بهذا الإسم فى منطقة سيناء ، ومكانها معروف .

قالوا : وكلمة سيناء - بفتح السين والمد على الراجح - معناها : الحسن باللغة النبطية . أو معناها : الجبل الملىء بالأشجار . وقيل : مأخوذة من السنا بمعنى الإرتفاع .

وخصت شجرة الزيتون بالذكر : لأنها من أكثر الأشجار فائدة بزيتها وطعامها وخشبها ، ومن أقل الأشجار - أيضا - تكلفة لزارعها .

وخص طور سيناء بإنباتها فيه ، مع أنها تنبعث منه ومن غيره ، لأنها أكثر ما تكون انتشارا فى تلك الأماكن ، أو لأن منبتها الأصلى كان فى هذا المكان ، ثم انتقلت منه إلى غيره من الأماكن .

وقوله : « تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » بيان لمنافع هذه الشجرة على سبيل المدح ، والتعليل لإفرادها بالذكر .

والدهن : عصارة كل شىء ذى دسم . والمراد به هنا : زيت الزيتون .

وقراءة الجمهور : « تنبت » - بفتح التاء وضم الباء - على أنه مضارع نبت الثلاثى .

فيكون المعنى : هـذه الشجرة من مزاياها أنها تنبت مصحوبة وملتبسة بالدهن الذى يستخرج من زيتونها . فالباء فى قوله « بالدهن » للمصاحبـة والملابسة ، كما تقول : خرج فلان بسلاحه . أى : مصاحبا له .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : تنبت - بضم التاء وكسر الباء - من أنبت بمعنى نبت . أو : من أنبت المتعدى بالهمزة ، كأنبت الله الزرع . والتقدير : تنبت ثمارها مصحوبة بالدهن .

والصبغ فى الأصل : يطلق على الشىء الذى يصبغ به الثوب . والمراد به هنا : الإدام لأنه يصبغ الخبز ، ويجعله كأنه مصبوغ به .

أى : أن من فوائد هذه الشجرة المباركة أنها يتخذ منها الزيت الذى ينتفع به ، والإدام الذى يحلو معه أكل الخبز والطعام .

روى الإمام أحمد عن مالك بن ربيعة الساعدى ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة » .

وبعد أن بين - سبحانه - جانبا من مظاهر نعمه فى الماء والنبات أتبع ذلك ببيان جانب آخر من نعمه فى الأنعام والحيوان . فقال : « وإن لكم فى الأنعام لعبرة . . . » .

والأنعام : تطلق على الإبل والبقر والغنم . وقد تطلق على الإبل خاصة .

والعبرة : اسم من الاعتبار ، وهو الحالة التى تجعل الإنسان يعتبر ويتعظ بما يراه ويسمعه .

أى : وإن لكم - أيها الناس - فيما خلق الله لكم من الأنعام لعبرة وعظة ، تجعلكم تخلصون العبادة لله - تعالى - وتشكرونه على آلائه .

وقوله - سبحانه - : « نسقيكم مما فى بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ، ومنها تأكلون . . . » . بيان لمواطن العبرة ، وتعريف بأوجه النعمة .

أى : نسقيكم مما فى بطونها من ألبان خالصة ، تخرج من بين فرث ودم ولكم فى هذه الأنعام منافع كثيرة ، كأصوافها وأوبارها وأشعارها ، ومنها تأكلون من لحومها ، بما يستخرج من ألبانها .

و « عليها » أى : وعلى هذه الأنعام ، والمراد بها هنا : الإبل خاصة « وعلى الفلك » أى : السفن التى تجرى فى البحر « تحملون » بقدرتنا ومنتنا ، حيث تحمل هذه الإبل وتلك السفن ، أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . . .

وقريب من هاتين الآيتين فى المعنى قوله -تعالى- : « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم، ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون »(١) .

وقوله - سبحانه - : « والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا ، وماكنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون »(٢) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ذكرت لنا أنواعا من نعم الله -تعالى- على عباده ، هذه النعم التى تدل على كمال قدرته ، وعظيم رحمته .

وبعد أن بين - سبحانه - دلائل قدرته عن طريق خلق الإنسان ، وعن طريق خلقه لهذه الكائنات التى يشاهدها الإنسان وينتفع بها ... أتبع ذلك بالحديث عن بعض الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وعن موقف أقوامهم منهم ، وعن سوء عاقبة المكذبين لرسل الله - تعالى - وأنبيائه . وابتدأ - سبحانه - الحديث عن جانب من قصة نوح مع قومه ، فقال - تعالى - :

« ولَقَدْ أَرْسَلْنَا نوحاً إلى قَوْمِهِ ، فقَالَ يا قَوْمِ اعبُدوا اللهَ ما لَكُم مِنْ إلهٍ غيرُهُ ، أَفَلَا تتَّقُون (٢٣) فقالَ الملأُ الذينَ كفَرُوا من قَوْمِهِ ما هـذَا إلاَّ بشَرٌ مثْلُكُم يريدُ أنْ يتَفَضَّلَ علَيْكُم ، ولو شاءَ اللهُ لأنزَلَ مَلائكَةً ما سَمِعْنا بهذَا فى آبائِنَا الأوَّلينَ (٢٤) إنْ هُو إلاَّ رجلٌ بهِ جِنَّةٌ فتَرَبَّصُوا بهِ حتى حينٍ (٢٥) قالَ ربِّ انصُرْنى بما كَذَّبونِ (٢٦) فأَوْحَيْنَا إليهِ أنِ اصنَعِ الفُلْكَ بأَعيُنِنَا وَوَحْيِنَا ، فإذَا

(١) سورة يس الآيات من ٧١ - ٧٣ .
(٢) سورة الزخرف ، الآيات من ١٢ - ١٤

جاء أمرُنَا وفارَ التَّنُّور فاسْلُكْ فِيها من كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنَين وأهلَكَ إلاَّ مَنْ سبَقَ عليهِ القَوْل مِنْهم ، ولا تُخَاطِبْـنِي فى الذينَ ظَلَموا إنَّهم مُغْرَقونَ (٢٧) فإذَا استَوَيتَ أنتَ ومن مَعكَ على الفُلْك ، فَقُلِ الحمدُ للهِ الَّذِى نَجَّانَا من القَوْمِ الظَّالمِينَ (٢٨) وقُلْ ربِّ أنْزلْنِى منزَلاً مُبارَكاً وأنتَ خيرُ المنزِلينَ (٢٩) إنَّ فى ذلكَ لآياتٍ وإنْ كُنَّا لمُبتَلينَ (٣٠)».

تلك هى قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه، كما وردت فى هذه السورة الكريمة ، وقد وردت بصورة أكثر تفصيلا فى سورتى هود ونوح .

وينتهى نسب نوح ـ عليه السلام ـ إلى شيث بن آدم ـ عليه السلام ـ . وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاث وأربعين موضعا .

قال الجمل فى حاشيته : وعاش نوح من العمر ألف سنة وخمسين ، لأنه أرسل على رأس الأربعين ومكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة . وقدمت قصته هنا على غيره ، لتتصل بقصة آدم المذكورة فى قوله : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، للمناسبة بينهما من حيث إن نوحا يعتبر آدم الثانى ، لانحصار النوع الإنسانى بعده فى نسله[1] .

وقوم الرجل: أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين قوم ليس منهم فى نسبه ، فيسميهم قومه على سبيل المجاز ، لمجاورته لهم .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله ـ تعالى ـ إليهم نوحا لينهاهم عن ذلك ، وليأمرهم بإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ .

واللام فى قوله ـ سبحانه ـ : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه . . . » واقعة فى جواب قسم محذوف .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٨٨

أى : والله لقد أرسلنا نبينا نوحا - عليه السلام - إلى قومه ، ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان

وقوله - سبحانه - «فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره. . » حكاية لما وجهه إليهم من نصائح وإرشادات .

أى : أرسلنا نوحا إلى قومه ، فقال لهم ماقاله كل نبى : ياقوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم ليس لكم إله سواه ، فهو الذى خلقكم ، وهو الذى رزقكم ، وهو الذى يحييكم وهو الذى يميتكم ، وكل معبود غيره - سبحانه - فهو باطل .

وفى ندائهم بقوله : « ياقوم » تلطف فى الخطاب ، لإستمالتهم إلى دعوته ، فكأنه يقول لهم : أنتم أهلى وعشيرتى يسرنى مايسركم ، ويؤذينى مايؤذيكم ، فاقبلوا دعوتى ، لأنى لكم ناصح أمين .

وقوله : «أفلا تتقون» تحذير لهم من الإصرار على شركهم ، بعد ترغيبهم فى عبادة الله - تعالى - وحده بألطف أسلوب.

أى : أفلا تتقون الله - تعالى - وتخافون عقوبته ، بسبب عبادتكم لغيره ، مع أنه - سبحانه - هو الذى خلقكم . فالاستفهام للإنكار والتوبيخ .

ثم حكى - سبحانه - مارد به قوم نوح عليه فقال : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم . . . »

والمراد بالملأ : أصحاب الجاه والغنى من قوم نوح . وهذا اللفظ اسم جمع لا واحد له من لفظه - كرهط - وهو مأخوذ من قولهم : فلان ملىء بكذا ، إذا كان قادرا عليه . أو لأنهم متمالئون أى : متظاهرون متعاونون ، أو لأنهم يملأون القلوب والعيون مهابة . . .

وفى وصفهم بالكفر : تشنيع عليهم وذم لهم ، وإشعار بأنهم عريقون فيه . أى : فقال الأغنياء وأصحاب النفوذ الذين مردوا على الكفر ، فى الرد على نبيهم نوح عليه السلام : ماهذا إلا بشر مثلكم .

أى : قالوا لأتباعهم على سبيل التحذير من الاستماع إلى دعوة نبيهم ، ماهذا ، أى : نوح عليه السلام - إلا بشر مثلكم ، ومن جنسكم ، ولا فرق بينكم وبينه فكيف يكون نبيا .

ولم يقولوا : مانوح إلا بشر مثلكم ، بل أشاروا إليه بدون ذكر اسمه ، لأنهم لجهلهم وغرورهم يقصدون تهوين شأنه - عليه الصلاة والسلام - فى أعين قومه .

وقولهم : « يريد أن يتفضل عليكم ، أى : أن نوحا جاء بما جاء به بقصد الرياسة عليكم .

ومرادهم بهذا القول : تنفير الناس منه ، وحضهم على عدوانه .

وقولهم : « ولو شاء الله لأنزل ملائكة » استبعاد منهم لكون الرسول من البشر أى : ولو شاء الله أن يرسل رسولا ليأمرنا بعبادته وحده ، لأرسل ملائكة ليفعلوا ذلك ، فهم - لانطماس بصائرهم وسوء تفكيرهم - يتوهمون أن الرسول لا يكون من البشر ، وإنما يكون من الملائكة .

ومفعول المشيئة محذوف. أى : ولوشاء الله عبادته وحده لأرسل ملائكة ليأمرونا بذلك ، فلما لم يفعل علمنا أنه ما أرسل رسولا ، فنوح - فى زعمهم - كاذب فى دعواه .

وقولهم : « ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » أى : ماسمعنا بهذا الكلام الذى جاءنا به نوح فى آبائنا الأولين ، الذين ندين باتباعهم ، ونقتدى بهم فى عبادتهم لهذه الأصنام .

ثم هم لا يكتفون بهذا الجحود والتحجر ، بل يصفون نبيهم بما هو برىء منه فيقولون : إن هو إلا رجل به جنة ، فتربصوا به حتى حين » .

والجنة : الجنون . يقال جن : فلان إذا أصيب بالجنون ، أو إذا مسه الجن فصار فى حالة خبل وجنون .

والتربص : الانتظار والترقب ، أى : مانوح - عليه السلام - الذى يدعى النبوة ، إلا رجل به حالة من الجنون والخبل ، فانتظروا عليه إلى وقت شفائه من هذا الجنون أو إلى وقت موته ، وعندئذ تستريحون منه ، ومن دعوته التى ماسمعنا بها فى آبائنا الأولين .

فأنت ترى أن القوم قد واجهوا نبيهم نوحا -عليه السلام - بأقبح مواجهة حيث وصفوه بأنه يريد من وراء دعوته لهم السيادة عليهم ، وأنه ليس نبيا لأن الأنبياء لا يكونون من البشر - فى زعمهم وأنه قد خالف ما ألفوه عن آبائهم ، ومن خالف ما كان عليه آباؤهم لايجوز الاستماع إليه ، وأنه مصاب بالجنون وأنه عما قريب سيأخذه الموت ، أو يشفى مما هو فيه .

وهكذا الجهل والغرور والجحود ... عندما يستولى على الناس ، يحول فى نظرهم الإصلاح إلى إفساد ، والإخـــلاص إلى حب للرياسة ، والشىء المعقول المقبول . إلى شىء غير معقول وغير مقبول ، وكمال العقل ورجحانه ، إلى جنونه ونقصانه .

وصدق الله إذ يقول : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ... »(١) .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك أن نوحا - عليه السلام - بعد أن استمع إلى ما قاله قومه فى شأنه من ضلالات وسفاهات ، لجأ إلى ربه - عز وجل - يشكو إليه ما أصابه منهم ويلتمس منه النصر عليهم . فقال - كما حكى القرآن عنه - : « رب انصرنى بما كذبون » .

أى : قال نوح فى مناجاته لربه: يارب انصرنى على هؤلاء القوم الكافرين بسبب تكذيبهم لى وتطاولهم على ، وسخريتهم منى، وإصرارهم على عبادة غيرك .

وقد أجاب الله - تعالى - دعاء عبده نوح فقال : « فأوحينا إليه » أى : فأوحينا إليه فى أعقاب دعائه وتضرعه .

(١) سورة الأعراف آية ١٤٦ .

« أن أصنع الفلك بأعيننا ووحينا » أى : أوحينا إليه أن ابتدىء يا نوح فى صنع السفينة وأنت تحت رعايتنا وحفظنا ، وسنرسل إليك وحينا ليرشدك إلى ما أنت فى حاجة إليه من إتقان صنع السفينة ، ومن غير ذلك من شئون.

وفى التعبير بقوله - سبحانه - « أن أصنع » إشارة إلى أن نوحا - عليه السلام - قد باشر بنفسه صنع السفينة التى هى وسيلة النجاة له وللمؤمنين معه .

وفى قوله - تعالى - : « بأعيننا ووحينا » إشارة إلى أن نوحا بجانب مباشرته الصنع بنفسه ، كان مزودا من الله - تعالى - بالعناية والرعاية وبحسن التوجيه والإرشاد عن طريق الوحى الأمين .

وذلك لأن سنة الله - تعالى - قد اقتضت ، أن لا يضيع عمل عباده المخلصين ، الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الوصول إلى غاياتهم الشريفة .

والباء فى قوله « بأعيننا » للملابسة . والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير اصنع .

والفاء فى قوله - سبحانه - « فإذا جاء أمرنا » لترتيب مضمون ما بعدها على إتمام صنع السفينة .

والمراد بالأمر هنا : العذاب الذى أعده الله - تعالى - لهؤلاء الظالمين من قوم نوح - عليه السلام - . ويشهد لذلك قوله - سبحانه - فى آية أخرى « لا عاصم اليوم من أمر الله » أى : من عذابه « إلا من رحم »

والمراد بمجىء هذا الأمر : اقتراب وقته ، ودنو ساعته، وظهور علاماته وقوله - تعالى - : « وفار التنور » بيان وتفسير لمجىء هذا الأمر، وحلول وقت إهلاكهم .

وقوله : « فار » من الفوران . بمعنى شدة الغليان للماء وغيره . يقال للماء

فار إذا إشتد غليانه . ويقال للنار فارت إذا عظم هيجانها . ومنه قوله ـ تعالى ـ : « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور » .

وللمفسرين فى المراد بلفظ « التنور » أقوال منها: أن المراد به الشىء الذى يخبز فيه الخبز ، وهو ما يسمى بالموقد أو الفرن .

ومنها أن المراد به وجه الأرض . أو موضع إجتماع الماء فى السفينة ، أو طلوع الفجر ... وقد رجح الإمام ابن جرير القول الأول فقال: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: هو التنور الذى يخبز فيه، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب ... »(١) .

ويبدو أن فوران التنور كان علامة لنوح على أن موعد إهلاك الكافرين من قومه قد إقترب .

أى : فإذا إقترب موعد إهلاك قومك الظالمين يانوح ، ومن علامة ذلك أن ينبع الماء من التنور ويفور فورانا شديدا ، فاسلك فيها ، فأدخل فى السفينة « من كل زوجين إثنين » ولفظ « زوجين » تثنية زوج . والمراد به هنا : الذكر والأنثى من كل نوع .

وقراءة الجمهور : « من كل زوجين إثنين » بدون تنوين للفظ كل ، وبإضافته إلى زوجين .

وقرأ حفص « من كل زوجين إثنين » بتنوين كل ، وهو تنوين عوض عن مضاف إليه . والتقدير : فأدخل فى السفينة من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكرا وأنثى . ويكون لفظ « زوجين » مفعولا لقول « فاسلك » ولفظ إثنين : صفة له .

(١) تفسير ابن جرير ج ١٢ ص ٢٥ .

والمراد بأهله فى قوله - تعالى - : « وأهلك » : أهل بيته كزوجته وأولاده المؤمنين ، ويدخل فيهم كل من آمن به - عليه السلام - سواء أكان من ذوى قرابته أم من غيرهم ، بدليل قوله - تعالى - فى سورة هود : « قلنا أحمل فيها من كل زوجين إثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل » .

وجملة : « إلا من سبق عليه القول منهم » إستثناء من الأهل . والمراد بمن سبق عليه القول منهم : من بقى على كفره ولم يؤمن برسالة نوح - عليه السلام - كزوجته وإبنه كنعان .

أى : أدخل فى السفينة ذكرا وأنثى من أنواع المخلوقات ، وأدخل فيها - أيضا - المؤمنين من أهلك ومن غيرهم ، إلا الذين سبق منا القول بهلاكهم بسبب إصرارهم على الكفر . فلا تدخلهم فى السفينة ، بل اتركهم خارجها ليغرقوا مع المغرقين .

قال الآلوسى : « وجىء بعلى فى قوله : « إلا من سبق عليه القول منهم » لكون السابق ضارا ، كما جىء باللام فى قوله : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى » لكون السابق نافعا »[1] .

وقوله - تعالى - : « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون » نهى منه - سبحانه - لنوح - عليه السلام - عن الشفاعة لهؤلاء الكافرين ، أو عن طلب تأخير العذاب المهلك لهم .

أى : أترك يانوح هؤلاء الظالمين ، ولا تكلمنى فى شأنهم ، كأن تطلب الشفاعة لهم أو تأخير العذاب عنهم ، فإنهم مقضى عليهم بالإغراق لا محالة ، ولا مبدل لحكمى أو إرادتى .

ويبدو - والله أعلم - أن هذه الجملة الكريمة ، كانت نهيا من الله - تعالى - لنوح ، عن الشفاعة فى إبنه الذى غرق مع المغرقين . والذى حكى القرآن فى

(١) تفسير الآلوسى جـ١٨ ص ٢٧ .

سورة هود أن نوحا قد قال فى شأنه : « رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين » .

ثم أرشد الله - تعالى - نبيه نوحا إلى ما يقوله بعد أن يستقر فى السفينة فقال - سبحانه - : « فإذا استويت أنت ومن معك » من أهلك وأتباعك المؤمنين « على الفلك » .

أى : السفينة التى علمناك عن طريق وحينا كيفية صنعها بإحكام وإتقان « فقل » يانوح على سبيل الشكر لنا ، والتقدير لذاتنا « الحمد لله الذى نجانا » بفضله وكرمه « من القوم الظالمين » الذين استحبوا العمى على الهدى، وآثروا الضلالة على الهداية ، وتطاولوا على نبيهم الذى جاء لسعادتهم .

« وقل » - أيضا - يانوح « رب أنزلنى منزلا مباركا » أى : أنزلنى إنزالا أو مكان إنزال مباركا . أى مليئا بالخيرات والبركات ، خاليا مما حل بالظالمين من إغراق وإهلاك . « وأنت » يا إلهى « خير المنزلين » بفضلك وكرمك فى المكان الطيب المبارك .

ثم عقب - سبحانه - على ما اشتملت عليه قصة نوح من حكم وآداب بقوله « إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين » .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن نوح وقومه « لآيات » بينات ، ودلالات واضحات ، على أن هذا القرآن من عندنا لا من عند غيرنا ، وعلى أن العاقبة للمؤمنين ، وسوء المنقلب للكافرين .

و « إن » فى قوله « وإن كنا » هى المخففة من الثقيلة ، واللام فى قوله « لمبتلين » هى الفارقة بينها وبين إن النافية ، والجملة حالية . والابتلاء : الاختبار والامتحان .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه عن نوح وقومه لآيات واضحات على وحدانيتنا وقدرتنا ، والحال والشأن أن من سنتنا أن نبتلى الناس بالنعم

وبالنقم، وبالخير وبالشر. ليتبين من يعتبر ويتعظ، وليتميز الخبيث من الطيب، وليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم

ثم تمضي السورة في حديثها عن قصص الأولين، فتحكى لنا قصة أقوام آخرين مع نبي من أنبيائهم فتقول:

« ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِم قَرناً آخَرِين (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِم رَسُولاً مِنْهُم، أَنِ اعبُدُوا اللهَ ما لَكُم مِنْ إِلهٍ غيرُه. أفلا تتَّقون (٣٢) وقالَ المَلأُ مِنْ قَومِه الذينَ كفَروا وكذَّبوا بلقاءِ الآخرةِ وأترَفناهم في الحياةِ الدُّنيا، ما هذا إلا بشرٌ مثلُكم، يأكلُ ممَّا تأكلُون منهُ ويَشرب مما تشرَبُون (٣٣) ولئنْ أطَعتُم بشراً مثلَكم إنكم إذاً لخاسِرُون (٣٤) أيعدكُم أنكُم إذا مِتُّم وكُنتُم تراباً وعِظاماً أنكُم مخرَجُون (٣٥) هيهاتَ هيهاتَ لِما تُوعَدونَ (٣٧) إن هِيَ إلاَّ حياتنا الدُّنيا نموتُ ونَحيَا وما نحنُ بمبعُوثِين (٣٧) إنْ هُو إلاَّ رجلٌ افترَى على اللهِ كذباً وما نحنُ لهُ بمؤمنينَ (٣٨) قالَ ربِّ انصُرني بما كذَّبونِ (٣٩) قالَ عمَّا قليلٍ ليصبحُنَّ نادِمينَ (٤٠) فأخذَتهُم الصَّيحةُ بالحقِّ فجعلْناهُم غُثاء، فبُعداً للقومِ الظَّالمينَ (٤١) ».

أي: ثم أنشأنا من بعد أولئك القوم المغرقين الذين كذبوا نبيهم نوحا - عليه السلام -، « قرنا آخرين » غيرهم. وهم على الأرجح - قوم هود - عليه السلام - بدليل قوله - تعالى - في آية أخرى في شأنهم: « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ... »(١).

(١) سورة الأعراف آية ٦٩.

كما أن قصة هود مع قومه ، كثيرا ما تأتى بعد قصة نوح مع قومه .

وقيل : هم قوم صالح ـ عليه السلام ـ .

وعلى أية حال فإن سورة « المؤمنون » فى عرضها لقصص الأنبياء، تحرص على بيان أن استقبال المكذبين لأنبيائهم كان متشابها فى القبح والتكذيب .

وقال ـ سبحانه ـ « قرنا آخرين » للإشعار بأنهم كانوا يعيشون زمان واحد مع نبيهم ، وأنهم كانوا معاصرين له ، ومشاهدين لأحواله قبل البعثة وبعدها.

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه أمتن عليهم بإرسال رسول فيهم فقال : « فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره . . . »

أى : كان من مظاهر رحمتنا ومنتنا على هؤلاء القوم الآخرين الذين جاءوا بعد إهلاك قوم نوح ، أن أرسلنا فيهم رسولا منهم نشأ بين أظهرهم، وعرفوا حسبه ونسبه ، فقال لهم ماقاله كل نبى لقومه : اعبدوا الله وحده ، فإنكم ليس لكم من إله سواه ، لأنه ـ سبحانه ـ هو الذى أوجدكم فى هذه الحياة..

« أفلا تتقون » بأسه وعقابه إذا ماعبدتم غيره ؟!

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك مارد به هؤلاء المشركون الجاحدون على نبيهم فقال : « وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم فى الحياة الدنيا ، ماهذا إلا بشر مثلكم . . . »

أى: وقال الأغنياء والزعماء من قوم هذا النبى ، الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، وكذبوا بالبعث والجزاء الذى يكون فى الآخرة ، والذين أبطرتهم النعمة التى أنعمنا عليهم بها فى دنياهم . . .

قالوا لنبيهم بجفاء وسوء أدب لكى يصرفوا غيرهم عن الإيمان به: ماهذا الذى يدعى النبوة « إلا بشر مثلكم » وكأنهم يرون ـ لغبائهم وانطماس عقولهم ـ أن الرسول لا يكون من البشر ، أو يرون جواز كونه من البشر . إلا أنهم قالوا ذلك على سبيل المكر ليصدوا أتباعهم وعامة الناس عن دعوته

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل ما يؤكده فى نفوس الناس فقالوا: «يأكل مما تأكلون منه، من طعام وغذاء، ويشرب مما تشربون، منه من ماء وما يشبه الماء.

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم: «ولئن أطعتم - أيها الناس - بشرا مثلكم، فى المأكل والمشرب والملبس والعادات... إنكم إذا - بسبب هذه الطاعة - لخاسرون، خسارة ليس بعدها خسارة.

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يرى أن الله - تعالى - وصف هؤلاء الجاحدين بالغنى والجاه، وأنهم من قوم هذا النبي فازداد حسدهم له وحقدهم عليه، وأنهم أصلاء فى الكفر، وفى التكذيب باليوم الآخر، وأنهم - فوق كل ذلك - من المترفين الذين عاشوا حياتهم فى اللهو واللعب والتقلب فى ألوان الملذات... ولا شىء يفسد الفطرة، ويطمس القلوب، ويعمى النفوس والمشاعر عن سماع كلمة الحق، كالترف والتمرغ فى شهوات الحياة.

لذا تراهم فى شبهتهم الأولى يحاولون أن يصرفوا الناس عن هذا النبي، بزعمهم أنه بشر، يأكل مما يأكل منه الناس، ويشرب مما يشربون منه - والعقلاء فى زعمهم - لا يتبعون نبيا من البشر، لأن اتباعه يؤدى إلى الخسران المبين.

ولقد نهجوا فى قولهم الباطل هذا، نهج قوم نوح من قبلهم، فقد قالوا فى شأنه: «ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم...»

أما شبهتهم الثانية التى أثاروها لصرف الناس عن الحق، فقد حكاها القرآن فى قوله عنهم: «أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون...» أى: أيعدكم هذا الذى يدعى النبوة وهو بشر مثلكم، أنكم إذا فارقتم هذه الحياة وصرتم أمواتا، وصارت بعض أجزاء أجسامكم ترابا وبعضها عظاما نخرة، أنكم مخرجون من قبوركم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء.

والاستفهام فى قوله «أيعدكم» للإنكار والتحذير من اتباع هذا النبى ، والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ماقبلها من الصد عن الاستماع إلى ماجاءهم به نبيهم ، لأنه - فى زعمهم - يؤدى إلى الخسران .

وكرر - سبحانه - لفظ «أنكم» لبيان حرصهم على تأكيد أقوالهم الباطلة فى نفوس الناس ، حتى يفروا من وجه نبيهم .

ثم حكى - سبحانه - أنهم لم يكتفوا بكل ما أثاروه من شبه لصرف أتباعهم عن الحق بل أضافوا إلى ذلك، أن مايقوله هذا النبى مستبعد فى العقول، وأنه رجل افترى على الله كذبا ...

فقال - تعالى - : «هيهات هيهات لما توعدون . إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومانحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين» .

ولفظ «هيهات» اسم فعل ماض ، معناه : بعدا شديداً . والغالب فى استعمال هذا اللفظ مكرراً ، ويكون اللفظ الثانى مؤكدا تأكيدا لفظيا الأول .

أى : قال الملأ من قوم هذا النبى لغيرهم . على سبيل التحذير من اتباعه : بعد بعدا كبيرا مايعدكم به هذا الرجل من أن هناك بعثا وحسابا وجزاء بعد الموت ، وأن هناك جنة ونارا يوم القيامة .

قال الآلوسى : «وقوله - سبحانه - : «هيهات» اسم بمعنى بعد .

وهو فى الأصل اسم صوت ، وفاعله مستتر فيه يرجع للتصديق أو للصحة أو للوقوع أو نحو ذلك مما يفهم من السياق . والغالب فى هذه الكلمة مجيئها مكررة ... وقوله : «لما توعدون» بيان لمرجع ذلك الضمير ، فاللام متعلقة بمقدر ، كما فى قولهم : سقيا له . أى : التصديق أو الوقوع المتصف بالبعد كائن لما توعدون . . . »(1).

(1) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ٣١ .

وقوله - سبحانه - : «إن هي إلا حياتنا ...» بيان لتماديهم في جحودهم وجهلهم وغرورهم .

أي : أنهم لم يكتفوا باستبعاد حصول البعث والجزاء يوم القيامة بل أضافوا إلى ذلك الإنكار الشديد لحصولهما فقالوا : الحياة الحقيقية التي لا حياة بعدها إلا حياتنا الدنيا التي نحياها ، ولا وجود لحياة أخرى كما يقول هذا النبي فنحن نموت كما مات آباؤنا . نحي كما يولد أبناؤنا . وهكذا الدنيا فيها موت لبعض الناس ، وفيها حياة لغيرهم ، وما نحن بمبعوثين ، بعد الموت على الإطلاق .

ثم أضافوا إلى إنكارهم هذا الدار الآخرة، تطاولا على نبيهم ، واتهامًا له بما هو بريء منه ، فقالوا : «إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا ...» أي : ماهذا النبي الذي أمركم بترك عبادة آلهتكم ، وأخبركم بأن هناك بعثا وحسابا ، إلا رجل اختلق على الله الكذب فيما يقوله ويدعو إليه ، وما نحن له بمؤمنين، في يوم من الأيام . فكونوا مثلنا - أيها الناس - في عدم الإيمان به ، وفي الانصراف عنه .

وهكذا يصور لنا القرآن الكريم بأسلوبه البليغ ، موقف الطغاة من دعوة الحق ، وكيف أنهم لا يكتفون بالانصراف عنها وحدهم ، بل يؤلبون غيرهم بكل وسيلة على الانقياد لهم ، وعلى محاربة من جاء بهذه الدعوة بمختلف السبل، وشتى الطرق .

ثم يحكى لنا القرآن بعد ذلك موقف النبي الذي أرسله الله - تعالى - لهؤلاء القوم الظالمين فيقول : «قال رب انصرني بما كذبون» .

أي : قال ماقاله أخوه نوح من قبله : رب انصرني على هؤلاء الجاحدين، فأنت تعلم - ياإلهي - أنهم كذبوا ما جئتهم به من عندك .

وجاءت الإستجابة من الله - تعالى - لهذا النبي ، كما جاءت لأخيه نوح من قبله ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : «قال : عما قليل ليصبحن نادمين» .

أى : قال الله - عز وجل - لنبيه : لقد أجبنا دعاءك أيها النبى الكريم ، وبعد وقت قليل من الزمان ، ليصبحن نادمين أشد الندم على أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم القبيحة ، ولكن هذا الندم لن ينفعهم لأنه جاء فى غير أوانه .

والجار والمجرور فى قوله « عما قليل » متعلق بقوله : ليصبحن نادمين . أى : ليصبحن عن زمن قليل نادمين . وعن هنا بمعنى بعد ، و « ما » جىء بها لتأكيد معنى القلة

وأكد - سبحانه - قوله « ليصبحن » بلام القسم ونون التوكيد ، لبيان أن هذا الوعيد آت لا ريب فيه ، وفى وقت قريب .

وجاء الوعيد فعلا . وأخبر - سبحانه - عن ذلك فقال : « فأخذتهم الصيحة بالحق . . . »

أى : فأهلكتهم إهلاكا تاما « الصيحة » التى صاحها بهم جبريل - عليه السلام - حيث صاح بهم مع الريح العاتية التى أرسلها الله عليهم فدمرواتدميرا .

وذكر - سبحانه - هنا الصيحة فقط . مع أن قوم هود قد أهلكوا بها وبالريح الصرصر العاتية للإشعار بأن إحدى هاتين العقوبتين لو انفردت كافية لإهلاكهم ، فقد قال - سبحانه - فى شأن الريح التى أرسلها عليهم : « تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين » (١) .

وقوله « بالحق » حال من الصيحة ، وهو متعلق بمحذوف ، والتقدير . فأخذتهم الصيحة حالة كونها بالعدل الذى لا ظلم معه ، ولإنهام الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم لنبيهم .

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٢٥ .

وقوله - تعالى - سبحانه - : « فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين » بيان لمصيرهم الأليم .

والغثاء : الرميم الهامد الذى يحمله السيل من ورق الشجر وغيره يقال: غثا الوادى يغثو إذا كثر غثاؤه .

أى : فصيرناهم هلكى هامدين كغثاء السيل البالى ، الذى اختلط بزبده ، فهلاكا وبعداً لهؤلاء القوم الظالمين ، كما هلك وبعد من قبلهم قوم نوح - عليه السلام - .

ثم تمضى السورة فى إستعراضها - على سبيل الإجمال - لقصص بعض الأنبياء ، قال - تعالى - :

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ، كُلَّمَا جَاءَتْ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ، فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ، وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ، وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) » .

أى : « ثم أنشأنا » من بعد قوم نوح وقوم هود « قروناً آخرين » ، أى : أقواماً آخرين من الناس ، كل قوم كانوا مجتمعين فى زمان واحد ، كقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب وغيرهم .

وقوله ـ عز وجل ـ : « ماتسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » بيان لمظهر من مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ ، وإحكامه لشئون خلقه .

أى : ما تسبق أمة من الأمم أجلها الذى قدرناه لها ساعة من الزمان ، ولا تستأخر عنه ساعة ، بل الكل نهلكه ونميته فى الوقت الذى حددناه بقدرتنا وحكمتنا .

و « من » فى قوله « من أمة » مزيدة للتأكيد . قال ـ تعالى ـ : «ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »(١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ على سبيل الإجمال ، أن حكمته قد اقتضت أن يرسل رسلا آخرين ، متتابعين فى إرسالهم . كل واحد يأتى فى أعقاب أخيه ، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، فقال ـ تعالى ـ : « ثم أرسلنا رسلنا تترى . . . »

ولفظ « تترى » مصدر كدعوى ، وألفه للتأنيث . وأصله : وترى فقلبت الواو تاء ، وهو منصوب على الحال من رسلنا .

أى : ثم أرسلنا بعد ذلك رسلا متواترين متتابعين واحدا بعد الآخر ، مع فترة ومهلة من الزمان بينهما .

قال القرطبى : ومعنى « تترى » تتواتر ، ويتبع بعضهم بعضا ترغيبا وترهيبا .

قال الأصمعى : واترت كتبى عليه ، أتبعت بعضها بعضا إلا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة . . . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « تترى » بالتنوين على أنه مصدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء ، كقولك : حمدا وشكرا . . . »(٢) .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٤

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٢٥ .

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف كل أمة من رسولها فقال : «كلما جاء أمة رسولها كذبوه ...»

أى : كلما جاء رسول كل أمة إليها ليبلغها رسالة الله ـ تعالى ـ وليدعوها إلى عبادته وحده ـ سبحانه ـ كذب أهل هذه الأمة هذا الرسول المرسل إليهم، وأعرضوا عنه وآذوه ...

قال ابن كثير : «وقوله : «كلما جاء أمة رسولها كذبوه» يعنى جمهورهم وأكثرهم، كقوله ـ تعالى ـ «ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون»[1].

وأضاف ـ سبحانه ـ الرسول إلى الأمة، للإشارة إلى أن كل رسول قد أتى إلى الأمة المرسل إليها.

وفى التعبير بقوله : «كلما جاء ...» إشعار بأنهم قابلوه بالتكذيب بمجرد مجيئه إليهم، أى : أنهم بادروه بذلك بدون تريث أو تفكر.

فماذا كانت عاقبتهم ؟ كانت عاقبتهم كما بينها ـ سبحانه ـ فى قوله: «فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث . فبعدا لقوم لا يؤمنون».

أى : فأتبعنا بعضهم بعضا فى الهلاك والتدمير، وجعلناهم بسبب تكذيبهم لرسلهم أحاديث يتحدث الناس بها على سبيل التعجب والتلهى، ولم يبق بين الناس إلا أخبارهم السيئة . وذكرهم القبيح «فبعدا» وهلاكا لقوم لا يؤمنون بالحق، ولا يستجيبون للهدى .

قال صاحب الكشاف : «وقوله «وجعلناهم أحاديث» أى : أخبارا يسمر بها، ويتعجب منها والأحاديث تكون اسم جمع لحديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتكون جمعا للأحدوثة : التى هى مثل الأضحوكة

---

(١) سورة يس الآية ٣٠ .

والأعلوبة والأعجوبة، وهي: ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا وهو المراد هنا»(١).

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة موسى وهارون - عليهما السلام - فقال: «ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين».

أي: ثم أرسلنا من بعد أولئك الأقوام المهلكين الذين جعلناهم أحاديث، موسى وأخاه هارون بآياتنا، الدالة على قدرتنا، وهي الآيات التسع وهي: العصا، واليد، والسنون، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وزودناه مع هذه الآيات العظيمة بسلطان مبين، أي: بحجة قوية واضحة، تحمل كل عاقل على الإيمان به، وعلى الاستجابة له.

وكان هذا الإرسال منا لموسى وهارون إلى فرعون وملئه، أي: وجهاء قومه وزعمائهم الذين يتبعهم غيرهم.

«فاستكبروا» جميعا عن الاستماع إلى دعوة موسى وهارون - عليهما السلام -، «وكانوا قوما عالين» أي: مغرورين متكبرين، مسرفين فى البغى والعدوان

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا الغرور والتكبر من فرعون وملئه فقال: «فقالوا» أي: فرعون وحاشيته «أنؤمن لبشرين مثلنا» وهما موسى وهارون «وقومهما» أي: بنو إسرائيل الذين منهم موسى وهارون «لنا عابدون» أي: مسخرون خاضعون منقادون لنا كما ينقاد الخادم لمخدومه.

فأنت ترى أن فرعون وملأه، قد أعرضوا عن دعوة موسى وهارون، لأنهما - أولا - بشر مثلهم، والبشرية فى زعمهم الفاسد - تتنافى مع الرسالة

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٨.

والنبوة ، ولأنهما ـ ثانيا ـ من قوم بمنزلة الخدم لفرعون وحاشيته ، ولا يليق ـ فى طبعهم المغرور ـ أن يتبع فرعون وحاشيته من كان من هؤلاء القوم المستضعفين .

قال الآلوسى : «وقوله : «فقالوا» عطف على «استكبروا» وما بينهما إعتراض مقرر للاستكبار ، والمراد : فقالوا فيما بينهم . وثنى البشر لأنه يطلق على الواحد كقوله ـ تعالى ـ «بشرا سويا» ، وعلى الجمع ، كما فى قوله ـ تعالى ـ «فإما ترين من البشر أحدا ...» ولم يثن «مثل» نظرا إلى كونه فى حكم المصدر ، ولو أفرد البشر لصح ، لأنه اسم جنس يطلق على الواحد وغيره ، وكذا لو ثنى المثل ، فإنه جاء مثنى فى قوله : «يرونهم مثليهم رأى العين» ومجموعا كما فى قوله : «ثم لا يكونوا أمثالكم» ، وهذه القصص ـ كما ترى ـ تدل على أن مدار شبه المنكرين للنبوة ، قياس حال الأنبياء على أحوالهم ، بناء على جهلهم بتفاصيل شئون الحقيقة البشرية ، وتباين طبقات أفرادها فى مراقى الكمال .. ومن عجب أنهم لم يرضوا للنبوة ببشر ، وقد رضى أكثرهم الإلهية بحجر ..»(١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة فرعون وملئه فقال : «فكذبوهما فكانوا من المهلكين» .

أى : فكذب فرعون وأتباعه موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ فيما جاءا به من عند ربهما ـ عز وجل ـ فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أغرقنا فرعون ومن معه جميعا .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أعطاه لموسى بعد هلاك فرعون وقومه فقال : «ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون» .

والضمير فى قوله ـ تعالى ـ «لعلهم» يعود إلى قوم موسى من بنى إسرائيل ، لأنه من المعروف أن التوراة أنزلت على موسى بعد هلاك فرعون وملئه ..

(١) تفسير الآلوسى جـ١٨ ص ٣٦ .

أى : ولقد آتينا موسى - بفضلنا وكرمنا - الكتاب المشتمل على الهداية والإرشاد ، وهو التوراة ، «لعلهم» أى : بنو إسرائيل «يهتدون» إلى الصراط المستقيم ، بسبب اتباعهم لتعاليمه ، وتمسكهم بأحكامه . فالترجى فى قوله «لعلهم» إنما هو بالنسبة لهم .

وقريب من هذه الآية قوله - تعالى - : «ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ، بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون» .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، حيث أوجد عيسى من غير أب وجعل أمه مريم تلده من غير أن يمسها بشر ، فقال - تعالى - «وجعلنا ابن مريم وأمه آية . . .» .

أى : وجعلنا نبينا عيسى عليه السلام - ، كما جعلنا أمه مريم ، آية واضحة ، وحجة عظيمة ، فى الدلالة على قدرتنا النافذة التى لا يعجزها شىء .

قال أبو حيان : «قوله : «وجعلنا ابن مريم وأمه آية» أى : جعلنا قصتهما ، وهى آية عظمى بمجموعها ، وهى آيات مع التفصيل ، ويحتمل أن يكون حذف من الأول آية لدلالة الثانى ، أى : وجعلنا ابن مريم آية ، وأمه آية»(1) .

وقوله - تعالى - «وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» بيان لجانب مما أنعم به - سبحانه - على عيسى وأمه .

والربوة : المكان المرتفع من الأرض . وأصلها من قولهم : ربا الشىء يربو . إذا ازداد وارتفع ، ومنه الربا لأنه زيادة أخذت على أصل المال .

ومعين : اسم مفعول من عانه إذا أدركه وأبصره بعينه . فالميم زائدة . وأصله معيون كمبيوع ثم دخله الإعلال . والكلام على حذف مضاف . أى : وماء معين .

أى : ومن مظاهر رعايتنا وإحساننا إلى عيسى وأمه ، أننا آويناهما وأسكناهما ، وأنزلناهما فى جهة مرتفعة من الأرض ، وهذه الجهة ذات قرار «أى : ذات

(1) تفسير البحر المحيط ج ٦ ص ٤٠٨ .

استقرار لاستوائها وصلاحيتها للسكن لما فيها من الزروع والثمار، وهى فى الوقت ذاته ينساب الماء الظاهر للعيون فى ربوعها .

قالوا : والمراد بهذه الربوة : بيت المقدس بفلسطين ، أو دمشق، أو مصر.

والمقصود من الآية الكريمة : الإشارة إلى إيواء الله - تعالى - لهما ، فى مكان طيب ، ينضر فيه الزرع ، وتطيب فيه الثمار ، ويسيل فيه الماء ، ويجدان خلال عيشهما به الأمان والراحة .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الأنبياء ، بتوجيه خطاب إلى الرسل جميعا ، أمرهم فيه بالأكل من الطيبات ، وبالتزود من العمل الصالح ، فقال - تعالى - : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، إنى بما تعملون عليم » .

ووجه - سبحانه - الخطاب إلى الرسل جميعا ، مع أن الموجود منهم عند نزول الآية واحد فقط ، وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - للدلالة على أن كل رسول أمر فى زمنه بالأكل من الطيبات التى أحلها تعالى ، وبالعمل الصالح.

وفى الآية إشارة إلى أن المداومة على الأكل من الطيبات التى أحلها الله ، والتى لا شبهة فيها ، له أثره فى مواظبة الإنسان على العمل الصالح .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يأمر الله - تعالى - عباده المرسلين بالأكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل على هذا العمل الصالح ، فقام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بهذا أتم قيام ، وجمعوا بين كل خير ، قولا وعملا ، ودلالة ونصحا .

ثم ساق - رحمه الله - عددا من الأحاديث فى هذا المعنى منها: أن أم عبدالله أخت شداد بن أوس ، بعثت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقدح لبن عند فطره وهو صائم ، وذلك فى أول النهار وشدة الحر ، فرد إليها رسولها : أنى كانت لك الشاة ؟ أى : على أية حال تملكينها . فقالت : اشتريتها من مالى فشرب منه فلما كان من الغد أتته أم عبدالله فقالت له : يارسول الله ، بعثت إليك بلبن ، فرددت إلى الرسول فيه ؟ فقال لها : بذلك أمرت الرسل . أن لا تأكل إلا طيبا ولا تعمل إلا صالحا .

ومنها : ماثبت فى صحيح مسلم .. عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « يأيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا .. » وقال : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم » ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، وملبسه من حرام ، وغذى بالحرام ، يمد يديه إلى السماء : يارب يارب فأنى يستجاب لذلك »(1) .

وقوله - سبحانه - : « إنى بما تعملون عليم » تحذير من مخالفة ما أمر به - تعالى - .

أى : إنى بما تعملون - أيها الرسل وأيها الناس - عليم فأجازيكم على هذا العمل بما تستحقون .

وقوله - سبحانه - « وإن هذه أمتكم أمة واحدة ... » جملة مستأنفة .

والمراد : وإن شريعتكم - أيها الرسل - جميعا ، هى شريعة واحدة ، لا تختلف فى أصولها التى تتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات ، وإن اختلفت الأحكام الفرعية .

وقرأ بعض القراء السبعة : « وأن هذه أمتكم .. » بفتح الهمزة ، على أن الآية من جملة ما خوطب به الرسل .

والتقدير : واعلموا - أيها الرسل - أن ملتكم وشريعتكم ، ملة واحدة ، وشريعة واحدة فى عقائدها وأصول أحكامها .

« وأنا ربكم » لا شريك لى فى الربوبية « فاتقون » أى : فخافوا عقابى ، واحذروا مخالفة أمرى ، وصونوا أنفسكم عن كل ما نهيتكم عنه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال المصرين على كفرهم وضلالهم من دعوة الرسل عليهم الصلاة السلام - فقال :

(1) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٧١ .

« فتقطّعوا أمرَهُم بينهم زُبُراً ، كلُّ حزب بما لديهم فرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهم فى غمرتهمْ حتّى حينٍ (٥٤) أيحسبُونَ أنّما نُمِدُّهم بهِ مِنْ مالٍ وبنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لهُم فى الخيراتِ بلْ لاَ يَشْعرونَ (٥٦) » .

والفاء فى قوله ـ تعالى ـ : « فتقطعوا » لترتيب حالهم وماهم عليه من تفرق وتنازع واختلاف ، على ماسبق من أمرهم بالتقوى ، وإتبـاع ماجاءهم به الرسل .

وضمير الجمع يعود إلى الأقوام السابقين الذين خالفوا رسلهم، وتفرقوا شيعا وأحزابا .

وقوله « زبرا » حال من هذا الضمير . ومفرده زبرة ـ كغرفة ـ بمعنى : قطعة . والمراد به هنا: طائفة من الناس . والمراد بأمرهم: أمر دينهم الذى هو واحد فى الأصل .

أى : أن هؤلاء الأقوام الذين جاء الرسل لهدايتهم، لم يتبعوا دين رسلهم بل تفرقوا فى شأنه شيعا وأحزابا ، فمنهم أهل الكتاب الذين قال بعضهم : عزيز ابن الله، وقال بعضهم : المسيح ابن الله ، ومنهم المشركون الذين عبدوا من دون الله ـ تعالى ـ أصناما لاتضر ولاتنفع ، وصار كل حزب من هؤلاء المعرضين عن الحق ، مسرورا بما هو عليه من باطل ، وفرحا بما هو فيه من ضلال .

والآية القرآنية بأسلوبها البديع، تسوق هذا التنازع من هؤلاء الجاهلين فى شأن الدين الواحد ، فى صورة حسية ، يرى المتدبر من خلالها ، أنهم كأنهم تجاذبوه فيما بينهم، حتى قطعوه فى أيديهم قطعا، ثم مضى كل فريق منهم بقطعته وهو فرح مسرور ، مع أنه ـ لو كان يعقل ـ لما انحدر إلى هذا الفعل القبيح ، ولما فرح بعمل شىء من شأنه أن يحزن له كل عاقل .

والخطاب فى قوله ـ تعالى ـ : « فذرهم فى غمرتهم حتى حين » للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والضمير المنصوب «هم» للمشركين .

والغمرة فى الأصل : الماء الذى يغمر القامة ويسترها ، إذ المادة تدل على التغطية والستر . يقال : غمر الماء الأرض إذا غطاها وسترها . ويقال : هذا رجل غمر ـ بضم الغين وإسكان الميم ـ إذا غطاه الجهل وجعله لا تجربة له بالأمور . ويقال : هذا رجل غمر ـ بكسر الغين ـ إذا غطى الحقد قلبه والمراد بالغمرة هنا : الجهالة والضلالة والمعنى : لقد أديت ـ أيها الرسول ـ الرسالة ، ونصحت لقومك . وبلغتهم ما أمرك الله ـ تعالى ـ بتبليغه ، وعليك الآن أن تترك هؤلاء الجاحدين المعاندين فى جهالاتهم وغفلاتهم وحيرتهم « حتى حين » أى : حتى يأتى الوقت الذى حددناه للفصل فى أمرهم بما تقتضيه حكمتنا .

وجاء لفظ « حين » بالتنكير ، لتهويل الأمر وتفظيعه .

ثم تأخذ السورة الكريمة بعد ذلك فى السخرية منهم لغفلتهم عن هذا المصير المحتوم ، الذى سيفاجئهم بما لا يتوقعون . فيقول : « أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات ، بل لا يشعرون » .

والهمزة فى قوله « أيحسبون » للاستفهام الإنكارى . و« ما » موصوله ، وهى اسم « أن » وخبرها جملة « نسارع لهم . . . » والرابط مقدر أى: به.

أى : أيظن هؤلاء الجاهلون . أن ما نعطيهم إياه من مال وبنين ، هو من باب المسارعة منا فى إمدادهم بالخيرات لرضانا عنهم ولإكرامنا لهم ؟

كلا : ما فعلنا معهم ذلك لتكريمهم ، وإنما فعلنا ذلك معهم لاستدراجهم وإمتحانهم ، ولكنهم لا يشعرون بذلك . ولا يحسون به ، لانطماس بصائرهم ، ولاستيلاء الجهل والغرور على نفوسهم .

---

(١) سورة القلم الآية ٤٤ ، ٤٥ .

فقوله - سبحانه - « بل لا يشعرون » اضراب انتقالى عن الحسبان المذكور وهو معطوف على مقدر ينسحب إليه الكلام .

أى : ما فعلنا ذلك معهم لإكرامنا إياهم كما يظنون ، بل فعلنا مافعلنا استدراجا لهم ، ولكنهم لاشعور لهم ولا إحساس ، وماهم إلا كالأنعام بل هم أضل .

لذا قال بعض الصالحين : من يعص الله - تعالى - ولم ير نقصانا فيما أعطاه - سبحانه - من الدنيا ، فليعلم أنه مستدرج قد مكر به .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » .

° ° °

وبعد أن صورت السورة الكريمة حالة أصحاب القلوب التى غمرها الجهل والعمى ، أتبعت ذلك بإعطاء صورة وضيئة مشرقة لأصحاب القلوب الوجلة المؤمنة ، المسارعة فى الخيرات فقال - تعالى - :

« إنَّ الذينَ هُمْ من خَشْيَةِ ربِّهم مُشْفِقُون (٥٧) والذينَ هُمْ بآياتِ ربِّهم يُؤمِنونَ (٥٨) والذينَ هُمْ بربِّهم لا يُشْرِكُونَ (٥٩) والذينَ يؤْتُونَ ما آتَوْا وقلوبُهُم وَجِلَةٌ أنَّهم إلى ربِّهم راجِعُونَ (٦٠) أولئكَ يسارِعُونَ فى الخيراتِ وهم لهاَ سابِقُون (٦١) ولا نُكَلِّفُ نفساً إلاَّ وُسْعَهاَ ولدَيناَ كتابٌ ينطقُ بالحقِّ وهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) » .

وقوله - سبحانه - : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون » بيان للصفة الأولى من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين .

والإشفاق : هو الخوف من الله - تعالى - والخشية منه - سبحانه - مع شدة الرقة فى القلب وكثرة الخوف من عقابه .

أى : أنهم من خشية عقابه ـ عز وجل ـ حذرون خائفون ، وهذا شأن المؤمنين الصادقين ، كما قال الحسن البصرى: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا .

وقوله ـ تعالى ـ : « والذين هم بآيات ربهم يؤمنون » بيان للصفة الثانية أى : أنهم يؤمنون إيمانا راسخا بجميع آيات الله ـ سبحانه ـ ، الدالة على وحدانيته وقدرته ، سواء أكانت تلك الآيات تنزيلية أم كونية .

وقوله ـ عز وجل ـ : « والذين هم بربهم لا يشركون » صفة ثالثة لهم . أى : أنهم يخلصون العبادة لله ـ تعالى ـ وحده ، ويقصدون بأقوالهم وأعمالهم وجهه الكريم ، فهم يبعدون عن الرياء والمباهاة بطاعاتهم .

ثم بين ـ سبحانه ـ صفتهم الرابعة فقال : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » .

قرأ القراء السبعة (يؤتون ما آتوا) بالمد ، على أنه من الإتيان بمعنى الإعطاء والوجل : إستشعار الخوف . يقال : وجل فلان وجلا فهو واجل إذا خاف ، أى : يعطون ما يعطون من الصدقات وغيرها من ألوان البر ، ومع ذلك فإن قلوبهم خائفة أن لا يقبل منهم هذا العطاء ، لأى سبب من الأسباب فهم كما قال بعض الصالحين: لقد أدركنا أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم اشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « أى : يعطون العطاء وهم خائفون أن لا يتقبل منهم ، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الإعطاء ، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط .

كما روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت يا رسول الله « الذين يؤتون ما آتو وقلوبهم وجلة » هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله ـ عز وجل ـ ؟

قال : لا يا بنت الصديق ، ولكنه الذى يصلح ويصوم ويتصدق . وهو يخاف الله - تعالى - .

ثم قال - رحمه الله - وقد قرأ آخرون : « والذين يأتون ما أتوا . . » من الإتيان - أى : يفعلون ما فعلوا وهم خائفون . . .

والمعنى على القراءة الأولى - وهى قراءة الجمهور السبعة وغيرهم - أظهر لأنه قال - بعد ذلك - « أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » فجعلهم من السابقين ، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى ، لأوشك أن لا يكونوا من السابقين ، بل من المقتصدين أو المقتصرين »[1] .

وجملة « وقلوبهم وجلة » حال من الفاعل فى قوله - تعالى - « يؤتون » .

وجملة « أنهم إلى ربهم راجعون » تعليلية بتقدير اللام ، وهى متعلقة بقوله : « وجلة » .

أى : وقلوبهم خائفة من عدم القبول لأنهم إلى ربهم راجعون ، فيحاسبهم على بواعث أقوالهم وأعمالهم ، وهم - لقوة إيمانهم - يخشون التقصير فى أى جانب من جوانب طاعتهم له - عز وجل - .

وقد جاءت هذه الصفات الكريمة - كما يقول الإمام الرازى - فى نهاية الحسن ، لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغى ، والثانية : دلت على قوة إيمانهم بآيات ربهم ، والثالثة دلت على شدة إخلاصهم ، والرابعة : دلت على أن المستجمع لتلك الصفات يأتى بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين ، رزقنا الله - سبحانه - الوصول إليها[2] .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٧٤ .
(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٢٠٠ .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : « أولئك يسارعون في الخيرات » يعود إلى هؤلاء المؤمنين الموصوفين بتلك الصفات الجليلة .

وهذه الجملة خبر عن قوله - تعالى - : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون » وما عطف عليه ، فاسم « إن » أربع موصولات ، وخبرها جملة « أولئك يسارعون في الخيرات . . . » .

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات ، يبادرون برغبة وسرعة إلى فعل الخيرات ، وإلى الوصول إلى ما يرضى الله - تعالى - وهم « لها » أى : لهذه الخيرات وما يترتب عليها من فوز وفلاح « سابقون » لغيرهم .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة المشتملة على صفات المؤمنين الصادقين ، ببيان أن هذه الصفات الجليلة لم تكلف أصحابها فوق طاقتهم ، لأن الإيمان الحق إذا خالطت بشاشته القلوب يجعلها لا تحس بالمشقة عند فعل الطاعات ، وإنما يجعلها تحس بالرضا والسعادة والإقدام على فعل الخير بدون تردد ، فقال - تعالى - « ولا تكلف نفسا إلا وسعها . . . » .

أى : وقد جرت سنتنا فيما شرعناه لعبادنا من تشريعات ، أننا لا نكلف نفسا من النفوس إلا في حدود طاقتها وقدرتها ، كما قال - تعالى - : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

والمراد بالكتاب في قوله - تعالى - : « ولدينا كتاب ينطق بالحق . . » كتاب الأعمال الذى يحصيها الله - تعالى - فيه ويشهد لذلك قوله - سبحانه - : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون »[1] وقوله - تعالى - « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه . . . »[2] .

والمراد بنطق الكتاب بالحق : أن كل ما فيه حق وصدق . أى : ولدينا

(١) سورة الجاثية الآية ٢٩ .
(٢) سورة الكهف الآية ٤٩ .

صحائف أعمالكم، التي سجلها عليكم الكرام الكاتبون، وفيها جميع أقوالكم وأفعالكم في الدنيا. بدون زيادة أو نقصان. بل هي مشتملة على كل حق وصدق فقد اقتضت حكمتنا وعدالتنا أننا لا نظلم أحدا وإنما نعطى كل إنسان مايستحقه من خير، ونعفو عن كثير من الهفوات.

وبذلك نرى الآيات الكريمة، قد مدحت المؤمنين الصادقين، ووصفتهم بما هم أهله من صفات كريمة.

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن أحوال الكافرين، فتوبخهم على إستمرارهم في غفلتهم، وتصور جزعهم وجؤارهم عند ماينزل بهم العذاب فتقول:

« بلْ قلوبُهُم في غَمْرةٍ مِنْ هـذَا، ولهُم أعمالٌ مِنْ دُونِ ذلكَ هُم لها عَامِلونَ (٦٣) حتَّى إذا أخذْنَا مُترفِيهمْ بالعذَابِ إذا هُمْ يَجْأرُونَ (٦٤) لا تجأرُوا اليومَ إنَّكُم مِنَّا لا تُنْصَرُون (٦٥) قد كانَتْ آيَاتِي تتلَى عليكُم فكُنتُم على أعقَابِكُم تنكِصُونَ (٦٦) مُستَكبِرينَ بهِ سامِراً تهجُرون (٦٧) ».

قال الجمل: قوله - تعالى -: «بل قلوبهم ...» هذا رجوع لأحوال الكفار المحكية فيما سبق بقوله: «أيحسبون أنما نمدهم...» والجمل التي بينهما وهي قوله: «إن الذين هم من خشية ربهم» إلى قوله «وهم لا يظلمون» إعتراض في خلال الكلام المتعلق بالكفار(١).

أي: هذه هي أوصاف المؤمنين الصادقين، أما الكافرون فقلوبهم في «غمرة من هذا» أي: في جهالة وغفلة مما عليه هؤلاء المؤمنون من صفات حميدة، ومن إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٩٦.

وهؤلاء الكافرون ، لهم أعمال ، سيئة كثيرة ، من دون ذلك ، أي : من غير ما ذكرناه عنهم من كون قلوبهم في غمرة وجهالة عن الحق «هم لها عاملون» أي : هم مستمرون عليها ، ومعتادون لفعلها ومندفعون في إرتكابها بدون وعى أو تدبر .

ثم بين - سبحانه - عندما ينزل بهم العذاب فقال : «حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون» .

وحتى هنا : ابتدائية ، أي : حرف تبتدأ بعده الجمل ، وجملة «إذا أخذنا» شرطية . وجوابها «إذا هم يجأرون» .

والجؤار : الصراخ مطلقا ، أو باستغاثة . يقال : جأر الثور يجأر إذا صاح .

وجأر الداعى إلى الله ، إذا ضج ورفع صوته بالتضرع إلى الله عز وجل .

أي : حتى إذا عاقبنا هؤلاء المترفين الذين أبطرتهم النعمة ، بالعذاب الذى يردعهم ويخزيهم ويذلهم ، إذا هم يجأرون إلينا بالصراخ وبالاستغاثة .

وعبر عن عقابهم «بالأخذ» للإشعار بسرعة هذا العقاب وشدته ، كما فى قوله - تعالى - «أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون» .

وخص المترفين بالذكر ، للإشارة إلى أن ما كانوا فيه من التنعم والتمتع والتطاول فى الدنيا ، لن ينفعهم شيئاً عند نزول هذا العذاب بهم .

وقوله - سبحانه : «لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون» تأنيب وزجر لهم على جؤارهم وصراخهم . والمراد باليوم : الوقت الذى فيه نزل العذاب بهم .

أي : عندما أخذناهم بالعذاب المباغت المفاجىء ، وضجوا بالاستغاثة والجؤار ، قلنا لهم على سبيل التقريع والزجر : لا تجأروا ولا تصرخوا فى هذا

الوقت الذى أصابكم ما أصابكم فيه من عذاب . فإنكم لن تجدوا من ينجيكم من عذابنا ، أو من يدفع عنكم هذا العذاب .

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التى أفضت بهم إلى هذا العذاب المهين ، فقال ـ تعالى ـ : « قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون .... » .

والأعقاب : جمع عقب ، وهو مؤخر القدم « وتنكصون » من النكوص ، وهو الرجوع إلى الخلف . يقال : فلان نكص على عقبيه ، إذا رجع إلى الوراء ، وهو هنا كناية عن الإعراض عن الآيات .

أى : لا تجأروا ولا تصرخوا ، فإن ذلك لن يفيدكم شيئا ، بسبب إصراركم على كفركم فى حياتكم الدنيا ، فقد كانت آياتى الدالة على وحدانيتى تتلى على مسامعكم من نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن المؤمنين به ، فكنتم تعرضون عن سماعها أشد الإعراض ، وكنتم تستهزئون بها ، وتكادون تسطون بالذين يتلونها عليكم .

وقوله ـ تعالى ـ : « مستكبرين به سامرا تهجرون » مقرر لمضمون ما قبله ، من إعراضهم عن آيات الله ، ونكوصهم على أعقابهم عند سماعها .

والضمير فى « به » يرى جمهور المفسرين أنه يعود إلى البيت الحرام ، والباء للسببية .

وقوله : « سامرا » اسم جمع كحاج وحاضر وراكب ، مأخوذ من السمر وأصله ظل القمر وسمى بذلك لسمرته ، ثم أطلق على الحديث بالليل . يقال : سمر فلان يسمر ـ ككرم يكرم ـ إذا تحدث ليلا مع غيره بقصد المسامرة والتسلية .

وقوله : « تهجرون » قرأه الجمهور ـ بفتح التاء وضم الجيم ـ مأخوذ من

الهجر - بإسكان الجيم - بمعنى الصد والقطيعة ، أو من الهجر - بفتح الجيم - بمعنى الهذيان والنطق بالكلام الساقط ، بسبب المرض أو الجنون .

وقرأ نافع « تهجرون » - بضم التاء وكسر الجيم - مأخوذ من أهجر هجارا إذا نطق بالكلام القبيح .

والمعنى: قد كانت آياتى تتلى عليكم - أيها المستغيثون من العذاب - فكنتم تعرضون عنها ، ولم تكتفوا بهذا الإعراض ، بل كنتم متكبرين على المسلمين بالبيت الحرام ، وكنتم تتسامرون بالليل حوله ، فتستهزئون بالقرآن ، وبالرسول - صلى الله عليه وسلم - وبتعاليم الإسلام وتنطقون خلال سمركم بالقول الباطل ، الذى يدل على مرض قلوبكم ، وفساد عقولكم ، وسوء أدبكم .

وقوله : « مستكبرين » و « سامرا » و « تهجرون » أحوال ثلاثة مترادفة على الواو فى « تنكصون » ، أو متداخلة ، بمعنى أن كل كلمة منها حال مما قبلها .

قال القرطبى : « مستكبرين » حال ، والضمير فى « به » ، قال الجمهور : هو عائد على الحرم ، أو المسجد ، أو البلد الذى هو مكة . وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته فى الأمر .

أى : يقولون نحن أهل الحرم فلا نخاف . وقيل : المعنى أنهم يعتقدون فى نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل فيستكبرون لذلك .

وقالت فرقة : الضمير عائد على القرآن ، من حيث ذكرت الآيات .

والمعنى : يحدث لكم سماع آياتى كبرا وطغيانا فلا تؤمنوا بى . . . »(١) .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها تصور حسرة المشركين وجؤارهم

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ١٣٦ .

يوم ينزل بهم العذاب تصويرا بديعا ، كما تبين ما كانوا عليه من غرور وسوء أدب ، مما جعلهم أهلا لهذا المصير الأليم .

ثم تنتقل السورة الكريمة من تأنيبهم وتيئيسهم من الاستجابة لجؤارهم ، إلى سؤالهم بأسلوب توبيخى عن الأسباب التى أدت بهم إلى الإعراض عما جاءهم به رسولهم - صلى الله عليه وسلم - فتقول :

« أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القولَ ، أَمْ جاءَهُمْ مالمْ يأتِ آباءَهمُ الأوَّلِينَ (٦٨) أم لم يَعْرِفوا رسُولَهم فهُمْ لهُ منكِرُون (٦٩) أم يقولُونَ بهِ جِنَّةٌ ، بل جاءَهُمْ بالحقِّ وأكثرُهُم للحقِّ كارِهونَ (٧٠) ولوِ اتَّبعَ الحقُّ أهْواءَهُم لفَسَدتِ السَّمواتُ والأرْضُ ومَنْ فيهِنَّ ، بلْ أتيْنَاهم بذِكْرِهِم ، فهُمْ عن ذكْرِهِم معْرِضُونَ (٧١) أمْ تَسْأَلهُم خَرْجًا ، فخَرَاجُ ربِّكَ خيرٌ ، وهُو خيرُ الرَّازقِينَ (٧٢) وإنَّكَ لتَدْعُوهم إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وإنَّ الذينَ لا يؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لنَاكِبُونَ (٧٤) » .

قال الجمل : قوله - تعالى - : « أفلم يدبروا القول ... » شروع فى بيان أسباب حاملة لهم على ماسبق من قوله - تعالى - : « فكنتم على أعقابكم تنكصون ... » إلخ(١) .

والهمزة لإنكار ماهم فيه من عدم التدبر واستقباحه، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام . والمراد بالقول : القرآن الكريم وما اشتمل عليه من هدايات .

والمعنى : أفعلوا مافعلوا من النكوص على الأعقاب ، ومن الغرور ومن الهذيان بالباطل من القول ، فلم يتدبروا هذا القرآن ، ولم يتفكروا فيما اشتمل عليه من توجيهات حكيمة . .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٩٧

إنهم لو تدبروه لوجدوا فيه من العظات، والآداب والأحكام، والقصص، والعقائد، والتشريعات . . . مايسعدهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم

فالجملة الكريمة تحضهم على تدبر هذا القرآن ، لأنهم إن تدبروه تدبيرا صادقا ، لعلموا أنه الحق الذى لا يحوم حوله باطل .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - : « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »(١) .

وقوله - سبحانه - : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»(٢) .

وبعد أن وبخهم - سبحانه - على تركهم الانتفاع بالقرآن . أتبع ذلك بتقريعهم على أن ماجاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتفق فى أصوله مع ما جاء به الرسل السابقون لآبائهم الأولين .

أى : أكذبوا رسولهم لأنه جاءهم بما لم يأت به الرسل لآبائهم ؟ كلا ، فإن ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - يطابق - فى جوهره - ماجاء به إبراهيم وإسماعيل وغيرهما ، من آبائهم الأولين .

قال - تعالى - « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . . . »(٣) .

وقال - سبحانه - : قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم . . »(٤) .

ويجوز أن يكون المعنى : أكذب هؤلاء الجاهلون رسولهم - صلى الله عليه وسلم - لأنهم فى أمان من العذاب ، وهذا الأمان لم يكن فيه آباؤهم الأولين ؟

(١) سورة النساء الآية ٨٣ .
(٢) سورة محمد الآية ٢٤ .
(٣) سورة الشورى الآية ١٣ .
(٤) سورة الأحقاف الآية ٩ .

كلا ، فإن من شأن العقلاء أنهم لا يأمنون مكر الله ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

قال الآلوسي: وأم في «قوله - تعالى - «أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين» منقطعة ، وما فيها من معنى بل ، الإضراب والانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بآخر . والهمزة لإنكارا لوقوع لا لإنكار الواقع أى: بل أجاءهم من الكتاب مالم يأت آباءهم الأولين ، حتى استبعدوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال . بمعنى أن مجيء الكتب من جهته - تعالى - إلى الرسل سنة قديمة له - تعالى - وأن مجيء القرآن جار على هذه السنة فلماذا ينكرونه ؟

وقيل المعنى : أفلم يدبروا القرآن ليخافوا عند تدبر آياته ، ما نزل بمن قبلهم من المكذبين ، أم جاءهم من الأمن مالم يأت آباءهم الأولين ، حين خافوا الله - تعالى - فآمنوا به وبكتبه ورسله ، فالمراد بآبائهم : « المؤمنون » منهم كإسماعيل - عليه السلام - . . . »(١) .

ثم إنتقلت السورة إلى توبيخهم - ثالثا - على كفرهم مع علمهم بصدق الرسول وأمانته ، فقال - تعالى-«أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون» .

أى : يكون سبب كفرهم أنهم لم يعرفوا رسولهم محمدا - صلى الله عليه وسلم - ؟ كلا فإن هذا لا يصلح سببا ، إذ هم يعرفون حسبه ونسبه ،وأمانته، وصدقه ، وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين قبل بعثته ، وأبو سفيان - قبل أن يدخل فى الإسلام - شهد أمام هرقل ملك الروم . بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان معروفا بصدقه وأمانته قبل البعثة .

ثم إنتقلت السورة - للمرة الرابعة - إلى توبيخهم على أمر آخر ، فقال - تعالى - : « أم يقولون به جنة . . . » .

أى : أيكون سبب إصرارهم على كفرهم اتهامهم للرسول - صلى الله

(١) تفسير الآلوسي ج١٨ ص ٥٠ .

عليه وسلم ـ بالجنون؟ كلا، فإنهم يعلمون حق العلم أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أكمل الناس عقــلا، وأرجحهم فكرا، وأثقبهم رأيا، وأوفرهم رزانة.

وقوله ـ تعالى ـ «بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون» إضراب عما يدل عليه ما سبق من اتهامات باطلة دارت على ألسنة المشركين.

أى: ليس الأمر كما زعموا من أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ به جنة أو أنه أتاهم بما لم يأت لآبائهم الأولين، بل الأمر الصدق، أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاءهم بالحق الثابت الذى لا يحوم حوله باطل، ولكن هؤلاء القوم أكثرهم كارهون للحق، لأنه يتعارض مع أنانيتهم وشهواتهم، وأهوائهم.

وقال ـ سبحانه ـ: «وأكثرهم للحق كارهون» لأن قلة من هؤلاء المشركين، كانت تعرف أن الرسول قد جاءهم بالحق، وتحب أن تدخل فى الإسلام، ولكن حال بينهم وبين ذلك، الخوف من تعيير أقوامهم لهم أنهم فارقوا دين آبائهم وأجدادهم، كأبى طالب ـ مثلا ـ فإنه مع دفاعه عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقى على كفره.

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: قوله «وأكثرهم» فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق؟ قلت: كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافا من توبيخ قومه، وأن يقولوا صبأ وترك دين آبائه، لا كراهة للحق، كما يحكى عن أبى طالب.

فإن قلت: يزعم بعض الناس أن أبا طالب صح إسلامه؟ قلت: يا سبحان الله. كأن أبا طالب كان أخمل أعمام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، حتى يشتهر إسلام حمزة والعباس ـ رضى الله عنهما ـ ويخفى إسلام أبى طالب»[1].

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٩٥.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما كان سينزل بالعالم من فساد ، فيما لو اتبع الحق - على سبيل الفرض - أهواء هؤلاء المشركين، فقال - تعالى -: «ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ...»

والمراد بالحق هنا - عند كثير من المفسرين - هو الله - عز وجل - إذ أن هذا اللفظ من أسمائه - تعالى - .

والمعنى : ولو أجاب الله - تعالى - هؤلاء المشركين إلى ما يهوونه ويشتهونه من باطل وقبيح ، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، لأن أهواءهم الفاسدة من شرك ، وظلم ، وحقد ، وعناد ... لا يمكن أن يقوم عليها نظام هذا الكون البديع ، الذى أقمناه على الحق والعدل ...

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالحق هنا ما يقابل الباطل، ويدل على ذلك قوله - تعالى - : «بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون» .

فيكون المعنى : ولو اتبع الحق الذى جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - أهواء المشركين ، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، وذلك لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - جاءهم بالتوحيد وهم يريدون الشرك ، وجاءهم بمكارم الأخلاق ، وهم يريدون ما ألفوه من شهوات ، وجاءهم بالتشريعات العادلة الحكيمة ، وهم يريدون التشريعات التى ترضى غرورهم وأوضاعهم الفاسدة، والتى منها تفضيل الناس بحسب أحسابهم وغناهم، لا بحسب إيمانهم وتقواهم ...

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أننا نميل إلى الرأى الثانى ، لأنه أقرب إلى سياق الآيات ، كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - : «بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون» .

وقوله - سبحانه - «بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون»

انتقال من توبيخهم على كراهيتهم للحق ، إلى توبيخهم على نفورهم مما فيه عزهم وفخرهم .

والمراد بذكرهم : القرآن الذى هو شرف لهم ، كما قال ـ تعالى ـ: «وإنه لذكر لك ولقومك» .

أى : كيف يكرهون الحق الذى جاءهم به رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أنه قد أتاهم بالقرآن الكريم الذى فيه شرفهم ومجدهم؟ إن إعراضهم عن هذا القرآن ليدل دلالة قاطعة ، على غبائهم ، وجهلهم ، لأن العاقل لا يعرض عن شىء يرفع منزلته ، ويكرم ذاته .

ثم انتقلت السورة الكريمة ـ للمرة الخامسة ـ إلى توبيخهم على كفرهم ، مع أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يسألهم أجرا على ماينقذهم من ظلمات هذا الكفر إلى نور الإيمان ، فقال ـ تعالى ـ : «أم تسألهم خرجا ...» أى : أجرا وجعلا وجزاء .

أى : أيكون السبب فى عدم إيمانهم بك ـ أيها الرسول الكريم ـ أنك تسألهم أجرا على دعوتك لهم إلى إخلاص العبادة لنا ؟

لا . ليس الأمر كما يتوهمون ، فإنك لم تسألهم أجرا على دعوتك إياهم إلى الدخول فى الإسلام .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك «أم يقولون به جنة ...» وما بينهما اعتراض وقوله ـ سبحانه ـ : «فخراج ربك خير ، وهو خير الرازقين» تعليل لنفى سؤاله إياهم الأجر على دعوتهم إلى الحق .

أى : أنت ـ أيها الرسول الكريم ـ ماطالبتهم بأجر على دعوتك إياهم إلى الإيمان بالله ـ تعالى ـ وحده ، لأن ماأعطاك الله ـ تعالى ـ من خير وفضل . أكبر وأعظم من عطاء هؤلاء الضعفاء الذين لا يستغنون أبدا عن عطائنا . والله ـ تعالى ـ هو خير الرازقين ، لأن رزقه دائم ورزق غيره مقطوع ، ولأنه هو المالك لجميع الأرزاق ، وغيره لا يملك منه شيئا .

قال بعض العلماء: «المراد بالخرج والخراج هنا: الأجر والجزاء. والمعنى: أنك لا تسألهم على ما بلغتهم من الرسالة المتضمنة لخيري الدنيا والآخرة أجرا. وأصل الخرج والخراج: هو ما تخرجه إلى كل عامل فى مقابلة أجرة أو جعل.

وقرأ ابن عامر: «أم تسألهم خرجا فخرج ربك خير» - بإسكان الراء فيهما معا وحذف الألف -.

وقرأ حمزة والكسائى: «أم تسألهم خراجا فخراج ربك خير» - بفتح الراء بعدها ألف فيهما معا -.

وقرأ الباقون: «أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير» بإسكان الراء وحذف الألف فى الأول وفتح الراء وإثبات الألف فى الثانى.

والتحقيق: أن معنى اللفظين واحد، وأنهما لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان، خلافا لمن زعم أن بين معناهما فرقا. زاعما أن الخرج ما تبرعت به، وأن الخراج ما لزمك أداؤه»(١).

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة، ببيان أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يدعو إلا إلى الحق، وأن المعرضين عن دعوته عن طريق الحق خارجون، فقال - تعالى -: «وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ...».

أى: وإنك - أيها الرسول الكريم - لتدعو هؤلاء المشركين إلى طريق واضح قويم، تشهد العقول باستقامته وسلامته من أى عوج.

«وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة» كـكفار قريش ومن لف لفهم «عن الصراط» المستقيم «لناكبون» أى: لمائلون وخارجون.

يقال: نكب فلان عن الطريق ينكب نكوبا - من باب دخل -، إذا عدل عنه، ومال إلى غيره.

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ٨٠٦

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة . قد شهدت للرسول - صلى الله عليه وسلم - بالبراءة من كل تهمة تفوه بها المشركون ، وقطعت معاذيرهم ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، حيث حكت شبهاتهم بأمانة ثم كرت عليها بالإبطال ، وأثبتت أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما جاءهم ليدعوهم إلى الصراط المستقيم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن هؤلاء المشركين . قد قست قلوبهم ، وفسدت نفوسهم ، وماتت ضمائرهم ، وصاروا لا يؤثر فيهم الابتلاء بالخير أو الشر ، فقال - تعالى - :

« ولوْ رَحِمناهم وكَشَفنا ما بهم من ضُرٍّ ، للَجُّوا فى طُغيانِهِم يَعْمَهونَ (٧٥) ولقدْ أخَذْناهم بالعذابِ فما استكانُوا لِربِّهم وما يَتضرَّعونَ (٧٦) حتَّى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذابٍ شَديدٍ إذا هُم فيهِ مُبلِسُون (٧٧) » .

أى : « ولو رحمنا » هؤلاء المشركين الذين تنكبوا الصراط المستقيم « وكشفنا ما بهم من ضر » .

أى : من سوء حال بسبب ما نزل بهم من قحط وجدب وفقر .

« للجوا فى طغيانهم يعمهون » أى : لتمادوا فى طغيانهم ، وتجاوزوا الحدود فى كفرهم وضلالهم ، وفى تحيرهم وترددهم بدون تمييز بين الحق والباطل .

والتعبير بقوله - تعالى - « للجوا » يشعر بأنهم لقسوة قلوبهم ، صاروا لا تؤثر فيهم المصائب بل يزدادون بسببها طغيانا وكفرا ، إذ الفعل « لجوا » مأخوذ من اللجاج . وهو التمادى والعناد فى ارتكاب المنهى عن ارتكابه .

يقال : لج فلان فى الأمر يلج لجا ولجاجة ، إذا لازمه وواظب عليه . ومنه « اللجة » - بفتح اللام - لكثرة الأصوات ، ولجة البحر - بضم اللام - لتردد أمواجه . . .

وقوله : يعمهون من العمة ، بمعنى التردد والتحير ، وهو للقلوب بمنزلة العمى العيون .

وهو مأخوذ من قولهم : أرض عمهاء ، إذا لم يكن فيها علامات ترشد إلى الخروج منها .

وقوله - سبحانه - : « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ، مؤكد لما قبله من وصف هؤلاء المشركين بالجحود والعناد .

والمراد بالعذاب هنا : العذاب الدنيوى كالجوع والقحط والمصائب .

والاستكانة : الانتقال من كون إلى كون ، ومن حال إلى حال . ثم غلب استعمال هذه الكلمة فى الانتقال من حال التكبر والغرور إلى حال التذلل والخضوع .

أى : ولقد أخذنا هؤلاء الطغاة ، بالعذاب الشديد ، كالفقر ، والمصائب ، والأمراض فما خضعوا لربهم - عز وجل - وما انقادوا له وأطاعوه ، وما تضرعوا إليه - سبحانه - بالدعاء الخالص لوجهه الكريم ، لكى يكشف عنهم - عز وجل - ما نزل بهم من ضر .

ولفظ « حتى » فى قوله - تعالى - « حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد . . . » يقصد به ابتداء الكلام ، وإذا الأولى شرطية . والثانية وهى قوله « إذا هم فيه مبلسون » رابطة للجواب .

أى : هم مستمرون على جحودهم وعنادهم ، حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ، من أبواب عذاب الآخرة المعد لهم إذا هم فيه مبلسون ، أى : ساكتون من شدة الحيرة ، وآيسون من كل جاه . يقال : أبلس فلان إبلاسا ، إذا سكت فى حيرة ويأس من الخلاص مما هو فيه من عذاب وبلاء .

وقريب من هذه الآيات فى المعنى قوله - تعالى - : « إن شر الدواب

عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون »[١] .

وقوله - عز وجل - : «بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون »[٢] .

وقوله - سبحانه - : « ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون »[٣] .

ثم تأخذ السورة الكريمة بعد ذلك في تذكيرهم بنعم الله عليهم ، لعلهم يتوبون أو يتذكرون ، فتقول :

« وهُو الذِي أَنشَأَ لَكُم السَّمعَ والأَبْصَار والأَفئِدَةَ قليلاً ما تشكُرونَ (٧٨) وهُو الذِي ذَرَأَكُم في الأَرْضِ وإليه تحشَرُونَ (٧٩) وهُو الذِي يُحيي ويميتُ، ولهُ اختلافُ اللَّيلِ والنهارِ أفلاَ تَعقِلونَ (٨٠)».

أي : « وهو » الله - تعالى - وحده ، « الذى أنشألكم » أيها الناس بفضله ورحمته « السمع » الذى تسمعون به « والأبصار» التى تبصرون بها «والأفئدة» التى بواسطتها تفهمون وتدركون . . .

ولو تدبر الإنسان هذه النعم حق التدبر ، لاهتدى إلى الحق ، ولآمن بأن الخالق لهذه الحواس وغيرها ، هو الله الواحد القهار .

ولكن الإنسان - إلا من عصم الله - قليل الشكر لله - تعالى - ولذا قال - سبحانه - : « قليلا ما تشكرون » أي : شكراً قليلا ما تشكرون هذه

(١) سورة الأنفال الآية ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) سورة الأنعام الآية ٢٨ .
(٣) سورة الأنعام الآية ٤٢ ، ٤٣ .

النعم الجليلة ، بدليل أن أكثر الناس فى هذه الحياة ، كافرون بوحدانية الله - تعالى - .

فلفظ «قليلا» صفة لموصوف محذوف، و «ما» لتأكيد هذه القلة وتقريرها.

وقوله - سبحانه - : «وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون» بيان لنعمة أخرى من نعمه التى لاتحصى .

أى : وهو - سبحانه - الذى أوجدكم من الأرض ، ونشركم فيها عن طريق التناسل ، وإليه وحده تجمعون يوم القيامة للحساب .

ثم ذكر مايدل على كمال قدرته فقال : «وهو الذى يحيى ويميت» بدون أن يشاركه فى ذلك مشارك ، «وله» وحده التأثير فى اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما ، وزيادة أحدهما ونقص الآخر ، «أفلا تعقلون» وتدركون مافى هذا كله من دلائل واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ؟

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن هؤلاء المشركين ، لم يقابلوا نعم الله - تعالى - عليهم بالشكر ، وإنما قابلوها بالجحود ، وبإنكار البعث والحساب، وأمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم فقال -تعالى- :

«بلْ قالوا مِثْلَ ما قالَ الأوَّلون (٨١) قالوا : أئِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرابًا وعِظامًا ، أئِنَّا لمبْعُوثُونَ (٨٢) لقدْ وُعِدْنا نحنُ وآباؤُنا هذا مِنْ قبلُ ، إنْ هذَا إلاَّ أساطيرُ الأوَّلينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الأرضُ ومَنْ فيها إنْ كُنتم تعلَمُونَ (٨٤) سَيقولونَ للهِ ، قُلْ أفلا تَذكَّرونَ (٨٥) قُلْ : مَنْ ربُّ السَّمواتِ السَّبْعِ وربُّ العَرشِ العَظيمِ (٨٦) سَيقولونَ للهِ ، قل : أفَلاَ تتَّقونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ ملكوتُ كلِّ شيْءٍ ، وهُو يُجيرُ ولا يُجارُ عليهِ إنْ كنتُم تعلَمونَ (٨٨) سَيقولونَ للهِ قُلْ فأنَّى تُسحرونَ (٨٩)».

ولفظ « بل » فى قوله - تعالى - : «بل قالوا مثل ماقال الأولون» للإضراب الانتقالى . وهو معطوف على مضمر يقتضيه المقام .

أى : لقد سقنا لهم ألوانا من النعم ، وسقنا لهم ما يدل على قدرتنا . ومع ذلك فلم يؤمنوا . بل قالوا مثل ما قال من هم على شاكلتهم فى الكفر من الأقوام الأولين .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه فقال : « قالوا » على سبيل التعجب والإنكار « أئذا متنا ، وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون » .

فهم يرون - لجهلهم وغبائهم - أنه من المستحيل أن يعادوا إلى الحياة بعد أن يموتوا ويصيروا ترابا وعظاما نخرة .

وهذا الذى قالوه هنا . قد حكى القرآن عنهم مثله فى آيات كثيرة ، من ذلك قوله تعالى - « أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد »(١) .

وقوله - سبحانه - : «يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذا كنا عظاما نخرة . قالوا تلك إذاً كرة خاسرة »(٢).

ثم بين - سبحانه - أنهم لم يكتفوا بإنكارهم للبعث ، بل أضافوا إلى ذلك سوء الأدب ، والسخرية ممن يؤمن به فقال : « لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ... » .

أى : لقد وعدنا على لسان هذا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن البعث حق ، كما وعد آباؤنا قبل ذلك على ألسنة الرسل السابقين ، ونحن لا نصدق هذا الرسول ، ولا أولئك الرسل .

« إن هذا إلا أساطير الأولين » أى : ما هذا البعث الذى وعدنا جميعا به ، إلا أساطير الأولين . أى : أكاذيبهم التى سطروها من عند أنفسهم فى كتبهم .

---

(١) سورة ق الآية ٣ .

(٢) سورة النازعات الآيات ١٠ - ١٢ .

والأساطير: جمع أسطورة، كأحدوثة، وأعجوبة، وأكذوبة.

وهكذا الجهلاء المغرورون، لا يقفون من الحق موقف المنكر له فحسب بل يضيفون إلى ذلك سوء الأدب، وقبح المنطق، والقول بغير علم.

وقد أمر الله - تعالى - رسوله أن يرد على أباطيلهم، وأن يلزمهم بثلاث حجج، تدل على أن الله - تعالى - قادر على إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم.

أما الحجة الأولى فتتجلى فى قوله - سبحانه -: «قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون» أى: قل لهم - أيها الرسول الكريم - لمن هـــذه الأرض ملكا وتصرفا، ولمن هذه المخلوقات التى عليها، خلقا وتدبيرا، إن كنتم من أهل العلم والفهم؟ أو كنتم عالمين بذلك فأخبرونى من خالقهما؟ فجواب الشرط محذوف لدلالة الاستفهام عليه.

«سيقولون لله» ولا يملكون أن يقولوا غير ذلك، لأن بداهة العقل تضطرهم إلى أن يعترفوا بأن الأرض ومن فيها لله - تعالى -.

«قل أفلا تذكرون» أى: قل لهم فى الجواب على اعترافهم هذا، أتعلمون ذلك، فلا تتذكرون بأن من خلق الأرض ومن فيها قادر على إحياء الناس بعد موتهم.

وأما الحجة الثانية فهى قوله - سبحانه -: «قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم» وهو كرسيه الذى وسع السموات والأرض؟

«سيقولون لله» فهو رب كل شىء. «قل أفلا تتقون» أى: قل لهم على سبيل التبكيت والتقريع، أتقولون ذلك، ومع هذا لا تتقون الله. ولا تخافون عقابه، بسبب عبادتكم لغيره، وإنكاركم لما نهاكم عن إنكاره؟

وأما الحجة الثالثة، فتتجلى فى قوله - عز وجل -: «قل من بيده ملكوت كل شىء...» أى: قل لهم من بيده «ملك كل شىء كائنا ما كان».

فالملكوت من الملك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة فى هذا الملك.

« وهو يجير ولا يجار عليه » أى : وهو - سبحانه - يغيث من يشاء من خلقه فلا يستطيع أحد أن يناله بسوء ، أما من يريد الله - تعالى - أن ينزل به عقابه ، فلن يستطيع أحد أن يمنع هذا العقاب عنه .

يقال : أجرت فلانا على فلان ، إذا أغثته وأنقذته منه . وعدى بعلى لتضمينه معنى النصر .

« إن كنتم تعلمون » أى : إن كنتم - أيضا - من أهل العلم والفهم .

« سيقولون لله » أى: سيقولون ملك كل شيء لله ، والقدرة على كل شيء لله .

« قل فأنى تسحرون » أى : قل لهم فى الجواب عليهم ، مادمتم قد اعترفتم بأن كل شيء تحت قدرة الله وسيطرته ، فكيف تخدعون وتصرفون عن الحق وعن الرشد مع علمكم بهما ، إلى ما أنتم عليه من باطل وغى ! !

يقال : سحر فلان غيره ، بمعنى خدعه ، أو أتى عمل السحر . والمسحور هو الشخص المخدوع أو من تأثر بما عمل له من سحر .

وبهذه الحجج الدامغة ، أخرس الله - تعالى - ألسنة المنكرين للبعث ، وأثبت لهم أنه - سبحانه - لا يعجزه شيء .

وبعد أن أثبت - سبحانه - أن البعث حق ، أتبع ذلك بإثبات وحدانيته ، وإبطال مايزعمون له - تعالى - من الولد والشريك ، فقال :

« بلْ أتَيْنَاهُمْ بالحقّ وإنَّهُمْ لكاذبونَ (٩٠) ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ ولدٍ ، وما كانَ معهُ من إلهٍ ، إذًا لذهَبَ كلُّ إلهٍ بمـا خَلَقَ ، ولعَلا بعضهم على بَعضٍ ، سُبحان اللهِ عمَّا يَصِفونَ (٩١) عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ فتَعالَى عما يُشرِكُونَ (٩٢) » .

وقوله - سبحانه - « بل أتيناهم بالحق . . . » إضراب عن قول أولئك الكافرين « إن هذا إلا أساطير الأولين » .

أى : ما كان ما أخبرناهم به من أن هناك بعثا وحسابا ، أساطير الأولين بل أخبرناهم وأتيناهم بالحق الثابت ، والوعد الصادق ، وإنهم لكاذبون فى دعواهم أن البعث غير واقع ، وأن مع الله - تعالى - آلهة أخرى ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يجئهم بالحق الذى يريدونه .

ثم وبخهم - سبحانه - على قولهم إن لله ولدا وشريكا فقال : « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض . . . » .

أى : لم يتخذ الله - تعالى - ولدا - كما يزعم هؤلاء الجاهلون - لأنه - سبحانه - منزه عن ذلك . ولم يكن معه من إله يشاركه فى ألوهيته وربوبيته - عز وجل - .

ولو كان الأمر كما يزعمون ، إذا لذهب كل إله بما خلق واستقل به عن غيره ، « ولعلا بعضهم على بعض » ، أى : ولحدث بينهم التحارب والتغالب . . . ولفسد هذا الكون ، كما قال - تعالى - : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . . . » .

« سبحان الله عما يصفون » أى : تنزه الله - تعالى - وتقدس عما يصفه به هؤلاء الجاهلون . فهو - سبحانه - الواحد الأحد . الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

« عالم الغيب والشهادة » أى : هو العليم بما يغيب عن عقول الناس ومداركهم وهو العليم - أيضا - بما يشاهدونه بأبصارهم وحواسهم .

« فتعالى » الله - عز وجل - وتقدس « عما يشركون » معه من آلهة أخرى ، لا تضر ولا تنفع ، ولا تملك لعابديها موتا ولا حياة ولا نشورا .

ثم تترك السورة الحديث مع هؤلاء المشركين، وتوجه حديثها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فتأمره أن يلتجىء إلى خالقه، وأن يستعيذ به من شرور الشياطين .. قال - تعالى -:

« قُلْ ربِّ إما تُرِيَنِّى ما يوعَدونَ (٩٣) ربِّ فلا تجعَلْنى فى القوْمِ الظَّالمِينَ (٩٤) وإنَّا عَلَى أنْ نُرِيكَ ما نَعِدُهم لقادِرُون (٩٥) ادفَعْ بالتى هىَ أحْسَنُ السَّيِّئةَ، نحنُ أعْلَم بما يَصِفُون (٩٦) وقلْ ربِّ أعوذ بِكَ من همَزاتِ الشَّياطِينِ (٩٧) وأعوذُ بِكَ ربِّ أن يَحْضُرُونِ (٩٨) ».

قال الجمل: «لما أعلم الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأنه منزل عذابه بهؤلاء المشركين، إما فى حياته - صلى الله عليه وسلم -، أو بعد مماته، علمه كيفية الدعاء بالتخلص من عذابهم فقال - تعالى -: «قل رب إما تريني ما يوعدون». وقوله: «تريني» فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، و«ما» مفعول به، ورأى بصرية تعدت لمفعولين بواسطة الهمزة، لأنه من أرى الرباعى، فياء المتكلم مفعول أول، وما الموصولة المفعول الثانى ..»[1].

أى: قل - أيها الرسول الكريم - يارب إن تطلعنى وتريني العذاب الذى توعدت به هؤلاء المشركين، فأسألك - يا إلهى - أن لا تجعلنى قرينا لهم فيه، وأبعدنى عن هؤلاء القوم الظالمين، حتى لا يصيبنى ما يصيبهم.

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى عصمة من الله - تعالى - من أن يجعله مع القوم الظالمين، حين ينزل بهم العذاب، ولكن جاءت الآية بهذا الدعاء والإرشاد، للزيادة فى التوقى، ولتعليم المؤمنين أن لا يأمنوا مكر الله، وأن يلوذوا دائما بحماه.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٢٠١.

وقوله - سبحانه - : « وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون » بيان لكمال قدرة الله - تعالى - التي لا يعجزها شيء.

أي : نحن قادرون - يا محمد - على إطلاعك على العذاب الذي أعددناه لهم ولكن لحكمة نعلمها ، لم نطلعك عليه . بل سنؤخره عنهم إلى الوقت الذي نريده، قال - تعالى - : « وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب »(١) .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالصبر على أذاهم . وبمقابلة سيئاتهم بالخصال الحسنة ، فقال: « ادفع بالتي هي أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون » .

أي : قابل - أيها الرسول الكريم - سيئات هؤلاء المشركين الجاهلين ، بالأخلاق والسجايا التي هي أحسن من غيرها ، كأن تعرض عنهم ، وتصبر على سوء أخلاقهم ، فأنت صاحب الخلق العظيم ، ونحن أعلم منك بما يصفوننا به من صفات باطلة . وما يصفونك به من صفات ذميمة ، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقون ، في الوقت الذي نريده .

فالآية الكريمة توجيه حكيم من الله - تعالى - لنبيه - ، وتسلية له عما أصابه من أعدائه ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » .

ثم أمره الله - تعالى - بأن يستعيذ به من وساوس الشياطين ونزعاتهم فقال: « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون » .

وقوله : « همزات » جمع همزة وهي المرة من الهمز . وهي في اللغة النخس والدفع باليد أو بغيرها . يقال : همزه يهمزه - بضم الميم وكسرها - إذا نخسه ودفعه وغمزه .

---

(١) سورة الرعد آية ٤٠ .

ومنه المهماز ، وهو حديدة تكون مع الراكب للدابة يحثها بها على السير .

والمراد بهمزات الشياطين هنا : وساوسهم لبنى آدم وحضهم إياهم على ارتكاب ما نهاهم الله - تعالى - عنه .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - يارب أعوذ بك ، وأعتصم بحماك ، من وساوس الشياطين ، ومن نزغاتهم الآثمة ، ومن همزاتهم السيئة ، وأعوذ بك يا إلهى وأتحصن بك ، من أن يحضرنى أحد منهم فى أى أمر من أمور دينى أو من أمور دنياى ، فأنت وحدك القادر على حمايتى منهم .

وفى هذه الدعوات من الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو المعصوم من همزات الشياطين - تعليم للمؤمنين ، وإرشاد لهم ، إلى اللجوء - دائما - إلى خالقهم ، لكى يدفع عنهم وساوس الشياطين ونزغاتهم .

* * *

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى بيان أقوال هؤلاء المشركين عندما ينزل بهم الموت ، وعندما تلفح وجوههم النار ، وكيف أنهم يلتمسون العودة بذلة ولكن لا يجابون إلى طلبهم ، لأنه جاء فى غير وقته . . .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور أحوالهم عند الاحتضار ، وعند الإلقاء بهم فى النار فتقول :

« حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا ، إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ

خالدُونَ (١٠٣) تلفَحُ وجُوهَهم النارُ وهُمْ فيها كالِحُونَ (١٠٤) ألم تكُنْ آياتِي تتْلَى عليكُم فكُنتُم بها تكَذِّبونَ (١٠٥) قالوا ربَّنَا غلبَتْ علينَا شِقْوتنَا وكنَّا قوماً ضالِّينَ (١٠٦) ربَّنا أخرِجْنا منها فإنْ عُدْنا فإنَّا ظالمُونَ (١٠٧) قالَ اخسَأُوا فيها ولا تكَلِّمون (١٠٨) إنَّه كانَ فَرِيقٌ مِنْ عبَادِي يقُولونَ ، ربَّنَا آمنَّا فاغفِرْ لَنا وارْحَمْنا وأنتَ خيرُ الرَّاحِمِين (١٠٩) فاتخذتمُوهُمْ سِخْرِيًا حتَّى أنسَوكُم ذِكْرِي وكنتُم منهم تضحكُونَ (١١٠) إنِّي جزَيْتهُم اليَومَ بما صَبَروا أنَّهم هُمُ الفائزُون (١١١) » .

وقوله - تعالى - : « حتى إذا جاء أحدهم الموت . . . » بيان لحال الكافرين عندما يدركهم الموت . و « حتى » حرف ابتداء . والمراد بمجىء الموت: مجىء علاماته .

أى : أن هؤلاء الكافرين يستمرون فى لجاجهم وطغيانهم، حتى إذا فاجأهم الموت ، ونزلت بهم سكراته ، ورأوا مقاعدهم من النار ، قال كل واحد منهم يارب أرجعنى إلى الدنيا ، « لعلى أعمل صالحا فيما تركت » أى : لكى أعمل عملا صالحا فيما تركت خلفى من عمرى فى أيام الدنيا ، بأن أخلص لك العبادة والطاعة وأتبع كل ماجاء به نبيك من أقوال وأفعال .

وجاء لفظ « ارجعون » بصيغة الجمع . لتعظيم شأن المخاطب ، وهو الله - تعالى - ، ولاستدرار عطفه - عز وجل - .

أى أن هذا الكافر استغاث بالله - تعالى - فقال : رب ثم وجه خطابه بعد ذلك إلى خزنة النار من الملائكة فقال : « ارجعون » .

و « لعل » فى قوله - تعالى - : « لعلى أعمل صالحا » للتعليل . أى: ارجعون لكى أعمل عملا صالحا .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة، منها قوله - تعالى - : «وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل»[١]

وقوله - سبحانه - : «ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم . ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون»[٢] .

ثم بين - سبحانه - الجواب عليهم فقال : «كلا إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» .

و «كلا» حرف زجر وردع . والبرزخ : الحاجز والحاجب بين الشيئين لكى لا يصل أحدهما إلى الآخر . والمراد بالكلمة : ما قاله هذا الكافر أى : رب ارجعون .

أى : يقال لهذا الكافر النادم : كلا ، لا رجوع إلى الدنيا ، إنها أى قوله رب ارجعون ، «كلمة هو قائلها» ولن تجديه شيئا ، لأنه قالها بعد فوات الأوان لنفعها ، «ومن ورائهم» أى : ومن أمام هذا الكافر وأمثاله، حاجز يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ، وهذا الحاجز مستمر إلى يوم البعث والنشور .

فالمراد بالبرزخ : تلك المدة التى يقضيها هؤلاء الكافرون منذ موتهم إلى يوم يبعثون .

وفى هذه الجملة الكريمة ، زجر شديد لهم من طلب العودة إلى الدنيا ، وتيئيس وإقناط لهم من التفكير فى المطالبة بالرجعة ، وتهديد لهم بعذاب القبر إلى يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن ما ينفع الناس يوم القيامة إيمانهم وعملهم ، لا أحسابهم ولا أنسابهم . فقال - تعالى - : «فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» .

---

(١) سورة الشورى الآية ٤٤ . (٢) سورة السجدة الآية ١٢ .

والأنساب : جمع نسب . والمراد به القرابة . والمراد بالنفخ فى الصور : النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور . وقيل: النفخة الأولى التى عندها يحيى الله الموتى .

والمراد بنفى الأنساب : انقطاع آثارها التى كانت مترتبة عليها فى الدنيا ، من التفاخر بها ، والانتفاع بهذه القرابة فى قضاء الحوائج .

أى : فإذا نفخ إسرافيل - عليه السلام - فى الصور - وهو آلة نفوض هيئتها إلى الله - تعالى - ، فلا أنساب ولا أحساب بين الناس نافعة لهم فى هذا الوقت ، إذ النافع فى ذلك الوقت هو الإيمان والعمل الصالح .

« ولاهم يتساءلون » فيما بينهم لشدة الهول ، واستيلاء الفزع على النفوس ولا تنافى بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » فإن كل آية تحكى حالة من الحالات ، ويوم القيامة له مواقف متعددة ، فهم لا يتساءلون من شدة الهول فى موقف ، ويتساءلون فى آخر عندما يأذن الله - تعالى - لهم بذلك .

وقوله - سبحانه - : « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ... » بيان لما يكون بعد النفخ فى الصور من ثواب أو عقاب .

أى : وجاء وقت الحساب بعد النفخ فى الصور ، « فمن ثقلت موازينه » أى : موازين أعماله الصالحة « فأولئك هم المفلحون » فلاحا ليس بعده فلاح .

« ومن خفت » موازين أعماله الصالحة « فأولئك الذين خسروا أنفسهم » بأن ضيعوها وألقوا بها إلى التهلكة ، فهم « فى جهنم خالدون » خلودا أبديا .

« تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » واللفح: الإحراق الشديد يقال : فلان لفحته النار تلفحه لفحا ولفحانا . إذا أحرقته .

والكلوح ، هو أن تتقلص الشفتان ، وتنكشف الأسنان ، لأن النار قد أحرقت الشفتين ، كما يشاهد - والعياذ بالله - رأس الشاة بعد شويها .

أى : تحرق النار وجوه هؤلاء الأشقياء ، وهم فيها متقلصو الشفاه عن الأسنان ، من أثر ذلك الإحراق واللفح .

ثم يقال لهم كل هذا العذاب المهين على سبيل التقريع والتوبيخ : « ألم تكن آياتى » الدالة على وحدانيتى وقدرتى وصدق رسلى « تتلى عليكم » فى الدنيا على ألسنة هؤلاء الرسل الكرام « فكنتم بها » أى : بهذه الآيات « تكذبون » هؤلاء الرسل فيما جاءوكم به من عندى من هدايات وإرشادات .

وكأنهم قد خيل إليهم - بعد هذا السؤال التوبيخى ، أنهم قد أذن لهم فى الكلام ، وأن اعترافهم بذنوبهم قد ينفعهم، فيقولون - كما حكى القرآن عنهم - : « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا . . . » أى : ياربنا تغلبت علينا أنفسنا الأمارة بالسوء ، فصرفتنا عن الحق ، وتغلبت علينا ملذاتنا وشهواتنا وسيئاتنا التى أفضت بنا إلى هذا المصير المؤلم « وكنا قوما ضالين » عن الهدى والرشاد ، بسبب شقائنا وتعاستنا .

« ربنا أخرجنا منها » أى : من هذه النار التى تلفح وجوهنا « فإن عدنا » إلى ما نحن عليه من الكفر وارتكاب السيئات « فإنا ظالمون » أى : فإنا متجاوزون لكل حد فى الظلم ، ونستحق بسبب ذلك عذابا أشد مما نحن فيه .

وهكذا يصور القرآن بأسلوبه البديع المؤثر ، أحوال الكافرين يوم القيامة ، تصويرا ترتجف له القلوب ، وتهتز منه النفوس ، وتقشعر من هوله الأبدان .

وقوله - سبحانه - : « قال اخسأوا فيها ولا تكلمون » جواب على طلبهم الخروج من النار ، والعودة إلى الدنيا .

أى : قال الله - تعالى - لهم على سبيل الزجر والتيئيس : « اخسئوا فيها » اسكنوا وانزجروا انزجار الكلاب ، وامكثوا فى تلك النار « ولا تكلمون » فى شأن خروجكم منها ، أو فى شأن عودتكم إلى الدنيا .

وقوله - تعالى - « إنه كان فريق من عبادى يقولون . . . » تعليل لزجرهم عن طلب الخروج أى : اخسأوا فى النار ولا تكلمون ، لأنه كان فى الدنيا فريق كبير من عبادى المؤمنين يقولون بإخلاص ورجاء : « ربنا آمنا » بك واتبعنا رسلك « فاغفر لنا » ذنوبنا « وارحمنا » برحمتك التى وسعت كل شىء « وأنت خير الراحمين » .

وقوله - سبحانه - : « فاتخذتموهم سخريا . . . » هو محط التعليل ، أى : فكان حالكم معهم أنكم سخرتم واستهزأتم بهم .

« حتى أنسوكم ذكرى » أى : فاتخذتموهم سخريا ، وداومتم على ذلك ، وشغلكم هذا الاستهزاء ، حتى أنسوكم - لكثرة انهماككم فى السخرية بهم - تذكر عقابى لكم فى هذا اليوم ، « وكنتم منهم تضحكون » فى الدنيـــا ، وتتغامزون عندما ترونهم استخفافا بهم .

فلهذه الأسباب ، اخسأوا فى النار ولا تكلمون ، أما هؤلاء المؤمنون الذين كنتم تستهزئون بهم فى الدنيا . فإنى « جزيتهم اليوم » الجزاء الحسن « بما صبروا أنهم هم الفائزون » فوزا ليس هناك ماهو أكبر منه .

وبعد هذا الرد الذى فيه مافيه من الزجر للكافرين وبعد بيان أسبابه . وما اشتمل عليه من تبكيت وتقريع ، يوجه إليهم - سبحانه - سؤالا يزيدهم حسرة على حسرتهم ، فيقول :

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ، فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ

لا يفلح الكافرون (١١٧) وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين (١١٨) » .

أى : قال الله - تعالى - لهم بعد أن زجرهم وأمرهم أن يسكتوا سكوت هوان وذلة: كم عدد السنين التى لبثتموها فى دنيا كم التى تريدون الرجوع إليها ؟

ولا شك أن الله - تعالى - يعلم مقدار الزمن الذى لبثوه ، ولكنه سألهم ليبين لهم قصر أيام الدنيا ، بالنسبة لما هم فيه من عذاب مقيم ، وليزيد فى حسرتهم وتوبيخهم .

وهنا يقولون فى يأس وذلة : « لبثنا يوما أو بعض يوم » وهو جواب يدل على استصغارهم للمدة التى لبثوها فى الدنيا ، بجانب ما هم فيه من عذاب .

وقوله - تعالى - « فاسأل العادين » يشعر بذهولهم عن التحقق من مقدار المدة التى لبثوها فى الدنيا

أى : فاسأل المتمكنين من معرفة المدة التى مكثناها فى الدنيا .

فيرد الله - تعالى - عليهم بقوله « قال إن لبثتم » أى : ما لبثتم فى الدنيا « إلا قليلا » أى : إلا وقتا قليلا « لو أنكم كنتم تعلمون » شيئا من العلم لأدركتم أن ما لبثتموه فى الدنيا ، هو قليل جدا بالنسبة إلى مكثكم فى النار بسبب إصراركم على كفركم فى حياتكم الدنيا . فجواب لو محذوف ، لدلالة الكلام عليه .

ولا يتعارض قولهم هنا « لبثنا يوما أو بعض يوم » مع آيات أخرى ذكرت بأنهم « يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا »(١) وبأنهم « ما لبثوا غير ساعة » كما فى قوله - تعالى - : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ... »(٢) .

لأن كل فريق منهم قد أخبر بما تبادر إلى ذهنه ، فبعضهم قال لبثنا عشرا ، وبعضهم قال لبثنا يوما أو بعض يوم ، وبعضهم أقسم بأنه ما لبث فى الدنيا غير ساعة

(١) سورة طه الآية ١٠٣ . (٢) سورة الروم الآية ٥٥ .

وهذا يدل على أن أهوال العذاب، قد أنستهم ما كانوا فيه فى الدنيا من متاع، وما انغمسوا فيه من شهوات ..

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا .... » للانكار والنفى، والحسبان هنا : بمعنى الظن . والفاء معطوفة على محذوف مقدر . والعبث : اللعب ومالا فائدة فيه من قول أو فعل .

أى : أغرتكم، وغفلتم عن مصيركم، فحسبتم أنما خلقناكم عبثا لا لحكمة تقتضيها إرادتنا من خلقكم، وحسبتم كذلك « أنكم إلينا لاترجعون » يوم القيامة للحساب والجزاء .

إن جزاء هذا الحسبان الباطل، هو هذا المصير المهين الذى تصطلون بناره اليوم ثم نزه - سبحانه - ذاته عن أن يكون قد خلقهم عبثا فقال : « فتعالى الله الملك الحق .... » .

أى : فتعاظم وتقدس عن كل مالا يليق بجلاله وكماله، الله الملك الحق، فهو - عز وجل - منزه عن أن يخلق الناس بدون حكمة أو غرض صحيح .

« لا إله إلا هو » فإن كل ما عداه مخلوق له، وهو - سبحانه - « رب العرش الكريم » .

ثم هدد - سبحانه - كل من يعبد غيره أشد تهديد فقال : « ومن يدع مع الله إلها آخر » أى : ومن يدع مع الله - تعالى - إلها آخر فى عبادته أو مناجاته أو أقواله، أو أفعاله ...

« لا برهان له به » أى : لا دليل له على هذه العبادة . وليس لهذه الجملة الكريمة مفهوم مخالفة، بل هى صفة مطابقة للواقع، لأن كل عابد لغير الله، لادليل له على هذه العبادة إطلاقا، إذ العبادة لاتكون إلا لله - تعالى - وحده .

فذكر هذه الجملة لإقرار الواقع وتأكيده، لا لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق .

وقوله « فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون » تهديد شديد لمن يدع مع الله - تعالى - إلها آخر . أى : من يفعل ذلك فسيلقى الحساب الشديد، والجزاء الرادع ، من عند ربه - عز وجل - ، لأن عدالته قد اقتضت أن الكافرين به لا ينالون الفلاح ، وإنما ينالون الخزى والخسران .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : « وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » أى : وقل - أيها الرسول الكريم - مناجيا ربك : رب اغفر للمؤمنين ذنوبهم ، وارحم العصاة منهم ، وأنت يامولانا خير من يرحم، وخير من يغفر .

قال الآلوسى : «وفى تخصيص هذا الدعاء بالذكر مايدل على أهمية مافيه ، وقد علم النبي - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر أن يقول نحوه فى صلاته . فقد أخرج الشيخان عن أبى بكر - رضى الله عنه - قال : يارسول الله،علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى . فقال له قل : « اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم »(١) .

وبعد : فهذه هى سورة « المؤمنون » وهذا تفسير محرر لها . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر :

مساء الثلاثاء : ١١ من ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ

٤/١٢/١٩٨٤ م

(١) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ٧٢ .

فهرس إجمالي لتفسير « سورة المؤمنون »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة	٥
١	قد أفلح المؤمنون ...	٩
١٢	ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ...	١٥
١٧	ولقد خلقنا فوقـكم سبع طرائق ...	١٨
٢٣	ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ...	٢٤
٣١	ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ...	٣٣
٤٢	ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ...	٣٩
٥٣	فتقطعوا أمرهم بينهم ...	٤٧
٥٧	إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ...	٤٩
٦٣	بل قلوبهم فى غمرة من هذا ...	٥٣
٦٨	أفلم يدبروا القول ...	٥٧
٧٥	ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر ...	٦٤
٧٨	وهو الذى أنشأ لـكم السمع والأبصار ...	٦٦
٨١	بل قالوا مثل ماقال الأولون ...	٦٧
٩٠	بل أتيناهم بالحق وإنهم لـكاذبون ...	٧٠
٩٩	حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ...	٧٥
١١٢	قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ...	٧٩

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة النور

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء الثامن عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ — ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة وتمهيـد

١ — سورة النور من السور المدنية ، وعدد آياتها أربع وستون آية ، وكان نزولها بعد سورة النصر .

وقد اشتملت هذه السورة الكريمة ، على أحكام العفاف والستر . وهما قوام المجتمع الصالح . وبدونها تنحط المجتمعات ، ويصير أمرها فرطا ، ويصبح الفرد إلى الحيوان الأعجم ، أقرب منه إلى الإنسان العاقل .

قال الآلوسي: «روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » .

وعن حارثة بن مضرب قال : كتب إلينا عمر بن الخطاب ، أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور »[1] .

٢ — وتبدأ هذه السورة الكريمة ببدء فريد ، تقرر فيه وجوب الانقياد لما فيها من أحكام وآداب فتقول: « سورة أنزلناها وفرضناها ، وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون » .

ثم تقبح فاحشة الزنا تقبيحا يحمل النفوس على النفور منها ، وعلى نبذ مرتكبيها . وعلى تنفيذ حدود الله - تعالى - فيهم بدون شفقة أو رأفة ...

قال - تعالى - : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ... » .

---

(١) تفسير الآلوسي ج ١٨ ص ٧٤ .

ثم تبين السورة الكريمة بعد ذلك ، حكم الذين يرمون النساء العفيفات بالفاحشة، وحكم الذين يرمون أزواجهم بذلك، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم .

قال - تعالى - : « والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة . ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم . والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين .... » .

٤ — ثم ذكر - سبحانه - فى ست عشرة آية قصة الإفك ، على الصديقة بنت الصديق ، ومن بين ما اشتملت عليه هذه القصة : تنبيه المؤمنين إلى العذاب العظيم الذى أعده الله - تعالى - لمن أشاع هذا الإفك ، وحض المؤمنين على التثبت من صحة الأخبار ، وعلى وجوب حسن الظن بالمؤمنين ، وعلى تحذيرهم من اتباع خطوات الشيطان ..

ثم ختمت القصة ببراءة السيدة عائشة من كل ما اتهمت به ، قال - تعالى - : « أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم » .

٥ — وبعد أن أفاضت السورة الكريمة فى بيان قبح فاحشة الزنا ، وفى عقوبة من يقذف المحصنات الغافلات .. أتبعت ذلك بحديث مستفيض ، عن آداب الاستئذان ، وعن وجوب غض البصر بالنسبة للرجال والنساء على السواء ، وعن تعليم الناس الآداب القويمة ، والأخلاق المستقيمة ، حتى يحيا المجتمع المسلم حياة يسودها الطهر والعفاف والنقاء ...

قال - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ، حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون .... » .

وقال - سبحانه - : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن .... » .

٦ — ثم حببت السورة الكريمة إلى المؤمنين والمؤمنات الزواج من أهل الدين والصلاح ، دون أن يمنعهم من ذلك الفقر أو قلة ذات اليد ، فإنهم «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم » وعلى الذين لم يتيسر لهم وسائل الزواج ، أن يعتصموا بالعفاف ، حتى يغنيهم الله - تعالى - من فضله .

قال - تعالى - : «وأنكحوا الأيامى منكم - أى : زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر - ، والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء ، يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله . . .

٧ — وبعد أن ساقت السورة الكريمة تلك التوجيهات السامية ، التي من شأنها أن تسلح الأفراد والجماعات ، بسلاح الطهر والعفاف والتستر والآداب الحميدة . . أتبعت ذلك ببيان أن الله - تعالى - هو نور العالم كله علويه وسفليه ، وهو منوره بآياته التكوينية والتنزيلية الدالة على وحدانيته وقدرته ، وأن أشرف البيوت في الأرض ، هي بيوته التي يذكر فيها اسمه والتي يسبح له فيها بالغدو والآصال «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

تلك هي عاقبة المؤمنين الصادقين . التي لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، أما الكافرون فأعمالهم «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب » .

٨ — ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - في هذا الكون . وأن المتأمل في هذا الوجود ، يرى مظاهر قدرته - سبحانه - ظاهرة في هذا السحاب الذي يتحول إلى مطر لا غنى للناس عنه ، وفي تقلب الليل والنهار ، وفي خلق الدواب على أشكال مختلفة . . .

قال ـ تعالى ـ : «يقلب الله الليل والنهار، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار. والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير» .

٩ — ثم كشفت السورة الكريمة للمؤمنين عن جانب من رذائل المنافقين ، لكى يحذروهم . فقال ـ تعالى ـ : «ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين. وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، إذا فريق منهم معارضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون ...» .

١٠ — وبعد هذا التوبيخ للمنافقين على سلوكهم الذميم ، وعلى نكوصهم عن حكم الله ـ تعالى ـ ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء وعد الله ـ تعالى ـ للمؤمنين : بالاستخلاف فى الأرض ، وبالتمكين فى الدين ، وبتبديل خوفهم أمنا، فقال ـ تعالى ـ : «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» .

١١ — ثم عادت السورة مرة أخرى إلى الحديث عن آداب الاستئذان، فأمرت المؤمنين أن يعودوا مماليكهم وصبيانهم الذين لم يبلغوا الحلم ، على الاستئذان فى الدخول عليهم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر ، وعند وقت الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، فإن هذه الأوقات قد تكون المرأة أو الرجل فيها ، بحالة لا يصح الإطلاع عليها ...

قال ـ تعالى ـ «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ،

والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة . ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . . . .

١٢ — ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ببيان صفات المؤمنين الصادقين، وبحضهم على تكريم رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعظيمه وتوقيره . وببيان أن هذا الكون كله ملك لله ـ تعالى ـ وتحت قبضته وعلمه ، فقال ـ سبحانه ـ : «ألا إن لله ما في السموات والأرض، قد يعلم ما أنتم عليه ، ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا ، والله بكل شيء عليم » .

١٣ — وبعد : فهذا عرض إجمالي للمقاصد التي اشتملت عليها سورة النور، ومنها ترى أن السورة الكريمة زاخرة بالأحكام الشرعية ، وبالآداب الإسلامية وبالتربية الدينية وبالوسائل الوقائية التي من شأنها أن تغرس الأخلاق الكريمة في نفوس الأفراد والجماعات . وأن تجعلهم يرغبون في اعتناق الفضيلة . وينفرون من مقاربة الرذيلة . ويسعدون في دينهم ودنياهم .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ؟

القاهرة — مدينة نصر
١٠/٣/١٤٠٥ هـ
٨/١٢/١٩٨٤م .

المؤلف
د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله تعالى: «سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا، وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)».

افتتحت سورة النور بافتتاح لم تشترك معها فيه، سورة أخرى من سور القرآن الكريم.

وقوله - سبحانه -: «سورة» خبر لمبتدأ محذوف. أي: هذه سورة.

والسورة القرآنية: هي مجموعة من الآيات المسرودة، لها مبدأ ولها نهاية وجمعها: سور.

وكلمة سورة مأخوذة من سور المدينة، وكأن السورة القرآنية سميت بهذا الاسم لإحاطتها بآياتها إحاطة السور بما يكون بداخله.

أو أنها في الأصل تطلق على المنزلة السامية، والسورة القرآنية سميت بذلك لرفعتها وعلو شأنها.

قال القرطبي: «والسورة في اللغة: اسم للمنزلة الشريفة، ولذلك سميت السورة من القرآن سورة. قال زهير:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب[1]

وقوله - تعالى -: «وفرضناها» من الفرض بمعنى القطع. وأصله قطع الشيء الصلب والتأثير فيه.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١٥٨.

والمراد به هنا : تنفيذ أحكام الله - تعالى - على أتم وجه وأكمله .

والمعنى هذه سورة قرآنية . أنزلناها عليك - أيها الرسول الكريم - ، وأوجبنا ما فيها من أحكام ، وآداب ، وتشريعات ، إيجابا قطعيا ، وأنزلنا فيها آيات بينات واضحات الدلالة على وحدانيتنا ، وقدرتنا ، وعلى صحة الأحكام التي وردت فيها ، لتتذكروها وتعتبروا بها . وتعتقدوا صحتها ، وتنفذوا ما اشتملت عليه من أمر أو نهى .

وجمع - سبحانه - بين الإنزال والفرضية فقال : « أنزلناها وفرضناها » لبيان أن الغرض منها ليس بمجرد الإنزال ، وإنما الإنزال المصحوب بوجوب تنفيذ الأحكام والآداب التي اشتملت عليها ، والتي أنزلت من أجلها .

ومعلوم أن إنزال السورة كلها ، يستلزم إنزال هذه الآيات منها . فيكون التكرار في قوله - تعالى - : « وأنزلنا فيها آيات بينات » لكمال العناية بشأنها ، كما هي الحال في ذكر الخاص بعد العام .

و « لعل » في قوله - تعالى - « لعلكم تذكرون » للتعليل . أي : لعلكم تتذكرون ما فيها من آيات دالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى سمو تشريعاتنا ، فيؤدى بكم هذا التذكر إلى عبادتنا وطاعتنا .

* * *

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حد الزاني والزانية ، وقبح جريمة الزنا تقبيحا يحمل على النفور ، وحرمها على المؤمنين تحريما قاطعا ، فقال - تعالى - :

« الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عذابهما طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَو مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) » .

فقوله - تعالى - : « الزانية والزانى . . . شروع فى تفصيل الأحكام ، التى أشار إليها - سبحانه - فى الآية الأولى من هذه السورة ، وهى قوله : « سورة أنزلناها وفرضناها . . . » .

والزنا من الرجل معناه : وطء المرأة من غير ملك ولا شبهة ملك . ومعناه من المرأة : أن تمكن الرجل من أن يزنى بها .

والخطاب فى قوله - تعالى - : « فاجلدوا . . . » للحكام المكلفين بتنفيذ حدود الله - عز وجل - .

قال الجمل : «وفى رفع « الزانية والزانى» وجهان : أحدهما - وهو مذهب سيبويه - أنه مبتدأ خبره محذوف . أى : فيما يتلى عليكم حكم الزانية ، ثم بين ذلك بقوله : « فاجلدوا . . . » والثانى : - وهو مذهب الأخفش وغيره - أنه مبتدأ ، والخبر جملة الأمر ، ودخلت الفاء لشبه المبتدأ بالشرط . . . »[1] .

فإن قيل : ما الحكمة فى أن يبدأ الله فى فاحشة الزنا بالمرأة ، وفى جريمة السرقة بالرجل ، حيث قال « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما . . . » ؟ .

فالجواب : أن الزنا من المرأة أقبح ، فإنه يترتب عليه فساد الأنساب ، وإلحاق الدنس والعار بزوجها وأهلها ، وافتضاح أمرها عن طريق الحمل ، وفضلا عن ذلك ، فإن تمكينها نفسها الرجل : هو الذى كان السبب فى اقترافه هذه الفاحشة ، فلهذا وغيره قدمت المرأة هنا .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٢٠٦ .

وأما جريمة السرقة ، فالغالب أن الرجال أكثر إقداما عليها، لأنها تحتاج إلى جسارة وقوة ، واجتياز للمخاطر . . . ، لذا قدم الرجل على المرأة فيها.

وقوله - تعالى - : « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله . . . » نهى منه - سبحانه - عن التهاون فى تنفيذ حدوده ، وحض على إقامتها بحزم وقوة . والرأفة : أعلى درجات الرحمة . يقال : رؤف فلان بفلان - بزنة كرم - إذا اشتد فى رحمته ، وفى العناية بأمره .

أى : أقيموا - أيها الحكام - حدود الله - تعالى - على الزانية والزانى ، بأن تجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، دون أن تأخذكم شفقة أو رحمة فى تنفيذ هذه الحدود ، ودون أن تقبلوا فى التخفيف عنهما شفاعة شفيع ، أو وساطة وسيط ، فإن الله - تعالى - الذى شرع هذه الحدود ، وأمر بتنفيذها بكل شدة وقوة ، أرحم بعباده وبخلقه منكم . والرحمة والرأفة فى تنفيذ أحكامه ، لا فى تعطيلها ، ولا فى إجرائها على غير وجهها .

وقوله - سبحانه - : « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . . . » تأكيد لما قبله ، وإلهاب لمشاعرهم ، لتنفيذ حدود الله - تعالى - .

أى : إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانا حقا ، فأقيموا حدود الله ، واجلدوا الزانية والزانى مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة أو شفقة فى ذلك .

وقوله - سبحانه - : « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » بيان لما يجب على الحكام أن يفعلوه عند تنفيذ العقوبة . والأمر بشهود عذابهما للاستحباب لا للوجوب .

والمراد بعذابهما : إقامة الحد عليهما . والطائفة فى الأصل : اسم فاعل من الطواف ، وهو الدوران والإحاطة . وتطلق الطائفة عند كثير من اللغويين على الواحد فما فوقه .

قال الآلوسى : « والحق أن المراد بالطائفة هنا ، جماعة يحصل بهم التشهير

والزجر، وتختلف قلة وكثرة بحسب اختلاف الأماكن والأشخاص.فرب شخص يحصل تشهيره وزجره بثلاثة وآخر لا يحصل تشهيره وزجره بعشرة وللقائل بالأربعة هنا وجه وجيه»(١) .

ولعل السبب فى وجاهة رأى القائلين بالأربعة ، أن هذا العدد هو الذى يثبت به الزنا.

أى : وليشهد إقامة الحد على الزانية والزانى ، عددا من المؤمنين ،ليكون زيادة فى التنكيل بمن يرتكب هذه الفاحشة ، وأدعى إلى الاعتبار والاتعاظ وأزجر لمن تسول له نفسه الإقدام على تلك الجريمة النكراء .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تقبيح أمر الزنا تقبيحا آخر أشد وأخزى فقال: « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » .

والظاهر أن المراد بالنكاح هنا : العقد الذى تترتب عليه المعاشرة الزوجية، لأن أكثر ورود لفظ النكاح فى القرآن ، أن يكون بمعنى العقد ، بل قال بعضهم إنه لم يرد إلا بهذا المعنى .

أى : أنه جرت العادة أن الشخص الزانى لا يتزوج إلا زانية مثله أو مشركة وكذلك المرأة الزانية لا تميل بطبعها إلا إلى الزواج من رجل زان مثلها أو من رجل مشرك ، وذلك لأن المؤمن بطبعه ينفر من الزواج بالمرأة الزانية ، وكذلك المرأة المؤمنة تأنف من الزواج بالرجل الزانى .

فالآية الكريمة تحكى بأسلوب بديع ما تقتضيه طبيعة الناس فى التآلف والتزاوج ، وتبين أن المشاكلة فى الطباع علة للتلاق ، وأن التنافر فى الطباع علة للاختلاف .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ٨٤ .

وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث يقول : الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وبدىء هنا بالزانى ، لأن الآية مسوقة للحديث عن النكاح، والرجل هو الذى يتولاه ، وهو الأصل فيه ، لأنه هو الذى يلتمسه عن طريق الخطبة وما يتبعها من خطوات توصله إلى إتمام عقد الزواج . والمرأة ـ فى هذا الباب ـ تكون ـ فى العادة ـ مطلوبة لا طالبة ، ومرغوبة لا راغبة .

وجمع ـ سبحانه ـ بين رغبة الزانى ورغبة الزانية، لتأكيد ما يليق بكليهما من الميل الدنىء ، والطبع الوضيع ، والسلوك الخبيث وأن كل واحد منهما ألعن من صاحبه فى ولوج الطريق القبيح .

واسم الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ : « وحرم ذلك على المؤمنين » يعود على الزنا . وعلى الزواج من الزوانى . لما فيه من التشبه بالفاسقين ، ومن التعرض للعقوبة وسوء السيرة .

أى : وحرم ذلك الذى نهيناكم عنه ـ وهو الزنا والاقتران بمن يرتكبه ـ على المؤمنين الأطهار . الذين ينزهون أنفسهم عن الوقوع فى السوء والفحشاء .

هذا ، وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها: مارواه الترمذى وأبو داود والنسائى عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال : كان رجل يقال له « مرثد بن أبى مرثد » ، كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة . قال : وكانت امرأة بغى بمكة يقال لها « عناق » ، وكانت صديقة له ـ أى فى الجاهلية ـ . وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله ، قال : فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة فى ليلة مقمرة، قال : فجاءت « عناق » ، فأبصرت سواد ظلى تحت الحائط ، فلما انتهيت إلى عرفتنى، فقالت : مرثد ؟

فقلت: مرثد . فقالت : مرحبا وأهلا، هلم فبت عندنا الليلة. فقال: فقلت : يا عناق ، حرم الله الزنا فقالت : ياأهل الخيام ، هذا الرجل يحمل أسراكم. قال : فتبعني ثمانية ودخلت الخندمة - أي جبل بمكة - ، فانتهيت إلى غار . . . فأعماهم الله - تعالى - عنى ، ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته إلى المدينة ، فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : يارسول الله، أنكح عناقا ؟ أنكح عناقا ؟ - مرتين - ، فأمسك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يرد شيئاً حتى نزلت هذه الآية : « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة . . . فقال: رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يامرثد ، « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة . . . » فلا تنكحها »(١) .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى:

١ – ظاهر قوله - تعالى - : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . . . » يفيد أن هذا الجلد لكل من إرتكب هذه الفاحشة، سواء أكان محصنا أم غير محصن .

ولكن هذا الظاهر قد فصلته السنة الصحيحة ، حيث بينت أن هذا الحد ، إنما هو لغير المحصن . أما المحصن - وهو المتزوج أو من سبق له الزواج - فإن حده الرجم حتى يموت .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ماملخصه : « هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد » .

وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكرا، وهو الذى لم يتزوج أو محصنا وهو الذى قد وطىء فى نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٩ .

فأما إذا كان بكرا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما في الآية . ويزاد على ذلك أن يغرب عاما عند جمهور العلماء . .

وحجتهم في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، أن أعرابيين أتيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال أحدهما : يارسول الله ، إن ابني كان عسيفا - أي أجيرا - عند هذا . فزنى بامرأته فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام . وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام واغديا أنيس - وهو رجل من قبيلة أسلم - إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها ، فغدا عليها ، فاعترفت فرجمها .

ففي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلده مائة . إذا كان بكرا لم يتزوج فأما إذا كان محصنا فإنه يرجم . . .

وثبت في الصحيحين من حديث مالك - مطولا - ، أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قام فخطب الناس فقال : « أيها الناس ، إن الله بعث محمدا - صلى الله عليه وسلم - بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها : ورجم رسول الله عليه وسلم - ورجمنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان فيقول قائل : لانجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف .

وقد رجم النبي - صلى الله عليه وسلم - ماعزا والغامدية ، إلا أن جمهور الفقهاء يرون أنه يكتفي بالرجم ، ولا يجلد قبل الرجم ، لأنه لم ينقل عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه جلد أحداً من الزناة المحصنين قبل أن يرجمهم ، ومن الفقهاء من يرى أنهم يجلدون ثم يرجمون بعد ذلك »[1] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٢ وما بعدها .

وقال بعض العلماء ما ملخصه: لا أعلم أن رجم الزانين المحصنين ، دلت عليه آيتان من كتاب الله - تعالى - ، إحداهما : نسخت تلاوتها وبقي حكمها ، والثانية : باقية التلاوة والحكم.

أما التي نسخت تلاوتها وبقي حكمها ، فهي قوله - تعالى -: « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة » . وقد ورد ذلك في روايات متعددة - وتدل هذه الروايات على أن الصحابة قرأوها ووعوها . وعقلوها . وأن حكمها باق . لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - فعله ، والصحابة فعلوه من بعده . . .

وأما الآية التي هي باقية التلاوة والحكم ، فهي قوله - تعالى - : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » على القول بأنها نزلت في رجم اليهوديين الزانيين بعد الإحصان ، وقد رجمهما النبي - صلى الله عليه وسلم - وقصة رجمه لهما مشهورة ، ثابتة في الصحيح . وعليه فقوله : « ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » أي : عما في التوراة من حكم الرجم . وذم المعرض عن الرجم في هذه الآية . يدل على أنه ثابت في شرعنا . فدلت الآية - على هذا القول - أن الرجم ثابت في شرعنا . وهي باقية التلاوة . . . »(١) .

٢ - كذلك أخذ العلماء من قوله - تعالى - : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله . . . » أنه لا تجوز الشفاعة في الحدود . كما لا يجوز إسقاط الحد لأن ذلك تعطيلا لتنفيذ شرع الله - تعالى - على الوجه الأكمل .

قال الآلوسي ما ملخصه : « قوله - تعالى - : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله . . . » أي : في طاعته وإقامة حده الذي شرعه . والمراد النهي عن التخفيف

(١) راجع : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن جـ ٦ ص ٥ وما بعدها للشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

فى الجلد، بأن يجلدوهما جلدا غير مؤلم، أو بأن يكون أقل من مائة جلدة، بإسقاط الحد بشفاعة أو نحوها . . .

لما صح من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنكر على حبه أسامة ابن زيد، حين شفع فى فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد المخزومية، التى سرقت قطيفة أو حليا، وقال له: ياأسامة أتشفع فى حد من حدود الله - تعالى - ثم قام - صلى الله عليه وسلم - فخطب فقال: «أيها الناس، إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله - تعالى - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وكما تحرم الشفاعة، يحرم قبولها، فعن الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال: «إذا بلغ الحد إلى الإمام، فلا عفا الله - تعالى - عنه إن عفا»[1].

٣ - يرى كثير من الفقهاء أن التحريم فى قوله - تعالى -: «وحرم ذلك على المؤمنين»، للتنزيه، وعبر عنه بلفظ «حرم» للتغليظ والتنفير من الإقدام عن زواج المؤمن من الزانية، أو على زواج المؤمنة من الزانى.

ويرى آخرون أن التحريم على ظاهره، وأنه لا يجوز للمؤمن أن يتزوج بالزانية، وكذلك لا يجوز للمؤمنة أو تتزوج بالزانى.

وقد فصل القول فى هذه المسألة بعض العلماء فقال ماملخصه: «اعلم أن العلماء اختلفوا فى جواز نكاح العفيف بالزانية، ونكاح العفيفة بالزانى.

فذهب جماعة من أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة - أبو حنيفة ومالك والشافعى - إلى جواز نكاح الزانية مع الكراهة التنزيهية . . . لأن الله - تعالى - قال: «وأحل لكم ماوراء ذلكم»، وهو شامل بعمومه الزانية والعفيفة . . .

وقالت جماعة أخرى من أهل العلم: لا يجوز تزويج الزانى العفيفة، ولا عكسه، وهو مذهب الإمام أحمد، وقد روى عن الحسن وقتادة.

---

(١) سورة الآلوسى جـ ١٨ ص ٨٣

ومن أدلتهم الآية التي نحن بصددها ، وهي قوله - تعالى: « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة . . . لأنها قد حرمت في نهايتها أن يتزوج التقي بالزانية . أو التقية بالزاني . . . »(١) .

وعلى أية حال فالمتدبر في هاتين الآيتين يراهما ، تشددان العقوبة على من يرتكب جريمة الزنا ، وتنفران من الاقتراب منها ومن يقع فيها أعظم تنفير ، لأن الإسلام أحرص على أن ينتشر العفاف والطهر بين أفـــراد المجتمع الإسلامي ، وشرع من وسائل الوقاية ما يحمي الأفراد والجماعات من الوقوع في هذه الرذيلة .

٭ ٭ ٭

وبعد أن نفر - سبحانه - من جريمة الزنا أعظم تنفير ، وأمر بتنفيذ عقوبته في مرتكبها بدون رأفة أو تساهل . . . أتبع ذلك بتشريعات أخرى ، من شأنها أن تحمي أعراض الناس وأنفسهم من اعتداء المعتدين ، فقال - تعالى - :

« والذينَ يرْمُونَ المحصَنَاتِ ثمّ لمْ يأتُوا بأربَعةِ شُهداء فاجلِدُوهُم ثمانِينَ جَلدةَ ولا تَقبلوا لهُم شهادةَ أبداً وأولئِكَ هم الفاسِقُونَ (٤) إلاّ الذينَ تابُوا مِنْ بَعدِ ذلِكَ وأصلَحُوا ، فإنّ اللهَ غفورٌ رحِيمٌ (٥) » .

وقوله - تعالى - « يرمون » من الرمي ، وأصله القذف بشيء صلب أو ما يشبه تقول : رمى فلان بحجر ، إذا قذفه به . والمراد به هنا : الشتم والقذف بفاحشة الزنا ، أو ما يستلزمه كالطعن في النسب .

قال الإمام الرازي : وقد أجمع العلماء على أن المراد هنا : الرمي بالزنا ،

(١) راجع تفسير : « أضواء البيان . . » ج ٦ ص ٧٢ وما بعدها.

وفى الآية أقوال تدل عليه . أحدها : تقدم ذكر الزنا ، وثانيها : أنه ـ تعالى ـ ذكر المحصنات ، وهن العفائف ، فدل ذلك على أن المراد بالرامى رميهن بضد العفاف ، وثالثها : قوله « ثم لم يأتوا بأربعة شهداء » يعنى على صحة مارموهن به ومعلوم أن هذا العدد من الشهود غير مشروط إلا بالزنا ، ورابعها : انعقاد الإجماع على أنه لا يجب الجلد بالرمى بغير الزنا ، فوجب أن يكون المراد هنا هو الرمى بالزنا . . . »[١] .

و « المحصنات » جمع محصنة ، والإحصان فى اللغة بمعنى المنع . يقال: هذه درع حصينة ، أى : مانعة صاحبها من الجراحة . ويقال: هذا موضع حصين ، أى : مانع من يريده بسوء .

والمراد بالمحصنات هنا : النساء العفيفات البعيدات عن كل ريبة وفاحشة . سميت المرأة العفيفة بذلك ، لأنها تمنع نفسها من كل سوء .

قالوا : ويطلق الإحصان على المرأة والرجل ، إذا توفرت فيهما صفات العفاف . والإسلام ، والحرية ، والزواج .

وإنما خص ـ سبحانه ـ النساء بالذكر هنا : لأن قذفهن أشنع ، والعار الذى يلحقهن بسبب ذلك أشد ، وإلا فالرجال والنساء فى هذه الأحكام سواء .

وقوله ـ تعالى ـ : « والذين يرمون المحصنات . . . . » مبتدأ ، أخبر عنه بعد ذلك بثلاث جمل ، وهى قوله : « فاجلدوهم . . . ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » .

والمعنى أن الذين يرمون النساء العفيفات بالفاحشة ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يشهدون لهم على صحة ماقذفوهن به ، فاجلدوا ـ أيها الحكام ـ هؤلاء القاذفين ثمانين جلدة ، عقابا لهم على ما تفوهوا به من سوء فى حق هؤلاء

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٢٢٧ .

المحصنات ، ولا تقبلوا لهؤلاء القاذفين شهادة أبدا بسبب إلصاقهم التهم الكاذبة بمن هو برىء منها ، وأولئك هم الفاسقون ، أى : الخارجون على أحكام شريعة الله - تعالى - ، وعلى آدابها السامية .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد عاقب هؤلاء القاذفين للمحصنات ، بثلاث عقوبات :

أولها : حسية ، وتتمثل فى جلدهم ثمانين جلدة ، وهى عقوبة قريبة من عقوبة الزنا .

وثانيها : معنوية ، وتتمثل فى عدم قبول شهادتهم ، بأن تهدر أقوالهم ، ويصيرون فى المجتمع أشبه ما يكونون بالمنبوذين ، الذين إن قالوا لا يصدق الناس أقوالهم ، وإن شهدوا لا تقبل شهادتهم ، لأنهم انسلخت عنهم صفة الثقة من الناس فيهم .

وثالثها : دينية ، وتتمثل فى وصف الله - تعالى - لهم بالفسق ، أى : بالخروج عن طاعته - سبحانه - وعن آداب دينه وشريعته .

وما عاقب الله - تعالى - هؤلاء القاذفين فى أعراض الناس ، بتلك العقوبات الرادعة ، إلا لحكم من أهمها : حماية أعراض المسلمين من ألسنة السوء ، وصيانتهم من كل ما يخدش كرامتهم ، ويجرح عفافهم . . .

وأقسى شىء على النفوس الحرة الشريفة الطاهرة . أن تلصق بها التهم الباطلة ، وعلى رأس الرذائل التى تؤدى إلى فساد المجتمع ، ترك ألسنة السوء ، تنهش أعراض الشرفاء ؛ دون أن تجد هذه الألسنة من يخرسها أو يردعها .

وقد اتفق الفقهاء على أن الاستثناء فى قوله - تعالى - « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا . . . » يعود على الجملة الأخيرة . بمعنى أن صفة الفسق لا تزول عن هؤلاء القاذفين للمحصنات إلا بعد توبتهم وصلاح حالهم .

أى : وأولئك القاذفون للمحصنات دون أن يأتوا بأربعة شهداء على صحة ماقالوه ، هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله - تعالى - ، إلا الذين تابوا منهم من بعد ذلك توبة صادقة نصوحا ، وأصلحوا أحوالهم وأعمالهم ، فإن الله - تعالى - كفيل بمغفرة ذنوبهم ، وبشمولهم برحمته .

كما اتفقوا - أيضا - على أن هذا الاستثناء لا يعود إلى العقوبة الأولى وهى الجلد ، لأن هذه العقوبة يجب أن تنفذ عليهم ، متى ثبت قذفهم المحصنات ، حتى ولو تابوا وأصلحوا ، فاقبلوا شهادتهم .

والخلاف إنما هو فى العقوبة الوسطى وهى قبول شهادتهم ، فجمهور الفقهاء يرون صحة عودة الاستثناء عليها بعد التوبة ، فيكون المعنى : إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، فاقبلوا شهادتهم .

ويرى الإمام أبو حنيفة ، أن الاستثناء لا يرجع إلى قبول شهادتهم ، وإنما يرجع فقط إلى العقوبة الأخيرة وهى الفسق ، فهم لا تقبل شهادتهم أبدا أى : طول مدة حياتهم ، حتى وإن تابوا وأصلحوا .

وقد فصل القول فى هذه المسألة الإمام القرطبى فقال ماملخصه : «تضمنت الآية ثلاثة أحكام فى القاذف : جلده ، ورد شهادته أبداً ، وفسقه .

فالاستثناء غير عامل فى جلده وإن تاب - أى أنه يجلد حتى ولو تاب - .

وعامل فى فسقه بإجماع - أى : أن صفة الفسق تزول عنه بعد ثبوت توبته - .

واختلف الناس فى عمله فى رد الشهادة . فقال أبو حنيفة وغيره : لا يعمل الاستثناء فى رد شهادته . وإنما يزول فسقه عند الله - تعالى - . وأما شهادة القاذف فلا تقبل ألبتة . ولو تاب وأكذب نفسه ، ولا بحال من الأحوال .

وقال الجمهور : الاستثناء عامل فى رد الشهادة ، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته ، وإنما كان ردها لعلة الفسق ، فإذا زال بالتوبة قبلت شهادته مطلقا ، قبل الحد وبعده . وهو قول عامة الفقهاء .

ثم اختلفوا فى صورة توبته ، فذهب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ والشعبى وغيره : أن توبته لا يكون ـ مقبولة ـ إلا إذا كذب نفسه فى ذلك القذف الذى حد فيه ...

وقالت فرقة منها مالك وغيره : توبته أن يصلح ويحسن حاله ، وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب ، وحسبه الندم على قذفه ، والاستغفار منه ، وترك العود إلى مثله »(١) .

ويبدو لنا أن ما أفتى به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ هو الأولى بالقبول ، لأن اعتراف القاذف بكذبه ، فيه محو لآثار هذا القذف ، وفيه تبرئة صريحة للمقذوف ، وهذه التبرئة تزيده انشراحا وسرورا ، وترد إليه اعتباره بين أفراد المجتمع .

كما يبدو لنا أن الأولى فى هذه الحالة ، أن تقبل شهادة القاذف ، بعد هذه التوبة التى صاحبها اعتراف منه بكذبه فيما قال ، لأن إقدامه على تكذيب نفسه قرينة على صدق توبته ، وصلاح حاله .

وهكذا يحمى الإسلام أعراض أتباعه ، بهذه التشريعات الحكيمة ، التى يؤدى أتباعها إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

ثم انتقلت السورة الكريمة من الحديث عن حكم القذف بصفة عامة ، إلى الحديث عن حكم القذف إذا ما حدث بين الزوجين ، فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ١٧٩ . وراجع أيضا أضواء البيان ج ٦ ص ٨٩ وما بعدها .

« والذينَ يرمُونَ أزواجَهُم ولم يكُنْ لهُم شُهداءُ إلاَّ أَنفُسُهم ، فشهَادةُ أَحدِهم أَربعُ شَهاداتٍ باللهِ إنَّه لمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) والخامسةُ أَنَّ لَعنةَ اللهِ عليه إنْ كانَ منَ الكاذِبينَ (٧) ويَدْرَؤُ عنْها العذابَ أَنْ تَشْهَد أَرْبَعَ شهَاداتٍ باللهِ إنَّه لمِنَ الكاذِبينَ (٨) والخامِسَةَ أنَّ غضَبَ اللهِ عليها إنْ كانَ من الصَّادِقينَ (٩) ولولاَ فَضْلُ اللهِ عليكُم ورَحمتُه وأنَّ اللهَ توابٌ حكيمٌ (١٠) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، منها ما أخرجه البخارى عن ابن عباس ، أن هلال بن أمية ، قذف امرأته عند النبي - صلى الله عليه وسلم - بشريك بن السحماء ، فقال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « البينة أو حد فى ظهرك » . فقال : يارسول الله ، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول له : « البينة أو حد فى ظهرك » .

فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق، ولينزلن الله مايبرىء ظهرى من الحد . فنزل جبريل بهذه الآيات .

فانصرف النبي - صلى الله عليه وسلم - فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الله يعلم أن أحدكم كاذب ، فهل منكما تائب ؟ ثم قامت زوجته فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا : إنها موجبة - أى للعذاب والغضب الله - تعالى - .

قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم ، فمضت ...

وفى رواية : فشهدت فى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ففرق الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينهما ، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب، ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد . . . »(١).

والمراد بالرمى فى قوله - تعالى - « والذين يرمون أزواجهم . . . » الرمى بفاحشة الزنا

وقوله - تعالى - : « ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم » أى : ولم يكن لهؤلاء الأزواج الذين قذفوا زوجاتهم بالزنا من يشهد معهم سوى أنفسهم .

وقوله : « فشهادة أحدهم » أى : فشهادة أحدهم التى ترفع عنه حد القذف. أن يشهد « أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين » فيما رماها به من الزنا .

قال الجمل ما ملخصه : « قوله - تعالى - « ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم . . . » فى رفع أنفسهم وجهان : أحدهما أنه بدل من شهداء والثانى : أنه نعت له على أن إلا بمعنى غير. ولا مفهوم لهذا القيد . بل يلاعن ولو كان واجدا للشهود الذين يشهدون بزناها . . . وقوله : « فشهادة » مبتدأ ، وخبره « أربع شهادات » أى : فشهادتهم المشروعة أربع شهادات . »(٢) .

وقرأ الجمهور : « أربع شهادات » بالنصب على المصدر ، لأن معنى ، فشهادة ، أن يشهد .

والتقدير : « فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما قاله .

وقوله - سبحانه - : « والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين » بيان لما يجب على القاذف بعد أن شهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٢٠٩ .

أي : والشهادة الخامسة بعد الأربع المتقدمة ، أن يشهد القاذف بأن لعنة الله ـ تعالى ـ عليه ، إن كان من الكاذبين ، فى رميه لزوجته بالزنا .

قال الآلوسى : « وإفرادها ـ أى الشهادة الخامسة ـ بالذكر ، مع كونها شهادة ـ أيضا ـ ، لاستقلالها بالفحوى ، ووكادتها فى إفادتها مايقصد بالشهادة من تحقيق الخبر ـ وإظهار الصدق . وهى مبتدأ ، خبره قوله ـ تعالى ـ « أن لعنة الله عليه ... »(1) .

ثم بين ـ سبحانه ـ مايجب على المرأة لكى تبرىء نفسها عارماها به زوجها فقال : « ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين » .

وقوله ـ تعالى ـ « ويدرأ » من الدرأ بمعنى الدفع . يقال : درأ فلان التهمة عن نفسه ، إذا دفعها عن نفسه ، وتبرأ منها .

والمراد بالعذاب العذاب الدنيوى هو الحد الذى شرعه الله ـ تعالى ـ فى هذا الشأن .

أى : أن الزوجة التى رماها زوجها بفاحشة الزنا يدفع عنها الحد ويرفع ، إذا شهدت أربع شهادات بالله ، إن زوجها لمن الكاذبين فيما قذفها به .

وقوله ـ سبحانه ـ « والخامسة » بالنصب عطفا على « أربع شهادات » .

أى : يدرأ عنها العذاب إذا شهدت أربع شهادات بالله إن زوجها كاذب فيما رماها به ثم تشهد بعد ذلك شهادة خامسة مؤداها « أن غضب الله عليها » « إن كان » زوجها « من الصادقين » فى إتهامه إياها بفاحشة الزنا .

وجاء فى جانب المرأة التعبير بقوله ـ تعالى ـ « أن غضب الله عليها » ليكون أشد فى زجرها عن الكذب ، واعترافها بالحقيقة بدون إنكار ، لأن العقوبة الدنيوية أهون من غضب الله ـ تعالى ـ عليها فى حالة كذبها .

---

(1) تفسير الآلوسى جـ١٨ ص ١٠٥ .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان جانب من فضله - تعالى - على خلقه فقال : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله تواب حكيم » .

وجواب « لولا » محذوف . وجاءت الآية بأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، للعناية بشأن مقام الامتنان والفضل من الله - تعالى - عليهم بتشريع هذه الأحكام .

أى : ولولا أن الله - تعالى - تفضل عليكم ورحمكم - أيها المؤمنون - بسبب ماشرعه لكم فى حكم الذين يرمون أزواجهم بالفاحشة . . . لولا ذلك لحصل لكم من الفضيحة ومن الحرج مالا يحيط به الوصف، ولكنه - سبحانه - شرع هذه الأحكام سترا للزوجين وتخفيفا عليهما . وحضا لهما على التوبة الصادقة النصوح ، « وأن الله » تعالى « تواب » أى : كثير القبول لتوبة التائب متى صدق فيها ، « حكيم » أى : فى كل ماشرعه لعباده .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات ، أن قاذف زوجته بفاحشة الزنا ، إذا لم يأت بأربعة شهداء على صحة ماقاله ، فإنه يكون مخيرا بين أن يلاعن وبين أن يقام عليه الحد .

بخلاف من قذف أجنبية محصنة بفاحشة الزنا ، فإنه يقام عليه الحد ، إذا لم يأت بأربعة شهداء على أنه صادق فى قوله

قال بعض العلماء : ولعلك تقول : لماذا كان حكم قاذف زوجته ، مخالفا لحكم قاذف الأجنبية ، وما السر فى أنه جاء مخففا ؟

والجواب ، أنه لا ضرر على الزوج بزنا الأجنبية وأما زنا زوجته فيلحقه به العار ، وفساد البيت ، فلا يمكنه الصبر عليه ، ومن الصعب عليه جدا أن يجد البينة . فتكليفه إياها فيه من العسر والحرج مالا يخفى . وأيضا فإن الغالب فى الرجل أنه لا يرمى زوجته بتلك الفاحشة ، إلا عن حقيقة ، لأن فى هذا الرمى إيذاء له . وهتك لحرمته . وإساءة لسمعته . . . فكان رميه إياها

بالقذف دليل صدقه ، إلا أن الشارع أراد كمال شهادة الحال . بذكر كلمات اللعان المؤكدة بالأيمان ، فجعلها - منضمة إلى قوة جانب الزوج - قائمة مقام الشهود فى قذف الأجنبى »(١) .

كذلك أخذ العلماء من هذه الآيات أن كيفية اللعان بين الزوجين ، أن يبدأ بالزوج فيقول أمام القاضى : أشهد بالله إنى لمن الصادقين ، وفى المرة الخامسة يقول : لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين - أى فيما رمى به زوجته - ، وكذلك المرأة تقول فى لعانها أربع مرات : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين . وفى المرة الخامسة تقول : غضب الله عليها إن كان من الصادقين - أى : فيما قاله زوجها فى حقها - .

فإذا ما قالا ذلك . سقط عنهما الحد . وفرق القاضى بينهما فراقا أبديا .

قال القرطبى : «قال مالك وأصحابه : وبتمام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنين فلا يجتمعان أبدا . ولا يتوارثان . ولا يحل له مراجعتها أبدا لا قبل زوج ولا بعده ...

وقال أبو حنيفة وغيره : لا تقع الفرقة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما ...

وقال الشافعى : «إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان . فقد زال فراش امرأته . التعنت أو لم تلتعن . لأن لعانها إنما هو لدرء الحد عنها لا غير . وليس لالتعانها فى زوال الفراش معنى ... »(٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - حكم القذف بالنسبة للمحصنات . وبالنسبة للزوجات . اتبع - عز وجل - ذلك بإيراد مثل لما قاله المنافقون فى شأن

---

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ١٣٦

(٢) راجع تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٩٣ .

السيدة عائشة - رضى الله عنها - ولما كان يجب على المؤمنين أن يفعلوه فى مثل هذه الأحوال، فقال - تعالى - :

« إنَّ الذينَ جاءوا بالإفكِ عصْبَةٌ منكُم ، لا تحسَبُوه شرًّا لكُم ، بلْ هُو خيرٌ لكُم ، لكلِّ امرِىءٍ منهم ما اكتَسَبَ من الإثمِ ، والذى تولَّى كِبْرَه منهم لهُ عذابٌ عظيمٌ (١١) لولاَ إذْ سمِعتُموه ظنَّ المؤمنُونَ والمؤمناتُ بأنفُسِهِم خيراً ، وقالُوا هـذا إفكٌ مبينٌ (١٢) لولاَ جاءُوا عليْه بأربعةِ شُهدَاء ، فإذْ لم يأْتُوا بالشُّهداء فأولئكَ عندَ اللهِ هُمُ الكاذِبُونَ (١٣) ولولاَ فضْلُ اللهِ عليكُم ورحمته فى الدُّنيا والآخرةِ ، لمسَّكُم فيماَ أفَضتُم فيهِ عذابٌ عَظِيمٌ (١٤) إذْ تلقَّونَهُ بألسنتكُم ، وتَقولونَ بأفواهِكُم ما ليْسَ لكُم بهِ علمٌ ، وتحسَبُونَه هيِّنًا وهُو عِندَ اللهِ عظيمٌ (١٥) ولولاَ إذ سمِعتُموه قلتُم ما يكونُ لَنا أنْ نَتكلَّم بهذا ، سُبحانَكَ هذا بهتَانٌ عظيمٌ (١٦) يَعِظُكُم اللهُ أنْ تَعودُوا لمِثْلِه أبداً إنْ كنتُم مُؤمنِينَ (١٧) ويُبيِّنُ اللهُ لكُم الآياتِ ، واللهُ عليمٌ حكيمٌ (١٨) » .

قال الإمام ابن كثير ماملخصه: «هذه الآيات نزلت فى شأن السيدة عائشة - رضى الله عنها - حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين ، بما قالوه من الكذب البحت ، والفرية التى غار الله - تعالى - لها ولنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فأنزل براءتها صيانة لعرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

جاء فى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة أنها قالت: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها

خرج بها معه . فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج سهمى - وكان ذلك فى غزوة بنى المصطلق على الأرجح - ، فخرجت مع النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وذلك بعد ماأنزل الحجاب ، وأنا أحمل فى هودج وأنزل فيه .

فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوته تلك ، وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل حتى جاوزت الجيش .

فلما قضيت من شأنى أقبلت إلى الراحلة ، فلمست صدرى ، فإذا عقد لى قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى فاحتبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى ، فاحتملوا هودجى ، فرحلوه على بعيرى . وهم يحسبون أنى فيه . وكان النساء إذ ذاك خفافا ، لم يثقلهن اللحم ، فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج ، فاحتملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدى بعد ما سار الجيش ، فجئت منزلهم ، وليس فيه أحد منهم ، فيممت منزلى الذى كنت فيه . وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلى .

فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمى ، قد عرّس - أى تأخر - من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى . وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب .

فاستيقظت باسترجاعه حتى عرفنى . فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حين أناخ راحلته ، فوطىء على يديها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة . حتى أتينا الجيش ، بعد ما نزلوا فى نحو الظهيرة . فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره عبد الله ابن أبى بن سلول . . . »(١) .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨ وما بعدها ففيه جملة من الأحاديث فى هذا الشأن .

وقد افتتحت هذه الآيات الكريمة بقوله - تعالى - : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . . . »

والإفك : أشنع الكذب وأفحشه . يقال أفك فلان - كضرب وعلم - أفكا وإفكا ، أى : كذب كذبا قبيحا .

والعصبة : الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، من العصب وهو الشد ، لأن كل واحد منها يشد الآخر ويؤازره . . .

أى : إن الذى قالوا ما قالوا من كذب قبيح ، وبهتان شنيع ، على السيدة عائشة - رضى الله عنها - هم جماعة ينتسبون إليكم - أيها المسلمون - بعضهم قد استزلهم الشيطان - كمسطح بن أثاثة - ، وبعضهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر والنفاق - كعبد الله بن أبى بن سلول - وأتباعه .

وفى التعبير بقوله - تعالى - « عصبة » إشعار بأنهم جماعة لها أهدافها الخبيثة ، التى تواطئوا على نشرها ، وتكاتفوا على إشاعتها ، بمكر وسوء نية .

وقوله - سبحانه - : « لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم . . . » تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه المؤمنين الصادقين ، عما أصابهم من هم وغم بسبب هذا الحديث البالغ نهاية دركات الكذب والقبح .

أى : لا تظنوا - أيها المؤمنون - أن حديث الإفك هذا هو شر لكم ، بل هو خير لكم ، لأنه كشف عن قوى الإيمان من ضعيفه . كما فضح حقيقة المنافقين وأظهر ما يضمرونه من سوء للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولأهل بيته ، وللمؤمنين . كما أنكم قد نلتم بصبركم عليه وتكذيبكم له أرفع الدرجات عند الله تعالى - .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء الخائضين فى حديث الإفك من عقاب فقال : « لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم » .

أي لكل واحد من هؤلاء الذين اشتركوا في إشاعة حديث الإفك العقاب الذي يستحقه بسبب ماوقع فيه من آثام، وما اقترفه من سيئات.

وقوله - تعالى - : « والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » بيان لسوء عاقبة من تولى معظم إشاعة هذا الحديث الكاذب.

والكبر - بكسر الكاف وضمها - مصدر لمعظم الشيء وأكثره.

أي : والذي تولى معظم الخوض في هذا الحديث الكاذب، وحرض على إشاعته، له عذاب عظيم لا يقادر قدره من الله - تعالى - .

والمقصود بهذا الذي تولى كبره . عبد الله بن أبي سلول . رأس المنافقين وزعيمهم، فهو الذي قاد حملته، واضطلع بالنصيب الأكبر لإشاعته.

روى أنه لما جاء صفوان بن المعطل يقود راحلته وعليها عائشة - رضى الله عنها - قال عبد الله بن أبي لمن حوله : من هذه ؟ قالوا عائشة فقال - لعنه الله - : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها والله مانجت منه وما نجا منها.

قال ابن جرير : « والأولى بالصواب قول من قال، الذي تولى كبره عبد الله ابن سلول، وذلك أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير، أن الذي بدأ بذكر الإفك . وكان يجمع أهله ويحدثهم به، هو عبد الله بن سلول »[1].

وقال الآلوسي : « والذي تولى كبره .. كما في صحيح البخاري عن الزهري عن عروة عن عائشة - هو عبد الله بن أبي - عليه اللعنة - وقد سار على ذلك أكثر المحدثين ... »

أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر، أنه بعد نزول هذه الآيات في براءة السيدة عائشة دعا الرسول - صلى الله عليه وسلم - أبا عبيدة بن الجراح لجمع الناس، ثم تلا عليهم . ثم بعث إلى عبد الله بن أبي . فجيء به فضربه

(١) تفسير ابن جرير ج ١٧ ص ٥٧ .

حدين ، ثم بعث إلى حسان بن ثابت ، ومسطح ، وحمنة بنت جحش، فضربوا ضربا وجيعا . . . وقيل : إن ابن أبى لم يحد أصلا ، لأنه لم يقر ، ولم يلتزم إقامة البينة عليه تأخيرا لجزائه إلى يوم القيامة »[1] .

ثم وجه - سبحانه - المؤمنين إلى الطريق الذى كان يجب عليهم أن يسلكوه فى مثل هذه الأحوال فقال :

« لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، وقالوا هذا إفك مبين » .

و « لولا » حرف تحضيض بمعنى هلا . والمراد « بأنفسهم » هنا إخوانهم فى الدين والعقيدة .

أى : هلا وقت أن سمعتم - أيها المؤمنون والمؤمنات - حديث الإفك هذا ظننتم « بأنفسكم » .

أى : بإخوانكم وبأخواتكم ظنا حسنا جميلا ، وقلتم : هذا الحديث الذى أذاعه المنافقون كذب شنيع وبهتان واضح لا يصدقه عقل أو نقل .

وفى التعبير عن إخوانهم وأخواتهم فى الدين بأنفسهم، أسمى ألوان الدعوة إلى غرس روح المحبة والمودة والإخاء الصادق بين المؤمنين ، حتى لكأن الذى يظن السوء بغيره إنما ظنه بنفسه .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » . وقوله - سبحانه - : « ولا تلمزوا أنفسكم » .

قال أبو حيان - رحمه الله - : وعدل بعد الخطاب - فى الآية الأولى - إلى الغيبة فى هذه الآية ، وعن الضمير إلى الظاهر . فلم يجىء التركيب ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم هذا إفك مبين . ليبالغ - سبحانه - فى التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرح بلفظ الإيمان ، دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن على أخيه قول عائب ولا طاعن وفيه تنبيه على أن المؤمن إذا سمع قالة سوء فى أخيه

(١) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ١١٦ .

أن يبنى الأمر فيه على ظن الخير ، وأن يقول بناء على ظنه : هذا إفك مبين. هكذا باللفظ الصريح ببراءة أخيه ، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال وهذا من الأدب الحسن ومعنى بأنفسهم ، أى كان يقيس فضـــلاء المؤمنين والمؤمنات هذا الأمر على أنفسهم ، فإذا كان ذلك يبعد عليهم قضوا بأنه فى حق من هو خير منهم أبعد . . . »(١) .

ولقد فعل المؤمنون الصادقون ذلك ، فها هو ذا أبو أيوب - خالد بن زيد الأنصارى ، قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقوله الناس فى عائشة - رضى الله عنها - ؟ قال : نعم وذلك الكذب . أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا ، والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك(٢).

وفى رواية أن أبا أيوب قال لزوجته أم أيوب : ألا ترين ما يقال؟ فقالت له : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سوءا ؟ قال : لا . فقالت : ولو كنت أنا بدل عائشة - رضى الله عنها - ماخنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك(٣).

وهكذا المؤمنون الأطهار الأخيار ، يبنون أمورهم على حسن الظن بالناس .

ورحم الله صاحب الانتصاف ، فقد علق على ما قالته - أم أيوب لزوجها فقال : ولقد ألهمت - أم أيوب - بنور الإيمان إلى هذا السر الذى انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمنين بالنفس ، فإنها نزلت زوجها منزلة صفوان ونفسها منزلة عائشة ، ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والأمانة ، حتى أثبتتها لصفوان وعائشة بالطريق الأولى - رضى الله عنها -(٤) .

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٦ ص ٤٣٧
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٦ .
(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢١٨
(٤) حاشية الكشاف ج ٣ ص ٢١٨

ثم وصف ـ سبحانه ـ الخائضين فى حديث الإفك بالكذب لأنهم قالوا قولا بدون دليل، فقال: «لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء» أى هلا جاء هؤلاء الذين افتروا على السيدة عائشة ما افتروا، بأربعة شهداء يشهدون لهم على ثبوت ما تفوهوا به.

«فإذ لم يأتوا بالشهداء» أى: وما داموا لم يأتوا بهم ـ ولن يأتوا بهم ـ «فأولئك عند الله» أى: فى حكمه ـ سبحانه ـ وفى شريعته «هم الكاذبون» كذبا قبيحا تشمئز منه النفوس، ويسجل عليهم بالخزى والعار إلى يوم القيامة.

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر فضله ورحمته بالمؤمنين فقال: «ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة، لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم».

و«لولا» هنا لامتناع الشىء لوجود غيره. و«أفضتم» من الإفاضة بمعنى التوسع فى الشىء، والاندفاع فيه بدون تريث أو تحقق. وأصله من قوله: «أفاض فلان الإناء، إذا ملأه حتى فاض».

أى: ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم ـ أيها المؤمنون ـ فى الدنيا بإعطائكم فرصة للتوبة. وفى الآخرة بقبول توبتكم، لولا ذلك «لمسكم» أى: لنزل بكم بسبب ما أفضتم فيه من حديث الإفك عذاب عظيم، لا يعلم مقدار ألمه وشدته إلا الله ـ تعالى ـ.

ثم صور ـ سبحانه ـ أحوالهم فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ الدعوة الإسلامية فقال: «إذ تلقونه بألسنتكم...» و«إذ» ظرف لقوله ـ تعالى ـ «لمسكم».

أى: لمسكم عذاب عظيم، وقت تلقيكم هذا الحديث السيء لسانا عن لسان باستخفاف واستهتار! ويأخذه بعضكم عن بعض بدون تحرج أو تدبر

«وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم» أى: وتقولون بأفواهكم قولا تلوكه الأفواه، دون أن يكون معه بقية من علم أو بينة أو دليل.

ففى هاتين الجملتين زجر شديد لأولئك الذين خاضوا فى حديث الإفك. بدون تدبر أو تعقل، حتى لكأنهم - وقد أفلت منهم الزمام، واستزلهم الشيطان - ينطقون بما ينطقون به بأفواههم لا بوعيهم. وبألسنتهم لا بعقولهم ولا بقلوبهم، وإنما هم يتفوهون بكلمات لا علم لهم بحقيقتها، ولا دليل معهم على صدقها.

وهذا كله يتنافى مع مايقتضيه الإيمان الصحيح من تثبت ومن حسن ظن بالمؤمنين.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما هو أشد فى الزجر والتهديد فقال: «وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم».

أى: وتحسبون أن ماخضتم فيه من كذب على الصديقة بنت الصديق شيئا هينا، والحال أن مافعلتموه ليس كذلك، بل هو عند الله - تعالى - وفى حكمه شىء عظيم، تضج له الأرض والسماء لأن ماخضتم فيه، يسىء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ويسىء إلى أهل بيته، ويسىء إلى صحابى جليل هو صفوان، ويسىء إلى بيت الصديق - رضى الله عنه - بل ويسىء إلى الجماعة الإسلامية كلها.

ثم يوجههم - سبحانه - مرة أخرى إلى ما كان يجب عليهم أن يفعلوه فى مثل هذه الأحوال فيقول: «ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم».

وأصل معنى «سبحانك» تنزيه الله - تعالى - عن كل نقص، ثم شاع استعماله فى كل أمر يتعجب منه. وهذا المعنى هو المراد هنا.

والبهتان : هو الكذب الذى يبهت ويحير سامعه لشناعته وفظاعته . يقال : بهت فلان فلانا إذا قال عليه مالم يقله وما لم يفعله .

أى : وهلا وقت أن سمعتم - أيها المؤمنون - حديث الإفك عن افترائه واخترعه ، قلتم له على سبيل الزجر والردع والإفحام « ما يكون لنا أن نتكلم بهذا » أى : ما يصح منا إطلاقا أن نتكلم بهذا الحديث البالغ أقصى الدركات فى الكذب والافتراء .

وقلتم له - أيضا - على سبيل التعجب من شناعة هذا الخبر « سبحانك » ، أى : نتعجب يا ربنا من شناعة ما سمعناه ، فإن ماسمعناه عن أم المؤمنين عائشة. كذب يبهت ويدهش من يسمعه ، وهو فى الشناعة لايحيط بوصفه عبارة .

وهكذا يؤدب الله - تعالى - عباده المؤمنين بالأدب السامى ، حيث يأمرهم فى مثل هذه الأحوال ، أن ينزهوا أسماعهم عن مجرد الاستماع إلى ما يسىء إلى المؤمنين ، وأن يتحرجوا من مجرد النطق بمثل حديث الإفك ، وأن يستنكروا ذلك على من يتلفظ به .

ثم نهى - سبحانه - المؤمنين عن العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم فقال : « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين » .

أى : يعظكم الله تعالى - أيها المؤمنون - بما يرقق قلوبكم ، ويحذركم من العودة إلى الخوض فى حديث الإفك ، أو فيم يشبهه من أحاديث باطلة ، وعليكم أن تمتثلوا ما آمركم به ، وما أنهاكم عنه امتثالا كاملا ، إن كنتم مؤمنين إيمانا كاملا .

فقوله - تعالى - « إن كنتم مؤمنين » من باب تهييجهم وإثارة حماستهم للاستجابة لوعظه وتحذيره - سبحانه - .

وقوله - تعالى - « ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » إبراز لما تفضل به - سبحانه - عليهم من تعليم وتوجيه وحسن تربية .

أى : ويبين الله ـ تعالى ـ لكم الآيات التى تسعدكم فى دنياكم وآخرتكم متى اتبعتم ما اشتملت عليه من آداب وأحكام ، والله ـ تعالى ـ «عليم» بأحوال خلقه «حكيم» فى جميع ما يأمر به ، أو ينهى عنه .

• • •

ثم يواصل القرآن الكريم توجيهاته الحكيمة المؤمنين ، فيهدد الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا بالعذاب الأليم ، وينهى المؤمنين عن اتباع خطوات الشيطان ، قال ـ تعالى ـ :

« إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ، لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ، أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) » .

قال الإمام الرازى : «اعلم أنه ـ سبحانه ـ بعد أن بين ماعلى أهل الإفك ، وماعلى من سمع منهم ، وماينبغى أن يتمسك به المؤمنون من آداب ، اتبعه بقوله : «إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ...» ليعلم أن من أحب ذلك فقد شارك فى هذا الذم ، كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره ، وليعلم أهل الإفك كما أن عليهم العقوبة فيما أظهروه ، فكذلك

يستحقون العقوبة بما أسروه ، من محبة إشاعة الفاحشة فى المؤمنين»(١).

ومعنى « تشيع » : تنتشر وتكاثر ، ومنه قولهم : شاع الحديث، إذا ظهر بين الناس .

والفاحشة : هى الصفة البالغة أقصى دركات القبح . كالرمى بالزنا وما يشبه ذلك .

وهى صفة لموصوف محذوف . أى : الخصلة الفاحشة . والمقصود بمحبة شيوعها : محبة شيوع خبرها بين عامة الناس .

والمعنى : إن الذين يحبون أن تنتشر قالة السوء بين صفوف المؤمنين ، وفى شأنهم، لكى يلحقوا الأذى بهم ، هؤلاء الذين يحبون ذلك «لهم» بسبب نواياهم السيئة « عذاب أليم فى الدنيا » كإقامة الحد عليهم ، وازدراء الأخيار لهم ، ولهم - أيضا - عذاب أليم « فى الآخرة» وهو أشد وأبقى من عذاب الدنيا .

« والله » تعالى وحده « يعلم » ماظهر وماخفى من الأمور والأحوال « وأنتم » - أيها الناس - « لا تعلمون » إلا ما كان ظاهرا منها ، فعاملوا الناس على حسب ظواهرهم ، واتركوا بواطنهم لخالقهم ، فهو - سبحانه - الذى يتولى محاسبتهم عليها .

فالآية الكريمة يؤخذ منها : أن العزم على ارتكاب القبيح ، منكر يعاقب عليه صاحبه ، وأن محبة الفجور وشيوع الفواحش فى صفوف المؤمنين ، ذنب عظيم يؤدى إلى العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، لأن الله - تعالى - علق الوعيد الشديد فى الدارين على محبة انتشار الفاحشة فى الذين آمنوا .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٢٤٦ .

ثم ذكر - سبحانه - المؤمنين بفضله عليهم مرة أخرى ، لكى يزدادوا إعتبارا واتعاظا فقال « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم » .

وجواب « لولا » محذوف ، كما أن خبر المبتدأ محذوف ، والتقدير : ولولا فضل الله عليكم ، ورحمته بكم موجودان ، لعاجلكم بالعقوبة . ولكنه - سبحانه - لم يعاجلكم بها ، لأنه شديد الرأفة والرحمة بعباده ، ولو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك عليها من دابة .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن اتباع خطوات الشيطان ، فقال : « يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر . . . » .

والخطوات : جمع خطوة . وهى فى الأصل تطلق على ما بين القدمين . والمراد بها هنا : طرقه ومسالكه ووساوسه ، التى منها الإصغاء إلى حديث الإفك ، والخوض فيه . وما يشبه ذلك من الأقوال الباطلة ، والأفعال القبيحة .

أى : يامن آمنتم بالله حق الإيمان ، احذروا أن تسلكوا المسالك التى يغريكم بسلوكها الشيطان ، فإن الشيطان وظيفته الإغراء بالشر لا بالخير ، والأمر بالفحشاء والمنكر ، وليس بالفضائل والمعروف .

وجواب الشرط فى قوله : « ومن يتبع خطوات الشيطان . . . » محذوف ، والتقدير : ومن يتبع خطوات الشيطان يقع فى الضلال والعصيان ، فإن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر .

وخاطبهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لتحريك قوة الإيمان فى قلوبهم ، ولتهييجهم على الاستجابة لما أرشدهم إليه - سبحانه - .

وقوله - سبحانه - « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا . . . » بيان لمظاهر فضله - تعالى - ولطفه بعباده المؤمنين .

والمـــراد بالتزكية هنا : التطهير من أرجاس الشرك ، ومن الفسوق والعصيان .

أى : ولولا فضل الله عليكم - أيها المؤمنون - ورحمته بكم ، ما طهر أحد منكم من دنس الذنوب والمعاصى طول حياته ، ولكن الله - تعالى - بفضله ورحمته يطهر من يشاء تطهيره من الأرجاس والأنجاس ، بأن يقبل توبته ، ويغسل حوبته .

« والله » - تعالى - « سميع » لدعاء عباده ومناجاتهم إياه « عليم » بما يسرونه وما يعلنونه من أقوال وأفعال .

ثم حض - عز وجل - أصحاب النفوس النقية الطاهرة ، على المواظبة على ما تعودوه من سخاء وسماحة ، فقال : « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » .

وقد صح أن هذه الآية الكريمة نزلت فى شأن أبى بكر - رضى الله عنه - عندما أقسم أن لا يعطى مسطح بن أثاثة شيئا من النفقة أو الصدقة .

وكان مسطح قريبا لأبى بكر ، وكان من الفقراء الذين تعهد أبو بكر - رضى الله عنه - بالانفاق عليهم لحاجتهم وهجرتهم وقرابتهم منه .

وقوله : « ولا يأتل » أى : ولا يحلف . يقال : آلى فلان وأتـــلى ، إذا حلف ، ومنه قوله - تعالى - : « للذين يؤلون من نسائهم . . . » أى : يحلفون .

أى : ولا يحلف « أولوا الفضـــل منكم والسعة » أى : أصحاب الزيادة منكم فى قوة الدين ، وفى سعة المال ، « أن يؤتوا أولى القـــربى . . . » أى : على أن لا يعطوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، شيئا من أموالهم .

فالكلام فى قوله : «أن يؤتوا» على تقدير حرف الجر ، أى : لا يحلفوا على أن لا يؤتوا ، وحذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من أنّ وأن وصلتهما مطرد . ومفعول «يؤتوا» الثانى محذوف . أى : أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، النفقة التى تعودوا أن يقدموها لهم .

وقوله - تعالى - : «وليعفوا وليصفحوا» تحريض على العفو والصفح . والعفو معناه التجاوز عن خطأ المخطىء ونسيانه ، مأخوذ من عفت الريح الأثر ، إذا طمسته وأزالته .

والصفح : مقابلة الإساءة بالإحسان ، فهو أعلى درجة من العفو .

أى : قابلوا - أيها المؤمنون - إساءة المسىء بنسيانها ، وبمقابلتها بالإحسان .

وقوله : «ألا تحبون أن يغفر الله لكم» أى : ألا تحبون - أيها المؤمنون - أن يغفر الله لكم ذنوبكم ، بسبب عفوكم وصفحكم عمن أساء إليكم ؟

فالجملة الكريمة ترغيب فى العفو والصفح بأبلغ أسلوب . وقد صح أن أبا بكر - رضى الله عنه - لما سمع الآية قال : بلى والله يا ربنا ، إنا لنحب أن تغفر لنا ، وأعاد إلى مسطح نفقته . وفى رواية : أنه - رضى الله عنه - ضاعف لمسطح نفقته .

قال الآلوسى : «وفى الآية من الحث على مكارم الأخلاق ما فيها ، واستدل بها على فضل الصديق - رضى الله عنه - ، لأنه داخل فى أولى الفضل قطعا ، لأنه وحده أو مع جماعة سبب النزول ، ولا يضر فى ذلك الحكم لجميع المؤمنين كما هو الظاهر . . .»(1) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يرفع من شأن العفو والصفح فقال : «والله غفور رحيم» .

---

(1) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ١٢٦ .

أى : والله ـ تعالى ـ كثير المغفرة، وواسع الرحمة بعباده، فكونوا ـ أيها المؤمنون ـ أصحاب عفو وصفح عمن أساء إليكم.

وبعد أن أمر ـ سبحانه ـ المؤمنين بالعفو والصفح عمن استزلهم الشيطان، فخاضوا فى حديث الإفك ثم ندموا وتابوا، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة المصرين على خبثهم وعلى محبة إشاعة الفاحشة فى صفوف الجماعة الإسلامية فقال ـ تعالى ـ :

« إنَّ الذينَ يرْمُونَ المحصَنَاتِ الغَافلاتِ المؤمِنَاتِ، لُعِنوا فى الدُّنيا والآخرةِ ولهُم عذابٌ عظيمٌ (٢٣) يومَ تشهَدُ عليهِمْ أَلسِنتهم وأيديهم وأرجلُهم بمَا كانوا يَعمَلُونَ (٢٤) يومئذٍ يُوفِّيهم الله دِينَهُم الحَقَّ، ويعلَمُونَ أنَّ الله هُو الحقُّ المبينُ (٢٥) الخبيثَاتُ للخبيثِينَ، والخبيثُونَ للخبيثَاتِ، والطيباتُ للطَّيبينَ والطَّيبُونَ للطَّيباتِ، أُولئِكَ مبرَّءونَ ممَّا يقولُونَ، لهُم مغفرةٌ ورِزقٌ كريمٌ (٢٦) ».

والمعنى : « إن الذين يرمون » بالفاحشة النساء « المحصنات » أى : المانعات أنفسهن عن كل سوء وريبة « الغافلات » أى : الغافلات عن أن تدور الفاحشة بأذهانهن، لأنهن طبعن على التخلق بالأخلاق الفاضلة الكريمة، فهن فوق كونهن محصنات، لا يخطر السوء ببالهن لطهارة معدنهن ...

« المؤمنات » أى : الكاملات الإيمان بالله ـ تعالى ـ، وبصدق رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وبكل ما يجب الإيمان به.

وقوله ـ سبحانه ـ : « لعنوا فى الدنيا والآخرة » أى : طردوا من رحمة الله ـ تعالى ـ فى الدنيا وفى الآخرة، وفوق كل ذلك « لهم » منه ـ تعالى ـ « عذاب عظيم » لا تحيط العبارة بوصفه.

وجملة « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » مقررة لمضمون ماقبلها ، مبينة لحلول وقت ذلك العذاب بهم .

أي : لهم عذاب عظيم يوم القيامة ، يوم يقفون أمام الله - تعالى - للحساب فتشهد عليهم ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم ، ثم بما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال سيئة ، وبما كانوا يقولونه من أقوال قبيحة .

فالمراد بشهادة هذه الجوارح ، نطقها وإخبارها عما كانوا يعملونه فى الدنيا .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء . . »[1].

وقوله - سبحانه - « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون »[2] .

والمراد بالدين فى قوله - تعالى - : « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق . . . » الجزاء الذى يستحقونه بسبب آثامهم . ويوفيهم : من التوفية بمعنى إعطاء الشىء كاملا ووافيا . وقوله : « يومئذ » ظرف ليوفيهم .

أى : فى هذا اليوم العظيم وهو القيامة . الذى تشهد فيه الجوارح على صاحبها ، يجازى الله - تعالى - هؤلاء الفاسقين الجزاء الحق العادل ، الذى يستحقونه بسبب رميهم النساء المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة .

« ويعلمون » علما لا مجال معه للشك أو الريب عندما يشاهدون العذاب « أن الله » - تعالى - هو « الإله » الحق ، فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وأنه - عز وجل - هو « المبين » أى : المظهر لما أبطنته النفوس ، وخبأته الضمائر ، والقادر على مجازاة الذين أساءوا بما عملوا ، وعلى مجازاة الذين أحسنوا بالحسنى .

(١) سورة فصلت ، الآية ٢١ ، ٢٢ . (٢) سورة يس الآية ٦٥ .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآيات التي نزلت في حديث الإفك، بتقرير سنته الإلهية، التي نشاهدها في واقع الناس ـ وهي أن شبيه الشيء منجذب إليه وأن الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف. وما تناكر منها اختلف، : ـ كما جاء في الحديث الشريف ـ فقال ـ تعالى ـ : « الخبيثات للخبيثين » أي : الخبيثات من النساء، مختصات بالخبيثين من الرجال، « والخبيثون » من الرجال مختصون « بالخبيثات » من النساء، « والطيبات » منهن « للطيبين » منهم « والطيبون » ـ أيضا ـ منهم « للطيبات » منهن.

وهكذا يألف الشكل شكله، والطيور على أشكالها تقع، وإذا كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أطيب الطيبين، فلا يمكن أن تكون زوجاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى رأسهن عائشة، إلا من أطيب الطيبات من النساء، وأطهر الطاهرات منهن.

ثم جاءت شهادة الله ـ تعالى ـ وهي تغني عن كل شهادة ـ بما يثبت براءة عائشة ـ رضي الله عنها ـ من كل ما افتراه عليها المفترون، جاء قوله ـ سبحانه ـ « أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ».

أي : « أولئك » الطيبون والطيبات، وعلى رأسهم رسول الله ـ صلى الله عليه ـ وأهل بيته. وعلى رأس أهل بيته عائشة ـ رضي الله عنها ـ « مبرءون مما يقولون » أي : مما يقوله الخبيثون والخبيثات في شأنهم.

وأولئك الطيبون والطيبات « لهم مغفرة » عظيمة من الله ـ تعالى ـ ولهم « رزق كريم » هو جنة عرضها السموات والأرض، جزاء إيمانهم وعملهم الصالح، وصبرهم على الأذى.

هذا هو حديث القرآن عن حديث الإفك. الذي أشاعه الفاسقون عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وكان مقصدهم الأكبر من وراء ذلك هو الطعن في نبوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولكن الله ـ تعالى ـ رد عليهم بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم.

هذا، ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة جملة من الأحكام والآداب من أهمها ما يأتي :

١ - غيرة الله - تعالى - على حرمة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ودفاعه - سبحانه - عن أوليائه، ورده لكيد المنافقين في نحورهم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : « هذه الآيات نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين . بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله - تعالى - لها، ولنبيه - صلوات الله وسلامه عليه - فأنزل - سبحانه - براءتها، صيانة لعرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - »[1] .

٢ - تسلية الله - تعالى - لعباده المؤمنين، عما أصابهم من هم وغم بسبب هذا الحديث المفترى على الصديقة بنت الصديق - رضي الله عنهما -، وقد ظل هذا الحديث يتردد في جنبات المدينة، حتى نزلت هذه الآيات الكريمة، لإحقاق الحق وإبطال الباطل ..

ومن مظاهر هذه التسلية قوله - تعالى - : « لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ... » .

قال صاحب الكشاف : ومعنى كونه خيرا لهم . أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم، لأنه كان بلاء ومحنة ظاهرة . وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية، كل واحدة منها مستقلة، بما هو تعظيم لشأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتسلية له . وتنزيه لأم المؤمنين - رضوان الله عليها - وتطهير لأهل البيت . وتهويل لمن تكلم في ذلك، أو سمع به فلم تمجه أذناه وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة . وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها »[2].

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ١٧ .
(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢١٧ .

٣ - إرشاد المؤمنين إلى أن من أنجع الوسائل لمحاربة الإشاعات الكاذبة، أن يحسن بعضهم الظن ببعض، وأن يكتموا هذه الإشاعات حتى تموت فى مهدها، وأن يزجروا من يتفوه بها، أو من يعمل على ترويجها، وأن يظهروا له احتقارهم، ونفورهم من مجرد سماعها.

وهذا الإرشاد الحكيم، نراه فى آيات متعددة من هذه القصة، ومن ذلك قوله - تعالى - : «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا، وقالوا هذا إفك مبين».

«ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا. سبحانك هذا بهتان عظيم».

٤ - بيان جانب من مظاهر فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده المؤمنين، الذين سبقتهم ألسنتهم بالخوض فى حديث الإفك، أو فى سماعه ... ثم تابوا بعد ذلك مما وقعوا فيه.

ويتجلى هذا الفضل العظيم، فى قوله - تعالى - : «ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة، لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ...».

«ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم».

«ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا، ولكن الله يزكى من يشاء، والله سميع عليم».

٥ - تحذير المؤمنين تحذيرا شديدا، من مغبة الوقوع مرة أخرى، فيما وقع فيه بعضهم من الخوض فى حديث الإفك، وفيما يشبهه من أحداث وبيان أن ما حدث من بعضهم يتنافى مع ما يقتضيه الإيمان، ومع آداب الإسلام.

من الآيات التى وردت فى هذا التحذير قوله - تعالى - : «يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات، والله عليم حكيم».

٦ - تهديد الذين افتروا حديث الإفك بخبث وبسوء نية، وبإصرار على

نشر قالة السوء فى صفوف المؤمنين... تهديدهم بأشد ألوان العذاب فى الدنيا والآخرة، ووصفهم بأقبح الصفات التى تدعو إلى نبذهم والبعد عنهم.

ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله - تعالى -: «لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون».

وقوله - سبحانه -: «إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة...».

وقوله - عز وجل -: «إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم. يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين».

قال صاحب الكشاف - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه: «ولو فليت القرآن كله، وفتشت عما أوعد به العصاة، لم تر الله - تعالى - قد غلظ فى شىء تغليظه فى الإفك على عائشة - رضوان الله عليها -، وأنزل - سبحانه - من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد.. ما أنزل فى حديث الإفك، ولو لم ينزل الله إلا هذه الثلاث - يعنى قوله - تعالى -: إن الذين يرمون المحصنات الغافلات... إلى قوله - سبحانه - ويعلمون أن الله هو الحق المبين - لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا، وبأن جوارحهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا... فأوجز - سبحانه - فى ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكد وكرر... وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسوله - صلى الله عليه وسلم ونفى التهمة عن حرمته...»(1).

٧ - توجيه المؤمنين الصادقين إلى العفو والصفح، عمن شارك فى حديث

(1) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٢٣.

الإفك بالقول ، أو بالسماع ، أو بالرضا به . مادام هؤلاء المشاركون قدتابوا وندموا على ما وقع منهم ، ندما يدل على حسن توبتهم ، كأن يعترفوا بخطئهم أو يعتذروا عما فرط منهم .

ويشهد لهذا التوجيه قوله - تعالى - فى شأن أبى بكر الصديق ، بعدأن أقسم أن لا ينفق على مسطح - « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » .

٨ - تكريم عائشة - رضى الله عنها - تكريما يظل ملازما لها إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها فقد برأها - سبحانه - مما افتراه عليها المفترون . وشهد بحصانتها وغفلتها عن السوء ، وقوة إيمانها ، وطيب عنصرها ، وأنزل فى شأنها قرآنا يتلى إلى يوم القيامة ، ويكفيها فخرا قوله - تعالى - : « أولئك مبرءون مما يقولون . لهم مغفرة ورزق كريم » .

وقد ساق بعض العلماء كثيرا من الأحاديث التى تدل على فضلها وعلى حب النبى - صلى الله عليه وسلم - لها ، فقال ماملخصه : « وفى الجملة فإن أهل السنة مجمعون على تعظيم عائشة . وعلى محبة النبى - صلى الله عليه وسلم - لها ، ففى الصحيح عن عمرو بن العاص قال : قلت يارسول الله . أى النساء أحب إليك ؟ قال : عائشة . . . .

وثبت فى الصحيح - أيضا - أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، لما يعلمون من محبته - صلى الله عليه وسلم - إياها . . . وكان فى مرضه الذى مات فيه يقول : أين أنا اليوم ؟ استبطاء ليوم عائشة . ثم استأذن نساءه - رضى الله عنهن - أن يمرض فى بيتها ، وفيه توفى فى حجرها »[1] .

---

(١) راجع تفسير القاسمى ج ١٢ ص ٤٤٩٤ .

هذه بعض الأحكام والآداب التى تؤخذ من هذه الآيات ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى أمهات كتب التفسير ، ففيها مايشبع وينفع .

° ° °

وبعد أن بين - سبحانه - قبح جريمة الزنا ، وشناعة جريمة القــذف ، وعقوبة كل من يقع فى هاتين الجريمتين ، اتبع ذلك ببيان الآداب التى تحمل المتمسك بها على التحلى بالفضيلة والنقاء والطهر . . . وبدأ - سبحانه - بآداب الاستئذان فقال - تعالى - :

« يأيها الذينَ آمنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غيرَ بيوتِكُم حتى تستأْنسوا وتُسَلِّموا عَلَى أَهلهاَ ، ذلِكُم خيرٌ لكُم لعلكُم تذكَّرونَ (٢٧) فإن لم تجِدُوا فيها أحداً فلا تَدْخلوهاَ حتَّى يؤْذَنَ لكُم ، وإنْ قيلَ لكُم ارجِعُوا فارجِعُوا هو أزكَى لكُم ، واللهُ بِما تعملُونَ عليمٌ (٢٨) ليسَ عليكُمْ جناحٌ أن تدْخُلوا بيوتاً غيرَ مَسْكونةٍ فيها متاعٌ لكُمْ ، والله يعلَمُ ما تُبدُونَ وما تكتُمونَ (٢٩) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات، أن امرأة من الأنصار جاءت إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يارسول الله ، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب ان يرانى عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتى الأب فيدخل على وإنه لايزال يدخل على رجل من أهلى وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزل قوله - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا . . .

فقال أبو بكر - رضى الله عنه - : يارسول الله ، أفرأيت الخانات والمساكن فى طرق الشام ، ليس فيها ساكن ، فأنزل الله - تعالى - : « ليس

عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم . . . »(١) .

والمراد بالبيوت فى قوله ـ تعالى ـ « لا تدخلوا بيوتا . . . » ، البيوت المسكونة من أصحابها ، بدليل قوله ـ سبحانه ـ بعد ذلك « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة . . . » .

وقوله ـ تعالى ـ : « تستأنسوا » من الاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف ، فهو من آنس الشىء إذا أبصره ظاهرا مكشوفا . ومنه قوله ـ تعالى ـ « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا . . » أى : قال لأهله إنى رأيت نارا . .

ويصح أن يكون من الاستئناس الذى هو ضد الاستيحاش لأن الذى يقرع باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا ، فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له أهل البيت فى الدخول ، زالت وحشته ، ودخل وهو مرتاح النفس .

وعلى هذا المعنى يكون الكلام من باب المجاز ، حيث أطلق اللازم وهو الاستئناس ، وأريد الملزوم وهو الإذن فى الدخول .

والمعنى : يامن آمنتم بالله ـ تعالى ـ حق الإيمان ، لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم التى تسكنونها ، والتى هى مسكونة لسواكم ، حتى تستأنسوا ، أى : حتى تعلموا أن صاحب البيت قد أذن لكم ، ورضيت نفسه بدخولكم « وتسلموا على أهلها » أى : وتسلموا السلام الشرعى على أهل هذه البيوت الساكنين فيها .

وعبر ـ سبحانه ـ عن الاستئذان فى الدخول بالاستئناس ، لأنه يوحى بأن القادم قد استأنس بمن يريد الدخول عليهم وهم قد أنسوا به ، واستعدوا لاستقباله ، فهو يدخل عليهم بعد ذلك وهم متهيئون لحسن لقائه. فإذا ماصاحب كل ذلك التسليم عليهم . كان حسن اللقاء أتم وأكمل .

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٢١٣ .

وقوله «ذلكم» أى : الاستئناس والتسليم قبل الدخول «خير لكم» من الدخول بدون استئناس أو استئذان أو تسليم .

وقوله : «لعلكم تذكرون» متعلق بمحذوف ، ولعل هنا للتعليل . أى : أرشدناكم إلى هذا الأدب السامى ، وبيناه لكم ، كى تعملوا به ، وتكونوا دائما متذكرين له ، وتتركوا اقتحام بيوت غيركم بدون استئذان منهم .

ثم بين - سبحانه - حالة أخرى توجب عليهم الاستئذان ، فقال : «فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوا حتى يؤذن لكم . . .»

أى : فإن لم تجدوا فى هذه البيوت أحدا ، بأن كانت خالية من سكانها لظرف من الظروف ، فلا يصح لكم - أيضا - أن تدخلوها ، حتى يؤذن لكم فى دخولها ممن يملك الإذن بذلك .

قال صاحب الكشاف : «وذلك أن الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الدامر - أى الداخل بغير إذن - على عورة ، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط ، وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التى يطويها الناس فى العادة عن غيرهم ، ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ، ولأنه تصرف فى ملك غيرك ، فلابد من أن يكون برضاه ، وإلا أشبه الغصب والتغلب»(1) .

فالآية الأولى لبيان حكم دخول البيوت المسكونة بأهلها ، وهذه لبيان حكم دخول البيوت الخالية من سكانها .

وقوله - تعالى - : «وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم» بيان لما يجب عليهم فى حالة عدم الإذن لهم بالدخول.

أى : وإن قيل لكم من جهة أهل البيت ارجعوا ولا تدخلوا ، فارجعوا ولا تلحوا فى طلب الدخول ، فإن هذا الرجوع هو أطهر لأخلاقكم ، وأبقى

(1) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٢٢٨ .

لمروءتكم . من الإلحاح فى الاستئذان ، ومن الوقوف على أبواب أصحابها فقد تكون أحوالهم لاتسمح لكم بالدخول عليهم .

وقوله - سبحانه - : « والله بما تعملون عليم » تذييل قصد به التحذير من مخالفة ما أمر الله - تعالى - به ، وما نهى - سبحانه - عنه :

أى : والله -تعالى- لاتخفى عليه خافيةمن أعمالكم ، فأصلحوها ، والتزموا باتباع ما أمركم به ، وما نهاكم عنه ، فإنه - سبحانه - سيجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

فالمقصود من هذا الاخبار ، إفادة لازمه وهو المجازاة على هذه الأعمال .

وقوله - سبحانه - : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم » بمنزلة الاستثناء من الأحكام التى اشتملت عليها الآيتان السابقتان .

فقد ذكر المفسرون أنه لما نزلت آية الاستئذان ، قال بعض الصحابة يا رسول الله . كيف بالبيوت التى بين مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ، وهى على ظهر الطريق ، وليس فيها ساكن من أربابها ، فنزلت هذه .

والمراد بالمتاع : التمتع والانتفاع بها .

أى : ليس عليكم - أيها المؤمنون - حرج أو إثم فى أن تدخلوا بغير استئذان بيوتا غير معدة لسكنى طائفة معينة من الناس ، بل هى معدة لينتفع بها من يحتاج إليها من دون أن يتخذها مسكنا له ، كالرباطات ، والفنادق ، والحوانيت ، والحمامات ، وغير ذلك من الأماكن المعدة للراحة المؤقتة لا للسكن والإقامة .

وقوله : « فيها متاع لكم » أى : فيها حق تمتع وانتفاع لكم ، كالوقاية من الحر والبرد ، وكتبادل المنافع فيما بينكم بالبيع أو الشراء ، وغير ذلك مما يتناسب مع وظيفة هذه البيوت غير المسكونة .

وقوله - سبحانه - : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » وعيد وتحذير آخر لأولئك الذين يدخلون البيوت ولا يرعون حرمتها ، بل يبيحون لعيونهم ولجوارحهم ، ما لم تبحه آداب الإسلام ، وتعاليمه . كالتطلع إلى العورات . وما يشبه ذلك من المقاصد السيئة .

أي : والله - تعالى - وحده يعلم ما تظهرونه وما تخفونه من أقوال وأعمال . وسيحاسبكم عليها ، فاحذروا أن تسلكوا مسلكا لا يرضى خالقكم عنكم .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :

١ - أن على كل إنسان - سواء أكان رجلا أم امرأة - أن يستأذن ويسلم قبل الدخول على غيره في بيته ، لأن الله - تعالى - يقول : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ... » فهذا نهي صريح عن الدخول بدون استئذان .

إلا أن جمهور الفقهاء يرون أن الطلب في الاستئناس على سبيل الوجوب وفي السلام على سبيل الندب ، كما هو حكم السلام في غير هذا الموطن .

٢ - يرى بعض العلماء أن القادم يبدأ بالاستئذان قبل السلام ، كما جاء في الآية الكريمة ، ويرى كثير منهم تقديم السلام على الاستئذان ، لأن الواو لا تستلزم الترتيب ، ولأن هناك أحاديث متعددة ، تفيد أن السلام مقدم على الاستئذان ، ومنها ما أخرجه الترمذي عن جابر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « السلام قبل الكلام »(١) .

وبعض العلماء فصل في هذه المسألة فقال : إن كان القادم يرى أحداً من أهل البيت ، سلم أولا ثم استأذن في الدخول ، وإن كان لا يرى أحداً منهم قدم الاستئذان على السلام .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٩ .

وهذا الرأى وجاهته ظاهرة ، لأن فيه جمعا بين الأدلة .

٣ ـ لاصحة لما ذكره بعضهم من أن أصل الآية (حتى تستأذنوا) ، وأن الكاتبين أخطأوا فى كتابتهم فكتبوا (حتى تستأنسوا) ، وذلك لأن جميع الصحابة أجمعوا على كتابة (حتى تستأنسوا) فى جميع نسخ المصحف العثمانى ، وعلى تلاوة الآية بلفظ (تستأنسوا) ومضى على ذلك إجماع المسلمين فى كل مكان ، سواء فى كتابتهم للمصحف أم فى قراءتهم له .

قال القرطبى : إن مصاحف الإسلام كلها ، قد ثبت فيها (حتى تستأنسوا) وصح الإجماع فيها من لدن عثمان ، فهى التى لا تجوز مخالفتها ، وإطلاق الخطأ والوهم على الكاتب فى لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح ... وقد قال الله ـ تعالى ـ (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) وقال ـ سبحانه ـ (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[١] .

٤ ـ ظاهر قوله ـ تعالى ـ : (حتى تستأنسوا ..) أن الاستئذان غير مقيد بعدد ، إلا أن السنة الصحيحة قد بينت أن الاستئذان يكون ثلاث مرات فإن لم يؤذن له بعدها انصرف .

ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى مارواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : كنت فى مجلس من مجالس الأنصار . إذ جاء أبو موسى ـ كأنه مذعور ـ فقال : استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع) .

فقال لى : لتأتين بالبينة . فهل منكم أحد سمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول ذلك ؟ فقام معه أبى بن كعب ، فأخبر عمر أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ذلك .

---

(١) راجع تفسير : القرطبى ج ١٢ ص ٢١٤

قال بعض العلماء : والراجح أن الواجب إنما هو الاستئذان مرة ، فأما إكمال العدد ثلاثا فهو حق المستأذن إن شاء أكمله ، وإن شاء اقتصر على مرة أو مرتين . فقد ثبت أن عمر بن الخطاب استأذن على النبي - صلى الله عليه وسلم - مرتين ، فلم يؤذن له فرجع ، فتبعه غلام فقال له : أدخل فقد أذن لك النبي - صلى الله عليه وسلم - »(١) .

٥ - ظاهر قوله - تعالى - « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا » يفيد أنهم ليس عليهم استئذان في دخول بيوتهم ، إلا أن هذا الظاهر يصح حمله على الزوجة . لأنه يجوز بين الزوج وزوجته من الأحوال ما لا يجوز لأحد غيرهما ، ومع ذلك فإنه ينبغي أن يشعر الرجل زوجته بقدومه ، حتى لا يفاجئها بما تكره له أن يطلع عليه .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآيات : وهذا - أي عدم الاستئذان على الزوجة - محمول على عدم الوجوب ، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها . . ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا(٢) . . .

وأما بالنسبة لغير زوجته ، كأمه ، وأخواته ، وبنيه وبناته البالغين ، فإنه يلزمه أن يستأذن عليهم ، لأنه إن دخل عليهم بدون استئذان ، فقد تقع عينه على ما لا يصح الإطلاع عليه .

ومن الأحاديث التي وردت في هذا المعنى . ما أخرجه مالك في الموطأ عن

---

(١) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ١٤٩ لفضيلة الشيخ محمد على السايس - رحمه الله - .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٠ .

عطاء بن يسار ، أن رجلا قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أأستأذن على أمي ؟ قال : نعم قال : ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا . قال : فاستأذن عليها(١) .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن نافع : كان ابن عمر إذا بلغ بعض ولده الحلم ، لم يدخل عليه إلا بإذن .

٦ ــ وردت أحاديث متعددة في كيفية الاستئذان ، وفي التحذير من التطلع إلى بيوت الغير بدون إذن .

فمن آداب الاستئذان أن لا يقف المستأذن أمام الباب بوجهه ، ولكنه يجعل الباب عن يمينه أو عن يساره ، ومن الأحاديث التي وردت في ذلك ما أخرجه أبو داود عن عبد الله بن بشر قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : السلام عليكم ...

كذلك من آداب الاستئذان أن لا يقول المستأذن (أنا) في الرد على رب المنزل ، وإنما يذكر اسمه ، ففي صحيح البخاري عن جابر قال : أتيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دين كان على أبي ، فدققت الباب ، فقال : من ذا ؟ قلت : أنا . فقال : أنا ، أنا ، كأنه كرهها)(٢) .

ولعل السر في النهي عن الرد بلفظ (أنا) أن هذا اللفظ يعبر به كل واحد عن نفسه ، فلا تحصل به معرفة شخصية المستأذن ، والمقصود بالاستئذان الإفصاح لا الإبهام .

أما التحذير من التطلع إلى بيوت الغير بدون إذن ، فيكفي لذلك ما جاء في

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢١٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٨ .

الصحيحين عن أبي هريرة ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذنك فخذفته ، أي : ـ رميته ـ بحصاة ، ففقأت عينه ، ما كان عليك من جناح » .

هذه بعض الأحكام والآداب التي تتعلق بالاستئذان ، ومنها نرى كيف أدب الإسلام اتباعه بهذا الأدب العالي ، الذي يؤدي التمسك به إلى غرس الفضائل ومكارم الأخلاق في نفوس الأفراد والجماعات .

* * *

وبعد أن نهى ـ سبحانه ـ عن دخول البيوت بدون استئذان ، اتبع ذلك ذلك بالأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، وعدم إبداء الزينة إلا في الحدود المشروعة ، فقال ـ تعالى ـ :

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبصَارِهِم ويحفظُوا فرُوجَهم ذلِكَ أَزكَى لَهم إنّ اللّهَ خبيرٌ بِمَا يَصنَعُونَ (٣٠) وقلْ للمؤمناتِ يَغضضْن مِنْ أَبصَارِهِن ، ويحفَظْن فُروجهُنّ ، ولا يُبدِينَ زِينَتَهنّ إلاّ ما ظهرَ منها ، وليضربْنَ بخُمُرِهِنّ عَلَى جيوبِهنّ ، ولا يُبدِينَ زينَتَهنّ إلاّ لبُعولتِهنّ ، أَو آبائِهنّ أَو آباء بعولَتِهنّ ، أو أبنائِهنّ أو أبناء بُعولتِهنّ ، أو إخوانِهنّ أو بنِي إخوانِهنّ أو بنِي أَخَواتِهنّ أو نسائِهنّ أو ما ملَكَت أيمَانُهنّ ، أو التّابِعِينَ غير أُولِي الإِرْبَةِ من الرِّجالِ ، أو الطِّفلِ الذينَ لم يَظهرُوا عَلَى عورَاتِ النِّساء ، ولا يَضرِبنَ بأرجُلِهنّ لِيُعلَمَ ما يُخفِينَ مِنْ زِينتِهنّ وتوبوا إلى اللهِ جَمِيعًا أيُّهَا المؤمِنُونَ لعلّكُمْ تُفلِحُونَ (٣١) » .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . . » شروع فى بيان أحكام كلية شاملة المؤمنين كافة، يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخول البيوت إندراجا أوليا(١) .

وقوله - تعالى -: « يغضوا » من الغض بمعنى الخفض . يقال : غض الرجل صوته إذا خفضه . وغض بصره إذا خفضه ومنعه من التطلع إلى مالا يحل له النظر إليه . قال الشاعر :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى
حتى يوارى جارتى مأواها

وهو جواب الأمر « قل » أى : قل - أيها الرسول الكريم - المؤمنين بأن يغضوا من أبصارهم عما يحرم أو يكره النظر إليه. وبأن يحفظوا فروجهم عما لا يحل لهم ، فإن ذلك دليل على كمال الإيمان ، وعلى حسن المراقبة وشدة الخوف من الله - تعالى - .

وجمع - سبحانه - بين غض البصر وحفظ الفرج ، باعتبارهما كالسبب والنتيجة . إذ أن عدم غض البصر كثيرا مايؤدى إلى الوقوع فى الفواحش ، ولذا قدم - سبحانه - الأمر بغض البصر ، على الأمر بحفظ الفرج.

وجاء التعبير بقوله - سبحانه - « قل » للإشعار بأن المؤمنين الصادقين ، من شأنهم إذا ماأمرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأمر ، فإنهم سرعان مايمتثلون ويطيعون ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - مبلغ عن الله - تعالى - الذى يجب الامتثال لأمره ونهيه .

وخص - سبحانه - المؤمنين بهذا الأمر ، لأنهم أولى الناس بالمخاطبة ، وبالإرشاد إلى مايرفع درجاتهم ، ويعلى أقدارهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٨ ص ١٣٨ .

قال صاحب الكشاف : « و « من » للتبعيض .. فإن قلت : كيف دخلت فى غض البصر ، دون حفظ الفروج ؟ قلت : للدلالة على أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن . . . والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها . . . وأما أمر الفرج فضيق [1] .

واسم الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ : « ذلك أزكى لهم » يعود إلى ما ذكر من الغض والحفظ .

أى : ذلك الذى كلفناك بأمر المؤمنين به ـ أيها الرسول الكريم ـ أزكى لقلوبهم ، وأطهر لنفوسهم ، وأنفع لهم فى دنياهم وآخرتهم .

وقوله ـ سبحانه ـ : « إن الله خبير بما يصنعون » تحذير من مخالفة أمره ـ سبحانه ـ

أى : مرهم ـ أيها الرسول الكريم ـ بالتزام ما أمرناهم به وما نهيناهم عنه ، لأننا لا يخفى علينا شىء من تصرفاتهم ، ولأننا أعلم بهم من أنفسهم ، وسنحاسبهم على ما يصنعون فى دنياهم ، يوم القيامة

ثم أرشد ـ سبحانه ـ النساء إلى ما أرشد إليه الرجال. فقال: «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها» .

أى : وقل ـ أيها الرسول الكريم ـ للمؤمنات ـ أيضا ـ بأن الواجب عليهن أن يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن ، وأن يحفظن فروجهن عن كل ما نهى الله ـ تعالى ـ عنه ، ولا يظهرن شيئا مما يتزين به ، إلا ما جرت العادة بإظهاره . كالخاتم فى الإصبع ، والكحل فى العين . . . وما يشبه ذلك من الأمور التى لا غنى للمرأة عن إظهارها .

ومع أن النساء يدخلن فى خطاب الرجال على سبيل التغليب . إلا أن الله ـ تعالى ـ خصهن بالخطاب هنا بعد الرجال ، لتأكيد الأمر بغض البصر

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٥٩ .

وحفظ الفرج ، ولبيان أنه كما لا يحل الرجل أن ينظر إلى المرأة - إلا في حدود ماشرعه الله - فإنه لا يحل للمرأة كذلك أن تنظر إلى الرجل ، لأن علاقتها به ، ومقصده منها كقصدها منه ، ونظرة أحدهما الآخر - على سبيل الفتنة وسوء القصد - يؤدي إلى مالا تحمد عقباه .

وقوله - تعالى - : «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» بيان لكيفية إخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهي عن إبدائها .

والخمر - بضم الخاء والميم - جمع خمار . وهو ما تغطي به المرأة رأسها وعنقها وصدرها ، والجيوب جمع جيب ، وهو فتحة في أعلى الثياب يبدو منها بعض صدر المرأة وعنقها .

والمراد به هنا : محله وهو أعلى الصدر وأصله من الجيب بمعنى القطع

أي : وعلى النساء المؤمنات أن يسترن رءوسهن وأعناقهن وصدورهن بخمرهن ، حتى لا يطلع أحد من الأجانب على شيء من ذلك .

قالوا : وكان النساء في الجاهلية يسدلن خمرهن من خلف رءوسهن ، فتنكشف نحورهن وأعناقهن وقلائدهن، فنهى الله - تعالى - المؤمنات عن ذلك .

ولقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث منها ما رواه البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول . لما أنزل الله - تعالى - : «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» أخذن أزرهن فشققنها فاختمرن بها .

وفي رواية أنها قالت : إن لنساء قريش لفضلا ، وإني - والله مارأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا بكتاب الله . ولا إيمانا بالتنزيل ، لما نزلت هذه الآية . انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها . ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذي قرابة ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها - وهو كساء من صوف - فاعتجرت به تصديقا وإيمانا

بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى صلاة الصبح معتجرات كأن على رءوسهن الغربان »(١) .

والمقصود بزينتهن فى قوله - تعالى - : « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن » الزينة الخفية وهى ما عدا الوجه والكفين ، كشعر الرأس والذراعين والساقين .

فقد نهى الله - تعالى - النساء المؤمنات عن إبداء مواضع الزينة الخفية لكل أحد ، إلا من استثناهم - سبحانه - بعد ذلك ، وهم اثنا عشر نوعا ، بدأهم بالبعول وهم الأزواج لأنهم هم المقصودون بالزينة ، ولأن كل بدن الزوجة حلال لزوجها .

أى : وعلى النساء المؤمنات أن يلتزمن الاحتشام فى مظهرهن ، ولا يبدين مواضع زينتهن الخفية إلا « لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى اخوانهن ، فهؤلاء الأصناف السبعة الذين ذكرهم الله - تعالى - بعد الأزواج ، كلهم من المحارم الذين لا يحل للمرأة الزواج بواحد منهم ، وقد جرت العادة باحتياج النساء إلى مخالطتهم ، كما جرت العادة بأن الفتنة مأمونة بالنسبة لهم ، فمن طبيعة النفوس الكريمة أنها تأنف من التطلع إلى المحارم بالنسبة لها .

ويلحق بهؤلاء المحارم الأعمام والأخوال والمحارم من الرضاع ، والأصول وإن علوا ، والفروع وإن سفلوا ...

وقوله - تعالى - : « أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » بيان لبقية الأفراد الذين يجوز للمرأة أن تبدى زينتها الخفية أمامهم .

أى : ويجوز للنساء المؤمنات أن يبدين زينتهن - أيضا - أمام نسائهن

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٩

المختصات بهن بالصحبة والخدمة ، وأمام ما ملكت أيمانهن من الإماء لا من العبيد البالغين ، وأمام الرجال التابعين لهن طلبا للإحسان والانتفاع ، والذين فى الوقت نفسه قد تقدمت بهم السن ، ولا حاجة لهم فى النساء . ولا يعرفون شيئا من أمورهن ، ولا تحدثهم أنفسهم بفاحشة ، ولا يصفونهن للأجانب .

فقوله - سبحانه - «غير أولى الإربة من الرجال » أى : غير ذوى الحاجة من الرجال فى النساء . يقال : أرب الرجل إلى الشىء يأرب أربا - من باب تعب ، إذا احتاج إليه .

ويجوز لهن كذلك إظهار زينتهن أمام الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء ، أى : الذين لم يعرفوا ما العورة ، ولم يستطيعوا بعد التمييز بينها وبين غيرها ، ولم يبلغوا السن التى يشتهون فيها النساء .

يقال : ظهر على الشىء إذا اطلع عليه وعرفه ، ويقال : فلان ظهر على فلان إذا قوى عليه وغلبه .

فهؤلاء اثنا عشر نوعا من الناس ، ليس عليهم ولا على المرأة حرج ، فى أن يروا منها موضع الزينة الخفية ، كالرأس والذراعين . والساقين ، لانتفاء الفتنة التى من أجلها كان الستر والغطاء . فأما الزوج فله رؤية جميع جسدها .

ثم نهى - سبحانه - النساء المؤمنات عن إبداء حركات تعلن عن زينتهن المستورة ، بل عليهن أن يلتزمن من خلال خروجهن من بيوتهن الأدب والاحتشام والمشى الذى يصاحب الوقار والاتزان ، فقال - تعالى - : «ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن . . . » .

أى : ولا يصح للنساء المؤمنات أن يضربن بأرجلهن فى الأرض ، ليسمعن غيرهن من الرجال أصوات حليهن الداخلية ، بقصد التطلع إليهن ، والميل نحوهن بالمحادثة أو ما يشبهها .

فالمقصود من الجملة الكريمة نهى المرأة المسلمة ، عن استعمال أى حركة أو فعل من شأنه إثارة الشهوة والفتنة ، كالمشية المتكلفة ، والتعطر الملفت للنظر ... وما إلى ذلك من ألوان التصنع الذى من شأنه تهييج الغرائز الجنسية .

ثم ختم ـ سبحانه ـ تلك الآية الجامعة لأنواع من الأدب السامى ، بدعوة المؤمنين إلى التوبة الصادقة ، فقال ـ تعالى ـ : « وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

أى : وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون والمؤمنات ، توبة صادقة نصوحا تجعلكم تخشونه ـ سبحانه ـ فى السر والعلن ، لكى تنالوا الفلاح والنجاح فى دنياكم وأخراكم .

قال القرطبى : « ليس فى القرآن الكريم آية أكثر ضمائر من هذه الآية . جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات مابين مرفوع ومجرور ...[1] .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى اشتملت عليها هاتان الآيتان ما يأتى :

١ ـ وجوب غض البصر وحفظ الفرج ، لأن الإسلام يهدف إلى مجتمع طاهر من الدنس . نظيف من الخنا ، مجتمع لا تمنع فيه الشهوات الحلال ، وإنما تمنع منه الشهوات الحرام ، مجتمع لا تختلس فيه العيون النظرات السيئة ولا تتطلع فيه الأبصار إلى ما لا يحل لها التطلع إليه ، فالله ـ تعالى ـ يقول : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ويقول : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

وقد وردت أحاديث متعددة فى الأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ، العينان

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٢٣٨ .

زناها النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطا ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه .

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن نظر الفجأة - أى البغتة من غير قصد - فقال : « اصرف بصرك »(١)

٢ - أنه لا يصح للمرأة أن لا تبدي زينتها للأجانب ، إلا ما ظهر منها ، لأن الله - تعالى - يقول : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » .

قال الإمام القرطبي ما ملخصه: وأمر الله - تعالى - النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين ، إلا ما استثناه من الناظرين فى باقى الآية ، حذارا من الافتتان ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة ، واختلف الناس فى قدر ذلك .

فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب . . . وقال سعيد بن جبير والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب . . . وقال ابن عباس وقتادة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب . . . ونحو هذا . فيباح أن تبديه لكل من ظهر عليها من الناس . . .

وقال ابن عطية : ويظهر لى بحكم ألفاظ الآية ، بأن المرأة مأمورة بأن لا تبدى ، وأن لا تجهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر ، بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك ، « فما ظهر » على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة فى النساء فهو المعفو عنه .

قلت : أى: القرطبي - : وهذا قول حسن، إلا أنه كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما ، عادة وعبادة ، صح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما .

يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة ، أن أسماء بنت أبي بكر، دخلت

---

(١) راجع كتاب « رياض الصالحين » ص ٥٨٦ للامام النووى .

على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه ».

وقال بعض علمائنا: « إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك »(١).

هذا، وفى هذه المسألة كلام كثير للعلماء فارجع إليه إن شئت(٢).

وإلى هنا نرى السورة الكريمة قد نهت عن الزنا، ووضعت فى طريقه السدود الوقائية والنفسية، حيث حرمت الاختلاط، وأمرت بالاستئذان، وبغض البصر، وبحفظ الفرج، وبعدم التبرج، وبالإكثار من التوبة إلى الله - تعالى - .

ثم أتت بعد ذلك بالعلاج الإيجابى، الذى من شأنه أن يصرف الإنسان عن فاحشة الزنا المحرمة، لأنه سيجد فيما أحله الله - تعالى - مايغنيه عنها، وذلك عن طريق الأمر بتيسير الزواج، والحض عليه. قال - تعالى - :

«وأَنكِحُوا الأيامَى مِنكُم والصَّالحينَ من عبادِكُم وإمائِكُم. إنْ يكُونوا فقراء يُغنِهِمُ اللهُ من فضله، واللهُ واسعٌ عليمٌ (٣٢) وليستعفِفِ الذينَ لا يجدُونَ نكاحاً حتّى يُغنيهُم اللهُ مِن فَضْله والذينَ يبتغُونَ الكتابَ ممَّا ملكتْ أيمانُكُم فكاتبوهُم إنْ علِمتُم فيهِم خيراً، وآتوهُم من مالِ اللهِ الذِي آتاكُم، ولا تكرِهُوا فتياتِكُم على البغاءِ إنْ أردْنَ تحصُّناً لتبتغُوا عرَضَ الحياةِ الدُّنيا، ومن يكرِههُنّ فإنَّ اللهَ مِنْ بعْدِ إكراهِهِنّ

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٢ ص ١١٨ .

(٢) راجع - على سبيل المثال - أضواء البيان للشيخ الشنقيطى ج ٦ ص ١٩٢ وتفسير آيات الأحكام للشيخ السايس ج ٣ ص ١٥٥ .

غفورٌ رحيمٌ (٣٣) ولقدْ أنزَلنَا إليكمْ آياتٍ مُبيناتٍ ، ومثلاً مِنَ الذينَ خلَوْا من قبلِكُم ومَوعظةً للمتقينَ (٣٤) » .

والخطاب فى قوله ـ تعالى ـ : «وأنكحوا الأيامى منكم . . » للأولياء والسادة ، والأيامى : جمع أيم ـ بفتح الهمزة وتشديد الياء المكسورة . . . وهو كل ذكر لا أنثى معه ، وكل أنثى لا ذكر معها بكرا أو ثيبا . والمراد بالأيامى هنا الأحرار والحرائر .

وقوله ـ تعالى ـ « من عبادكم » جمع عبد وهو الرقيق ؛ و «إمائكم» جمع أمة .

والمراد من الإنكاح هنا : المعاونة والمساعدة فى الزواج ، والعمل على إتمامه بدون عوائق لا تؤيدها شريعة الله ـ تعالى ـ .

أى : زوجوا ـ أيها الأولياء والسادة ـ من لا زوج له من الرجال المسلمين أو النساء المسلمات ، ويسروا لهم هذا الأمر ولا تعسروه ، لأن الزواج هو الطريق المشروع لقضاء الشهوة ، ولحفظ النوع الإنسانى ، ولصيانة الأنساب من الاختلاط ، ولإيجاد مجتمع تفشوا فيه الفضيلة ، وتموت فيه الرذيلة .

وزوجوا ـ أيضا ـ الصالحين للزواج من عبيدكم وإمائكم فإن هذا الزواج أكرم لهم وأحفظ لعفتهم . . .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت لم خص الصالحين؟ قلت: ليحصن دينهم ، ويحفظ عليهم صلاحهم ، ولأن الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم . . فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم . . . وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك »(١) .

والأمر فى قوله ـ تعالى ـ : « وأنكحوا » يرى جمهور العلماء أنه للندب ، بدليل أنه قد وجد أيامى فى العهد النبوى ولم يجبروا على الزواج ، ولو كان الأمر للوجوب لأجبروا عليه . . . ويرى بعضهم أنه للوجوب .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٣٥ .

قال الإمام ابن كثير : « اشتملت هذه الآيات الكريمات ، على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله - تعالى - : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » هذا أمر بالتزويج ، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ، على كل من قدر عليه ، واحتجوا بظاهر قوله - صلى الله عليه وسلم - : « يامعشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة - أى القدرة على الزواج - فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء - أى : وقاية - »[1] .

ويبدو لنا أن الزواج يختلف حكمه باختلاف الأحوال ، فمن كان - مثلا قادرا على الزواج ، ويخشى إذا ترك الزواج أن يقع فى الفاحشة ، فإن الزواج بالنسبة له يكون واجبا عليه بخلاف من أمن الوقوع فى الفاحشة ، فإن الزواج بالنسبة له يكون مندوبا أو مستحبا .

ولذا قال الإمام القرطبى : « اختلف العلماء فى هذا الأمر - أى فى قوله - تعالى - « وأنكحوا » - على ثلاثة أقوال : فقال علماؤنا يختلف الحكم فى ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العنت ، ومن عدم صبره . . . فإذا خاف الهلاك فى الدين أو الدنيا فالنكاح حتم . وإن لم يخش شيئا ، وكانت الحال مطلقة ، فالنكاح مباح . قال الشافعى : إنه قضاء لذة فكان مباحا كالأكل والشرب .

وقال مالك وأبو حنيفة : هو مستحب »[2] .

وقوله - سبحانه - : « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » حض لمن يملك عقد الزواج على أن لا يجعل الفقر حائلا دون إتمامه . لأن الأرزاق بيد الله - تعالى - وحده .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٤ .
(٢) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٢٣٩

أي : زوجوا - أيها الأولياء والسادة - من كان أهلا للزواج وصالحا له وراغبا فيه ، من رجالكم ونسائكم ، ولا يمنعكم فقرهم من إتمامه ، فإنهم إن يكونوا فقراء اليوم ، فالله - تعالى - قادر على أن يغنيهم في الحال أو في المستقبل متى شاء ذلك ، فإن قدرته - عز وجل - لا يعجزها شيء ، وكم من أناس كانوا فقراء قبل الزواج ، ثم صاروا أغنياء بعده ، لأنهم قصدوا بزواجهم حفظ فروجهم . وتنفيذ ما أمرتهم به شريعة الاسلام .

روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله »(1) .

فهذا عهد أخذه الله - تعالى - على ذاته - فضلا منه وكرما - ولن يخلف الله - عز وجل - عهده .

وقوله - سبحانه - : « والله واسع عليم » أي : والله - تعالى - واسع الغنى لا تنفد خزائنه . ولا ينتهي ما عنده من خير ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

ثم أرشد - سبحانه - الذين لا يجدون وسائل النكاح ، إلى ما يعينهم على حفظ فروجهم ، فقال : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » .

والاستعفاف : طلب العفة ، واختيار طريق الفضيلة التي من وسائلها ما أشار إليه - سبحانه - في قوله : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ... » .

والمعنى : وعلى المؤمنين والمؤمنات « الذين لا يجدون نكاحا » أي : الذين لا يجدون الوسائل والأسباب التي توصلهم إلى الزواج بسبب ضيق ذات اليد ،

(1) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥ .

أو ما يشبه ذلك . عليهم أن يتحصنوا بالعفاف وأن يصونوا أنفسهم عن الفواحش ، وأن يستمروا على ذلك حتى يرزقهم الله - تعالى - من فضله رزقا، يستعينون به على إتمام الزواج .

فهذه الجملة الحكيمة وعد كريم من الله - تعالى - للتائقين إلى الزواج ، العاجزين عن تكاليفه، بأنه - سبحانه - سيرزقهم من فضله ما يعينهم على التمكن منه ، متى اعتصموا بطاعته ، وحافظوا على أداء ما أمرهم به .

قال صاحب الكشاف : « وما أحسن ما رتب هذه الأوامر : حيث أمر - أولا - بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية ، وهو غض البصر . ثم بالنكاح الذى يحصن به الدين ، ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام ، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء ، وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه »(١) .

ثم حض - سبحانه - على إعادة الأرقاء لكى يتخلصوا من رقهم ويصيروا أحرارا ، فقال : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

والمراد بالكتاب هنا : المكاتبة التى تكون بين السيد وعبده ، بأن يقول السيد لعبده : إن أديت إلى كذا من المال فأنت حر لوجه الله ، فإذا قبل العبد ذلك وأدى ما طلبه منه سيده ، صار حرا .

أى : والذين يطلبون المكاتبة من عبيدكم - أيها الأحرار .... فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ، أى : أمانة وقدرة على الكسب ، وأعينوهم على التحرر من رقهم بأن تعطوهم شيئا من المال الذى آتاكم الله إياه ، بفضله وإحسانه .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٣٨

وهكذا نرى الإسلام يأمر أتباعه الذين رزقهم الله نعمة الحرية ، أن يعينوا مماليكهم على ما يمكنهم من الحصول على هذه النعمة .

ومن العلماء من يرى أن الأمر فى قوله - تعالى - : « فكاتبوهم ، وفى قوله « وآتوهم » للوجوب ، لأنه هو الذى يتناسب مع حرص شريعة الاسلام على تحرير الأرقاء .

ثم نهى - سبحانه - عن رذيلة كانت موجودة فى المجتمع ، لكى يطهره منها ، فقال : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء - إن أردن تحصنا - لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

قال الآلوسى: وأخرج مسلم وأبو داود عن جابر أن جارية لعبد الله بن أبى ابن سلول يقال لها « مسيكة » ، وأخرى يقال لها « أميمة » ، كان يكرههما على الزنا ، فشكتا ذلك إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فنزلت .

وأخرج ابن مردويه عن على - رضى الله عنه - أنهم كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا ، ويأخذون أجورهن فنهوا عن ذلك فى الاسلام ، ونزلت الآية ...»(١) .

والفتيات جمع فتاة والمراد بهن هنا الإماء ، وعبر عنهن بقوله «فتياتكم» على سبيل التكريم لهن ، فى الحديث الشريف : «لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ولكن فتاى وفتاتى» .

والبغاء - بكسر الباء - زنى المرأة خاصة ، مصدر بغت المرأة تبغى بغاء إذا فجرت .

والتحصن : التصون والتعفف عن الزنا .

والمعنى : ولا تكرهوا - أيها الأحرار - فتياتكم اللائى تملكوهن على الزنا إن كرهنه وأردن العفاف والطهر ، لكى تنالوا من وراء إكراههن على ذلك ، بعض المال الذى يدفع لهن نظير افتراشهن .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ١٥٦ .

وقوله - تعالى - « إن أردن تحصنا » ليس المقصود منه أنهن إن لم يردن التحصن يكرهن على ذلك ، وإنما المراد منه بيان الواقع الذى نزلت من أجله الآية ، وهو إكراههم لإمائهم على الزنا مع نفورهن منه . ولأن الإكراه لا يتصور عند رضاهن بالزنا واختيارهن له ، وإنما يتصور عند كراهتهن له ، وعدم رضاهن عنه ، ولأن فى هذا التعبير تعيير لهم ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : كيف يقع منكم إكراههن على البغاء وهن إماء يردن العفة ويأبين الفاحشة ؟ ألم يكن الأولى بكم والأليق بكرامتكم أن تعينوهن على العفاف والطهر ، بدل أن تكرهوهن على ارتكاب الفاحشة من أجل عرض من أعراض الحياة الدنيا ؟ .

وقوله - تعالى - : « ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » بيان لمظهر من مظاهر فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده .

أى : ومن يكره إماءه على البغاء فإن الله - تعالى - بفضله وكرمه من بعد إكراهكم لهن ، غفور رحيم لهن ، أما أنتم يا من أكرهتموهن على الزنا فالله وحده هو الذى يتولى حسابكم ، وسيجازيكم بما تستحقون من عقاب .

فمغفرة الله - تعالى - ورحمته إنما هى للمكرهات على الزنا ، لا للمكرهين لهن على ذلك .

قال بعض العلماء : « قوله - تعالى - : « فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » قيل : غفور لهن . وقيل : غفور لهم . وقيل : غفور لهن ولهم .

والأظهر : أن المعنى لهن ، لأن المكره لا يؤاخذ بما يكره عليه ، بل يعذره الله ، لعذره بالإكراه . فالموعود بالمغفرة والرحمة ، هو المعذور بالإكراه دون المكره - بكسر الراء - لأنه غير معذور بفعله القبيح »[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذه التشريعات الحكيمة . والتوجيهات السديدة ،

(١) تفسير أضواء البيان ج ٦ ص ٢١٩ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

بقوله - تعالى - : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم ، وموعظة للمتقين » وقوله « مبينات » قرأها بعض القراء السبعة بفتح الياء المشددة ، وقرأها الباقون بكسرها .

فعلى قراءة الفتح يكون المعنى : وبالله لقد أنزلنا إليكم - أيها المؤمنون - في هذه السورة وغيرها آيات بينا لكم معانيها ، وجعلناها واضحة الدلالة على ماشرعناها لكم من أحكام وآداب وحدود .

وعلى قراءة الكسر يكون المعنى : وبالله لقد أنزلنا إليكم آيات ، هي مبينات موضحات لكل ما أنتم في حاجة إلى بيانه ، ومعرفته من آداب وتشريعات ، فإسناد التبيين هنا إلى الآيات على سبيل المجاز .

وقوله : « ومثلا من الذين خلوا من قبلكم » معطوف على « آيات » .
والمراد بالمثل : الأخبار العجيبة التي ذكرها - سبحانه - عن السابقين .

أي : أنزلنا إليكم آيات واضحات في ذاتها وموضحة لغيرها . وأنزلنا إليكم - أيضا - قصصا عجيبة ، من أخبار السابقين الذين خلوا من قبلكم ، لتهتدوا بها فيما يقع بينكم من أحداث .

فمثلا : لا تتعجبوا من كون عائشة - رضي الله عنها - قد اتهمت بما هي منه بريئة . فقد اتهمت من قبلها مريم بالفعل الفاضح الذي برأها الله تعالى منه ، واتهم يوسف - عليه السلام - بما هو منه برىء ، وألقى في السجن بضع سنين مع براءته .

فيوسف ومريم وعائشة ، وقد برأهم الله - تعالى - مما رموا به ، وكفى بشهادة الله شهادة .

وقوله « وموعظة للمتقين » أي : وجعلنا هذه الآيات التي أنزلنا إليكم موعظة يتعظ بها المتقون ، الذين صانوا أنفسهم عن محارم الله ، وراقبوه - سبحانه - في السر والعلن ، فانتفعوا بها دون غيرهم من المفسدين والفاسقين .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف الآيات التي أنزلها على عباده المؤمنين بثلاث صفات . وصفها - أولا - بأنها بينة في ذاتها أو مبينة لغيرها ، ووصفها - ثانيا - بأنها مشتملة على الأمثال العجيبة لأحوال السابقين ووصفها - ثالثا - بأنها موعظة للمتقين الذين تستشعر قلوبهم دائما الخوف من الله - تعالى - .

وماذكره الله - تعالى - قبل هذه الآية من آداب وأحكام يتناسق مع التعقيب كل التناسق . ويتجاوب معه كل التجاوب .

وكيف لا يكون كذلك ، والقرآن هو كلام الله الذي أعجز كل البلغاء والفصحاء ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً .

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، إلى الحديث عن جلال الله - تعالى - ونوره وعظمته وعن بيوته التي أذن لها أن ترفع ، وعن الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن طاعته وتقديسه ، وعن الجزاء الحسن الذي أعده الله - سبحانه - لهؤلاء الأخيار ، فقال :

« اللَّهُ نُورُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ

فيهِ القلوبُ والأبصارُ (٣٧) ليجزيَهم الله أحسنَ ما عمِلُوا ويزيدَهُمْ مِنْ فَضْله، والله يرزقُ من يشاء بغيرِ حسابٍ (٣٨)».

قال الإمام القرطبي ما ملخصه: «قوله - تعالى -: «الله نور السموات والأرض»: النور في كلام العرب: الأضواء المدركة بالبصر. واستعمل مجازاً فيما صح من المعاني ولاح، فيقال: كلام له نور.. وفلان نور البلد.

فيجوز أن يقال: لله - تعالى - نور، من جهة المدح، لأنه أوجد جميع الأشياء، ونور جميع الأشياء منه ابتداؤها، وعنه صدورها، وهو - سبحانه - ليس من الأضواء المدركة، جل وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً..

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقيل: المعنى: به وبقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، وقامت مصنوعاتها فالكلام على التقريب للذهن، كما يقال: الملك نور أهل البلد. أي: به قوام أمرها... فهو - أي النور - في الملك مجاز، وهو في صفة الله - تعالى - حقيقة محضة...

قال ابن عرفة: أي منور السموات والأرض. قال مجاهد: مدبر الأمور في السموات والأرض..

وقال ابن عباس: المعنى: الله هادي السموات والأرض. والأول أعم للمعاني وأصح مع التأويل»[1].

ويبدو لنا أن أقرب الأقوال إلى الصواب هو الذي رجحه الإمام القرطبي فيكون معنى الجملة الكريمة: الله - تعالى - هو نور العالم كله علويه وسفليه، بمعنى منوره بالمخلوقات التكوينية، وبالآيات التنزيلية، وبالرسالات السماوية، الدالة دلالة واضحة على وجوده - سبحانه - وعلى وحدانيته، وقدرته، وسائر

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢٥٦.

صفاته الكريمة ، والهادية إلى الحق ، وإلى ما به صلاح الناس فى دنياهم وآخرتهم .

قال ابن كثير : «وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد . أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ... » .

وقال - صلى الله عليه وسلم - فى دعائه يوم آذاه المشركون من أهل الطائف : «أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل بى غضبك ، أو ينزل بى سخطك، لك العتبى - أى الرجوع عن الذنب - ولا حول ولا قوة إلا بك »(1) .

وأضاف - سبحانه - نوره إلى السموات والأرض ، للدلالة على سعة إشراق هذا النور ، وعموم سنائه ، وتمام بهائه فى الكون كله .

ثم قرب - عز وجل - نوره إلى الأذهان فقال : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح .... » .

أى : صفة نوره العجيبة الشأن فى الإضاءة والسطوع ، كصفة مشكاة - وهى الفتحة الصغيرة فى الجدار دون أن تكون نافذة فيه - هذه المشكاة فيها مصباح ، أى : سراج ضخم ثابت تشع منه الأنوار .

وقال - سبحانه - : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » لأن وجود المصباح فى هذه المشكاة ، يكون أجمع لنوره ، وأحصر لضيائه ، فيبدو قويا متألقا ، بخلاف ما لو كان المصباح فى مكان نافذ فإنه لا يكون كذلك .

« المصباح فى زجاجة » أى : فى قنديل من الزجاج الصافى النقى ، الذى يقيه الريح ، ويزيده توهجا وتألقا .

---

(1) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٦١ .

هذه « الزجاجة » في ذاتها « كأنها كوكب درى » اى : شديد الإنارة ، نسبة إلى الدر في صفائه وسنائه وإشراقه وحسنه .

« يوقد من شجرة مباركة زيتونة » أى : هذا المصباح يستمد نوره من زيت شجرة مباركة أى : كثيرة المنافع ، زيتونة أى : هى شجرة الزيتون .

لحرف « من » لابتداء الغاية ، والكلام على حذف مضاف ، أى : من زيت شجرة ، مباركة صفة لشجرة ، وزيتونة بدل أو عطف بيان من شجرة .

ووصف - سبحانه - شجرة الزيتون بالبركة ، لطول عمرها ، وتعدد فوائدها التى من مظاهرها : الإنتفاع بزيتها وخشبها وورقها وثمارها . . .

قال - تعالى - : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » .

وقوله - سبحانه - : « لا شرقية ولا غربية » صفة أخرى لشجرة الزيتون .

أى : أن هذه الشجرة ليست متميزة إلى مكان معين أو جهة معينة ، بل هى مستقبلة للشمس طول النهار ، تسطع عليها عند شروقها وعند غروبها وما بين ذلك ، فترتب على تعرضها للشمس طول النهار ، امتداد حياتها ، وعظم نمائها وحسن ثمارها .

وقوله - تعالى - : « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » صفة ثالثة لتلك الشجرة .

أى أنها يكاد زيتها من شدة صفائه ونقائه يضيء دون أن تمسه النار ، فهو زيت من نوع خاص ، بلغ من الشفافية أقصاها ، ومن الجودة أعلاها .

قال بعض العلماء : « وقد شبه فى الآية نور الله ، بمعنى أدلته وآياته

ـ سبحانه ـ من حيث دلالتها على الهدى والحق ، وعلى ماينفع الخلق فى الحياتين ـ شبه ذلك بنور المشكاة التى فيها زجاجة صافية ، وفى تلك الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ الغاية فى الصفاء والرقة والإشراق ، حتى يكاد يضىء بنفسه من غير أن تمسسه نار »[1] .

وقوله ـ سبحانه ـ : « نور على نور » أى : هو نور عظيم متضاعف، كائن على نور عظيم مثله ، إذ أن نور الله ـ تعالى ـ لاحد لتضاعفه ، ولانهاية لعمقه بخلاف الأنوار الأخرى ، فإن لتضاعفها حدا محدودا مهما كان إشراقها وضوؤها .

فقوله : « نور » خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هو نور . وقوله « على نور » متعلق بمحذوف هو صفة له ، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة . أى : كائن على نور مثله .

ثم بين ـ سبحانه ـ سنة من سننه فقال : « يهدى الله لنوره من يشاء » أى : يهدى الله ـ تعالى ـ لنوره العظيم من يشاء هدايته من عباده ، بأن يوفقهم للإيمان ، وللعمل بتعاليم الإسلام ، وللسير على طريق الحق والرشاد .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : « ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » .

أى : ويضرب الله ـ تعالى ـ الأمثال للناس ، لكى يقرب لهم الأمور ، وييسر لهم المسائل . ويبرز لهم المعقول فى صورة المحسوس ، والله ـ تعالى ـ بكل شىء عليم ، سواء أكان هذا الشىء ظاهرا أم باطنا ، معقـولا أم محسوسا .

قال بعض العلماء ما ملخصه: «هذه الآية الكريمة، من الآيات التى صنفت

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف جـ ٢ ص ٨٤

فيها مصنفات ، منها « مشكاة الأنوار » للإمام الغزالى .... ومنها ماقاله الإمام ابن القيم عنها فى كتابه « الجيوش الإسلامية » ، ...

فقد قال - رحمه الله - : سمى الله - تعالى - نفسه نورا ، وجعل كتابه نورا ، ورسوله - صلى الله عليه وسلم - نورا ، ودينه نورا ، واحتجب عن خلقه بالنور وجعل دار أوليائه نورا يتلألأ . قال - تعالى - : « الله نور السموات والأرض » وقد فسر بكونه منور السموات والأرض . وهادى أهل السموات والأرض ، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض . وهذا إنما هو فعله . وإلا فالنور الذى هو من أوصافه قائم به . ومنه اشتق اسم النور الذى هو أحد الأسماء الحسنى ... »(١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أكثر الأماكن والأشخاص انتفاعا بنوره ، فقال - تعالى - : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ... » .

وقوله « فى بيوت » متعلق بقوله : « يسبح » . والمراد بهذه البيوت : المساجد كلها ، وعلى رأسها المسجد الحرام ، والمسجد النبوى ، والمسجد الأقصى .

و « أذن » بمعنى أمر وقضى ، وفاعل « يسبح » قوله « رجال » .

والغدو والغداة : من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . والآصال جمع أصيل ، وهو مابين العصر وغروب الشمس .

أى : هذا هو نور الله - تعالى - الذى يهدى إليه من يشاء من عباده ، وعلى رأس أولئك العباد الذى هداهم الله - سبحانه - إلى مايحبه ويرضاه ، هؤلاء الرجال الذين يعبدونه ويقدسونه فى تلك المساجد التى أمر - سبحانه - بتشييدها وتعظيم قدرها ، وصيانتها من كل سوء أو نجس ، إنهم يسبحونه وينزهونه عن

(١) راجع تفسير القاسمى ج ١٢ ص ٤٥٢٦ .

كل نقص ، ويتقربون إليه بالصلوات وبالطاعات ، فى تلك المساجد فى أول النهار وفى آخره ، وفى غير ذلك من الأوقات .

وخص - سبحانه - أوقات الغدو والآصال بالذكر، لشرفها وكونها أشهر ماتقع فيه العبادات .

وقوله - تعالى - : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . . . » مدح وتكريم لهؤلاء الرجال .

أى : يسبح لله - تعالى - فى تلك المساجد بالغدو والآصال ، رجال من شأنهم ومن صفاتهم ، أنهم لا تشغلهم ، تجارة ، مهما عظمت ، ولا بيع ، مهما اشتدت حاجتهم إليه ، عن ذكر الله ، أى : عن تسبيحه وتحميده وتكبيره وتمجيده وطاعته .

ولا تشغلهم -أيضا- هذه التجارات والبيوع عن « إقام الصلاة » فى مواقيتها بخشوع وإخلاص ، وعن « إيتاء الزكاة » للمستحقين لها .

وذلك لأنهم « يخافون يوما » هائلا شديدا هو يوم القيامة الذى « تتقلب فيه القلوب والأبصار » أى : تضطرب فيه القلوب والأبصار فلا تثبت من شدة الهول والفزع على شىء .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملتهم على الإكثار من هذه الطاعات فقال : « ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله » . . .

أى : إنهم يكثرون من تسبيح الله بالغدو والآصال ، دون أن يشغلهم عن ذلك أى شاغل ، لأنهم يرجون منه - سبحانه - أن يجزيهم أحسن الجزاء على أعمالهم ، وأن يزيدهم من فضله وإحسانه ، بما يليق بكرمه وامتنانه .

« والله » - تعالى - « يرزق من يشاء » أن يرزقه « بغير حساب » أى :

بدون حدود ولا قيود ، وبدون حصر لما يعطيه لأن خزائنه لا تنقص ولا تنفد ، حتى يحتاج إلى عد وحساب لما يخرج منها .

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التقرير المزيادة التي يتطلع إليها هؤلاء الرجال الصالحين ، ووعد منه - عز وجل - بأنه سيرزقهم رزقا يزيد عما يتوقعونه .

وبذلك نرى الآيات قد طوفت بنا مع نور الله - عز وجل - ومثلت له بما من شأنه أن يجعل النفوس يشتد استمساكها بالحق الذي جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه ، ومدحت مدحا عظيما أولئك الرجال الأخيار ، الذين يكثرون من طاعة الله - تعالى - في بيوته التي أمر برفعها ، دون أن يشغلهم عن ذلك شاغل ، وبشرتهم بالعطاء الواسع الذي سيعطيهم الله إياه بفضله وكرمه .

* * *

وبعد تلك الصورة المشرفة التي بينها - سبحانه - لمن هداهم لنوره ، أتبع ذلك بضرب مثلين لأعمال الكفار ، فقال - تعالى - :

« والذينَ كفَرُوا أعمالهم كسرَابٍ بقيعةٍ يحسبُهُ الظمآنُ ماءً حتى إذَا جاءه لم يجدْهُ شيئًا ووجَد اللهَ عنـدَه فوفَّاه حسابَهُ ، واللهُ سَريعُ الحسابِ (٣٩) أو كظُلمَاتٍ في بحرٍ لُجّيٍّ يغشَاه موجٌ منْ فوقه موجٌ منْ فوقهِ سحابٌ ، ظلمَاتٌ بعضُها فوْقَ بعضٍ ، إذا أخْرَجَ يدَهُ لم يَكَدْ يراهاَ ، ومَنْ لم يجعلِ اللهُ له نوراً فما لهُ من نورٍ (٤٠) » .

قال الآلوسي : «قوله - تعالى - : «والذين كفروا أعمالهم كسراب . . .» عطف على ماقبله ، من باب عطف القصة على القصة ، أو على مقدر ينساق إليه ماقبله ، كأنه قيل : الذين آمنوا أعمالهم حالا ومآلا كما وصف ، والذين كفروا

أعمالهم كسراب بقيعة ... »(١) .

والمراد بأعمالهم هنا : الأعمال الصالحة التي كانوا يعملونها في الدنيا كالإحسان إلى الفقراء ، وصلة الأرحام وما يشبه ذلك .

والسراب : هو الشعاع الذي يتراءى للناظر من بعيد كأنه ماء . ويكون ذلك في وسط النهار عند اشتداد الحر ، في الأماكن الواسعة . وسمى سرابا لأنه يرى من بعيد يتسرب فوق الأرض كأنه ماء ، مع أنه ليس بماء ولا غيره .

والباء في قوله «بقيعة » بمعنى في . والقيعة : جمع قاع . وهو ما انبسط واتسع من الأرض ، دون أن يكون فيه زرع ، وفوقه يتراءى السراب . والجار والمجرور متعلق بمحذوف ، صفة للسراب .

أي : والذين كفروا بالحق لما جاءهم . أعمالهم الصالحة في الدنيا التي يتوقعون الخير من ورائها ، تكون بالنسبة لهم يوم القيامة . كسراب كائن في صحراء واسعة ، « يحسبه الظمآن ماء » .

أي : يظن الشخص الذي اشتد به العطش أنه ماء .

وخص - سبحانه - هذا الحسبان بالظمآن ، مع أن كل من يراه يظنه ماء لأن هذا الذي اشتد به العطش أشد حرصا على طلبه من غيره ، فالتشبيه به أتم وأكمل .

و « حتى » في قوله - سبحانه - : « لم يجده شيئا » غاية لمحذوف والتقدير : هذا السراب يظنه الظمآن ماء فيسرع نحوه ، حتى إذا ما وصل إليه ، لم يجد ما حسبه ماء وعلق عليه آماله شيئا أصلا ، لا ماء ولا غيره .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد شبه ما يعمله الكافرون من أعمال البر في الدنيا ، التي يظنونها نافعة لهم - شبه هذه الأعمال من حيث خيبة أملهم فيها

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ١٧٩ .

بسراب يحسبه الظمآن ماء . فيذهب إليه ليروى عطشه ، فإذا ماوصل إليه لم يجده شيئا ، فيخيب أمله ، وتشتد حسرته .

قال الإمام الرازى : «فإن قيل : قوله : « حتى إذا جاءه » يدل على كونه شيئا ، وقوله : « لم يجده شيئا » مناقض له ؟

قلنا : الجواب عنه من وجوه ثلاثة : الأول : المراد معناه أنه لم يجد شيئا نافعا ، كما يقال : فلان ماعمل شيئا وإن كان قد اجتهد الثانى : حتى إذا جاءه أى : جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئا ، فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه . الثالث : الكفاية للسراب ، لأن السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء ، وإذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء»(1) .

وقوله - سبحانه - : « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » معطوف على جملة « لم يجده » فهو داخل فى التشبيه . أى : ووجد الظمآن حكم الله - تعالى - وقضاءه فيه عند السراب ، فوفاه - سبحانه - حسابه الذى يستحقه كاملا غير منقوص .

وفى هذه الجملة الكريمة من التصوير المرعب للكافر مافيها . حيث شبهته بالظمآن الذى ذهب مسرعا ليروى ظمأه بما ظنه ماء ، فلما وصل إليه لم يجد ماء ، وإنما وجد الله - تعالى - الذى كفر به وجحد وحدانيته عنده ، فوفاه حسابه الذى يستحقه من العذاب بدلا من وجود الماء الذى أتعب نفسه فى السعى إليه .

« والله - تعالى - سريع الحساب » لأنه لايشغله حساب عن حساب ، ولا عمل عن عمل ، بل حساب الناس جميعا عنده - عز وجل - كحساب النفس الواحدة .

وقوله - تعالى - : « أو كظلمات فى بحر لجى ، يغشاه موج ، من فوقه

(1) تفسير الفخر الرازى جـ ص ٢٩٠ .

موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض . . ، مثال آخر لأعمال الكافرين التي لا ينتفعون بها مع أنهم يعتقدون أنها ستنفعهم .

لحرف « أو » للتقسيم، ومابعدها معطوف على قوله - سبحانه - قبل ذلك، « كسراب بقيعة » .

والمعنى : أو أن الأعمال الحسنة في الدنيا لهؤلاء الكافرين ، مثلها من حيث خلوها عن نور الحق وعن النفع ، كمثل « ظلمات » كثيفة « في بحر لجي » أي : عميق الماء كثيرة . من اللج وهو معظم ماء البحر .

« يغشاه موج » أي : هذا البحر اللجي يغطيه ويستره ويعلوه موج عظيم « من فوقه موج » آخر أشد منه « من فوقه سحاب » أي : من فوق تلك الأمواج الهائلة الشديدة ، سحاب كثيف متراكم قاتم .

« ظلمات بعضها فوق بعض » أي : هذه الأمواج المتلاطمة، وتحتها البحر العميق المظلم ، وفوقها السحب القاتمة الداكنة ، هي ظلمات بعضها فوق بعض، « إذا أخرج يده لم يكد يراها » أي : إذا أخرج الواقع في تلك الظلمات يده التي هي جزء منه ، لم يكد يراها من شدة تراكم الظلمات .

قال الآلوسي : « إذا أخرج » أي : من ابتلي بهذه الظلمات « يده » وجعلها بمرأى منه ، قريبة من عينيه لينظر إليه « لم يكد يراها » أي : لم يقرب من رؤيتها ، وهي أقرب شيء إليه ، فضلا عن أن يراها ...(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان سنة من سننه التي لا تتخلف فقال: « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

والمعنى : وأي إنسان لم يشأ الله - تعالى - أن يجعل له نورا يهديه إلى الصراط المستقيم ، فما لهذا الإنسان من نور يهديه إلى الحق والخير ، من

(١) تفسير الآلوسي جـ ١٨ ص ١٨٣ .

أى مخلوق كائنا من كان ، إذ أن الذى يملك منح النور الهادى إنما هو الله - تعالى - وحده.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين ما ملخصه: «هذان مثلان ضربهما الله - تعالى - لنوعى الكفار ... فأما المثال الأول ، فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شىء من الأعمال والاعتقادات وليسوا فى نفس الأمر على شىء . فمثلهم فى ذلك كالسراب الذى يرى فى القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام ...

وهذا المثال مثال لذوى الجهل المركب - أى الذين يعتقدون الباطل ويزعمون أنه الحق - فأما أصحاب الجهل البسيط ، وهم الأغشام والمقلدون لأئمة الكفر فمثلهم كما قال - تعالى - : «أو كظلمات فى بحر لجى ...»(1) .

* * *

وبعد أن أورد - سبحانه - هذين المثلين للذين كفروا وأعمالهم ، أتبع ذلك ببيان أن الكون كله يسبح بحمد الله - تعالى - وأن الكون كله فى ملكه وقبضته ، فقال - تعالى - :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى السمواتِ والأرضِ ، والطَّيرُ صافَّاتٍ ، كلٌّ قد عَلِمَ صلاتَه وتسبيحَهُ ، واللهُ عليمٌ بما يَفعلونَ (٤١) وللهِ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ وإلى اللهِ المصيرُ (٤٢) » .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : «ألم تر ...» للتقرير . والرؤية : بمعنى العلم .

والتسبيح : مشتق من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء .

---

(1) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٧٧ .

فالمسبح : مسرع فى تنزيه الله - تعالى - وتقديسه ، وإثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال .

والمعنى : لقد علمت أيها الرسول الكريم علما يشبه المشاهدة فى اليقين ، أن الله - تعالى - يسبحه ويقدسه وينزهه عن كل مالا يليق به - عز وجل - ، جميع من فى السموات ، وجميع من فى الأرض .

وقوله - تعالى - : « والطير صافات » برفع « والطير » على أنه معطوف على « من » ، وبنصب « صافات » على أنه حال .

أى : والطير - أيضا - تسبح لله - تعالى - حال كونها صافات أجنحتها فى الجو ، دون أن يمسكها أحد إلا هو - سبحانه - .

وخص الطيور بالذكر مع أنها مندرجة تحت من فى السموات والأرض ، لعدم استقرارها بصفة دائمة على الأرض ، فهى - فى مجموعها - تارة على الأرض ، وتارة فى الجو .

وذكرها فى حال بسطها لأجنحتها لأن هذه الحالة من أعجب أحوالها ، حيث تكون فى الجو باسطة لأجنحتها بدون تحريك ، مما يدل على بديع صنع الله فى خلقه .

وصدق الله إذ يقول : « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ، ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير » .

وقوله - تعالى - : « كل قد علم صلاته وتسبيحه » استئناف لبيان مظهر من مظاهر قدرة الله - تعالى - وحكمته ، حيث ألهم - سبحانه - كل مخلوق من مخلوقاته كيفية التسبيح لخالقه - عز وجل - .

والتنوين فى « كل » عوض عن المضاف إليه ، والضمير المحذوف الذى هو فاعل « علم » يعود على المصلى والمسبح .

أى : كل واحد ممن يصلى لله - تعالى - ويسبح بحمده - سبحانه - ، قد علم

معنى صلاته ومعنى تسبيحه فهو لم يعبد الله اتفاقا أو بلا روية ، وإنما عبده - تعالى - عن قصد ونية ، ولكن بكيفية نفوض معرفتها إلى الخالق - عز وجل - وحده .

ومنهم من يرى أن الضمير فى « علم » يعود إلى الله - تعالى - فيكون المعنى: كل واحد من هؤلاء المصلين والمسبحين ، قد علم - سبحانه - صلاتهم وتسبيحهم له علما تاماً شاملا .

قال بعض العلماء ما ملخصه : « واعلم أن الأظهر أن يكون ضمير الفاعل المحذوف فى قوله « كل قد علم صلاته وتسبيحه » راجعاً إلى المصلين والمسبحين أى : كل من المصلين قد علم صلاة نفسه ، وكل من المسبحين قد علم تسبيح نفسه ، لأنه على هذا القول يكون قوله - تعالى - « والله عليم بما يفعلون » من باب التأسيس . أما على القول بأن الضمير يعود إلى الله - تعالى - .

أى : كل واحد منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه ، فيكون قوله - تعالى - : « والله عليم بما يفعلون » من باب التأكيد اللفظى ، والتأسيس للأحكام أولى من التأكيد لها .

والظاهر أن الطير تسبح وتصلى صلاة وتسبيحاً يعلمهما الله ، ونحن لا نعلمهما ، كما قال - تعالى - « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . . . »(١) .

وبعد أن بين - سبحانه - أن جميع مخلوقاته تسبح بحمده ، وأنه - تعالى - عليم بأفعالهم لا يخفى عليه شىء منها ، أتبع ذلك ببيان أن هذا الكون ملك له وحده ، فقال: « ولله ملك السموات والأرض » لا لأحد غيره ، لا استقلالا ولا اشتراكا ، بل هو وحده - سبحانه - المالك لهما ولمن فيهما « وإلى الله

---

(١) تفسير أضواء البيان ج ٦ ص ٢٤٥ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

المصير ، أى : وإليه وحده مصيرهم ورجوعهم بعد موتهم، فيجازى كل مخلوق من مخلوقاته بما يستحق من ثواب أو عقاب .

* * *

ثم لفت - سبحانه - بعد ذلك أنظار عباده إلى مظاهر قدرته فى هذا الكون ، حيث يزجى السحاب ، ثم يؤلفه يجعله ركاما ... وحيث نوع مخلوقاته مع أنها جميعا من أصل واحد فقال - تعالى - :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ، فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) » .

وقوله - تعالى - : « يزجى » من الإزجاء بمعنى الدفع بأناة ورفق. يقال: زجى الراعى إبله تزجية ، إذا ساقها برفق . وأزجت الريح السحاب ، أى : دفعته .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - ، ورأيت بعينيك ، أن الله - تعالى - يسوق بقدرته السحاب الذى فى الجو ، سوقا رفيقا إلى حيث يريد .

« ثم يؤلف بينه » أى : يسوق - سبحانه - السحاب سوقا هادئا سهلا، ثم بعد ذلك يصل بعضه ببعض ، ويجمع بعضه مع بعض ، ثم بعد ذلك « يجعله

ركاما ، أى : متراكما بعضه فوق بعض . يقال ركم فلان الشىء يركمه ركما ، إذا جمعه ، وألقى بعضه على بعض ، ومنه : الرمل المتراكم ، أى : المجتمع .

وهذا الذى حكاه القرآن من سوق الله ـ تعالى ـ للسحب ثم تجميعها ، ثم تحويلها إلى قطع ضخمة متراكمة متكاثفة كقطع الجبـــال ، يراه الراكب للطائرات بوضوح وتسليم بقدرة الله ـ تعالى ـ ، الذى أحسن كل شىء خلقه .

وقوله ـ سبحانه ـ : « فترى الودق يخرج من خلاله » بيان لما يترتب على هذا السوق الرفيق ، والتجمع الدقيق من آثار .

والودق : المطر . وهو فى الأصل مصدر ودق السحاب يدق ودقاً ، إذا نزل منه المطر . والخلال : جمع خلل ـ كجبال وجبل ـ والمراد بها الفتوق والشقوق .

قال القرطبي : « فى « الودق » قولان : أحدهما : أنه البرق . والثانى : أنه المطر . وهو قول الجمهور يقال : ودقت السحابة فهى وادقة . وودق المطر يدق ودقا . أى : قطر(١) .

أى : يسوق الله ـ تعالى ـ السحاب إلى حيث يشاء بقدرته ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله متراكما بعضه فوق بعض ، فترى ـ أيها العاقل ـ المطر يخرج من فتوق هذا السحاب المتراكم ومن فروجه ، تارة بشدة وعنف ، وتارة بهدوء ورفق .

وقوله ـ تعالى ـ : « وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء . . . » بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته ـ سبحانه ـ .

أى : وينزل ـ سبحانه ـ من جهة السماء قطعا من السحاب كأنها القطع من

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٢٨٩ .

الجبال فى عظمها وضخامتها ، « فيها من برد » أى : فى تلك القطع من السحاب الكثير من البرد ، وهو شىء ينزل من السحاب يشبه الحصى ، ويسمى حب الغمام ، وحب المزن .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : ماالفرق بين « من » الأولى والثانية، والثالثة فى قوله « من السماء من جبال . . من برد » ؟

قلت الأولى لابتداء الغاية ، والثانية للتبعيض، والثالثة للبيان . أوالأوليان للابتداء . والآخرة للتبعيض .

فإن قلت : مامعنى « من جبال فيها من برد ؟ قلت : فيه معنيان : أحدهما : أن يخلق الله فى السماء جبال برد . كما فى الأرض جبال حجر . والثانى : أن يريد الكثرة بذكر الجبال ، كما يقال : فلان يملك جبالا من ذهب(١) .

وقوله - تعالى - : « فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء » أى : فيصيب بالذى ينزله من هذا البرد من يشاء إصابته من عباده. ويصرفه عمن يشاء صرفه عنهم ، إذ الإصابة والصرف بمقتضى حكمته وإرادته .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « يكادسنابرقه يذهب الأبصار » والسنا : شدة الضوء . يقال : سنا الشىء يسنو سنا ، إذا أضاء .

أى : يكاد ضوء برق السحاب الموصوف بما مر من الإزجاء والتأليف والتراكم . . . يخطف الأبصار من شدة إضاءته ، وزيادة لمعانه وسرعة توهجه .

وبعد أن ساق - سبحانه - هذا الدليل العلوى على وحدانيته وقدرته . أتبعه بدليل زمنى يحسه الناس ويشاهدونه فى حياتهم فقال : « يقلب الله الليل والنهار . . . » أى : يعاقب بينهما فيأتى بهذا ، ويذهب بذاك ، وينقص أحدهما ويزيد فى الآخر ، ويجعل أولهما وقتا لحلول نعمه والثانى لنزول نقمه أو

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٤٦ .

العكس ، فهو - سبحانه - صاحبهما والمتصرف فيهما « إن فى ذلك » التقليب والإزجاء والتأليف ، وغير ذلك من مظاهر قدرته المبثوثة فى الآفاق «لآيات» عظيمة «لأولى الأبصار» التى تبصر قدرة الله - تعالى - وتعتبر بها ، فتخلص له العبادة والطاعة .

ثم ساق - سبحانه - دليلا ثالثا من واقع خلق كل دابة ، وبديع صنعه فيما خلقه فقال : « والله خلق كل دابة من ماء . . . » .

والدابة : اسم لكل حيوان ذى روح ، سواء أكان من العقلاء أم من غيرهم . وهذا اللفظ مأخوذ من الدبيب ، بمعنى المشى الخفيف .

وتطلق الدابة فى العرف على ذوات الأربع ، والمراد بها هنا ماهو أعم من ذلك .

قال بعض العلماء : «وهذه الحقيقة الضخمة التى يعرضها القرآن بهذه البساطة، حقيقة أن كل دابة خلقت من ماء ، قد تعنى وحدة للعنصر الأساسى فى تركيب الأحياء جميعها ، وهو الماء ، وقد تعنى مايحاول العلم الحديث أن يتبعه من أن الحياة خرجت من البحر ، ونشأت أصلا فى الماء ، ثم تنوعت الأنواع وتفرعت الأجناس .

ولكنا نحن على طريقتنا فى عدم تعليق الحقائق القرآنية الثابتة على النظريات العلمية القابلة للتعديل والتبديل . . . لا نزيد على هذه الإشارة شيئا ، مكتفين بإثبات الحقيقة القرآنية ، وهى أن الله - تعالى - خلق الأحياء كلها من الماء ، فهى ذات أصل واحد ، ثم هى - كما ترى العين - متنوعة الأشكال . . . »[1] .

وقال الإمام الرازى : «فإن قيل لماذا نكر الماء هنا ، وجاء معرفا فى قوله - تعالى - : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » ؟

والجواب : إنما جاء هنا منكرا ، لأن المعنى ، أنه خلق كل دابة من نوع

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٨ ص ١١١ .

من الماء يختص بتلك الدابة . وإنما جاء معرفا فى قوله « وجعلنا من الماء ... » لأن المقصود هناك ، كونهم مخلوقين من هذا الجنس ، وههنا بيان أن ذلك الجنس ، وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم إلى أنواع كثيرة »(١) .

وقوله - تعالى - : « فمنهم من يمشى على بطنه .. » تفصيل لهذه المخلوقات التى خلقت من الماء .

والضمير فى « منهم » يعود إلى « كل » باعتبار معناه ، وفيه تغليب العاقل على غيره .

أى : فمن هذه الدواب من يمشى على بطنه كالزواحف ومايشبهها ، ومنهم من يمشى على رجلين ، كالإنس والطير « ومنهم من يمشى على أربع » كالأنعام والوحوش « يخلق الله » - تعالى - « مايشاء » خلقه من دواب وغيرها على وفق إرادته وحكمته « إن الله على كل شىء قدير » فلا يعجزه - سبحانه - خلق مايريد خلقه ، ولا يمنعه من ذلك مانع ، بل كل شىء خاضع لقدرته - عز وجل -

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد ساقت ألوانا من الأدلة على قدرة الله - تعالى - ، منها مايتعلق بالكائن العلوى ، ومنها مايتعلق بالزمان ، ومنها مايتعلق بخلق أنواع الدواب على اختلاف أشكالها .

* * *

وبعد أن ساقت السورة ماساقت من الأحكام والآداب ومن الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، أتبعت ذلك بالحديث عن طائفة المنافقين ، الذين لم ينتفعوا بآيات الله ، ولم يتأدبوا بأدب المؤمنين ... فقال - تعالى - :

« لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٢٩٦ .

مُسْتَقِيمٍ (٤٦) ويقولونَ آمنَّا باللهِ وبالرَّسُولِ وأَطَعْنَا ، ثم يتولَّى فريقٌ منهم مِنْ بَعدِ ذلكَ ، وما أولئكَ بالمؤمنينَ (٤٧) وإذَا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِهِ ليحكُم بينَهم إذا فريقٌ منهم مُعرِضُون (٤٨) وإن يكُنْ لَهم الحَقُّ يأتُوا إليه مُذعِنِين (٤٩) أفى قلوبهم مرَضٌ أم ارتابوا أمْ يخافُونَ أن يحيفَ اللهُ عليهِمْ ورسولُهُ ، بل أولئكَ هُمُ الظَّالمونَ (٥٠) إنَّما كانَ قولَ المؤمنينَ إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسُولِهِ ، ليحكُم بينَهم ، أنْ يقولوا سَمِعنا وأَطَعْنَا ، وأولئكَ هُمُ المفلِحُون (٥١) ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورسُولَه ويَخشَ اللهَ ويَتَّقْهِ فأولئِكَ هم الفائِزُونَ (٥٢) وأقسمُوا باللهِ جهْدَ أَيمانِهِم لئِنْ أمرْتَهم ليخرجُنَّ ، قلْ لا تُقسِموا ، طاعةٌ معروفةٌ ، إنَّ اللهَ خبيرٌ بِما تعملونَ (٥٣) قلْ أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرَّسُولَ ، فإنْ تولَّوا فإنَّما عليه ما حُمِّلَ وعليكُم ما حُمِّلتم ، وإنْ تطيعوه تهتَدُوا ، وما علَى الرسولِ إلا البلاغُ المبينُ (٥٤) » .

وقوله - سبحانه - : « مبيَّنات » قرأها بعض القراء السبعة ، بفتح الباء المشددة ، - بصيغة اسم المفعول - فيكون المعنى : بالله لقد أنزلنا على عبدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - آيات بيناها ووضحناها ، وجعلناها خلية من اللبس والغموض.

وقرأها الباقون بكسر الباء المشددة - بصيغة اسم الفاعل - فيكون المعنى: لقد أنزلنا آيات مبيِّنات للأحكام والحدود والآداب التى شرعها الله -تعالى- فعلى هذه القراءة يكون المفعول محذوفا .

وقوله - تعالى - : « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » أى : والله

- تعالى - بفضله وإحسانه يهدى من يشاء هدايته إلى الصراط المستقيم، الذى هو طريق الإسلام، وسبيل الحق والرشاد .

والضمير فى قوله - تعالى - : « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا » يعود على طائفة من الذين لم يهدهم - سبحانه - إلى الصراط المستقيم ، وهم المنافقون .

أى : أن هؤلاء المنافقين يقولون بألسنتهم فقط : آمنا بالله وبالرسول ، وأطعنا الله والرسول فى كل أمر أو نهى .

ثم بين - سبحانه - أنهم كاذبون فى دعواهم الإيمان والطاعة فقال : « ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك » .

أى : يدعون أنهم يؤمنون بالله وبالرسول، ويطيعون أحكامهما، وحالهم أن عدداً كبيراً منهم يعرضون عما يقتضيه الإيمان والطاعة، من أدب مع الله - تعالى - ومع رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ومن انقياد لأحكام الإسلام.

وقوله - سبحانه - : « وما أولئك بالمؤمنين » نفى لدعواهم الإيمان. وتوبيخ لهم على أقوالهم التى يكذبها واقعهم . أى : وما أولئك المنافقون الذين يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، بالمؤمنين على الحقيقة ، لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ولأنهم لو كانوا يؤمنون حقا . لما أعرضوا عن أحكام الله - تعالى - ، وعن طاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

ثم بين - سبحانه - حالة أخرى من أحوالهم الذميمة فقال : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون » .

أى : أن هؤلاء المنافقين من صفاتهم - أيضاً - أنهم إذا ما دعاهم داع إلى أن يجعلوا شريعة الله - تعالى - هى الحكم بينهم وبين خصومهم ، إذا فريق كبير منهم يعرض عن هذا الداعى ، ويسرع إلى التحاكم إلى الطاغوت كافى

قوله - تعالى - : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً ... » .

والتعبير عنهم بقوله « إذا فريق منهم معرضون » إشعار بأنهم بمجرد دعوتهم إلى الحق ، ينفرون من الداعى نفورا شديدا بدون تدبر أو تمهل ، لأنهم يعلمون علم اليقين أن الحق عليهم لا لهم ، أما إن لاح لهم أن الحق لهم لا عليهم ، فإنهم يهرولون نحو الرسول - صلى الله عليه وسلم - يطلبون حكمه ، ولذا قال - تعالى - : « وإن يكن لهم الحق ، يأتوا إليه مذعنين » .

والإذعان : الانقياد والطاعة . يقال : أذعن فلان لفلان ، إذا انقاد له وخضع لأمره .

- أى : وإن يكن لهؤلاء المنافقين الحق على غيرهم ، يأتوا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - منقادين طائعين راضين بحكمه ، لأنهم واثقون من أنه - صلى الله عليه وسلم - لن يبخسهم شيئا من حقوقهم . فهم لا يأتون إليه مذعنين فى كل الأحوال ، وإنما يأتون إليه - صلى الله عليه وسلم - مذعنين لحكمه عندما يكونون أصحاب حق فى قضية من القضايا الدنيوية التى تحصل بينهم وبين غيرهم .

ثم يعقب القرآن الكريم على تصرفاتهم القبيحة بإثبات نفاقهم، وبالتعجيب من ترددهم وريبهم ، وباستنكار ماهم عليه من خلق ذميم فيقول : « أفى قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله . . . ؟! » .

وقوله : « يحيف » من الحيف . وهو الميل إلى أحد الجانبين . يقال : حاف فلان فى قضائه ، إذا جار وظلم .

أى : مابال هؤلاء المنافقين يعرضون عن أحكام الإسلام ولا يقبلون على حكم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا إذا كانت لهم حقوق عند غيرهم ؟

أسبب ذلك أنهم مرضى القلوب بالنفاق وضعف الإيمان ؟ أم سبب ذلك أنهم يشكون في صدق نبوته - صلى الله عليه وسلم - ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟

لاشك أن هذه الأسباب كلها قد امتلأت بها قلوبهم الفاسدة ، وفضلا عن ذلك فهناك سبب أشد وأعظم ، وهو حرصهم على الظلم ووضع الأمور في غير مواضعها ، ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « بل أولئك هم الظالمون » .

أي : بل أولئك المنافقون هم الظالمون لأنفسهم ولغيرهم ، حيث وضعوا الأمور في غير موضعها ، وآثروا الغي على الرشد ، والكفر على الإيمان .

قال الجمل : « وقوله : أفي قلوبهم مرض ... الخ » استنكار واستقباح لإعراضهم المذكور ، وبيان لمنشئه بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم ، والاستفهام للإنكار لكن النفي المستفاد به لا يتسلط على هذه الأمور الثلاثة ، لأنها واقعة لهم ، وقائمة بهم ، والواقع لا ينفى ، وإنما هو متسلط على منشئيتها وسببيتها لإعراضهم .. »(١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ماهو واجب على المؤمنين إذا مادعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، فقال - تعالى - : « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا سمعنا وأطعنا .. » .

ولفظ « قول » منصوب على أنه خبر « كان » ، واسمها أن المصدرية مع ما في حيزها ، وهو : أن يقولوا سمعنا وأطعنا .

والمعنى : أن من صفات المؤمنين الصادقين ، أنهم إذا مادعوا إلى حكم شريعة الله - تعالى - التي أوحاه إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقولوا عندما يدعون لذلك : سمعنا وأطعنا ، بدون تردد أو تباطؤ ...

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص ٢٣٣ .

« وأولئك » الذين يفعلون ذلك « هم المفلحون » فلاحا تاما فى الدنيا والآخرة .

ثم بين - سبحانه - مايترتب على طاعة الله ورسوله فقال : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله » - تعالى - فى السر والعلن « ويتقه » فى كل الأحوال « فأولئك » الذين يفعلون ذلك « هم الفائزون » بالنعيم المقيم ، والرضوان العظيم .

ثم عادت السورة الكريمة إلى استكمال الحديث عن المنافقين، فقال - تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن أمرتهم ليخرجن ... » .

والجهد : الوسع والطاقة ، من جهد نفسه يجهدها - بفتح الهاء فيهما - إذا اجتهد فى الشىء ، وبذل فيه أقصى وسعه .

أى : وأقسم هؤلاء المنافقون بالأيمان الموثقة بأشد وسائل التوثيق ، بأنهم متى أمرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم بالخروج معه للجهاد ، ليخرجن سراعا تلبية لأمره .

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم ردا كله تهكم وسخرية بهم ، بسبب كذبهم فيقول : « قل لاتقسموا طاعة معروفة » .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل السخرية والزجر : لا تقسموا على ماتقولون ، فإن طاعتكم معروف أمرها ، ومفروغ منها ، فهى طاعة باللسان فقط . أما الفعل فيكذبها .

وذلك كما تقول لمن اشتهر بالكذب : لاتحلف لى على صدقك . فأمرك معروف لايحتاج إلى قسم او دليل .

ثم عقب - سبحانه - على هذه السخرية منهم بقوله : « إن الله خبير بما تعملون » أى : إن الله - تعالى - مطلع اطلاعا تاما على ظواهركم وبواطنكم

فلا يحتاج منكم إلى قسم أو توكيد لأقوالكم ، وقد علم ـ سبحانه ـ أنكم كاذبون فى حلفكم .

ثم يأمر ـ سبحانه ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرشدهم إلى الطاعة الصادقة ، لا طاعتهم الكاذبة فيقول : « قل أطيعوا الله والرسول » طاعة ظاهرة وباطنة طاعة مصحوبة بصدق الاعتقاد ، وكمال الإخلاص ، فإن هذه الطاعة هى المقبولة منكم .

وقوله ـ سبحانه ـ « فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم » تحذير لهم من التمادى فى نفاقهم وكذبهم .

أى : مرهم ـ أيها الرسول الكريم ـ بالطاعة الصادقة ، فإن توليتم ـ أيها المنافقون ـ عن دعوة الحق وأعرضتم عن الصراط المستقيم، فإن الرسول الكريم ليس عليه سوى ما حملناه إياه ، وهو التبليغ والإنذار والتبشير ، وأما أنتم فعليكم ما حملتم، أى : ما أمرتم به من الطاعة له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو قد فعل ما كلفناه به ، أما أنتم فحذار أن تستمروا فى نفاقكم .

ثم أرشدهم ـ سبحانه ـ إلى طريق الفوز والفلاح فقال : « وإن تطيعوه تهتدوا » . أى : وإن تطيعوا أيها المنافقون ـ رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه ، تهتدوا إلى الحق ، وتظفروا بالسعادة .

وقوله ـ تعالى ـ : « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » تذييل مقرر لما قبله ، من أن مغبة الإعراض عائدة عليهم . كما أن فائدة الطاعة راجعة لهم .

أى : وما على الرسول الذى أرسلناه لإرشادكم إلى ما ينفعكم إلا التبليغ الواضح ، والنصح الخالص ، والتوجيه الحكيم .

وبذلك ترى هذه الآيات الكريمة قد كشفت عن رذائل المنافقين ، وحذرتهم من التمادى فى نفاقهم، وأرشدتهم إلى ما يفيدهم ويسعدهم، كما وضحت

مايجب أن يكون عليه المؤمنون الصادقون من طاعة لله ـ تعالى ـ ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

* * *

ثم تركت السورة الكريمة الحديث عن المنافقين ، لتسوق وعد الله الذى لا يتخلف للمؤمنين الصادقين ، قال ـ تعالى ـ :

« وَعَدَ اللَّهُ الذينَ آمَنُوا منكم وعمِلُوا الصَّالحاتِ ، ليَستخلفَنَّهمْ فى الأرضِ كما استخلَفَ الذينَ من قبلهِم، وليُمكنَنَّ لهم دينَهم الذى ارتضَى لهم ، وليبدِّلنَّهم مِن بعْدِ خَوْفهِم أمنًا ، يعبدُونَنِي لا يُشركُون بي شيْئًا ومن كفَر بعدَ ذلكَ فأولئكَ هم الفاسِقونَ (٥٥) وأقيمُوا الصَّلاةَ وآتوا الزكاةَ وأطيعُوا الرسُولَ لعلكُم ترحَمُونَ (٥٦) لاتحسبَنَّ الذينَ كفرُوا معجِزينَ فى الأرضِ ، ومأواهُمُ النارُ ولبِئسَ المصيرُ (٥٧) » .

قال الإمام ابن كثير : هذا وعد من الله ـ تعالى ـ لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه سيجعل أمته فى خلفاء الأرض أى : أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك ... فإنه لم يمت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى فتح عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب ، ولهذا ثبت فى الصحيح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها ... »(١) .

وفى تصدير الآية الكريمة بقوله ـ تعالى ـ : «وعد الله ...» بشارة عظيمة

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٨٣ .

للمؤمنين ، بتحقيق وعده - تعالى - ، إذ وعد الله لا يتخلف . كما قال - تعالى -: « وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ، و « من » بيانية ، والآية الكريمة مقررة لمضمون ماقبلها ، وهو قوله - تعالى - : « وإن تطيعوه تهتدوا ... » .

أي : وعد الله - تعالى - بفضله وإحسانه ، الذين صدقوا في إيمانهم من عباده ، والذين جمعوا مع الإيمان الصادق ، العمل الصالح . وعدهم ، ليستخلفنهم في الأرض ، أي : ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف أصحاب العزة والسلطان والغلبة ، بدلا من أعدائهم الكفار .

قال الآلوسي : واللام في قوله « ليستخلفنهم » واقعة في جواب القسم المحذوف . ومفعول وعد الثاني محذوف دل عليه الجواب . أي : وعد الله الذين آمنوا استخلافهم . وأقسم ليستخلفنهم ... و « ما » في قوله « كما استخلف » مصدرية ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف . وقع صفة لمصدر محذوف ، أي : ليستخلفنهم استخلافا كائنا كاستخلافه « الذين من قبلهم » من الأمم المؤمنة ، الذين أسكنهم الله - تعالى - في الأرض بعد إهلاك أعدائهم من الكفرة الظالمين ... »(1) .

هذا هو الوعد الأول للمؤمنين : أن يجعلهم - سبحانه - خلفاءه في الأرض . كما جعل عباده الصالحين من قبلهم خلفاءه ، وأورثهم أرض الكفار وديارهم .

وأما الوعد الثاني فيتجلى في قوله - تعالى - « وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم » .

والتمكين : التثبيت والتوطيد والتمليك . يقال : تمكن فلان من الشيء ، إذا حازه وقدر عليه .

---

(1) تفسير الآلوسي ج ١٨ ص ٢٠٣ .

أى : وعد الله المؤمنين بأن يجعلهم خلفاءه فى أرضه ، وبأن يجعل دينهم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لهم ، ثابتا فى القلوب ، راسخا فى النفوس ، باسطا سلطانه على أعدائه . له الكلمة العليا فى هذه الحياة ، ولمخالفيه الكلمة السفلى . . .

وأما الوعد الثالث فهو قوله ـ سبحانه ـ: «وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا» .

أى : وعدهم الله ـ تعالى ـ بالاستخلاف فى الأرض ، وبتمكين دينهم، وبأن يجعل لهم بدلا من الخوف الذى كانوا يعيشون فيه ، أمنا واطمئنانا ، وراحة فى البال ، وهدوءا فى الحال . . .

قال الربيع بن أنس عن أبى العالية فى هذه الآية : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين . يدعون إلى الله وحده . . . وهم خائفون ، فلما قدموا المدينة أمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين . يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح . فصبروا على ذلك ماشاء الله .

ثم إن رجلا من الصحابة قال : يارسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لن تغبروا ـ أى : لن تمكثوا ـ إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيهم حديدة .

وأنزل الله هذه الآية . فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب : فآمنوا ووضعوا السلاح . . . »(١) .

ولكن هذا الاستخلاف والتمكين والأمان متى يتحقق منه ـ سبحانه ـ لعباده ؟

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٨٥

لقد بين الله - تعالى - الطريق إلى تحققه فقال: «يعبدونني لا يشركون بي شيئا» فهذه الجملة الكريمة يصح أن تكون مستأنفة، أي: جوابا لسؤال تقديره: متى يتحقق هذا الاستخلاف والتمكين والأمان بعد الخوف للمؤمنين؟ فكان الجواب: يعبدونني عبادة خالصة تامة مستكملة لكل شروطها وآدابها وأركانها، دون أن يشركوا معي في هذه العبادة أحدا كائنا من كان.

كما يصح أن تكون حالا من الذين آمنوا، فيكون المعنى: وعد الله - تعالى - عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بالاستخلاف في الأرض، وبتمكين دينهم فيها. وبتبديل خوفهم أمنا، في حال عبادتهم له - سبحانه - عبادة لا يشوبها شرك أو رياء أو نقص ...

وروى الإمام أحمد عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة، والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب»[1].

ذلك هو وعد الله - تعالى - لعباده الذين أخلصوا له العبادة والطاعة، وأدوا ما أمرهم به، واجتنبوا ما نهاهم عنه؛ أما الذين انحرفوا عن طريق الحق. وجحدوا نعمه - سبحانه - عليهم، فقد بين عاقبتهم فقال: «ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون».

أي: ومن كفر بعد كل هذه النعم التي وعدت بها عبادي الصالحين، واستعمل هذه النعم في غير ما خلقت له، فأولئك الكافرون الجاحدون هم الفاسقون عن أمري، الخارجون عن وعدي، الناكبون عن صراطي.

وهكذا نرى الآية الكريمة قد جمعت أطراف الحكمة من كل جوانبها، فقد رغبت المؤمنين في إخلاص العبادة لله - تعالى - بأسمى ألوان الترغيب، حيث بينت لهم أن هذه العبادة سيترتب عليها الاستخلاف والتمكين والأمان.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص ٨٧.

ثم رهبت من الكفر والجحود وبينت أن عاقبتهما الفسوق والحرمان من نعم الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أهم أركان هذه العبادة فقال : « وأقيموا الصلاة . وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الرسول ، لعلكم ترحمون » .

أى : داوموا - أيها المؤمنون - على إخلاص العبادة لله - تعالى - ، وأدوا الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإحسان ، وقدموا الزكاة للمستحقين لها ، وأطيعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - طاعة تامة ، لعلكم بسبب هذه العبادة والطاعة . تنالون رحمة الله - تعالى - ورضوانه .

ثم ثبت الله - تعالى - المؤمنين ، وهون من شأن أعدائهم لكي لا رهبهم قوتهم فقال : « لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ، ومأواهم النار ولبئس المصير » .

أى : لا تظنن - أيها الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين - أن الذين كفروا مهما أوتوا من قوة وبسطة فى المال ، فى إمكانهم أن يعجزونا عن إهلاكهم واستئصالهم وقطع دابرهم ، فإن قوتنا لا يعجزها شيء . وهم فى قبضتنا سواء أكانوا فى هذه الأرض التى يعيشون عليها أم فى غيرها . واعلم أن مأواهم فى الآخرة النار « ولبئس المصير » هذه النار التى هى مستقرهم ومسكنهم .

فالآية الكريمة بيان لمآل الكفرة فى الدنيا والآخرة ، بعد بيان ما أعده الله - تعالى - فى الدنيا والآخرة من استخلاف وتمكين وأمان ورحمة .

وقوله : « الذين كفروا » هو المفعول الأول ، لتحسبن ، وقوله « معجزين » هو المفعول الثانى .

قال القرطبى : « وقرأ ابن عامر وحمزة « يحسبن » بالياء ، بمعنى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الله فى الأرض ، لأن الحسبان يتعدى إلى مفعولين ... » (١) .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٣٠١ .

أي : أن « الذين كفروا » في محل رفع فاعل يحسبن ، والمفعول الأول محذوف تقديره : أنفسهم . وقوله « معجزين » هو المفعول الثاني .

وقوله - سبحانه - : « ولبئس المصير » جواب لقسم مقدر، والمخصوص بالذم محذوف ، أي : وبالله « لبئس المصير » هي . أي : النـــار التي يستقرون فيها .

* * *

وبعد هذه التوجيهات الحكيمة التي تتعلق ببيان أعمال المؤمنين وأعمال الكافرين ، وببيان جانب من مظاهر قدرة الله - تعالى - في خلقه ، وببيان أقوال المنافقين التي تخالف أفعالهم ، وببيان ماوعد الله - تعالى - به المؤمنين من خيرات ...

بعد كل ذلك ، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عما افتتحت به من الحديث عن الأحكام والآداب التي شرعها الله - تعالى - ، وأمر المؤمنين بالتمسك بها فقال - تعالى - :

« يأَيُّها الذينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُم الذينَ ملَكَتْ أيمانُكُم والذينَ لم يَبْلغوا الحُلم منكُم ثلاثَ مرّاتٍ مِنْ قَبلِ صلاةِ الفجرِ ، وحينَ تضَعُونَ ثِيابكُم مِنَ الظّهيرةِ ، ومِنْ بَعدِ صلاةِ العشاءِ ، ثلاثُ عَوْرَاتٍ لكُم ، ليسَ عليكُمْ ولاَ عليهم جناحٌ بعدَهُنّ ، طَوّافُونَ عليكُم بعضكُمْ عَلَى بعضٍ كذلكَ يُبيّنُ الله لكُمُ الآياتِ ، والله عليمٌ حكيمٌ (٥٨) وإذا بلَغَ الأطفالُ منكُمُ الحُلمَ فَليستأذنُوا كما استأذَنَ الذينَ مِنْ قبلِهم كذلكَ يبينُ الله لكُمْ آياته ، والله عليمٌ حكيمٌ (٥٩) والقواعِدُ منَ النساءِ اللاّتِي لايرجُونَ نِكاحاً ، فليسَ عليهنّ جُناحٌ أنْ يضَعْنَ ثِيابَهنّ

غيرَ مُتبرِّجاتٍ بِزِينَةٍ ، وأنْ يَستعفِفْنَ خيرٌ لهنَّ ، والله سميعٌ عليمٌ (٦٠) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله ـ تعالى ـ : « يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم . . . » روايات منها : أن امرأة يقال لها أسماء بنت أبى مرثد ، دخل عليها غلام كبير لها، فى وقت كرهت دخوله فيه ، فأتت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : يارسول الله ، إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها ، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية .

ومنها ماروى من أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث فى وقت الظهيرة غلاما من الأنصار يقال له مدلج ، إلى عمر بن الخطاب ، فدق الغلام الباب على عمر ـ وكان نائما ـ فاستيقظ . وجلس فانكشف منه شىء، فقال عمر: لوددت أن الله ـ تعالى ـ نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعة إلا بإذن . ثم انطلق عمر مع الغلام إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجد هذه الآية قد نزلت فخر ساجدا لله ـ تعالى ـ (١) .

وقد صدرت الآية الكريمة بندائهم بصفة الإيمان . لحضهم على الامتثال لما اشتملت عليه من آداب قويمة . وتوجيهات حكيمة .

واللام فى قوله « ليستأذنكم » هى لام الأمر والمراد بما ملكت أيمانهم: الأرقاء سواء أكانوا ذكورا أم إناثا ، ويدخل فيهم الخدم ومن على شاكلتهم .

والمراد بالذين لم يبلغوا الحلم . الأطفال الذين فى سن الصبا ولم يصلوا إلى سن البلوغ إلا أنهم يعرفون معنى العورة ويميزون بين مايصح الاطلاع عليه ومالا يصح .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ٢١٠ .

والمعنى : يامن آمنتم بالله حق الإيمان من الرجال ، والنساء ، عليكم أن تمنعوا مماليككم وخدمكم وصبيانكم الذين لم يبلغوا سن البلوغ، من الدخول عليكم فى مضاجعكم بغير إذن فى هذه الأوقات الثلاثة ، خشية أن يطلعوا منكم على مالا يصح الاطلاع عليه .

فقوله - تعالى - : « ثلاث مرات ، تحديد للأوقات المنهى عن الدخول فيها بدون استئذان أى : ثلاث أوقات فى اليوم والليلة .

ثم بين - سبحانه - هذه الأوقات فقال : « من قبل صلاة الفجر » وذلك لأن هذا الوقت يقوم فيه الإنسان من النوم عادة ، وقد يكون متخففا من ثيابه . ولا يحب أن يراه أحد وهو على تلك الحالة .

« وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة » أى : وحين تخلعون ثيابكم وتطرحونها فى وقت الظهيرة ، عند شدة الحر ، لأجل التخفف منها وارتداء ثياب أخرى أرق من تلك الثياب ، طلبا للراحة أو استعدادا للنوم .

« ومن بعد صلاة العشاء » لأن هذا الوقت يتجرد فيه الإنسان من ثياب اليقظة ، ليتخذ ثيابا أخرى للنوم .

وقوله - سبحانه - : «ثلاث عورات لكم» خبر مبتدأ محذوف والعورات : جمع عورة .

وتطلق على مايجب ستره من الإنسان ، وهى - كما يقول الراغب- مأخوذة من العار ، وذلك لأن المظهر لها يلحقه العار والذم بسبب ذلك .

أى : هذه الأوقات هى ثلاث عورات كائنة لكم - فعليكم أن تعودوا مماليككم وخدمكم وصبيانكم . على الاستئذان عند إرادة الدخول عليكم فيها ، لأنها أوقات يغلب فيها اختلاء الرجل بأهله ، كما يغلب فيها التخفف من الثياب ، وانكشاف مايجب ستره .

وقوله - سبحانه -: « ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » بيان لمظهر من مظاهر التيسير في شريعة الإسلام.

أي: « ليس عليكم » أيها المؤمنون والمؤمنات « ولا عليهم » أي: أرقائكم وصبيانكم « جناح » أي: حرج أو إثم في الدخول بدون استئذان « بعدهن » أي: بعد كل وقت من تلك الأوقات الثلاثة.

وقوله - تعالى -: « طوافون عليكم بعضكم على بعض » تعليل لبيان العذر المرخص في ترك الاستئذان في غير الأوقات التي حددها الله - تعالى -.

أي: لا حرج في دخول مماليككم وصبيانكم عليكم في غير هذه الأوقات بدون استئذان، لأنهم تكثر حاجتهم في التردد عليكم، وأنتم كذلك لا غنى لكم عنهم فأنتم وهم يطوف بعضكم على بعض لقضاء المصالح في كثير من الأوقات.

وبذلك يجمع الإسلام في تعاليمه بين التستر والاحتشام والتأدب بآدابه القويمة، وبين السماحة وإزالة الحرج والمشقة.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: « كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ».

أي: مثل هذا البيان الحكيم يبين الله - تعالى - لكم الآيات التي توصلكم متى تمسكتم بها، إلى طريق الخير والسعادة، والله - عز وجل - عليم بما يصلح عباده، حكيم في كل ما يأمر به، أو ينهى عنه

وهكذا تسوق لنا الآية الكريمة ألوانا من الأدب السامي، الذي يجعل الكبار والصغار، يعيشون عيشة فاضلة، عامرة بالطهر والعفاف والحياء، والنقاء من كل ما يجرح الشعور، ومن كل تصور يتنافى مع الخلق الكريم.

ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن البالغين بالنسبة للاستئذان، بعد

حديثها عن حكم غير البالغين بالنسبة لذلك فقال - تعالى - : « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ، فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم . . . . » .

أى : وإذا بلغ الأطفال منكم - أيها المؤمنون والمؤمنات - سن الاحتلام والبلوغ الذى يصلح معه الزواج ، فعليهم أن يستأذنوا فى الدخول عليكم فى كل الأوقات ، كما استأذن الذين هم أكبر منهم فى السن عندما بلغوا سن الاحتلام ، فقد أمر - سبحانه - أمرا عاما بذلك فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها . . . » .

قال صاحب الكشاف : « والمعنى أن الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن إلا فى العورات الثلاث ، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حد الطفولة ، بأن يحتلموا ، أو يبلغوا السن التى يحكم عليهم فيها بالبلوغ ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة ، ويحملوا على أن يستأذنوا فى جميع الأوقات ، كما هو الحال بالنسبة للرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن .

وهذا مما الناس منه فى غفلة ، وهو عندهم كالشريعة المنسوخة . . . وعن ابن مسعود : عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم . . . »(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم » أى : والله - تعالى - عليم بأحوال النفوس وبما يصلحها من آداب ، حكيم فى كل مايشرعه من أحكام .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء اللائى بلغن سن اليأس ، فقال : « والقواعد من النساء اللائى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة . . . »

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٥٤

والقواعد : جمع قاعد - بغير تاء - لاختصاص هذه الكلمة بالنساء كحائض وطامث .

وقالوا : سميت المرأة العجوز بذلك ، لأنها تكثر القعود لكبر سنها .

أى : والنساء العجائز اللاتى قعدن عن الولد أو عن الحيض ، ولا يطمعن فى الزواج لكبرهن ، فليس على هؤلاء النساء حرج أن ينزعن عنهن ثيابهن الظاهرة ، والتى لا يفضى نزعها إلى كشف عورة ، أو إلى إظهار زينة أمر الله - تعالى - بسترها .

فقوله - سبحانه - : « فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن » بيان لمظهر من مظاهر التيسير فى شريعة الإسلام ، لأن المرأة العجوز إذا تخففت من بعض ثيابها التى لا يفضى التخفف منها إلى فتنة أو إلى كشف عورة . . . فلا بأس بذلك ، لأنها - فى العادة - لاتتطلع النفوس إليها ، وذلك بأن تخلع القناع الذى يكون فوق الخمار ، والرداء الذى يكون فوق الثياب .

وقوله - تعالى - « غير متبرجات بزينة » حال . وأصل التبرج : التكلف والتصنع فى إظهار مايخفى ، من قولهم سفينة بارجة أى : لاغطاء عليها .

والمراد به هنا : إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال الذين لا يصح لهم الاطلاع عليها .

أى : لاحرج على النساء القواعد من خلع ثيابهن الظاهرة ، حال كونهن غير مظهرات للزينة التى أمرهن الله - تعالى بإخفائها ، وغير قاصدات بهذا الخلع لثيابهن الظاهرة التبرج وكشف ماأمر الله - تعالى - بستره .

وقوله - سبحانه - : « وأن يستعففن خير لهن » أى : وأن يبقين ثيابهن الظاهرة عليهن بدون خلع ؛ خير لهن ، وأطهر لقلوبهن ، وأبعد عن التهمة ، وأنفى لسوء الظن بهن .

وسمى الله - تعالى - إبقاء ثيابهن عليهن استعفافا أى : طلبا للعفـــة ، للإشعار بأن الاحتشام والتستر . . . خـير للمرأة حتى ولو كانت من القـــواعد .

وقوله - تعالى - : « والله سميع عليم » أى: سميع لكل ما من شأنه أن يسمع عليم بأحوال النفوس وحركاتها وسكناتها .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة، قد بينت للناس أقوام المناهج، وأسمى الآداب ، وأفضل الأحكام ، التى باتباعها يسعد الأفراد والجماعات .

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن أحكام أخرى فيها ما فيها من حسن للتنظيم فى العلاقات بين الأقارب والأصدقاء، وفيها ما فيها من اليسر والسماحة ، فقال - تعالى - :

« ليسَ على الأعمَى حرج ، ولا على الأعرجِ حـرجٌ ، ولا على المريضِ حرجٌ، ولا على أنفسِكمُ أن تأكلُوا من بُيوتكُم ، أو بيُوتِ آبائِكمُ، أو بيوتِ أمَّهاتكمُ، أو بيوتِ إخوانِكمُ، أو بيوتِ أخواتِكم أو بيوتِ أعمامِكم ، أو بيوتِ عمَّاتكمُ ، أو بيوتِ أخوالِكُم ، أو بيوتِ خالاتِكمُ ، أو ما ملكتم مفاتحهُ أو صـــديقكمُ . ليسَ عليكمُ جناحٌ أنْ تأكلوا جميعاً أو أشتاتا . فإذا دخلتم بيُوتاً فسلِّموا عَلَى أنفُسِكُم تحيةً من عندِاللهِ مُباركةً طيِّبةً . كذلكَ يبيِّنُ اللهُ لكُم الآياتِ لعلكُم تعقِلُونَ (٦١) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما روى عن ابن عباس أنه قال : لما أنزل الله - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . . . » تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والعمى والعرج ،

وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهانا الله عن أكل المال بالباطل ، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لا يتمكن من الجلوس ، ولا يستطيع المزاحمة ، والمريض يضعف عن التناول ولا يستوفى من الطعام حقه ، فأنزل الله هذه الآية .

وقيل نزلت ترخيصا لهؤلاء فى الأكل من بيوت من سمى الله فى هذه الآية ، وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام ، فإذا لم يكن عنده شىء ذهب بهم إلى بيت أبيه ، أو بيت أمه ، أو بعض من سمى الله فى هذه الآية ، فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك ، ويقولون ذهب بنا إلى غير بيته ، فأنزل الله هذه الآية .

وقيل نزلت رخصة للأعمى والأعرج والمريض عن التخلف عن الجهاد ...

ويبدو لنا أن الآية الكريمة نزلت لتعليم المؤمنين ألوانا متعددة من الآداب التى شرعها الله - تعالى - لهم ، ويسرها لهم بفضله وإحسانه ، حتى يعلموا أن شريعته - سبحانه - مبنية على اليسر لا على العسر ، وعلى التخفيف ورفع الحرج ، لا على التشديد والتضييق .

والحرج : الضيق . ومنه الحرجة للشجر الملتف المتكاثف بعضه ببعض ، حتى ليصعب على الشخص أن يمشى فيه . والمراد به هنا : الإثم .

والمعنى : ليس على الأعمى والأعرج والمريض حرج أو إثم فى التخلف عن الجهاد لظهور أعذارهم ، كما أنه ليس عليهم حرج أو إثم فى الأكل من بيوت هؤلاء الذين سماهم الله - تعالى - .

كذلك ليس عليكم حرج أو إثم - أيها المؤمنون - فى أن تأكلوا أنتم ومن معكم ، من بيوتكم ، التى هى ملك لكم .

وذكر - سبحانه - بيوتهم هنا مع أنه من المعروف أنه لاحرج فى أن يأكل الإنسان من بيته ، الإشعار بأن أكلهم من بيوت الذين سيذكرهم - سبحانه - بعد ذلك من الآباء والأمهات والأقارب ، يتساوى فى نفى الحرج مع أكلهم من بيوتهم أى أن أكل الناس من بيوتهم لم يذكر هنا لنفى حرج كان متوهما ، وإنما ذكر لإظهار التسوية بين أكلهم من بيوت أقاربهم وأصدقائهم ، وبين أكلهم من بيوتهم .

وبعضهم يرى أن المراد بقوله «أن تأكلوا من بيوتكم» أى : من بيوت زوجاتهم وأولادهم .

ثم ذكر - سبحانه - بيوتا أخرى لاحرج عليهم فى الأكل منها فقال : «أو بيوت آبائكم، أو بيوت أمهاتكم، أو بيوت إخوانكم،أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم، أو بيوت أخوالكم . أو بيوت خالاتكم، أو ما ملكتم مفاتحه» أى: أو البيوت التى تملكون التصرف فيها بإذن أصحابها، كأن تكونوا وكلاء عنهم فى التصرف فى أموالهم. ومفاتح: جمع مفتح - بكسر الميم - وهو آلة الفتح وملك هذه المفاتح : كناية عن كون الشىء تحت يد الشخص وتصرفه.

وقوله «أو صديقكم» معطوف على ما قبله . والصديق هو من يصدق فى مودتك ، وتصدق أنت فى مودته ، وهو اسم جنس يطلق على الواحد والجمع. والمراد هنا : الجمع . أى : ولا حرج عليكم - أيضا - فى الأكل من بيوت أصدقائكم .

فالآية الكريمة قد أجازت الأكل من هذه البيوت المذكورة،وهى أحد عشر بيتا - وإن لم يكن فيها أصحابها، مادام الآكل قد علم رضا صاحب البيت بذلك ، وأن صاحب البيت، لايكره هذا ولا يتضرر منه،إستنادا إلى القواعد العامة فى الشريعة . والتى منها : «لاضرر ولا ضرار» وأنه «لايحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه» .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فما معنى « أو صديقكم » قلت: معناه : أو بيوت أصدقائكم . والصديق يكون واحدا وجمعا ، وكذلك الخليط والقطين والعدو .

ويحكى عن الحسن أنه دخل داره ، وإذا جماعة من أصدقائه قد استلوا سلالا من تحت سريره فيها أطايب الأطعمة . وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سرورا وضحك وقال : هكذا وجدناهم ، هكذا وجدناهم يريد أكابر الصحابة ومن لقيهم من البدريين .

وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب . فيسأل جاريته كيسه فيأخذ منه ماشاء . فإذا حضر مولاها فأخبرته ، أعتقها سرورا بذلك ... »(١)

وقوله - سبحانه - : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا » بيان لنوع آخر من أنواع السماحة فى شريعة الإسلام .

والأشتات : جمع شت - بفتح الشين - . يقال : شت الأمر يشت شتا وشتاتا . إذا تفرق . ويقال : هذا أمر شت ، أى : متفرق .

أى : ليس عليكم - أيها المؤمنون - حرج أو إثم فى أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين ، وقد كان بعضهم من عاداته أن لا يأكل منفردا ، فإن لم يجد من يأكل معه عاف الطعام ، فرفع الله - تعالى - هذا الحرج المتكلف ، ورد الأمر إلى ما تقتضيه شريعة الإسلام من بساطة ويسر وعدم تكلف ، فأباح لهم أن يكونوا فرادى ومجتمعين .

فالجملة الكريمة بيان للحالة التى يجوز عليها الأكل ، بعد بيان البيوت التى يجوز الأكل منها والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد اشتملت على أحكم الأداء للترتيب اللفظى والموضوعى ، فقد بدأت ببيت الإنسان نفسه ، ثم ببيوت الآباء ، فالأمهات ، فالأخوة ، فالأخوات ، فالأقارب . فالبيوت التى

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٥٧ .

يملكون التصرف فيها ، فبيوت الأصدقاء . . .

ثم لم تكتف بذلك ، وإنما بينت الحالة التي يباح الأكل منها . . .

ثم بعد ذلك علمتنا آداب دخول البيوت التي ندخلها للأكل أو لغيره ، فقال - تعالى - : « فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة » .

والمراد بأنفسكم هنا : أهل تلك البيوت التي يدخلونها ، لأنهم بمنزلة أنفسهم في شدة المودة والمحبة والألفة . و (تحية) منصوب بفعل مقدر أي : حيوا تحية .

أي : فإذا دخلتم - أيها المؤمنون والمؤمنات - بيوتا فسلموا على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم ، وحيوهم تحية ثابتة من عند الله ، مباركة طيبة ، أي مستتبعة لزيادة البركات والخيرات ولزيادة المحبة والمودة .

ووصف - سبحانه - هذه التحية بالبركة والطيب ، لأنها دعوة مؤمن لمؤمن ، وكلاهما يرجو بها من الله - تعالى - زيادة الخير وطيب الرزق .

وتحية الإسلام أن يقول المسلم لأخيه المسلم : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

أي : مثل هذا البيان القويم ، يبين الله - تعالى - لكم الآيات المحكمة ، والإرشادات النافعة ، لكي تعقلوا ما اشتملت عليه من هدايات ، توصلكم متى انتفعتم بها إلى السعادة والفلاح .

بعد أن ساقت السورة الكريمة ما ساقت من أحكام وآداب منها ما يتعلق بالحدود ، ومنها ما يتعلق بالاستئذان ، ومنها ما يتعلق بالتستر والاحتشام ،

ومنها ما يتعلق بتنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء .... بعد كل ذلك اختتمت ببيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون من أدب من رسولهم - صلى الله عليه وسلم - ، فقال - تعالى - :

« إنَّما المؤمنُونَ الذينَ آمنُوا باللهِ ورسُولهِ ، وإذا كانُوا معَهُ على أمرٍ جامعٍ لم يذهبُوا حتى يَستأذِنوه . إنَّ الذينَ يستأذنونَكَ أولئكَ الذينَ يؤمِنُون باللهِ ورسُولهِ ، فإذَا استأذَنُوكَ لبعضِ شأنِهم فأذَنْ لمن شئتَ منهم ، واستغفِرْ لهم الله ، إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ (٦٢) لا تجعَلوا دعاءَ الرسُولِ بينكُم كدُعاءِ بعضِكُم بعضاً ، قد يعلَمُ اللهُ الذينَ يتسلَّلونَ منكُم لِواذاً ، فليَحذرِ الذينَ يخالفُونَ عن أمرِهِ أن تُصيبَهم فتنةٌ أو يُصيبَهم عذابٌ أليمٌ (٦٣) ألاَ إنَّ للهِ ما في السَّمواتِ والأرضِ ، قد يعلم ما أنتم عليه ، ويومَ يرجَعونَ إليه فينبِّئُهم بما عمِلوا ، واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ (٦٤) » .

روى ابن إسحاق فى سبب نزول هذه الآيات ماملخصه: أنه لما كان تجمع قريش وغطفان فى غزوة الأحزاب ، ضرب الرسول - صلى الله عليه وسلم - خندقا حول المدينة وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعن المسلمين فى عملهم ذلك ، رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون - أى يستترون - بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا إذن . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ويستأذن فى اللحوق ، لحاجته فيأذن له ، فإذا قضى

حاجته ، رجع إلى ما كان فيه من العمل رغبة فى الخير واحتسابا له . فأنزل الله هذه الآيات فى المؤمنين وفى المنافقين(١) .

والمراد بالأمر الجامع فى قوله : « وإذا كانوا معه على أمر جامع » : الأمر الهام الذى يستلزم إشتراك الجماعة فى شأنه ، كالجهاد فى سبيل الله ، وكالإعداد لعمل من الأعمال العامة التى تهم المسلمين جميعا .

والمعنى : إن من شأن المؤمنين الصادقين ، الذين آمنوا بالله ورسوله حق الإيمان أنهم إذا كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - على أمر جامع من الأمور التى تقتضى إشتراكهم فيه ، لم يفارقوه ولم يذهبوا عنه ، حتى يستأذنوه فى المفارقة أو فى الذهاب ، لأن هـــذا الاستئذان دليل على قوة الإيمان ، وعلى حسن أدبهم مع نبيهم - صلى الله عليه وسلم - .

قال الآلوسى : « وقوله : « وإذا كانوا معه على أمر جامع . . . » معطوف على « آمنوا » داخل معه فى حيز الصلة ، والحصر باعتبار الكمال . أى : إنما الكاملون فى الإيمان الذين آمنوا بالله - تعالى - ، وبرسوله - صلى الله عليه وسلم - من صميم قلوبهم ، وأطاعوا فى جميع الأحكام التى من جملتها ما فصل من قبل . . . وإذا كانوا معه - صلى الله عليه وسلم - على أمر مهم يجب اجتماعهم فى شأنه كالجمعة والأعياد والحروب ، وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع . . . لم يذهبوا عنه - صلى الله عليه وسلم - « حتى يستأذنوه » فى الذهاب فيأذن لهم . . . »(٢) .

وخص - سبحانه - الأمر الجامع بالذكر ، للاشعار بأهميته ووجوب البقاء معه - صلى الله عليه وسلم - حتى يعطيهم الإذن بالانصراف، إذ وجودهم معه يؤدى إلى مظاهرته - صلى الله عليه وسلم - ومعاونته فى الوصول إلى أفضل الحلول لهذا الأمر الهام .

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق ج ٣ ص ٣٣٠

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ٢٢٣

ثم مدح - سبحانه - الذين لا يغادرون مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا كانوا معه على أمر جامع حتى يستأذنوه فقال : « إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله » .

أى : إن الذين يستأذنونك فى تلك الأحوال الهامة ، والتى تستلزم وجودهم معك ، أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله حق الإيمان ، لأن هذا الاستئذان فى تلك الأوقات دليل على طهارة نفوسهم ، وصدق يقينهم ، وصفاء قلوبهم .

ثم بين - سبحانه - وظيفته - صلى الله عليه وسلم - فقال: « فإذا استأذنوك لبعض شأنهم ، فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، والله غفور رحيم » .

أى : فإذا استأذنك هؤلاء المؤمنون فى الانصراف، لقضاء بعض الأمور والشئون التى هم فى حاجة إليها ، فأنت مفوض ومخير فى إعطاء الإذن لبعضهم وفى منعه عن البعض الآخر ، إذ الأمر فى هذه المسألة متروك لتقديرك - أيها الرسول الكريم - .

وقوله - تعالى - « واستغفر لهم الله » فيه إشارة إلى أنه كان الأولى بهؤلاء المؤمنين ، أن يبقوا مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى ينتهوا من حل هذا الأمر الجامع الذى اجتمعوا مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أجله ، وحتى يأذن لهم - صلى الله عليه وسلم - فى الانصراف دون أن يطلبوا منه ذلك ، فإن الاستئذان قبل البت فى الأمر الهام الذى يتعلق بمصالح المسلمين جميعا ، غير مناسب للمؤمنين الصادقين ، ويجب أن يكون فى أضيق الحدود ، وأشد الظروف . ومع كل ذلك ، فالله - تعالى - واسع المغفرة لعباده عظيم الرحمة بهم .

ثم أكد الله - تعالى - وجوب التوقير والتعظيم لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ... » .

ولأهل العلم فى تفسير هذه الآية أقوال من أهمها : أن المصدر هنا وهو لفظ « دعاء » مضاف إلى مفعوله ، وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أنه مدعو ، فيكون المعنى :

لا تجعلوا - أيها المؤمنون - دعاءكم الرسول إذا دعوتموه ، ونداءكم له إذا ما ناديتموه ، كدعاء أو نداء بعضكم لبعض ، وإنما عليكم إذا ناديتموه أن تنادوه بقولكم ، يانبى الله ، أو يارسول الله ، ولا يليق بكم أن تنادوه باسمه مجردا ، بأن تقولوا يا محمد .

كما أن من الواجب عليكم أن تخفضوا أصواتكم عند ندائه توقيرا واحتراما له - صلى الله عليه وسلم - والمتتبع للقرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - لم يناد رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - باسمه مجردا ، وإنما ناداه بقوله : يأيها المدثر ، يأيها الرسول ، يأيها النبى ...

وإذا كان اسمه - صلى الله عليه وسلم - قد ورد فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع . فإن وروده لم يكن فى معرض النداء ، وإنما كان فى غيره كما فى قوله - تعالى - « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ..... » .

فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن أن ينادوا أو يخاطبوا النبى - صلى الله عليه وسلم - باسمه مجردا ، كما يخاطب بعضهم بعضا .

ومن العلماء من يرى أن المصدر هنا مضاف إلى فاعله ، فيكون المعنى : لا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضا ، بل يجب عليكم متى دعاكم لأمر أن تلبوا أمره بدون تقاعس أو تباطؤ .

وعلى كلا التفسيرين فالآية الكريمة تدل على وجوب توقير الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتعظيمه . وشبيه بها قوله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول

كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » .

ثم حذر - سبحانه - المنافقين من سوء عاقبة أفعالهم فقال : « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ، أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

وقد هنا للتحقيق . ويتسللون من التسلل ، وهو الخروج فى خفاء مع تمهل وتلصص .

وقوله « لواذا » مصدر فى موضع الحال أى : ملاوذين . والملاوذة معناها : الاستتار بشىء مخافة من يراك ، أو هى الروغان من شىء إلى شىء على سبيل الخفاء .

أى : إن الله - تعالى - عليم بحال هؤلاء المنافقين الذين يخرجون من مجلس الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى خفاء واستتار : بحيث يخرجون من الجماعة قليلا قليلا ، يستتر بعضهم ببعض حتى يخرجوا جميعا .

قالوا : وكان المنافقون تارة يخرجون إذا ارتقى الرسول - صلى الله عليه وسلم - المنبر . ينظرون يمينا وشمالا . ثم يخرجون واحدا واحدا . وتارة يخرجون من مجالس الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتارة يفرون من الجهاد يعتذرون بالمعاذير الباطلة .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تصور خبث نفوسهم ، والتواء طباعهم ، وجبن قلوبهم ، أبلغ تصوير ، حيث ترسم أحوالهم وهم يخرجون فى خفاء متسللين ، حتى لا يراهم المسلمون .

والفاء فى قوله - تعالى - : « فليحذر . . . » لترتيب ما بعدها على ماقبلها .

والضمير فى قوله : « عن أمره » يعود إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - أو إلى الله - تعالى - ، والمعنى واحد ، لأن الرسول مبلغ عن الله - تعالى - .

والمخالفة معناها : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى حاله أو فعله .

والمعنى : فليحذر هؤلاء المنافقون الذين يخالفون أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - ويصدون الناس عن دعوته ، ويتباعدون عن هديه ، فليحذروا من أن تصيبهم فتنة، أى: بلاء وكرب يترتب عليه افتضاح أمرهم،وانكشاف شرهم ، « أو يصيبهم عذاب أليم » يستأصلهم عن آخرهم ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

قال القرطبى:« وبهذه الآية احتج الفقهاء على أن الأمر للوجوب.ووجهها أن الله - تعالى - قد حذر من مخالفة أمره ، وتوعد بالعقاب عليها بقوله : « أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » فتحرم مخالفته ، فيجب امتثال أمره »(١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : « ألا إن لله مافى السموات والأرض » .

أى : له - سبحانه - مافى السموات والأرض من موجودات خلقا وملكا وتصرفا وإيجادا « قد يعلم ما أنتم عليه » أيها المكلفون من طاعة أو معصية ، ومن استجابة لأمره أو عدم استجابة .

« ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا » أى: ويعلم - سبحانه -أحوال خلقه جميعا يوم يرجعون إليه يوم القيامة . فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

« والله » - تعالى - « بكل شىء عليم » بحيث لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٣٢٢ .

وبعد : فهذه هى سورة النور ، وهذا تفسير محرر لها .

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة ـ مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوى

ظهر السبت ٢٠ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ١١ / ١ / ١٩٨٥ م

فهرس إجمالي لتفسير « سورة النــــور »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة والتمهيد	٨٩
١	سورة أنزلناها وفرضناها ...	٩٤
٢	الزانية والزاني فاجلدوا ...	٩٥
٤	والذين يرمون المحصنات ...	١٠٤
٦	والذين يرمون أزواجهم ...	١٠٩
١١	إن الذين جاءوا بالإفك ...	١١٤
١٩	إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ...	١٢٣
٢٣	إن الذين يرمون المحصنات ...	١٢٨
١٧	يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا ...	١٣٥
٣٠	قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ...	١٤٣
٣٢	وأنـكحوا الأيامى منـكم ...	١٥١
٣٥	الله نور السموات والأرض ...	١٥٩
٣٩	والذين كفروا أعمالهم كسراب ...	١٦٦
٤١	ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات ...	١٧٠
٤٣	ألم تر أن الله يزجى سحابا ...	١٧٣
٤٦	لقد أنزلنا آيات مبينات ...	١٧٧
٥٥	وعد الله الذين آمنوا منـكم وعملوا الصالحات ...	١٨٤
٥٨	يأيها الذين آمنوا ليستأذنـكم ...	١٨٩
٦١	ليس على الأعمى حرج ...	١٩٥
٦٢	إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ...	٢٠٠

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الفرقان

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء الثامن عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ — ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
تليفون ٩٠٧٣٤٩ | س. ت ١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيم﴾

«صدق الله العظيم»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة وتمهيـد

١ – سورة الفرقان من السور المكية ، وعدد آياتها سبع وسبعون آية ، وكان نزولها بعد سورة « يس » . أما ترتيبها فى المصحف فهى السورة الخامسة والعشرون .

ومن المفسرين الذين لم يذكروا خلافا فى كونها مكية ، الإمام ابن كثير والإمام الرازى .

وقال القرطبى : هى مكية كلها فى قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهى : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، إلى قوله ـ تعالى ـ : « وكان الله غفورا رحيما » .

٢ – وقد افتتحت هذه السورة الكريمة بالثناء على الله ـ تعالى ـ الذى نزل الفرقان على عبده محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذى له ملك السموات والأرض ... والذى خلق كل شىء فقدره تقديرا .

قال ـ تعالى ـ : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض . ولم يتخذ ولدا . ولم يكن له شريك فى الملك . وخلق كل شىء فقدره تقديرا » .

٣ – ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى حكاية بعض أقوال المشركين الذين أثاروا الشبهات حول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحول دعوته ، وردت عليهم بما يمحق باطلهم ، وقارنت بين مصيرهم السىء ، وبين ما أعده الله ـ تعالى ـ للمؤمنين من جنات .

قال ـ تعالى ـ « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق

لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون أن تتبعون إلا رجلا مسحورا» .

٤ ـ وبعد أن يصور القرآن حسراتهم يوم الحشر، وعجزهم عن التناصر، يعود فيحكى جانبا من تطاولهم وعنادهم . ويرد عليهم بما يكبتهم ، وبما يزيد المؤمنين ثباتا على ثباتهم .

قال ـ تعالى ـ : «وقال الذين لا يرجون لقاءنا . لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا . يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا . وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا . أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا» .

٥ ـ ثم تحكى السورة جانبا من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم، فيقول: «ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا . فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية ، وأعتدنا للظالمين عذابا أليما . . . » .

٦ — ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن تطاول هؤلاء الجاحدين على رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعقب على ذلك بتسليته ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أصابه منهم فتقول : «وإذا رأوك أن يتخذونك إلا هزوا . أهذا الذى بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا . أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

٧ ـ ثم تنتقل السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ فتسوق لنا مظاهر قدرته فى مد الظل ، وفى تعاقب الليل والنهار، وفى الرياح التى يرسلها ـ سبحانه ـ لتكون بشارة لنزول المطر، وفى وجود برزخ

بين البحرين ، وفى خلق البشر من الماء . . . ثم يعقب على ذلك بالتعجب من حال الكافرين ، الذين يعبدون من دونه - سبحانه - مالا ينفعهم ولا يضرهم . . .

قال - تعالى - : «ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا .

٨ - ثم تسوق السورة فى أواخرها صورة مشرقة لعباد الرحمن ، الذين من صفاتهم التواضع ، والعفو عن الجاهل . وكثرة العبادة لله - تعالى - والتضرع إليه بأن يصرف عنهم عذاب جهنم ، وسلوكهم المسلك الوسط فى إنفاقهم ، وإخلاصهم الطاعة لله - تعالى - وحده . واجتنابهم الرذائل التى نهى الله - عز وجل - عنها .

قال - تعالى - : «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا - سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا أصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما إنها ساءت مستقرا ومقاما » .

٩ - ومن هذا العرض المختصر لأهم القضايا التى اهتمت بالحديث عنها السورة الكريمة ، نرى ما يأتى :

(ا) أن السورة الكريمة قد ساقت ألوانا من الأدلة على قدرة الله - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وعلى الثناء عليه - سبحانه - بما هو أهله .

نرى ذلك فى مثل قوله - تعالى - : «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده . تبارك الذى جعل فى السماء بروجا . . . تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

وفى مثل قوله - تعالى - : «وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات ،

وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا . وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا . ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم شيئا ولا يضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيرا » .

(ب) أن السورة الكريمة زاخرة بالآيات التى تدخل الأنس والتسرية والتسلية والتثبيت على قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن اتهمه المشركون بما هو برىء منه ، وسخروا منه ومن دعوته ، ووصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، واستنكروا أن يكون النبى من البشر .

نرى هذه التهم الباطلة فيما حكاه الله عنهم فى قوله - تعالى - : «وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » .

« وقالوا : مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا » .

« وإذا قيل لهم أسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » .

ونرى التسلية والتسرية والتثبيت فى قوله - تعالى - : « أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا » .

« وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ، وكان ربك بصيرا » .

« وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » .

وهكذا نرى السورة الكريمة زاخرة بالحديث عن الشبهات التى أثارها

المشركون حول النبى - صلى الله عليه وسلم - ودعوته، وزاخرة - أيضا - بالرد عليها ردا يبطلها، ويزهقها، ويسلى النبى - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم.

(ج) أن السورة الكريمة مشتملة على آيات كثيرة، تبين ماسيكون عليه المشركون يوم القيامة من هم وغم وكرب وحسرة وندامة وسوء مصير. كما تبين ما أعـــده الله - تعالى - لعباده المؤمنين من عاقبة حسنة، ومن جنات تجرى من تحتها الأنهار.

فبالنسبة لسوء عاقبة المشركين نرى قوله - تعالى - : «بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا. إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا. لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعو ثبورا كبيرا».

ونرى قوله - تعالى - : «ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا. يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا. لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى، وكان الشيطان للإنسان خذولا».

وبالنسبة للمؤمنين نرى قوله - تعالى - : «قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جـــزاء ومصيرا لهم فيها مايشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا».

ونرى قوله - سبحانه - : «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»... إلى قوله - تعالى - : «خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما».

وهكذا نرى السورة تسوق آيات كثيرة فى المقارنة بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين.. وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ...

هذه بعض الموضوعات التى اهتمت السورة الكريمة بتفصيل الحديث عنها ، وهناك موضوعات أخرى سنتحدث عنها - بإذن الله - عند تفسيرنا لآياتها .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

القاهرة — مدينة نصر

٢١ من ربيع الثانى ١٤٠٥ هـ

١٣/٢/١٩٨٥ م .

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

قال الله تعالى . « تبارك الذى نزّل الفُرقانَ على عبده ليكونَ للعالمَينَ نذيراً (١) الّذى لهُ مُلكُ السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ولم يكُنْ لهُ شريكٌ فى المُلكِ ، وخلَق كلَّ شىءٍ فقدَّرَهُ تقديراً (٢) واتخَذُوا من دُونِه آلهةً لا يخلُقُونَ شيئاً وهمُ يُخلقون ، ولا يملِكُون لأنفُسِهِم ضرًّا ولا نَفعاً ، ولا يملِكُونَ موتاً ولا حياةً ولا نشوراً (٣)»

افتتحت السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - ثناء يليق بجلاله وكماله.

ولفظ « تبارك » فعل ماض لا يتصرف . أى : لم يجىء منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل . وهو مأخوذ من البركة بمعنى الكثرة من كل خير . وأصلها النماء والزيادة . أى : كثر خيره وإحسانه ، وتزايدت بركاته .

أو مأخوذ من البركة بمعنى الثبوت . يقال : برك البعير ، إذا أناخ فى موضعه فلزمه وثبت فيه . وكل شىء ثبت ودام فقد برك . أى : ثبت ودام خيره على خلقه .

والفرقان : القرآن . وسمى بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل .

ونذيرا : من الإنذار ، وهو الاعلام المقترن بتهديد وتخويف .

أى : جل شأن الله - تعالى - وتكاثرت ودامت خيراته وبركاته : لأنه - سبحانه - هو الذى نزل القرآن الكريم على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - ليكون « للعالمين » أى : للإنس والجن « نذيرا » أى : منذرا إياهم بسوء المصير إن هم استمروا على كفرهم وشركهم .

وفى التعبير بقوله - تعالى - « تبارك » إشعار بكثرة مايفيضه - سبحانه - من خيرات وبركات على عباده ، وأن هذا العطاء ثابت مستقر، وذلك يستلزم عظمته وتقدسه عن كل مايليق بجلاله - عز وجل - .

ولم يذكر - سبحانه - لفظ الجلالة ، واكتفى بالاسم الموصول الذى نزل الفرقان ، لإبراز صلته - سبحانه - وإظهارها فى هذا المقام ، الذى هو مقام إثبات صدق رسالته التى أوحاها إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - .

وعبر - سبحانه - « ينزل » بالتضعيف ، لنزول القرآن الكريم مفرقا فى أوقات متعددة ، لتثبيت فؤاد النبى - صلى الله عليه وسلم - .

ووصف الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالعبودية ، وأضافها لذاته ، للتشريف والتكريم والتعظيم وأن هذه العبودية لله - تعالى - هى ما يتطلع إليه البشر .

واختير الإنذار على التبشير . لأن المقام يقتضى ذلك، إذ أن المشركين قد لجوا فى طغيانهم وتمادوا فى كفرهم وضلالهم. فكان من المناسب تخويفهم من سوء عاقبة ماهم عليه من عناد .

وهذه الآية الكريمة تدل على عموم رسالته - صلى الله عليه وسلم - للناس جميعا . حيث قال - سبحانه - « ليكون للعالمين نذيرا » أى : لعالم الإنس وعالم الجن ، وشبيه بها قوله - تعالى - « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وقوله - سبحانه - : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بجملة من الصفات التى توجب له العبادة والطاعة فقال : « الذى له ملك السموات والأرض » فهو الخالق لهما . وهو المالك لأمرهما ، لا يشاركه فى ذلك مشارك .

والجملة الكريمة خبر لمبتدأ محذوف . أو بدل من قوله : « والذى نزل

« ولم يتخذ ولدا » فهو — سبحانه — منزه عن ذلك وعن كل ما من شأنه أن يشبه الحوادث .

« ولم يكن له شريك في الملك » بل هو المالك وحده لكل شيء في هذا الوجود .

« وخلق كل شيء فقدره تقديرا » أي : وهو — سبحانه — الذي خلق كل شيء في هذا الوجود خلقا متقنا حكيما بديعا في هيئته ، وفي زمانه، وفي مكانه ، وفي وظيفته ، على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته . وصدق الله إذ يقول : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

لجملة « فقدره تقديرا » بيان لما اشتمل عليه هذا الخلق من إحسان وإتقان فهو — سبحانه — لم يكتف بمجرد إيجاد الشيء من العدم ، وإنما أوجده في تلك الصورة البديعة التي عبر عنها في آية أخرى بقوله : « صنع الله الذي أتقن كل شيء » .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : في الخلق معنى التقدير ، فما معنى قوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » . . .

قلت : معناه أنه أحدث كل شيء إحداثا مراعى فيه التقدير والتسوية ، فقدره وهيأه لما يصلح له . مثاله : أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذي تراه ، يقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد ، جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير . . . . »(1) .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك أن المشركين لم يفطنوا إلى ما اشتمل عليه هذا الكون من تنظيم دقيق ، ومن صنع حكيم يدل على وحدانية الله — تعالى —

(1) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٦٣ .

وقدرته ، بل إنهم ـ لانطماس بصائرهم ـ عبدوا مخلوقا مثلهم فقال ـ تعالى ـ « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ... » .

والضمير فى قوله « واتخذوا ... » يعود على المشركين ، المفهوم من قوله « ولم يكن له شريك فى الملك ، أو من المقام .

أى : واتخذ هؤلاء المشركون معبودات باطلة يعبدونها من دون الله ـ عز وجل ـ ، وهذه المعبودات لا تقدر على خلق شىء من الأشياء ، بل هى من مخلوقات الله ـ تعالى ـ .

وعبر عن هذه الآية بضمير العقلاء فى قوله « لا يخلقون » جريا على اعتقاد الكفار أنها تضر وتنفع ، أو لأن من بين من اتخذوهم آلهة بعض العقلاء كالمسيح والعزير والملائكة . . .

وأيضا هؤلاء الذين اتخذهم المشركون آلهة : « لا يملكون لأنفسهم » فضلا عن غيرهم « ضرا ولا نفعا » فهم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم ، ولا جلب النفع لذواتهم « ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا » أى : ولا يقدرون على إماتة الأحياء . ولا على إحياء الموتى فى الدنيا ، ولا على بعثهم ونشرهم فى الآخرة .

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد وصف تلك الآلهة المزعومة بسبع صفات كل صفة منها كفيلة بسلب صفة الألوهية عنها ، فكيف وقد اجتمعت هذه الصفات السبع فيها ؟ ! ! .

إن كل من يشرك مع الله ـ تعالى ـ أحدا فى العبادة . لو تدبر هذه الآية وأمثالها من آيات القرآن الكريم لأيقن واعتقد أن المستحق للعبادة والطاعة إنما هو الله رب العالمين .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض الشبهات التى أثارها المشركون حول القرآن الكريم الذى أنزله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال :

« وقالَ الذينَ كفرُوا إنْ هذَا إلاَّ إفْكٌ افتراهُ وأعانَهُ عليهِ قومٌ آخرُونَ فقد جاءوا ظلماً وزُوراً (٤) وقالُوا أساطيرُ الأوَّلِينَ اكتتَبها فهِيَ تُملَى عليهِ بُكرةً وأصيلاً (٥) قلْ أنزلَه الذى يعلمُ السِّرَّ فى السموات والأرضِ إنه كانَ غفوراً رحيماً (٦) » .

والإفك : أسوأ الكذب . يقال : أفك فلان ـ كضرب وعلم ـ أفكا ، إذا قال أشنع الكذب وأقبحه .

والزور فى الأصل : تحسين الباطل . مأخوذ من الزور وهو الميل وأطلق على الباطل زور لما فيه من الميل عن الصدق إلى الكذب ، ومن لحق بالحق إلى ما يخالفه .

أى : وقال الذين كفروا فى شأن القرآن الكريم الذى أنزله الله ـ تعالى ـ على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ماهذا القرآن إلا كذب وبهتان « افتراه » واختلقه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند نفسه ، « وأعانه عليه » أى وأعانه وساعده على هذا الاختلاق « قوم آخرون » من اليهود أو غيرهم ، كعداس ـ مولى حويطب بن عبد العزى ـ ويسار ـ مولى العلاء بن الحضرمى ـ وأبى فكيهة الرومى . وكان هؤلاء من أهل الكتاب الذين أسلموا .

وقوله ـ تعالى ـ « فقد جاءوا ظلما وزورا » رد على أقوال الكافرين الفاسدة . « وجاءوا » بمعنى فعلوا ، وقوله : « ظلما » منصوب به . والتنوين للتهويل .

أى : فقد فعل هؤلاء الكافرون بقولهم هذا ظلما عظيما وزورا كبيرا ، حيث وضعوا الباطل موضع الحق ، والكذب موضع الصدق .

ويصح أن يكون قوله : « ظلما » منصوبا بنزع الخافض أى : فقد جاءوا بظلم عظيم ، وكذب فظيع ، انحرفوا به عن جادة الحق والصواب .

ثم حكى - سبحانه - مقولة أخرى من مقولاتهم الفاسدة فقال: «وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا».

والأساطير: جمع أسطورة بمعنى أكذوبة. واكتتبها: أى: أمر غيره بكتابتها له، أو جمعها من بطون كتب السابقين.

أى: أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بقولهم السابق فى شأن القرآن، بل أضافوا إلى ذلك قولا آخر أشد شناعة وقبحا، وهو زعمهم أن هذا القرآن أكاذيب الأولين وخرافاتهم، أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - غيره بكتابتها له، ويجمعها من كتب السابقين «فهى» أى: هذه الأساطير «تملى عليه» أى: تلقى عليه - صلى الله عليه وسلم - بعد اكتتابها ليحفظها ويقرأها على أصحابه «بكرة وأصيلا» أى: فى الصباح والمساء، أى: تملى عليه خفية فى الأوقات التى يكون الناس فيها نائمين أو غافلين عن رؤيتهم.

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال: «قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض....».

أى: قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين زعموا أن القرآن أساطير الأولين، وأنك افتريته من عند نفسك، وأعانك على هذا الافتراء قوم آخرون...

قل لهم كذبتم أشنع الكذب وأقبحه، فأنتم أول من يعلم بأن هذا القرآن له من الحلاوة والطلاوة، وله من حسن التأثير ما يجعله - باعتراف زعمائكم ليس من كلام البشر وإنما الذى أنزله على هو الله - تعالى - الذى يعلم السر فى السموات والأرض، أى: يعلم ما خفى فيهما ويعلم الأسرار جميعها فضلا عن الظواهر.

قال الآلوسى: «قل» لهم ردا عليهم وتحقيقا للحق.... أنزله الله - تعالى - الذى لا يعزب عن علمه شىء من الأشياء، وأودع فيه فنون الحكم والأسرار

على وجه بديع ، لاتحـــوم حوله الأفهام ، حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته وأخبركم بمغيبات مستقبلة ، وأمور مكنونة،لا يهتدى إليها ولا يوقف إلا بتوفيق الله - تعالى - العليم الخبير عليها . . .»(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بما يفتح باب التوبة للتائبين،وبما يحرضهم على الإيمان والطاعة لله رب العالمين فقال - تعالى - « إنه كان غفورا رحيما » .

أى : إنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة ، لمن ترك الكفر وعاد إلى الإيمان ، وترك العصيان وعاد إلى الطاعة .

قال الإمام ابن كثير : «وقوله : « إنه كان غفورا رحيما » دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم وأن من تاب إليه تاب عليه ، فهؤلاء مع كذبهم ، وافترائهم وفجورهم ، وبهتهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ماقالوا ، يدعوهم - سبحانه - إلى التوبة والإقلاع عماهم عليه من كفر إلى الإسلام والهدى . . .

كما قال - تعالى - « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلا إله هو ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم » . . .

قال الحسن البصرى : أنظروا إلى هذا الكرم والجود . قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة . . .» (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة ثالثة ، تتعلق بشخصية النبى - صلى الله عليه وسلم - حيث أنكروا أن يكون الرسول من البشر ، وأن يكون آكلا للطعام ، وماشيا فى الأسواق ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ٢٣٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٠٢ .

« وَقَالُوا مالِ هذَا الرسُولِ يأ كلُ الطعامَ ويمشِي فى الأسْوَاقِ ، لولاَ أنزلَ إليهِ ملَكٌ فيكونَ مَعَهُ نَذيراً (٧) أو يُلقَى إليهِ كنزٌ أو تكونَ لهُ جنةٌ يأكلُ منها ، وقالَ الظالِمُونَ إنْ تَتبعونَ إلاَّ رجلاً مَسْحوراً (٨) انظُرْ كيفَ ضرَبوا لكَ الأمثالَ فضَلُّوا فلا يَسْتطيعونَ سَبِيلاً (٩) تباركَ الذى إنْ شَاءَ جَعَلَ لكَ خيراً مِنْ ذلكَ جَنَّاتٍ تجرى مِنْ تحتِهَا الأنهارُ وَيجعَل لكَ قُصُوراً (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعةِ وَأعتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بالساعةِ سَعِيراً (١١)».

ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآيات أن جماعة من قريش قالوا للنبى - صلى الله عليه وسلم - إن كنت تريد بما جئت به مالا جمعنا لك المال حتى تكون أغنانا ، وإن كنت تريد ملكا ، جعلناك ملكا علينا . . .

فقال - صلى الله عليه وسلم - ما أريد شيئا مما تقولون ، ولكن الله تعالى بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم . فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم بينى وبينكم .

فقالوا : فإن كنت غير قابل شيئا مما عرضنا عليك ، فسل نفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما نقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا . .

فقال لهم - صلى الله عليه وسلم - : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله تعالى بعثنى بشيرا ونذيرا . فأنزل الله تعالى فى قولهم ذلك . . . »[1] .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ٢٣٧ .

والضمير فى قوله تعالى: «وقالوا» يعود إلى مشركى قريش، و«ما» استفهامية بمعنى إنكار الوقوع ونفيه، وهى مبتدأ، والجار والمجرور بعدها الخبر، وجملة «يأكل الطعام» حال من الرسول.

أى: أن مشركى قريش لم يكتفوا بقولهم إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - قد افترى القرآن، وأن القرآن أساطير الأولين ... بل أضافوا إلى ذلك أنهم قالوا على سبيل السخرية والتهكم والإنكار لرسالته: كيف يكون محمد - صلى الله عليه وسلم - رسولا، وشأنه الذى نشاهده بأعيننا، أنه «يأكل الطعام» كما يأكل سائر الناس «ويمشى فى الأسواق» أى: ويتردد فيها كما نتردد طلبا للرزق.

«لولا أنزل إليه ملك» أى: هلا أنزل إليه ملك يعضده ويساعده ويشهد له بالرسالة «فيكون» هذا الملك «معه نذيرا» أى: منذرا من يخالفه بسوء المصير.

«أو يلقى إليه» أى: إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - «كنز» أى: مال عظيم يغنيه عن التماس الرزق بالأسواق كسائر الناس. وأصل الكنز، جعل المال بعضه على بعض وحفظه. من كنز التمر فى الوعاء، إذا حفظه.

«أو تكون له» - صلى الله عليه وسلم - «جنة يأكل منها» أى: حديقة مليئة بالأشجار المثمرة، لكى يأكل منها ونأكل معه من خيرها.

«وقال الظالمون» فضلا عن كل ذلك «إن تتبعون» أى: ما تتبعون «إلا رجلا مسحورا» أى: مغلوبا على عقله، ومصابا بمرض قد أثر فى تصرفاته.

فأنت ترى أن هؤلاء الظالمين قد اشتمل قولهم الذى حكاه القرآن عنهم - على ست قبائح، قصدهم من التفوه بها صرف الناس عن اتباعه - صلى الله عليه وسلم ..

قال صاحب الكشاف عند تفسير لهذه الآيات: «أى، إن صح أنه رسول

الله فما باله حاله كحالنا « يأكل الطعام» كما نأكل ويتردد فى الأسواق لطلب المعاش كما نتردد . يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش . ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا ، إلى اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك ، حتى يتساندا فى الإنذار والتخويف . ثم نزلوا - أيضا - فقالوا : وإن لم يكن مرفودا بملك. فليكن مرفودا بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش . ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ويرتزق . . . وأراد بالظالمين : إياهم بأعيانهم . وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا . . . »(١) .

وقد رد الله - تعالى - على مقترحاتهم الفاسدة، بالتهوين من شأنهم، وبالتعجيب من تفاهة تفكيرهم ، وبالتسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم فقال : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا» .

أى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء الظالمين ، وتعجب من تعنتهم ، وضحالة عقولهم ، وسوء أقاويلهم ، حيث وصفوك تارة بالسحر ، وتارة بالشعر ، وتارة بالكهانة . وقد ضلوا عن الطريق المستقيم فى كل ما وصفوك به ، وبقوا متحيرين فى باطلهم ، دون أن يستطيعوا الوصول إلى السبيل الحق . وإلى الصراط المستقيم .

فالآية الكريمة تعجيب من شأنهم ، واستعظام لما نطقوا به، وحكم عليهم بالخيبة والضلال ، وتسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما قالوه فى شأنه.

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية ، تسلية أخرى لرسوله - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا » .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٦٥ .

أى : جل شأن الله تعالى ، وتكاثرت خيراته ، فهو - سبحانه - الذى - إن شاء - جعل لك فى هذه الدنيا - أيها الرسول الكريم - خيرا من ذلك الذى اقترحوه من الكنوز والبساتين ، بأن يهبك جنات عظيمة تجرى من تحت أشجارها الأنهار ، ويهبك قصورا فخمة ضخمة .

ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأن ما ادخره لك من عطاء كريم خير وأبقى .

فقوله - تعالى - : « إن شاء » كلام معترض لتقييد عطاء الدنيا ، أى : إن شاء أعطاك فى الدنيا أكثر مما اقترحوه ، أما عطاء الآخرة فهو محقق ولا قيد عليه .

وقوله - سبحانه - : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » تفسير لقوله « خيرا من ذلك » ، فهو بدل أو عطف بيان .

ثم انتقل - سبحانه - من الحديث عن قبائحهم المتعلقة بوحدانية الله تعالى ، وبشخصية رسوله - صلى الله عليه وسلم ، إلى الحديث عن رذيلة أخرى من رذائلهم المتكاثرة ، ألا وهى إنكارهم للبعث والحساب ، فقال - تعالى - : « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا » .

أى : إن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا باتخاذ آلهة من دون الله - تعالى - ، ولم يكتفوا بالسخرية من رسوله - صلى الله عليه وسلم - بل أضافوا إلى ذلك أنهم كذبوا بيوم القيامة وما فيه من بعث وحشر وثواب وعقاب ،

والحال أننا بقدرتنا وإرادتنا قد أعددنا وهيأنا لمن كذب بهذا اليوم سعيرا . أى : نارا عظيمة شديدة الاشتعال .

وقال - سبحانه - « وأعتدنا لمن كذب بالساعة » ولم يقل : لمن كذب بها . للمبالغة فى التشنيع عليهم ، والزجر لهم ، إذ أن التكذيب بها كفر يستحق صاحبه الخلود فى النار المستمرة .

ثم صور - سبحانه - حالهم عندما يعرضون على النار، وهلعهم عندما يلقون فيها، كما بين - سبحانه - حال المتقين وما أعد لهم من نعيم مقيم، فقال - تعالى - :

« إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً (١٦) ».

وقوله تعالى: «إذا رأتهم ...» الضمير فيه يعود إلى سعيرا، والتغيظ في الأصل: إظهار الغيظ، وهو شدة الغضب الكامن في القلب.

والزفير: ترديد النفس من شدة الغم والتعب حتى تنتفخ منه الضلوع، فإذا ما اشتد كان له صوت مسموع.

والمعنى: أن هؤلاء الكافرين الذين كذبوا بالساعة، قد أعتدنا لهم بسبب هذا التكذيب نارا مستعرة. إذا رأتهم هذه النار من مكان بعيد عنها، سمعوا لها غليانا كصوت من اشتد غضبه، وسمعوا لها زفيرا، أي: صوتا مترددا كأنها تناديهم به.

فالآية الكريمة تصور غيظ النار من هؤلاء المكذبين تصويرا مرعبا، يزلزل النفوس ويخيف القلوب.

والتعبير بقوله - تعالى - : «من بعيد» يزيد هذه الصورة رعبا وخوفا، لأنها لم تنتظرهم حتى إلى أن يصلوا إليها، بل هي بمجرد أن تراهم من مكان بعيد - والعياذ بالله - يسمعون تغيظها وزفيرها وغضبها عليهم، وفرحها بإلقائهم فيها.

قال الآلوسى : « وإسناد الرؤية إليها حقيقة على ما هو الظاهر ، وكذا نسبة التغيظ والزفير فيما بعد . إذ لا امتناع فى أن يخلق الله تعالى النار حية مغتاظة زافرة على الكفار ، فلا حاجة إلى تأويل الظواهر الدالة على أن لها إدراكا كهذه الآية ، وكقوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » . وقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى شكت النار إلى ربها فقالت : رب أكل بعضى بعضا ، فأذن لها بنفسين : نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف .....(١) .

ثم حكى - سبحانه - حالهم عندما يستقرون فيها فقال : « وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا » .

أى : أن النار إذا رأت هؤلاء المجرمين سمعوا لها ما يزعجهم ويفزعهم ، « وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا » أى : وإذا ما طرحوا فيها فى مكان ضيق منها ، حالة كونهم « مقرنين » أى : مقيدين بالأغلال بعضهم مع بعض أو مع الشياطين الذين أضلوهم .

« دعوا هنالك » أى ، تنادوا هنالك فى ذلك المكان بقولهم « ثبورا » أى : هلاكا وخسرانا يقال فلان ثبره الله - تعالى - ، أى : أهلكه هلاكا لا قيام له منه .

أى : يقولون عندما يلقون فيها ، يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك ، فإنك رحمة بنا مما نحن فيه .

ووصف - سبحانه - المكان الذى يلقون فيه بالضيق ، للإشارة إلى زيادة كربهم ، فإن ضيق المكان يعجزهم عن التفلت والتململ .

وهنا يسمعون من يقول لهم على سبيل الزجر والسخرية المريرة ، « لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ٢٤٧ .

أي : اتركوا اليوم طلب الهلاك الواحد . واطلبوا هلاكا كثيرا لا غاية لكثرته ، ولا منتهى لنهايته .

قال صاحب الكشاف : « قوله : « وادعوا ثبورا كثيرا » أي : أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا ، وإنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته ، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، فلا غاية لهلاكهم »(١) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبين لهم ما أعده - سبحانه - لعباده المتقين ، فقال : « قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا . لهم فيها مايشاءون خالدين . كان على ربك وعدا مسئولا » .

واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى ماذكر من العذاب المهين لهم والاستفهام للتقريع والتهكم .

والعائد إلى الموصول محذوف أي : وعدها الله للمتقين ، وإضافته الجنة إلى الخلد للمدح وزيادة السرور للذين وعدهم الله - تعالى - بها .

أي : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين ، أذلك العذاب المهين الذي أعد لكم خير ، أم جنة الخلد التي وعدها الله - تعالى - للمتقين ، والتي « كانت لهم » بفضل الله وكرمه « جزاء » على أعمالهم الصالحة « ومصيرا » طيبا يصيرون إليه .

« لهم فيها » أي : في تلك الجنة « ما يشاءون » أي : مايشاءونه من خيرات وملذات حالة كونهم « خالدين » فيها خلودا أبديا .

« كان على ربك وعدا مسئولا » أي : كان ذلك العطاء الكريم الذي تفضلنا به على عبادنا المتقين ووعدناهم به ، من حقهم أن يسألونا تحقيقه لعظمه

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٢٦٧ .

وسمو منزلته، كما قال - تعالى - حكاية عنهم فى آية أخرى «ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة. إنك لا تخلف الميعاد».

وعلى هذا المعنى يكون قوله «مسئولا» بمعنى جديراً أن يسأل عنه المؤمنون لعظم شأنه.

ويجوز أن يكون السائلون عندهم الملائكة، لما فى قوله - تعالى -: «ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ...».

ويرى بعضهم أن المعنى: كان ذلك العطاء للمؤمنين وعدا منا لهم، ونحن بفضلنا وكرمنا سننفذ هذا الوعد، قال - تعالى - «وعد الله لا يخلف الله وعده ...».

هذا، وقد تكلم العلماء هنا عن المراد بلفظ «خير» فى قوله - تعالى - «قل أذلك خير أم جنة الخلد»، وقالوا: إن هذا اللفظ صيغة تفضيل، والمفضل عليه هنا وهو العذاب لا خير فيه ألبتة، فكيف عبر - سبحانه - بلفظ خير؟

وقد أجابوا عن ذلك بأن المفاضلة هنا غير مقصودة، وإنما المقصود هو التهكم بهؤلاء الكافرين الذين آثروا الضلالة على الهداية، واستحبوا الكفر على الإيمان.

قال أبو حيان - رحمه الله -: «خير» هنا ليس تدل على الأفضلية، بل هى على ما جرت به عادة العرب فى بيان فضل الشيء، وخصوصيته بالفضل دون مقابلة. كقوله: فشركما لخيركما الفداء. وكقول العرب: الشقاء أحب إليك أم السعادة وكقوله - تعالى - حكاية عن يوسف - عليه السلام -: «رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه»(1).

---

(1) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٦ ص ٤٨٥.

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن حالهم عند ما يعرضون هم وآلهتهم للحشر والحساب يوم القيامة . وقد وقفوا جميعا أمام ربهم للسؤال والجواب ، قال - تعالى - .

« يومَ يحشرُهُمْ وما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، فيقولُ : أأنتُم أضلَلتُم عِبادِي هؤلاءِ أمْ هُمْ ضلُّوا السَّبيلَ (١٧) قالُوا سُبْحَانك ما كانَ يَنْبغي لنَا أنْ نتَّخِذَ من دونِكَ مِنْ أوْلياءَ ولكنْ متَّعْتَهُم وآباءَهُمْ حتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانوا قوْماً بوراً (١٨) فَقَدْ كذبوكُم بِما تقولونَ فما تستطِيعُونَ صَرْفاً ولا نصراً ومَنْ يظلِمْ منْكُمْ نُذِقْهُ عذاباً كبيراً (١٩) » .

وقوله - تعالى - : « ويوم » منصوب على المفعولية بفعل مقدر، والمقصود من ذكر اليوم : تذكيرهم بما سيحدث فيه من أهوال حتى يعتبروا ويتعظوا. والضمير فى « يحشرهم » للكافرين الذين عبدوا غير الله - تعالى - .

وقوله : « ومايعبدون من دون الله » معطوف على مفعول « نحشرهم » والمراد بهؤلاء الذين عبدوهم من دون الله : الملائكة وعزير وعيسى وغيرهم من كل معبود سوى الله - تعالى - .

والمعنى: واذكر لهم - أيها الرسول الكريم - حالهم - لعلهم أن يعتبروا - يوم نحشرهم جميعا للحساب والجزاء يوم القيامة ، ونحشر ونجمع معهم جميع الذين كانوا يعبدونهم غيرى .

ثم نوجه كلامنا لهؤلاء المعبودين من دونى فأقول لهم : أأنتم - أيها المعبودون - كنتم السبب فى ضلال عبادى عن إخلاص العبادة لى ، بسبب إغرائكم لهم بذلك أم هم الذين من تلقاء أنفسهم قد ضلوا السبيل ، بسبب إيثارهم الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان ؟

والسؤال للمعبودين إنما هو من باب التقريع للعابدين ، وإلزامهم الحجة وزيادة حسرتهم ، وتبرئة ساحة المعبودين .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ « وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك »

وقوله ـ عز وجل ـ : « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة ، أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون .

قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ... »

قال الإمام الرازى ماملخصه : « فإن قيل : أنه ـ سبحانه ـ عالم فى الأزل بحال المسئول عنه فما فائدة السؤال ؟

والجواب : هذا استفهام على سبيل التقريع للمشركين . كما قال ـ سبحانه ـ لعيسى : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله .. ، ولأن أولئك المعبودين لما برءوا أنفسهم وأحالوا ذلك الضلال عليهم ، صار تبرؤ المعبودين عنهم أشد فى حسرتهم وحيرتهم »[1] .

وقال ـ سبحانه ـ « أم هم ضلوا السبيل » ولم يقل . ضلوا عن السبيل ، للاشعار بأنهم قد بلغوا فى الضلال أقصاه ومنتهاه .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما أجاب به المعبودون فقال : « قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » .

أى : قال المعبودون لخالقهم ـ عز وجل ـ : « سبحانك » أى : ننزهك تنزيها تاما عن الشركاء وعن كل مالا يليق بجلالك وعظمتك ، وليس للخلائق جميعا أن يعبدوا أحداً سواك . ولا يليق بنا نحن أوهم أن نعبد غيرك وأنت يامولانا الذى أسبغت عليهم وعلى آبائهم الكثير من نعمك ، « حتى نسوا الذكر » أى : حتى تركوا ما أنزلته عليهم على ألسنة رسلك ، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لاشريك لك « وكانوا » بسبب ذلك « قوما بورا » أى : هلكى ، جمع بائر من البوار وهو الهلاك .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج٦ ص ٣٢٥ .

قال القرطبي: «قوله: «بورا» أي: هلكى قاله ابن عباس . . . وقال الحسن «بورا» أي: لا خير فيهم. مأخوذ من بوار الأرض، وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير. وقال شهر بن حوشب: البوار: الفساد والكساد، من قولهم: بارت السلعة إذا كسدت كساد الفساد . . . وهو إسم مصدر يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث»(١).

وهكذا، يتبرأ المعبودون من ضلال عابديهم، ويوبخونهم على جحودهم لنعم الله - تعالى - وعلى عبادتهم لغيره. ويعترفون لخالقهم - عز وجل - بأنه لا معبود بحق سواه.

وهنا يوجه - سبحانه - خطابه إلى هؤلاء العابدين الجهلاء الكاذبين فيقول: «فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا . . .»

أى: قال الله - تعالى - لهؤلاء الكافرين على سبيل التقريع والتبكيت والآن لقد رأيتم تكذيب من عبدتموهم لكم، وقد حق عليكم العذاب بسبب كفركم وكذبكم، وصرتم لا تملكون له «صرفا» أي: دفعا بأية صورة من الصور. وأصل الصرف: نشئ من حالة إلى حالة أخرى. ولا تملكون له - أيضا «نصرا» أي: فردا من أفراد النصر لامن جهة أنفسكم ولامن جهة غيركم، بل لقد حل بكم العذاب حلولا لا فكاك لكم منه بأى وسيلة من الوسائل.

«ومن يظلم منكم» أي: ومن يكفر بالله - تعالى - منكم أيها المكلفون بالإيمان «نذقه عذابا كبيرا» لا يقادر قدره في الخزى والهوان.

قال صاحب الكشاف: «هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام - في قوله: فقد كذبوكم - حسنة رائعة وخاصة إذا إنضم إليها الالتفات وحذف القول ونحوها قوله - تعالى - «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير

(١) تفسير القرطبي جـ ١٣ ص ١١

ونذير . . . ، وقول القائل : قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا . ثم القفول فقد جئنا خراسانا ،(١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت الحجة على الكافرين بطريقة تخرس ألسنتهم ، وتجعلهم أهلا لكل مايقع عليهم من عذاب أليم .

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإلى الرد على شبهات أعدائه فتقول :

« وما أَرْسَلْنَا قبلَكَ من المرسَلِينَ إلاَّ أَنَّهم ليأْكلُونَ الطعامَ ويمشُون في الأسْواقِ وجَعَلْنَا بعضَكُم لبَعضٍ فِتْنَةً ، أَتَصبِرُونَ ؟ وكانَ ربُّكَ بَصِيراً (٢٠) » .

أى : وما أرسلنا قبلك - أيها الرسول الكريم - أحدا من رسلنا ، إلا وحالهم وشأنهم أنهم يأكلون الطعام الذى يأكله غيرهم من البشر . ويمشون فى الأسواق كما يمشى غيرهم من الناس ، طلبا للرزق .

وإذاً فقول المشركين فى شأنك « مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » قول يدل على جهالاتهم وسوء نياتهم فلا تتأثر به ، ولاتلتفت إليه ، فأنت على الحق وهم على الباطل .

وقوله - تعالى - : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » بيان لسنة من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، اقتضتها حكمته ومشيئته .

أى : إختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض ، ليظهر قوى الإيمان من ضعيفه ، إذ أن قوى الإيمان لتصديقه بقضاء الله وقدره يثبت على الحق ويلتزم بما أمره الله - تعالى - به ، أما ضعيف الإيمان فإنه يحسد غيره على

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٧١ .

ما آتاه الله - تعالى - من فضله . كما حسد المشركون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على منصب النبوة الذى أعطاه الله - تعالى - إياه . وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم».

قال القرطبى : «قوله - تعالى - : «وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون» أى : أن الدنيا دار بلاء وامتحان ، فأراد - سبحانه - أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم فى جميع الناس ، فالصحيح فتنة للمريض . والغنى فتنة للفقير . . . ومعنى هذا ، أن كل واحد مختبر بصاحبه ، فالغنى ممتحن بالفقير ، فعليه أن يواسيه ولا يسخر منه ، والفقير ممتحن بالغنى فعليه أن لا يحسده ، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق . . والرسول المخصوص بكرامة النبوة ، فتنة لأشراف الناس من الكفار فى عصره . . . فالفتنة : أن يحسد المبتلى المعافى . والصبر : أن يحبس كلاهما نفسه ، هذا عن البطر وذاك عن الضجر . . »(١) .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : «أتصبرون» للتقرير . أى : أتصبرون على هذا الابتلاء والاختبار فتنالوا من الله - تعالى - الأجر ، أم لا تصبرون فيزداد همكم وغمكم ؟

ويصح أن يكون الاستفهام بمعنى الأمر . أى : أصبروا على هذا الابتلاء كما فى قوله - تعالى - : «وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم . . . »أى : أسلموا . . وكما فى قوله - سبحانه - : «فهل أنتم منتهون» أى : إنتهوا عن الخمر والميسر.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله «وكان ربك بصيرا» أى : وكان ربك - أيها الرسول الكريم - بصيرا بأحوال النفوس الظاهرة والخفية ، وبتقلبات القلوب وخلجاتها . فاصبر على أذى قومك ، فإن العاقبة لك ولأتباعك المؤمنين.

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٨ .

فهذا التذييل فيه ما فيه من التسلية والتثبيت لفؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - .

ثم حكت السورة للمرة الرابعة تطاول المشركين وجهالاتهم ، وردت عليهم بما يخزيهم ، وبينت ما أعد لهم من عذاب فى يوم لا ينفعهم فيه الندم. قال - تعالى - :

« وقالَ الذينَ لا يَرْجُونَ لقاءنَا لوْلاَ أُنزِلَ علينا الملائكةُ أو نَرى رَبَّنَا ، لقد استكبَرُوا فى أنفُسِهم وعتَوْا عُتُوًّا كبيراً (٢١) يَوْمَ يرَوْنَ الملائكةَ لا بُشْرَى يومئذٍ للمُجرمينَ ويقولُونَ حِجراً مَحجُوراً (٢٢) وقَدِمْنَا إلى ما عَمِلوا مِنْ عمَلٍ فجعَلْناهُ هباءً منثُوراً (٢٣) أصحابُ الجَنَّةِ يومئذٍ خيرٌ مُسْتَقراً وأحسنُ مقيلاً (٢٤) ويومَ تشقَّقُ السَّماءُ بالغَمامِ ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلاً (٢٥) المُلْكُ يومئذٍ الحقُّ للرَّحمَنِ وكانَ يوماً عَلَى الكافرينَ عسيراً (٢٦) ويَوْمَ يعَضُّ الظالِمُ عَلَى يَديهِ يقولُ يا ليتنِي اتخَذْتُ معَ الرسُولِ سبيلاً (٢٧) يا وَيلَتَى ليْتنِي لَمْ اتَّخِذْ فُلاناً خَليلاً (٢٨) لقَدْ أضَلَّنِي عَنِ الذكْرِ بَعْدَ إذْ جاءنِي ، وكانَ الشيطانُ للإنسانِ خذُولاً (٢٩) » .

قال الفخر الرازى « إعلم أن قوله - تعالى - : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا » هو الشبهة الرابعة من لمنكرى نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - حاصلها : لماذا لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمدا محق فى دعواه ، أو نرى ربنا حتى يخبرنا بأنه أرسله إلينا ... »(١) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٤٢٨

والرجاء الأمل والتوقع لما فيه خير ونفع. وفسره بعضهم بمجرد التوقع الذى يشمل ما يسر وما يسوء وفسره بعضهم هنا بأن المراد به : الخوف .

والمراد بلقائه - سبحانه - الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء .

وقال الكافرون الذين لا أمل عندهم فى لقائنا يوم القيامة للحساب والجزاء لأنهم ينكرون ذلك، ولا يبالون به، ويخافون أهواله .

وقالوا - على سبيل التعنت والعناد - هلا أنزل علينا الملائكة لكى يخبرونا بصدق محمد - صلى الله عليه وسلم - أو هلا نرى ربنا جهرة ومعاينة ليقول لنا إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - رسول من عندى !

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « أو تأتى بالله والملائكة قبيلا »[1] أى : ليشهد ويصدقك . وقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله : « لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » .

والعتو : تجاوز الحد فى الظلم والعدوان . يقال عتا فلان يعتو عتوا ، إذا تجاوز حده فى الطغيان .

أى : والله لقد أضمر هؤلاء الكافرون الاستكبار عن الحق فى أنفسهم المغرورة وتجاوزوا كل حد فى الطغيان تجاوزا كبيرا، حيث طلبوا مطالب هى أبعد من أن ينالوها بعد الأرض عن السماء . وصدق الله إذ يقول : « إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه . . . »[2] .

ووصف - سبحانه - عتوهم بالكبر للدلالة على إفراطهم فيه ، وأنهم قد وصلوا فى عتوهم إلى الغاية القصوى منه .

ثم بين - سبحانه - الحالة التى يرون فيها الملائكة فقال : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين . . . »

(١) سورة الاسراء الآية ٩٢

(٢) سورة غافر الآية ٥٦

أي : لقد طلب هؤلاء الظالمون نزول الملائكة عليهم ، ورؤيتهم لهم ، ونحن سنجيبهم إلى ما طلبوه ولكن بصورة أخرى تختلف إختلافا كليا عما يتوقعونه ، إننا سنريهم الملائكة عند قبض أرواحهم وعند الحساب بصورة تجعل هؤلاء الكافرين يفزعون ويهلعون . بصورة لاتبشرهم بخير ولا تسرهم رؤيتهم معها ، بل تسوءهم وتحزنهم ، كما قال - تعالى - « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم[1] » وكما قال - سبحانه - : « فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم[2] ».

فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الإستئناف ، لبيان حالهم الشنيعة عندما تنزل عليهم الملائكة ، بعد بيان تجاوزهم الحد فى الطغيان وفى طلب ماليس من حقهم .

والمراد بالملائكة هنا : ملائكة العذاب الذين يقبضون أرواحهم ، والذين يقودونهم إلى النار يوم القيامة .

وقال - سبحانه - : « يوم يرون الملائكة . . . » ولم يقل : يوم نزل الملائكة ، للايذان من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على الطريقة التى طلبوها ، بل على وجه آخر فيه مافيه من العذاب المهين لهؤلاء الكافرين .

وجاء نفى البشرى لهم بلا النافية للجنس للمبالغة فى نفى أى بارقة تجعلهم يأملون فى أن ما نزل بهم من سوء ، قد يتزحزح عنهم فى الحال أو الاستقبال

قال الجمل فى حاشيته : وقوله : « لا بشرى يومئذ للمجرمين » هذه الجملة معمولة لقول مضمر .

أى : يرون الملائكة يقولون لابشرى . فالقول حال من الملائكة وهو

---

(١) سورة الأنفال الآية ٥٠

(٢) سورة محمد الآية ٢٧

نظير التقدير فى قوله - تعالى - : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم . . » وكل من الظرف والجار والمجرور خبر عن لا النافية للجنس»[١]

وقوله - تعالى - : « ويقولون حجرا محجورا » تأكيد لما قبله من أنه لاخير لهؤلاء الكافرين من وراء رؤيتهم للملائكة .

والحجر - بكسر الحاء وفتحها - الحرام . وأصله المنع . ومحجورا صفة مؤكدة للمعنى ، كما فى قولهم : موت مائت ، وليل أليل ، وحرام محرم .

قال الآلوسى : « وهى - أى : حجرا محجورا - كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو موتور ، وهجوم نازلة هائلة ، يضعونها موضع الاستعاذة ، حيث يطلبون من الله - تعالى - أن يمنع المكروه فلا يلحقهم ، فكأن المعنى : نسأل الله - تعالى - أن يمنع ذلك منعا ، ويحجره حجرا .

وقال الخليل : كان الرجل يرى الرجل الذى يخاف منه القتل فى الجاهلية فى الأشهر الحرم فيقول : حجرا محجورا . أى : حرام عليك التعرض لى فى هذا الشهر فلا يبدؤ بشر»[٢] .

والقائلون لهذا القول يرى بعضهم أنهم الملائكة ، فيكون المعنى : تقول الملائكة للكفار حجرا محجورا . أى : حراما محرما أن تكون لكم اليوم بشرى . أو أن يغفر الله لكم ، أو أن يدخلكم جنته .

وقد رجح ابن جرير ذلك فقال ما ملخصه : « وإنما إخترنا أن القائلين هم الملائكة من أجل أن الحجر هو الحرام . فمعلوم أن الملائكة هى التى تخبر أهل الكفر ، أن البشرى عليهم حرام . . . »[٣] .

ويبدو لنا أنه لامانع من أن يكون هذا القول من الكفار ، فيكون

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص ٢٥٢

(٢) تفسير الآلوسى جـ١٩ ص ٦

(٣) تفسير ابن جرير جـ١٩ ص٣

المعنى : أن هؤلاء الكفار الذين طلبوا نزول الملائكة عليهم ليشهدوا لهم بصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما يرونهم عند الموت أو عند الحساب يقولون لهم بفزع وهلع : « حجرا محجورا » أي : حرام محرما عليكم أن تنزلوا بنا العذاب ، فنحن لم نرتكب ما نستحق بسببه هذا العذاب المهين ، ولعل مما يشهد لهذا المعنى قوله - تعالى - : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء . بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين »(١) .

وعلى كلا الرأيين فالجملة الكريمة تؤكد سوء عاقبة الكافرين .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك وعيدا آخر لهؤلاء الكافرين فقال : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

والهباء : الشيء الدقيق الذي يخرج من النافذة مع ضوء الشمس شبيها بالغبار .

والمنثور : المتفرق في الجو بحيث لا يتأتى جمعه أو حصره .

أي : وقدمنا وقصدنا وعمدنا - بإرادتنا وحكمتنا إلى ما عمله هؤلاء الكافرون من عمل صالح في الدنيا - كالإحسان إلى الفقراء ، والإنفاق في وجوه الخير - فجعلناه باطلا ضائعا ، ممزقا كل ممزق ، لأنهم فقدوا شرط قبوله عندنا ، وهو إخلاص العبادة لنا .

فقد شبه - سبحانه - أعمالهم الصالحة في الدنيا في عدم انتفاعهم بها يوم القيامة - بالهباء المنثور ، الذي تفرق وتبدد وصار لا يرجى خير من ورائه لحقارته وتفاهته .

ثم بين سبحانه - ما سيكون عليه أصحاب الجنة من نعيم مقيم يوم القيامة فقال : « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا » .

---

(١) سورة النحل الآيتان ٢٨، ٢٩

والمستقر : المكان الذى يستقر فيه الإنسان فى أغلب وقته . والمقيل : المكان الذى يؤوى إليه فى وقت القيلولة للاستراحة من عناء الحر .

أى : «أصحاب الجنة يومئذ» أى : يوم القيامة «خير مستقرا» أى : خير مكانا ومنزلا فى الجنة ، مما كان عليه الكافرون فى الدنيا من متاع زائل، ونعيم حائل ، «وأحسن مقيلا» ، أى : وأحسن راحة وهناء ومأوى، مما فيه الكافرون من عذاب مقيم .

وقد استنبط بعض العلماء . من هذه الآية أن حساب أهل الجنة يسير ، وأنه ينتهى فى وقت قصير ، لا يتجاوز نصف النهار . قالوا : لأن قوله ـ تعالى ـ «وأحسن مقيلا» يدل على أنهم فى وقت القيلولة، يكونون فى راحة ونعيم ، ويشير إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ : «فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا . وينقلب إلى أهله مسرورا» .

وأما أهل النار ـ والعياذ بالله ـ فهم ليسوا كذلك لأن حسابهم غير يسير .

وقد ساق ابن كثير فى هذا المعنى آثارا منها أن سعيد الصواف قال : بلغنى أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأنهم ليقيلون فى رياض الجنة ....»(١) .

ثم وصف ـ سبحانه ـ بعض الأهوال التى تحدث فى هذا اليوم فقال : «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا» .

وقوله «تشقق» أصله تتشقق بمعنى تتفتح . والباء يصح أن تكون بمعنى عن ، وأن تكون للسببية أى : بسبب طلوعه منها ، وأن تكون للحال، أى : ملتبسة بالغمام .

والغمام : إسم جنس جمعى لغمامه . وهى السحاب الأبيض الرقيق . سمى بذلك لأنه يغم ما تحته ، أى : يستره ويخفيه .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١١٣

والمعنى : واذكر ـ أيها العاقل ـ لتعتبر وتتعظ ، أهوال يوم القيامة ، يوم تتفتح السماء وتتشقق بسبب طلوع الغمام منها . ونزول الملائكة منها تنزيلا عجيبا غير معهود .

قال صاحب الكشاف : «ولما كان إنشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذى تشقق به السماء ، كما تقول : شق السنام بالشفرة وإنشق بها ، ونظيره قوله ـ تعالى ـ : « السماء منفطر به » .

فإن قلت : أى فرق بين قولك : إنشقت الأرض بالنبات ، وانشقت عنه ؟ قلت : معنى إنشقت به ، أن الله شقها بطلوعه فانشقت به . ومعنى إنشقت عنه : أن التربة إرتفعت عند طلوعه .

والمعنى : أن السماء تتفتح بغمام يخرج منها ، وفى الغمام الملائكة ينزلون وفى أيديهم صحف أعمال العباد»(١) .

وقوله ـ تعالى ـ : « الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا »

ولفظ « الملك » مبتدأ ، و « يومئذ » ظرف للمبتدأ ، و « الحق » نعت له و « للرحمن » خبره .

أى : الملك الثابت الذى لا يزول ، ولا يشركه فيه أحد للرحمن يومئذ ، وكان هذا اليوم عسيرا على الكافرين ، لشدة الهول والعذاب الذى يقع عليهم فيه .

وخص ـ سبحانه ـ ثبوت الملك له فى هذا اليوم بالذكر ، مع أنه ـ تعالى ـ هو المالك لهذا الكون فى هذا اليوم وفى غيره ، للرد على الكافرين الذين زعموا أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة ، ولبيان أن ملك غيره ـ سبحانه ـ فى الدنيا . إنما هو ملك صورى زائل ، أما الملك الثابت الحقيقى فهو لله الواحد القهار .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٧٥

قال ابن كثير : « وفى الصحيح أن الله يطوى السموات بيمينه ، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول : أنا الملك ، أنا الديان، أين ملوك الأرض أين الجبارون ، أين المتكبرون »(١) .

ثم صور - سبحانه - ماسيكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندامة ، تصويرا بليغا ، مؤثرا فقال : « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى إتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات أن عقبة بن أبى معيط دعا النبى - صلى الله عليه وسلم - لحضور طعام عنده ، فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - لا آكل من طعامك حتى تنطق بالشهادتين . فنطق بهما . فبلغ ذلك صديقه أمية بن خلف أو أخوه أبى بن خلف ، فقال له : يا عقبة بلغنى أنك أسلمت . فقال له : لا ، ولكن قلت ماقلت تطييبا لقلب محمد - صلى الله عليه وسلم - حتى يأكل من طعامى .

فقال له : كلامك على حرام حتى تفعل كذا وكذا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ففعل الشقى ما أمره به صديقه الذى لا يقل شقاوة عنه .

أما عقبة فقد أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بقتله فى غزوة بدر وأما أبى بن خلف فقد طعنه النبى - صلى الله عليه وسلم - فى غزوة أحد طعنة لم يبق بعدها سوى زمن يسير ثم هلك .

وعلى أية حال فإن الآيات وإن كانت قد نزلت فى هذين الشقيين . فإنها تشمل كل من كان على شاكلتهما فى الكفر والعناد ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وعض اليدين كناية عن شدة الحسرة والندامة والغيظ ، لأن النادم ندما شديدا ، يعض يديه . وليس أحد أشد ندما يوم القيامة من الكافرين .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١١٥ .

قال - تعالى - : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب . وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا . »

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء، يوم يعض الظالم على يديه من شدة غيظه وندمه وحسرته .

« يقول » فى هذا اليوم « ياليتنى اتخذت مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - سبيلا » .

أى : ياليتنى سلكت معه طريق الحق التى جاء بها ، واتبعته فى كل ما جاء به من عند ربه .

« يا ويلتا » أى : ثم يقول هذا الظالم يا هلاكى أقبل فهذا أوان إقبالك ، فهذه الكلمة تستعمل عند وقوع داهية دهياء لانجاة منها، وكأن المتحسر ينادى ويلته ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من يفهم نداءه .

« ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » أى : ليتنى لم أتخذ فلانا الذى أضلنى فى الدنيا صديقا وخليلا لى

والمراد بفلان : كل من أضل غيره وصرفه عن طريق الحق ، ويدخل فى ذلك دخولا أوليا أبى بن خلف.

« لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى » أى:والله لقد أضلنى هذا الصديق المشئوم عن الذكر أى : عن الهدى بعد إذ جاءنى به الرسول - صلى الله عليه وسلم ، فالجملة الكريمة تعليل لتمنيه المذكور ، وتوضيح لتعلله .

وأكده بلام القسم ، للمبالغة فى بيان شدة ندمه وحسرته .

والمراد بالذكر هنا: ما يشمل القرآن الكريم، وما يشمل غيره من توجيهات النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى التعبير بقوله : « بعد إذ جاءنى » إشعار بأن هدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد وصل إلى هذا الشقى ، وكان فى إمكانه أن ينتفع به .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله : « وكان الشيطان للإنسان خذولا» أى: وكان الشيطان دائما وأبداً . خذولا للإنسان ، أى : صارفا إياه عن الحق ، محرضا له على الباطل ، فإذا مااحتاج الإنسان إليه خذله وتركه وفرعنه وهو يقول : إنى برىء منك .

يقال : خذل فلان فلانا ، إذ ترك نصرته بعد أن وعده بها .

وهكذا تكون عاقبة الذين يتبعون اصدقاء السوء ، وصدق الله إذيقول: « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين »(١) .

ومن الأحاديث التى وردت فى الأمر باتخاذ الصديق الصالح ،بالنهى عن الصديق الطالح ، مارواه الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « مثل الجليس الصالح وجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإن أن تبتاع منه . وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير ، إما أن يحرق ثوبك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة » .

• • •

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قاله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شأن هؤلاء المشركين ، وما قالوه فى شأن القرآن الكريم ، وما رد به ـ سبحانه ـ عليهم ، فقال ـ تعالى ـ :

«وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٦٧

كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ولا يأتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وأحسنَ تفسيراً (٣٣) الذينَ يُحشَرُونَ عَلَى وجُوهِهِمْ إلَى جهنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) ».

وقوله - سبحانه - : « وقال الرسول ... » معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : « وقال الذين لا يرجون ... »

وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام قبح ماقالوه ولبيان مايحل بهم بسببه من عذاب

أى : « وقال الرسول » محمد - صلى الله عليه وسلم - متضرعا وشاكيا لربه « يارب إن قومى » الذين أرسلتنى إليهم قد « اتخذوا هذا القرآن » المشتمل على مايهديهم إلى الرشد وعلى مايسعدهم فى دنياهم وآخرتهم ، قد اتخذوه « مهجورا » أى : متروكا ، فقد تركوا تصديقه وتركوا العمل به وتركوا التأثر بوعيده ... ومن الهجر - بفتح الهاء - بمعنى الترك أو المعنى: قد اتخذوا هذا القرآن مادة لسخريتهم وتهكمهم ، من الهجر - بضم الهاء - بمعنى الهذيان والقول الباطل ، ومنه قوله - تعالى - : « مستكبرين به سامرا تهجرون ».

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على التخويف العظيم لمن يهجر القرآن الكريم . فلم يحفظه أو لم يحفظ شيئا منه ، ولم يعمل بما فيه من حلال وحرام ، وأوامر ونواه ...

قال بعض العلماء « هجر القرآن أنواع : أحدها : هجر سماعه وقراءته . وثانيها : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه . . وثالثها : هجر تحكيمه والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه . . . ورابعها : هجر تدبره وتفهمه ... . وكل هذا داخل فى هذه الآية ، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض »(١) .

---

(١) تفسير القاسمى ج ١٩ ص ٤٥٧٥ نقلا عن بدائع الفوائد للامام ابن القيم

وقوله - سبحانه - : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين . . . » تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه ، وتصريح بأن ما أصابه قد أصاب الرسل من قبله ، والبلية إذا عمت هانت .

أي : كما جعلنا قومك - أيها الرسول الكريم - يعادونك ويكذبونك ، جعلنا لكل نبي سابق عليك عدوا من المجرمين . فاصبر - أيها الرسول - كما صبر إخوانك السابقون .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون »(١) .

ثم شفع - سبحانه - هذه التسلية بوعد كريم منه - عز وجل - لنبيه - صلى الله عليه وسلم فقال : « وكفى بربك هاديا ونصيراً » .

أي : وكفى ربك - أيها الرسول الكريم - هاديا يهدي عباده إلى ما تقتضيه حكمته ومشيئته ، وكفى به - سبحانه - نصيرا لمن يريد أن ينصره على كل من عاداه

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك - والمرة الخامسة - بعض شبهاتهم وأباطيلهم فقال : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . . . » .

أي : وقال الذين كفروا بالحق الذي جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - : هلا نزل هذا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، دون أن ينزل مفرقا كما نراه ونسمعه .

وقولهم هذا دليل على سوء أدبهم . فقد طلبوا مالا يعنيهم . واقترحوا شيئا لا مدخل لهم فيه . ولا علم عندهم بحكمته ، ولذا رد سبحانه عليهم بقوله : « كذلك لنثبت به فؤادك ، والكاف بمعنى مثل ، والجار والمجرور نعت

(١) سورة الأنعام الآية

لمصدر محذوف مع عامله . وقوله : « لنثبت به فؤادك » تعليل للعامل المحذوف.

فالجملة الكريمة استئناف مسوق للرد عليهم ، ولبيان بعض الحكم في نزول القرآن مفرقا .

وقوله - سبحانه - : « ورتلناه ترتيلا » معطوف على الفعل المحذوف . والتنكير في « ترتيلا » للتفخيم والتعظيم وأصل الترتيل ، عدم التلاصق . يقال ، ثغر مرتل . أي مفلج الأسنان غير متلاصقة .

أي : نزلناه مفرقا ، ورتلناه ترتيلا بديعا ، بأن قرأناه عليك بلسان جبريل شيئا فشيئا ، على تؤدة وتمهل ، وجعلنا بعضه ينزل في إثر بعض.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه ، وقوله « كذلك » جواب لهم ، أي : كذلك أنزلناه مفرقا ، والحكمة فيه : أن تقوى بتفريقه فـــؤادك حتى تعيه وتحفظه . . .

فإن قلت : ذاك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه ، والذي تقدمه هو إنزاله جملة واحدة فكيف فسرته بكذلك أنزلناه مفرقا ؟

قلت : لأن قولهم: لولا أنزل عليه القرآن جملة معناه . لماذا أنزل مفرقا والدليل على فساد هذا الاعتراض أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه . . فكأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملة »(١) .

أي : سر أيها الرسول الكريم في طريقك ، وبلغ ما أنزلناه إليك ، ولا تلتفت إلى مقترحات المشركين وأباطيلهم ، فإنهم لا يأتونك بمثـــل ، أي : بكلام عجيب هو مثل في التهافت والفساد للطعن في نبوتك « إلا جئناك » في مقابلته بالجواب « الحق » الثابت الصادق الذي يزهق باطلهم ، وبما هو أحسن تفسيرا وبيانا من مثلهم وشبهاتهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٢٧٦

والإستثناء مفرغ من عموم الأحوال . أى : ولا يأتوك فى حال من الأحوال بمثل للطعن فى نبوتك ، إلا جئناك وسلحناك بما يزهق أمثالهم وشبههم . فسر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - فإنك على الحق المبين.

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة من أعظم الآيات لتشجيع النبى - صلى الله عليه وسلم - على تبليغ دعوته، بدون اكتراث بما يثيره المشركون حوله من شبهات.

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بسبب أقوالهم الباطلة وأفعالهم القبيحة، فقال - تعالى - : « الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم » أى : يحشرون ماشين على وجوههم ، أو يسحبون عليها إلى جهنم ، بسبب كفرهم وعنادهم .

« أولئك » الذين نفعل بهم ذلك « شر مكانا » أى : منزلا ومكانا ومصيرا لهم هو جهنم وأولئك - أيضا - هم أضل الناس طريقا عن طريق الحق والرشاد ولذا كانت طريقهم لا توصلهم إلا النار وبئس القرار.

قال الإمام ابن كثير : « وفى الصحيح عن أنس : أن رجلا سأل النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : يارسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : إن الذى أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة »(١) .

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الأقوام السابقين الذين كذبوا أنبياءهم ، فكانت عاقبتهم الإهلاك والتدمير فقال - تعالى - :

« ولقدْ آتينا مُوسَى الكتابَ وجَعلْنا معهُ أخاهُ هارونَ وزيراً (٣٥)
فقُلْنا اذهبا إلى القومِ الذينَ كذَّبوا بآياتِنا فدمَّرناهُم تدميرا (٣٦)

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص ١١٨

وقومَ نوحٍ لمَّا كذَّبوا الرسلَ أغرقناهم وجعلناهم للناسِ آيةً وأعتدْنا للظَّالمينَ عذاباً أليماً (٣٧) وعاداً وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ وقروناً بينَ ذلكَ كثيراً(٣٨) وكلاًّ ضربْنا لهُ الأمثالَ وكلاًّ تبَّرْنا تتبيراً(٣٩) ولقد أتَوْا علَى القرْيةِ التي أُمطِرتْ مطرَ السَّوءِ أفلمْ يكُونوا يرونَها ، بل كانوا لايرْجُونَ نُشوراً(٤٠) » .

وقوله - تعالى - « ولقد آتينا موسى الكتاب . . . » كلام مستأنف لزيادة تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولترهيب المشركين وحضهم على الاتعاظ والاعتبار واتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يعرضوا أنفسهم للهلاك والدمار الذى نزل بأمثالهم من السابقين .

أى : وبالله لقد آتينا موسى - عليه السلام - « الكتاب » أى : التوراة لتكون هداية لقومه « وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا » .

أى : وجعلنا معه - بفضلنا وحكمتنا - أخاه هارون لكى يكون عونا له وعضدا فى تبليغ ما أمرناه بتبليغه .

« فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا » والتدمير : أشد الإهلاك .

وأصله كسر الشىء على وجه لا يمكن إصلاحه ، وفى الكلام حذف يعرف من السياق .

والمعنى : فقلنا لهما اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وهم فرعون وقومه ، فذهبا إليهم ودعوهم إلى الإيمان ، فأعرضوا عنهما وكذبوهما ، وتمادوا فى طغيانهم ، فكانت عاقبة ذلك أن دمرناهم تدميرا عجيبا ، بأن أغرقهم الله جميعا ، أمام موسى ومن معه .

فقوله - تعالى - (فدمرناهم ..) معطوف على مقدر ، أي : فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم تدميرا .

ثم حكى - سبحانه - ماجرى لقوم نوح فقال : « وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم .... » .

والمراد بالرسل : نوح ومن قبله ، أو نوحا وحده ، وعبر عنه بالرسل ، لأن تكذيبهم له يعتبر تكذيبا لجميع الرسل . لأن رسالتهم واحدة في أصولها.
« وجعلناهم للناس آية » أي : بعد أن أغرقناهم بسبب كفرهم ، جعلنا إغراقهم أو قصتهم عبرة وعظة الناس الذين يعتبرون ويتعظون .

والتعبير (بآية) بصيغة التنكير ، يشير إلى عظم هذه الآية وشهرتها ، ولا شك أن الطوفان الذي أغرق الله - تعالى - به قوم نوح من الآيات التي لا تنسى .

وقوله - سبحانه - : « وأعتدنا للظالمين عذابا أليما » بيان لسوء مصير كل ظالم يضع الأمور في غير مواضعها .

أي : وهيأنا وأعددنا للظالمين عذابا أليما موجعا ، بسبب ظلمهم وكفرهم ، وعلى رأس هؤلاء الظالمين قوم نوح . الذين كفروا به وسخروا منه ...
ثم ذكر - سبحانه - بعض من جاء بعد قوم نوح فقال : « وعادا وثمود » أي : ودمرنا وأهلكنا قوم عاد بسبب تكذيبهم لنبيهم هود - عليه السلام - ، كما أهلكنا قوم ثمود بسبب تكذيبهم لنبيهم صالح - عليه السلام - .

وقوله - تعالى - « وأصحاب الرس » معطوف على ماقبله . أي : وأهلكنا أصحاب الرس . كما أهلكنا من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود .

والرس في لغة العرب : البئر التي لم تبن بالحجارة ، وقيل : البئر مطلقا ، ومنه قول الشاعر :

وهم سائرون إلى أرضهم فياليتهم يحفرون الرساسا

أى : فياليتهم يحفرون الآبار .

وللمفسرين فى حقيقة أصحاب الرس أقوال : فمنهم من قال إنهم من بقايا قبيلة ثمود ، بعث الله إليهم نبيا فكذبوه ورسوه فى تلك البئر أى : ألقوا به فيها ، فأهلكهم الله - تعالى - .

وقيل : هم قومه كانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم شعيبا - عليه السلام - فكذبوه فبينما هم حول الرس - أى البئر - فانهارت بهم ، وخسف الله - تعالى - بهم الأرض .

وقيل : الرس بئر بأنطاكية ، قتل أهلها حبيبا النجار وألقوه فيها . . .

واختار ابن جرير - رحمه الله - أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكروا فى سورة البروج .

وقد ذكر بعض المفسرين فى شأنهم روايات ، رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها ونكارتها .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : « وقرونا بين ذلك كثيرا » يعود إلى عاد وثمود وأصحاب الرس والقرون : جمع قرن .

والمراد به هنا : الجيل من الناس الذين اقترنوا فى الوجود فى زمان واحد من الأزمنة .

أى : وأهلكنا قرونا كثيرة بين قوم عاد وثمود وأصحاب الرس . لأن تلك القرون سارت على شاكلة أمثالهم من الكافرين والفاسقين .

وقوله - تعالى - : « وكلا ضربنا له الأمثال . . . » بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - ، حيث إنه - سبحانه - لا يهلك الأمم إلا بعد أن يسوق لها ما يرشدها ، فتأبى إلا السير فى طريق الغى والعصيان . و « كلا » منصوب بفعل

مضمر يدل عليه ما بعده . فإن ضرب المثل فى معنى التذكير والتحذير، والتنوين عوض عن المضاف إليه .

أى : وأنذرنا كل فريق من القـــرون الماضية المكذبة ، وضربنا له الأمثال الحكيمة الكفيلة بإرشاده إلى طريق الحق ، ولكنه استحب العمى على الهدى ، والضلالة على الهداية . فكانت عاقبته ـ كما قال ـ تعالى ـ بعد ذلك « وكلا تبرنا تتبيرا » .

أى : وكل قرن من هؤلاء المكذبين أهلكناه إهلاكا لاقيام له منه، وأصل التتبير : التفتيت . وكل شىء فتته وكسرته فقد تبرته . ومنه التبر لفتات الذهب والفضة .

والمراد به هنا: التمزيق والإهلاك الشديد الذى يستأصل من نزل به .

ثم وبخ ـ سبحانه ـ مشركى مكة على اعتبارهم واتعاظهم بما يرون من آثار فقال ـ تعالى ـ : « ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء، أفلم يكونوا يرونها ؛ بل كانوا لايرجون نشورا » .

والمراد بالقرية هنا : قرية سدوم التى هى أكبر قرى قوم لوط ، والتى جعل الله ـ تعالى ـ عاليها سافلها .

والمراد بما أمطرت به : الحجارة التى أنزلها الله ـ تعالى ـ عليها ، كما قال ـ تعالى ـ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل »(1) .

والسوء ـ بفتح السين وتشديدها ـ مصدر ساءه . أى : فعل به مايكره . والسوء ـ بالضم والتشديد ـ اسم منه .

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : « أفلم يكونوا يرونها » للتقريع والتوبيخ

---

(1) سورة الحجر الآية ٧٤

على عدم الاعتبار بما يرونه من أمور تدعو كل عاقل إلى التدبر والتفكر والاتعاظ .

أى : أقسم لك - أيها الرسول الكريم - أن هؤلاء المشركين الذين اتخذوا القرآن مهجورا ، كانوا وما زالوا يمرون مصبحين وبالليل على قرية قوم لوط ، التى دمرناها تدميرا ، بسبب فسوق أهلها وفجورهم ، وكانوا يرون ما حل بها من خراب . . .

ولكنهم لكفرهم بك وبالبعث والحساب ، لم يتأثروا بما رأوا ، ولم يعتبروا بما شاهدوا ، وسيندمون يوم القيامة على كفرهم ولكن لن ينفعهم الندم .

وصدر - سبحانه - الآية الكريمة بلام القسم وقد ، لتأكيد رؤيتهم لتلك القرية التى أمطرت مطر السوء .

والمراد برؤيتها : رؤية ما حل بها من خراب ودمار ، كما قال - تعالى - : « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون »(١) .

وقوله - سبحانه - « بل كانوا لا يرجون نشورا » بيان للسبب الذى جعلهم لا يعتبرون ولا يتعظون .

أى : أنهم كانوا يرون عاقبة أهل تلك القرية التى جعلنا عاليها سافلها ، ولكن تكذيبهم بالبعث والنشور ، والثواب والعقاب يوم القيامة ، حال بينهم وبين الاعتبار والاتعاظ والإيمان بالحق ، وجعلهم يمرون بما يدعو إلى التدبر والتفكر ، ولكنهم لعدم توقعهم للقاء الله ، ولعدم إيمانهم بالجزاء يوم القيامة قست قلوبهم وانطمست بصائرهم . وصاروا كما قال - تعالى - : « وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »(٢) .

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨
(٢) سورة يوسف الآيتان ١٠٥ ، ١٠٦

وبعد هذا العرض لأحوال بعض الأمم الماضية ، عادت السورة الكريمة إلى بيان ما كان المشركون يقولونه عند رؤيتهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - وإلى بيان سوء عاقبتهم ، وفرط جهالاتهم ، قال - تعالى - :

« وإِذَا رأَوْكَ إنْ يتخِذُونَكَ إلاَّ هُزوا . أَهـذَا الذِى بَعَثَ اللهُ رسُولاً (٤١) إنْ كادَ ليُضِلُّناَ عن آلهَتِناَ لولاَ أنْ صبَرْناَ عليها ، وسوفَ يعلَمونَ حينَ يرَوْنَ العذابَ من أَضَلُّ سبيلاً (٤٢) أَرأَيتَ من اتَّخذ إلههُ هَواه ، أفأَنتَ تـكونُ عليهِ وكيلاً (٤٣) أمْ تحسَبُ أن أكثرَهم يسمَعُونَ أو يعقِلُون ، إنْ هُمْ إلاَّ كالأنعَامِ بلْ هم أَضلُّ سبيلاً (٤٤) » .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : يخبر - تعالى - عن استهزاء المشركين بالرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا رأوه ، كما قال - تعالى - : « وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذي يذكر آلهتكم . . . » يعنونه بالعيب والنقص . . .(١) .

ومن عجب أن هؤلاء المشركين الذين كانوا يستهزئون بالرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد بعثته إليهم ، هم أنفسهم الذين كانوا يلقبونه قبل بعثته بالصادق الأمين ، وما حملهم على هذا الكذب والجحود إلا الحسد والعناد .

وقوله - تعالى - « أهذا الذي بعث الله رسولا » مقول لقول محذوف وعائد الموصول محذوف - أيضا .

أي : كلما وقعت أبصار أعدائك عليك - أيها الرسول الكريم - سخروا منك ، واستنكروا نبوتك ، وقالوا على سبيل الاستبعاد والتهكم : أهذا هو الإنسان الذي بعثه الله - تعالى - ليكون رسولا إلينا .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٢ .

وقولهم هذا الذى حكاه القرآن عنهم، يدل على أنهم بلغوا أقصى دركات الجهالة وسوء الأدب.

ثم يشير القرآن إلى كذبهم فيما قالوه، لأنهم مع إظهارهم للسخرية منه - صلى الله عليه وسلم - كانوا فى واقع أمرهم، وحقيقة حالهم يعترفون له بقوة الحجة، وهذا ماحكاه القرآن عنهم فى قوله: «إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها».

أى: أنهم كانوا يقولون فيما بينهم: إن هذا الرسول كاد أن يصرفنا بقوة حجته عن عبادة آلهتنا لولا أننا قاومنا هذا الشعور، وثبتنا على عبادة أصنامنا.

قال الآلوسى: «قوله: إن كاد ليضلنا عن آلهتنا، أى: ليصرفنا عن عبادتها صرفا كليا بحيث يبعدنا عنها لا عن عبادتها فقط.

«لولا أن صبرنا عليها واستمسكنا بعبادتها. وهذا إعتراف منهم بأنه - صلى الله عليه وسلم - قد بلغ من الاجتهاد فى الدعوة إلى التوحيد... ماشارفوا معه أن يتركوا دينهم لولا فرط جهالاتهم ولجاجهم وغاية عنادهم»(١).

وقوله - تعالى -: «وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا» تهديد لهم على سوء أدبهم، وعلى جحودهم للحق بعد أن تبين لهم.

أى: وسوف يعلم هؤلاء الكافرون حين يرون العذاب ماثلا أمام أعينهم، من أبعد طريقا عن الحق، أهم أم المؤمنون.

فالجملة الكريمة وعيد شديد لهم على استهزائهم، بالرسول الكريم الذى جاءهم ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ثم يهملهم القرآن ويتركهم فى طغيانهم يعمهون، ويلتفت بالخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليسرى عن نفسه، وليسليه عما لحقه منهم،

(١) تفسير الآلوسى ج١٩ ص ٣٢

وليبين له حقيقة حالهم فيقول: «أرأيت من اتخذ إلهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلا ...

والاستفهام فى قوله - سبحانه - «أرأيت» للتعجب من شناعة أحوالهم، ومن قبح تفكيرهم.

والمراد «بهواه» مايستحسنه من تصرفات حتى ولو كانت فى نهاية القبح والسخف.

قال ابن عباس: كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول.

والمعنى: أنظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - فى أحوال هؤلاء الكافرين، فإنك لن ترى جهالة كجهالاتهم. لأنهم إذا حسن لهم هواهم شيئاً اتخذوه إلهاً لهم. مهما كان قبح تصرفهم. وانحطاط تفكيرهم..

فهل مثل هؤلاء يصلحون لأن تهتم بأمرهم، أو تحزن لاستهزائهم؟ كلا إنهم لايصلحون لذلك، وعليك أن تمضى فى طريقك فأنت لاتقدر على حفظهم أو كفالتهم أو هدايتهم، وإنما نحن الذين نقدر على ذلك، وسنتصرف معهم بما تقتضيه حكمتنا ومشيئتنا.

فقوله - تعالى - : «أفأنت تكون عليه وكيلا» استئناف مسوق لاستبعاد كونه - صلى الله عليه وسلم - وكيلا أو حفيظا لهذا الذى اتخذ إلهه هواه.

والاستفهام للنفى والإنكار. أى: إنك - أيها الرسول الكريم - لا قدرة لك على حفظه من الوقوع فى الكفر والضلال.

ثم أضاف - سبحانه - إلى توبيخهم السابق توبيخا أشد وأنكى فقال - تعالى - : «أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ....»

و «أم» هنا المنقطعة، وهى تجمع فى معناها بين الإضراب الانتقالى والاستفهام الإنكارى.

أى : بل أتحسب أن أكثر هؤلاء الكافرين يسمعون ما ترشدهم إليه سماع تدبر وتعقل، أو يعقلون ما تأمرهم به أو تنهاهم عنه بانفتاح بصيرة، وباستعداد لقبول الحق . . .

كلا إنهم ليسوا كذلك ، لاستيلاء الجحود والحسد على قلوبهم .

وقال - سبحانه - « أم تحسب أن أكثرهم . . . » لأن هناك قلة منهم كانت تعرف الحق معرفة حقيقية ، ولكن المكابرة ومتابعة الهوى . . حالت بينها وبين الدخول فيه ، واتباع ما جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله - سبحانه - : « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » ذم لهم على عدم انتفاعهم بالهداية التى أرسلها الله - تعالى - إليهم .

أى : هؤلاء المشركون ليسوا إلا كالأنعام فى عدم الانتفاع بما يقرع قلوبهم وأسماعهم من توجيهات حكيمة . بل هم أضل سبيلا من الأنعام ، لأن الأنعام تنقاد لصاحبها الذى يحسن إليها ، أما هؤلاء فقد قابلوا نعم الله بالكفر والجحود .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر ؟ قلت : كان فيهم من لا يصده عن الإسلام إلا داء واحد ، وهو حب الرياسة ، وكفى به داء عضالا .

فإن قلت : كيف جعلوا أضل من الأنعام ؟ قلت : لأن الأنعام تنقاد لأربابها التى تعلفها وتتعهدها ، وتعرف من يحسن إليها عن يسىء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها ، وتهتدى لمراعيها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم، من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذى أشد المضار والمهالك . . . »(١) .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٨٢ .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصف هؤلاء المستهزئين برسولهم - صلى الله عليه وسلم - بأوصاف تهبط بهم عن درجة الأنعام، وتتوعدهم بما يستحقونه من عذاب مهين.

* * *

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن جانب من الآلاء التي أنعم بها على عباده، فإن من شأن هذه النعم المبثوثة في هذا الكون، أن تهدي المتفكر فيها إلى منشئها وواهبها وإلى وجوب إخلاص العبادة له، قال - تعالى - :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) ».

قال القرطبي : « قوله - تعالى - : « ألم إلى ربك كيف مد الظل . . » يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ، ويجوز أن تكون من العلم .

قال الحسن وقتادة وغيرهما : مد الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وحكى أبو عبيدة عن رؤبة أنه قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء وظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل . . »(1) .

والجملة الكريمة شروع فى بعض دلائل قدرته - سبحانه - وواسع رحمته ، إثر بيان جهالات المشركين ، وغفلتهم عما فى هذا الكون من آثار تدل على وحدانية الله - تعالى - .

والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - والاستفهام للتقرير .

والمعنى : لقد رأيت - أيها الرسول الكريم - بعينيك وتأملت بعقلك وبصيرتك ، فى صنع ربك الذى أحسن كل شىء خلقه ، وكيف أنه - سبحانه - مد الظل ، أى : بسطه وجعله واسعا متحركا مع حركة الأرض فى مواجهة الشمس جعله مكانا يستظل فيه الناس من وهج الشمس وحرها ، فيجدون عنده الراحة بعد التعب . . وهذا من عظيم رحمة ربك بعباده .

وقوله - تعالى - : « ولو شاء لجعله ساكنا » جملة معترضة لبيان مظهر من مظاهر قدرته - تعالى - .

أى : ولو شاء - سبحانه - لجعل هذا الظل « ساكنا » أى : ثابتا دائما مستقرا على حالة واحدة بحيث لا تزيله الشمس ، ولا يذهب عن وجه الأرض ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأن مصلحة خلقه ومنفعتهم فى وجوده على الطريقة التى أوجدناه عليها بمقتضى حكمتنا .

وقوله - سبحانه - : « ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » معطوف على قوله « مد الظل » داخل فى حكمه .

---

(1) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٣٦

أى : ألم تر إلى عجيب صنع ربك كيف مد الظل ، ثم جعلنا بقدرتنا وحكمتنا الشمس دليلا عليه ، إذ هو يزول بتسلطها عليه ويظهر عند احتجابه عنها ، ويستدل بأحوالها على أحواله ، فهو يتبعها كما يتبع الإنسان من يدله على الشىء ، من حيث إنه يزيد كلما احتجب عنها ، ويتقلص كلما ظهرت عليه .

قال الجمل : « قوله : « ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » أى : جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شىء ، لأن الأشياء تعرف بأضدادها ، ولولا الشمس ما عرف الظل ، ولولا النور ما عرفت الظلمة . . ولم يؤنث الدليل - وهو صفة للشمس - لأنه فى معنى الاسم ، كما يقال : الشمس برهان ، والشمس حق »[1] .

وقوله - تعالى - : « ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » معطوف - أيضا - على « مد » وداخل فى حكمه .

والقبض : ضد المد والبسط . واليسير : السهل الذى لا عسر فيه .

أى : ثم قبضنا ذلك الظل الممدود - بقدرتنا وحكمتنا - قبضا يسيرا وهينا علينا ، بأن محونا بالتدريج عند إيقاعنا الشمس عليه ، حتى انتهى أمره إلى الزوال والاضمحلال

وقال - سبحانه - « إلينا » للتنصيص على أن مد الظل وقبضه مرجعه إليه - تعالى - وحده ، فليس فى إمكان أحد سواه - عز وجل - أن يفعل ذلك .

قال صاحب الكشاف : « قوله : « ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » أى : على مهل . وفى هذا القبض اليسير شيئاً بعد شىء من المنافع مالا يعد ولا يحصر . ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا .

فإن قلت : ثم فى هذين الموضعين كيف موقعها ؟ قلت : موقعها لبيان

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص٢٦١ .

تفاضل الأمور الثلاثة : كان الثانى أعظم من الأول ، والثالث أعظم منهما، تشبيها لتباعد ما بينهما فى الفضل ، بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت . . . ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهى الأجرام التى تبقى الظل ، فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه »(١) .

ثم إنتقلت السورة من الحديث عن الظل ومده وقبضه ، إلى الحديث عن الليل والنوم والنهار .

فقال - تعالى - : « وهو الذى جعل لكم الليل لباسا، والنوم سباتا وجعل النهار نشوراً » .

ولباسا : أى : ساتراً بظلامه كما يستر اللباس ما تحته .

والسبات : الانقطاع عن الحركة مع وجود الروح فى البدن، مأخوذ من السبت بمعنى القطع أو الراحة والسكون . ومنه قوله - تعالى - «وجعلنا نومكم سباتا » أى : راحة لأبدانكم .

والنشور : بمعنى الانتشار والحركة لطلب المعاش .

أى : وهو - سبحانه - الذى جعل لكم - أيها الناس - الليل «لباسا» أى : ساترا لكم يستركم كما يستر اللباس عوراتكم ، وجعل لكم النوم «سباتا» أى : راحة لأبدانكم من عناء العمل . وما يصاحبه من مشقة وتعب ، وجعل - سبحانه - النهار « نشورا » أى: وقتا مناسبا لانتشاركم فيه، وللسير فى مناكب الأرض ، طلبا للرزق والكسب ووسائل المعيشة .

وهكذا تتقلب الحياة بالإنسان وهو تارة تحت جنح الليل الساتر، وتارة مستغرق فى نومه ، وتارة يكدح لطلب معاشه .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . . . »

---

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ٢٨٣ .

ثم ذكر - سبحانه - نعمته في الرياح، حيث تكون بشيرا بالأمطار التي تحيي الأرض بعد موتها، فقال - تعالى - : «وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته».

وبشرا : أي : مبشرات بنزول الغيث المستتبع لمنفعة الخلق .

أي : وهو - سبحانه - الذي أرسل - بقدرته - الرياح لتكون بشيرا لعباده بقرب نزول رحمته المتمثلة في الغيث الذي به حياة الناس والأنعام وغيرهما .

قال الجمل : «الرياح» أي: المبشرات وهي الصبا - وتأتي من جهة مطلع الشمس - والجنوب والشمال والدبور - وتأتي من ناحية مغرب الشمس - وفي قراءة سبعية : وهو الذي أرسل الريح على إرادة الجنس ، «وبشرا» قرىء بسكون الشين وضمها وقرىء - أيضا - نشرا ، أي: متفرقة قدام المطر»(١)

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : «وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد» .

ثم ذكر - سبحانه - ما ترتب على إرسال الرياح من خير فقال : «وأنزلنا من السماء ماء طهورا» .

أي : وأنزلنا من السماء ماء طاهرا في ذاته ، مطهرا لغيره ، سائغا في شربه نافعا للإنسان والحيوان والنبات والطيور وغير ذلك من المخلوقات .

ووصف - سبحانه - الماء بالطهور ، زيادة في الإشعار بالنعمة ، وزيادة في إتمام المنة ، فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما ليس كذلك .

وقوله - تعالى - : «لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا» .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٢٦٢ .

أي: أنزلنا من السماء ماء طهورا، لنحيي بهذا الماء بلدة أي: أرضا جدباء لا نبات فيها لعدم نزول المطر عليها، ولكي نسقي بهذا الماء أيضا «أنعاما» أي: إبلا وبقرا وغنما «وأناسي كثيرا» أي: وعددا كثيرا من الناس. فالأناسي: جمع إنسان وأصله أناسين فقلبت نونه ياء وأدغمت فيما قبلها.

وقدم - سبحانه - إحياء الأرض، لأن خروج النبات منها بسبب المطر تتوقف عليه الناس والأنعام وغيرهما.

وخص الأنعام بالذكر، لأن مدار معاشهم عليها، ولذا قدم سقيها على سقيهم.

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟

قلت: لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام..

فإن قلت: فما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة؟

قلت: معنى ذلك أن علية الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء، فبهم غنية عن سقي السماء، وأعقابهم - وهم كثير منهم - لا يعيشهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه..

فإن قلت: لم قدم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟

قلت: لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا لأرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم»[1].

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٨٥

والضمير المنصوب فى قوله ـ تعالى ـ : « ولقد صرفناه بينهم ليذكروا » يعود إلى الماء الطهور الذى سبق الحديث عنه .

والتصريف : التكرير والتنويع والانتقال من حال إلى حال .

أى : ولقد صرفنا هذا المطر النازل من السماء فأنزلناه بين الناس فى البلدان المختلفة ، وفى الأوقات المتفاوتة ، وعلى الصفات المتغايرة ، فنزيده فى بعض البلاد وننقصه فى أخرى ، ونمنعه عن بعض الأماكن . . كل ذلك على حسب حكمتنا ومشيئتنا .

وقد فعلنا ما فعلنا لكى يعتبر الناس ويتعظوا ويخلصوا العبادة لنا .

قال الآلوسى : « قوله : « ولقد صرفناه » الضمير للماء المنزل من السماء ، وتصريفه تحويل أحواله ، وأوقاته وإنزاله على أنحاء مختلفة . . .

وقال بعضهم : هو راجع إلى القول المفهوم من السياق ، وهو ماذكر فيه إنشاء السحاب وإنزال المطر ، وتصريفه : تكريره ، وذكره على وجوه ولغات مختلفة . .

والمعنى : ولقد كررنا هذا القول وذكرناه على أنحاء مختلفة فى القرآن وغيره من الكتب السماوية بين الناس ليتفكروا . . .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى أنه عائد على القرآن . ألا ترى قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : « وجاهدهم به » ، وحكاه فى البحر عن ابن عباس والمشهور عنه ما تقدم ، ولعل المراد ماذكر فيه من الأدلة على كمال قدرته ـ تعالى ـ . . . » [1] .

ويبدو لنا أن أقرب الأقوال إلى الصواب هو القول الأول ، لأن سياق الحديث عن المطر النازل من السماء بقدرة الله ـ تعالى ـ ولأن هذا القول هو

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ٣٢

المأثور عن جمع من الصحابة والتابعين، كابن عباس، وابن مسعود وعكرمة، ومجاهد وقتادة . . . وغيرهم .

وقوله - تعالى - فأبى أكثر الناس إلا كفورا، بيان لموقف أكثر الناس من نعم الله - تعالى - .

أي : أنزلنا المطر، وصرفناه بين الناس ليعتبروا ويتعظوا، فأبى أكثرهم إلا الجحود لنعمنا، ومقابلتها بالكفران، وإسنادها إلى غيرنا ممن لا يخلقون شيء وإنما هم عباد لنا، وخلق من خلقنا .

وفي صحيح مسلم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال يوما لأصحابه بعد نزول المطر من السماء : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال - صلى الله عليه وسلم - : قال ربكم، أصبح من عبادى مؤمن بي وكافر فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب»[1].

- والنوء - بتشديد النون وفتحها وسكون النون سقوط نجم في المغرب مع الفجر، وطلوع آخر يقابله من ساعته بالمشرق .

وقال - سبحانه - : فأبى أكثر الناس . . ، لمدح القلة المؤمنة منهم، وهم الذين قابلوا نعم الله - تعالى - بالشكر والطاعة .

ثم ذكر - سبحانه - ما يدل على رفعة منزلة نبيه صلى الله عليه وسلم - فقال : « ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا » .

أي : ولو شئنا لبعثنا في زمنك - أيها الرسول الكريم - في كل قرية من القرى نذيرا ينذر أهلها بسوء عاقبة الكفر والجحود، ويكون عونا لك على تحمل أعباء الرسالة التي أرسلناك بها . . . ولكنا لم نشأ ذلك تكريما بمالك وتعظيما لقدرك، حيث خصصناك بعموم الرسالة لجميع الناس .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٢٥

وما دام الأمر كذلك ، فلا تطع الكافرين ، فيما يدعونه منك من أمور باطلة فاسدة ، وجاهدهم به ، أى : بهذا القرآن ، عن طريق قراءته والعمل بما فيه ، وبيان ما اشتمل عليه من دلائل وبراهين على صحة دعوتك .

وقوله ـ تعالى ـ : « جهادا كبيرا » مؤكد لما قبله . أى : جاهدهم بالقرآن جهادا كبيرا مصحوبا بالإغلاظ عليهم تارة ، وبإبطال شبهاتهم وأراجيفهم تارة أخرى .

قال ــ تعالى ــ : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته ـ عز وجل ـ .

و « مرج » من المرج بمعنى الإرسال والتخلية ، ومنه قولهم . مرج فلان دابته إذا أرسلها إلى المرج وهو المكان الذى ترعى فيه الدواب ، ويصح أن يكون من المرج بمعنى الخلط ، ومنه قوله ـ تعالى ـ « فهم فى أمر مريج » أى : مختلط . ومنه قيل للمرعى : مرج ، لاختلاط الدواب فيه بعضها ببعض .

والعذب الفرات : هو الماء السائغ للشرب ، الذى يشعر الإنسان عند شربه باللذة وهو ماء الأنهار وسمى فراتا لأنه يفرت العطش ، أى يقطعه ويكسره ويزيله .

والملح الأجاج : هو الشديد الملوحة والمرارة وهو ماء البحار . سمى أجاجا من الأجيج وهو تلهب النار ، لأن شربه يزيد العطش .

والبرزخ . الحاجز الذى يحجز بين الشيئين .

أى : وهو ـ سبحانه ـ الذى أرسل البحرين . العذب والمالح فى مجاريها متجاورين ، كما ترسل الدواب فى المراعى ، أو جعلهما ـ بقدرته ـ فى مجرى

واحد ومع ذلك لا يختلط أحدهما بالآخر : بل جعل - سبحانه - بينهما « برزخا » أي : حاجزا عظيما ، « وحجرا محجورا » .

أي : وجعل كل واحد منهما حراما محرما على الآخر أن يفسده.

والمراد : لزوم كل واحد منهما صفته التي أوجده الله عليها ، فلا ينقلب العذب في مكانه ملحا ، ولا الملح في مكانه عذبا .

قال - تعالى - : « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان »(١).
وقال - سبحانه : « أم من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله . بل أكثرهم لا يعلمون »(٢) .

وهذا الحاجز الذي جعله - سبحانه - بين البحرين : العذب والملح ، من أكبر الأدلة وأعظمها على قدرة الله - تعالى - ، وعلى أن لهذا الكون إلها صانعا حكيما مدبرا وإن كل شيء في هذا الكون يسير بنظام معلوم . وبنسق مرسوم .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله - تعالى - في الظل وفي الرياح وفي الماء . . .

جاء الحديث عن خلق الإنسان . فقال - تعالى - : « وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا . . . »

والمراد بالماء : ماء النطفة ، وبالبشر الإنسان . أو المراد بالماء : الماء المطلق الذي أشار إليه سبحانه في قوله : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .

أي : وهو - سبحانه - الذي خلق من ماء النطفة إنسانا فجعله نسبا وصهرا ، أي : فجعل من جنس هذا الإنسان ذوي نسب : وهم الذكور الذين ينتسب

---

(١) سورة الرحمن الآية ١٩، ٢٠ (٢) سورة النمل الآية ٦١

إليهم بأن يقال فلان بن فلان ، كما جعل من جنسه - أيضا - ذوات صهر وهن الإناث ، لأنهن موضع المصاهرة .

والصهر يطلق على أهل بيت المرأة وأقاربها، كالأبوين والإخوة والأعمام والأخوال ، فهؤلاء يعتبرون أصهار الزوج المرأة.

قال صاحب الكشاف: «قسم - سبحانه - البشر قسمين : ذوى نسب،أى: ذكورا ينسب إليهم فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر : أى : إناثا يصاهر بهن ونحوه قوله - تعالى - : « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » .

« وكان ربك قديرا » حيث خلق - سبحانه - من النطفة الواحدة بشرا نوعين: ذكرا وأنثى»(١).

وإلى هنا نرى هذه الآية الكريمة قد اشتملت على ستة أدلة محسوسة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . وهذه الأدلة الستة هي : الظلال قبضا وبسطا والليل والنهار راحة ونشورا ، والرياح بشرا بين يدى رحمته. والأمطار حياة للناس والأنعام وغيرها ، ومرج البحرين أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج ، وخلق الإنسان من نطفة منها الذكر ومنها الأنثى .

• • •

ثم بينت السورة الكريمة بعد ذلك موقف المشركين من هذه النعم العظيمة كما بينت وظيفة النبى - صلى الله عليه وسلم - وأمرته بالمضى فى دعوته متوكلا على الله - تعالى - وحده الذى خلق فسوى . وقدر فهدى . . . قال - تعالى - :

« ويعبدُونَ من دُونِ اللهِ ما لاَ يَنْفعهمُ ولا يَضُرُّهم وكانَ الكافِرُ

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص٢٨٧

على ربه ظهيراً (٥٥) وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً (٥٦) قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً (٥٧) وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً (٥٨) الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً (٥٩) وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً (٦٠) تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً (٦١) وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً (٦٢) » .

والضمير في قوله ـ تعالى ـ : « ويعبدون ... » يعود على الكافرين ، الذين عموا وصموا عن الحق .

أي : أن هؤلاء الكافرين يتركون عبادة الله ـ تعالى ـ الواحد القهار ، ويعبدون من دونه آلهة لاتنفعهم عبادتها إن عبدوها ، ولا تضرهم شيئا من الضرر إن تركوا عبادتها .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وكان الكافر على ربه ظهيرا » بيان لما وصل إليه هؤلاء الكافرون من حمق وجهالة وجحود . فالمراد بالكافر : جنسه .

والظهير : المعين . يقال: ظاهر فلان فلانا إذا أعانه وساعده . وظهير بمعنى مظاهر .

أي : وكان هؤلاء الكافرون مظاهرين ومعاونين للشيطان وحزبه ، على الإشراك بالله ـ تعالى ـ الذي خلقهم ، وعلى عبادة غيره ـ سبحانه ـ .

ويصح أن يكون الكلام على حذف مضاف . أى : وكان الكافر على حرب دين ربه ، ورسول ربه ، مظاهرا للشيطان على ذلك .

وقال - سبحانه - « على ربه ظهيرا » لتفظيع جريمة هذا الكافر وتبشيعها، حيث صوره - سبحانه - بصورة من يعاون على محاربة خالقه ورازقه ومربيه وواهبه الحياة .

ثم بين - سبحانه - الوظيفة التى من أجلها أرسل رسوله فقال : « وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا » .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلى الناس جميعا ، إلا لتبشرهم بثواب الله - تعالى - ورضوانه إذا أخلصوا له العبادة والطاعة ، ولتنذرهم بعقابه وغضبه، إن هم استمروا على كفرهم وشركهم، فبلغ رسالتنا - أيها الرسول - ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر .

و « قل » لهم على سبيل النصح والإرشاد ودفع التهمة عن نفسك « ما أسألكم عليه من أجر » ، أى : ما أسألكم على هذا التبليغ والتبشير والإنذار من أجر ، إن أجرى إلا على الله - تعالى - وحده .

وقوله - سبحانه - : « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » استثناء منقطع .

أى: لا أسألكم على تبليغى لرسالة ربى أجرا منكم ، لكن من شاء منكم أن يتخذ إلى مرضاة ربه سبيلا ، عن طريق الصدقة والإحسان إلى الغير ، فأنا لا أمنعه من ذلك .

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه » أى : إلى رحمته ورضوانه « سبيلا » أى طريقا . والاستثناء عند الجمهور منقطع أى : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه - سبحانه - سبيلا ، أى : بالإنفاق القائم مقام الأجر ، كالصدقة فى سبيل الله ، فليفعل .

وذهب البعض إلى أنه متصل ، وفى الكلام مضاف مقدر. أى : إلا فعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالإيمان والطاعة حسبما أدعو إليهما أى : فهذ أجرى .

وفى ذلك قلع كلى لشائبة الطمع ، وإظهار لغاية الشفقة عليهم ، حيث جعل ذلك - مع كون نفعه عائدا عليهم - عائدا إليه - صلى الله عليه وسلم - فى صورة الأجر »(١) .

وعلى كلا الرأيين فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يطلب أجرا من الناس على دعوته ، ولا يمنعهم من إنفاق جزء من أموالهم فى وجوه الخير ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - يعتبر إيمانهم بالحق الذى جاء به ، هو بمثابة الأجر له ، حيث إن الدال على الخير كفاعله .

ولقد حكى القرآن الكريم فى كثير من آياته ، أن جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ما سألوا الناس أجرا على دعوتهم إياهم إلى عبادة الله - تعالى - وطاعته ، ومن هذه الآيات قوله - سبحانه - حكاية عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - « وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين »(٢) .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالاجتهاد فى تبليغ رسالته وبالتوكل عليه وحده ، فقال - تعالى - : وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده ... »

أى : سر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - لتبليغ دعوتنا ، ولا تتلفت إلى دنيا الناس وأموالهم . وتوكل توكلا تاما على الله - تعالى - فهو الحى الباقى الذى لا يموت ، أما غيره فإنه ميت وزائل .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٩ ص ٢٧ .
(٢) سورة الشعراء الآية ١٠٩ - ١٣٧

« وسبح بحمده » أي : ونزه ربك عن كل نقص ، وأكثر من التقرب إليه بصالح الأعمال . « وكفى به بذنوب عباده » ما ظهر منها وما بطن ، وما بدا منها وما استتر « خبيرا » أي عليما بها علما تاما . لا يعزب عنه - سبحانه - مثقال ذرة منها .

« الذى خلق » بقدرته التى لا يعجزها شىء « السموات والأرض وما بينهما » من هواء وأجرام لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .

« فى ستة أيام » من أيامه التى لا يعلم مقدار زمانها إلا هو - عز وجل - « ثم استوى على العرش » استواء واستعلاء يليق بذاته ، بلا كيف أو تشبيه أو تمثيل ، كما قال الإمام مالك - رحمه الله - : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

ولفظ « ثم » فى قوله « ثم استوى على العرش » لا يدل على الترتيب الزمنى وإنما يدل على بعد الرتبة . رتبة الاستواء والاستعلاء والتملك .

وقوله : « الرحمن » أى : هو الرحمن . أى صاحب الرحمة العظيمة الدائمة بعباده . والفاء فى قوله - تعالى - : « فاسأل به خبيرا » هى الفصيحة . والجار والمجرور صلة « اسأل » ، وعدى الفعل « اسأل » بالباء لتضمنه معنى الاعتناء. والضمير يعود إلى ماسبق ذكره من صفات الله - تعالى - ، ومن عظيم قدرته ورحمته .

والمعنى : لقد بينا لك مظاهر قدرتنا ووحدانيتنا ، فإن شئت الزيادة فى هذا الشأن أو فى غيره ، فاسأل قاصدا بسؤالك ربك الخبير بأحوال كل شىء خبرة مطلقة ، يستوى معها ما ظهر من أمور الناس وما خفى منها .

قال الإمام ابن جرير : « وقوله - تعالى - : « فاسأل به خبيرا » يقول : فاسأل يا محمد بالرحمن خبيرا بخلقه ، فإنه خالق كل شىء ولا يخفى عليه ما خلق فعن ابن جريج : قوله . « فاسأل به خبيرا » .

قال : يقول - سبحانه - لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - إذا أخبرتك شيئا فاعلم أنه كما أخبرتك فأنا الخبير . والخبير فى قوله « فاسأل به خبيرا » منصوب على الحال من الهاء التى فى قوله « به »(1) .

ثم أخبر - سبحانه - عن جهالات المشركين وسخافاتهم فقال: « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » .

أى : وإذا قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنون معه لهؤلاء المشركين : اجعلوا سجودكم وخضوعكم للرحمن وحده ، « قالوا » على سبيل التجاهل وسوء الأدب والجحود : « وما الرحمن » .

أى : وما الرحمن الذى تأمروننا بالسجود له « أنسجد لما تأمرنا » أى : أنسجد لما تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه ، ومن غير أن نؤمن به .

« وزادهم نفورا » أى : وزادهم الأمر بالسجود نفورا عن الإيمان وعن السجود لله الواحد القهار .

فالآية الكريمة تحكى ماجبل عليه أولئك المشركون من استهتار وتطاول وسوء أدب ، عندما يدعوهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى إخلاص العبادة لله - عز وجل ، وإلى السجود للرحمن الذى تعاظمت رحماته ، وتكاثرت آلاؤه

ولقد بلغ من تطاول بعضهم أنهم كانوا يقولون : مانعرف الرحمن إلا ذاك باليمامة . يعنون به مسيلمة الكذاب .

ثم رد - سبحانه - على تطاولهم وجهلهم ، بما يدل على عظيم قدرته - عز وجل - وعلى جلال شأنه - تعالى - فقال : « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » .

---

(1) تفسير ابن جرير ج ١٩ ص ١٩

والبروج : جمع برج ، وهى فى اللغة : القصور العالية الشاهقة، ويدل لذلك قوله - تعالى - : «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة».

والمراد بها هنا : المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة ، وعددها اثنا عشر منزلا هى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

وسميت بالبروج ، لأنها بالنسبة لهذه الكواكب كالمنازل لساكنيها .

والسراج : الشمس ، كما قال - تعالى - : «ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا» .

أى : جل شأن الله - تعالى - ، وتكاثرت آلاؤه ونعمه ، فهو - سبحانه - الذى جعل فى السماء «بروجا» أى : منازل للكواكب السيارة «وجعل فيها» أى : فى السماء «سراجا» وهو الشمس «وجعل فيها» - أيضا - «قمرا منيرا» أى : قمرا يسطع نوره على الأرض المظلمة ، فيبعث فيها النور الهادىء اللطيف .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة أخرى فتقول : «وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا» .

والخلفة : كل شىء يجىء بعد شىء آخر غيره . ومنه خلفة النبات .

أى : الورق الذى يخرج منه بعد أن تساقط الورق السابق عليه .

أى : وهو - سبحانه - الذى جعل الليل والنهار متعاقبين . بحيث يخلف كل واحد منهما الآخر بنظام دقيق . ليكونا مناسبين «لمن أراد أن يذكر» . أى : يتعظ ويعتبر ويتذكر أن - تعالى - لم يجعلهما على هذه الهيئة

هيئا ، فيتدارك مافاته من تقصير وتفريط فى حقوق الله - عز وجل - «أو أراد شكورا» .

أى : وجعلهما كذلك لمن أراد أن يزداد من شكر الله على نعمه التى لا تحصى ، والتى من أعظمها وجود الليل والنهار على هذه الهيئة الحكيمة ، التى تدل على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وسعة رحمته .

• • •

وبعد هذا الحديث المتنوع عن شبهات المشركين والرد عليها ، وعن مظاهر قدرة الله ونعمه على عباده ، وعن الذين إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن . . .

بعد كل ذلك جاء الحديث عن عباد الرحمن ، أصحاب المناقب الحميدة ، والصفات الكريمة ، والمزايا التى جعلتهم يتشرفون بالانتساب إلى خالقهم . جاء قوله - تعالى - :

« وعِبـادُ الرحمنِ الذينَ يمشُونَ على الأرضِ هوْنًا ، وإذَا خاطَبَهم الجاهِلُون قالُوا سلاَمًا (٦٣) والذينَ يَبِيتُونَ لربِّهم سجَّدًا وقِيامًا (٦٤) والذينَ يقولُوا ربَّنَا اصْرِفْ عنَّا عذابَ جهنَّم إن عذابَها كانَ غرامًا(٦٥) إنَّها ساءتْ مُستقرًا ومُقـامًا (٦٦) والذينَ إذَا أنفَقُوا لم يُسرِفوا ولم يَقتُروا وكانَ بينَ ذلِكَ قوامًا (٦٧) والذينَ لا يَدْعونَ مع اللهِ إلهًا آخرَ ولاَ يقتلُونَ النَّفسَ التى حرَّم اللهُ إلاَّ بالحقِّ ولا يزْنُونَ ، ومَنْ يفعَلْ ذلِكَ يلقَ أثامًا (٦٨) يُضاعفْ لهُ العـذابُ يومَ القيامةِ ويخلُدْ فيهِ

مُهاناً (٦٩) إلاَّ من تابَ وآمنَ وعملَ عملاً صالحاً ، فأولئكَ يُبدِّل اللهُ سيئاتِهم حسناتٍ ، وكانَ اللهُ غفورًا رحيماً (٧٠) ومَنْ تابَ وعملَ صالحاً فإنَّه يتوبُ إلَى اللهِ متاباً (٧١) والذينَ لا يشهدُونَ الزُّورَ وإذَا مَرُّوا باللَّغوِ مرُّوا كِراماً (٧٢) والذينَ إذَا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً (٧٣) والذينَ يقولُونَ ربَّنا هَبْ لنا من أزواجِنا وذُرِّياتِنا قُرةَ أعْيُنٍ واجعَلْنا للمتقِينَ إماماً (٧٤) أولئكَ يُجزَونَ الغرفَةَ بما صبرُوا ويُلقَّونَ فيها تحيةً وسلاماً (٧٥) خالدينَ فيها حسنَتْ مستقرًا ومُقاماً (٧٦) » .

هؤلاء هم عباد الرحمن ، وتلك هى صفاتهم التى ميزتهم عن سواهم .

وقد افتتحت هذه الآيات بقوله ـ تعالى ـ « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ... » .

وهذه الجملة الكريمة مبتدأ ، والخبر قوله ـ تعالى ـ « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ... » .

ومابينهما من الموصولات صفات لهم .

وإضافتهم إلى الرحمن من باب التشريف والتكريم والتفضيل .

و « هونا » مصدر بمعنى اللين والرفق . وهو صفة لموصوف محذوف .

أى : وعباد الرحمن الذين رضى الله عنهم وأرضاهم ، من صفاتهم أنهم يمشون على الأرض مشيا لينا رفيقا ، لا تكلف فيه ولا خيلاء ولا تصنع فيه ولا ضعف ، وإنما مشيهم تكسوه القوة والجد ، والوقار والسكينة .

قال الإمام ابن كثير : أي : يمشون بسكينة ووقار . كما قال - تعالى - : «ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا» . وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع ، تصنعا ورياء . فقد كان سيد ولد آدم - صلى الله عليه وسلم - إذا مشى كأنما ينحط من صبب أى : من موضع منحدر - وكأنما الأرض تطوى له ، وعندما رأى عمر - رضى الله عنه - شابا يمشى رويدا ، قال له : ما بالك ؟ أأنت مريض ؟ قال : لا . فعلاه بالدرة ، وأمره أن يسير بقوة ...»(1) .

هذا هو شأنهم فى مشيهم ، أما شأنهم مع غيرهم ، فقد وصفهم - سبحانه - بقوله : «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» .

أى : إذا خاطبهم الجاهلون بسفاهة وسوء أدب ، لم يقابلوهم بالمثل ، بل يقابلوهم بالقول الطيب ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : «وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين»(2) .

ثم وصف - سبحانه - حالهم مع خالقهم فقال : «والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما» ، والبيتوتة أن يدركك الليل سواء أكنت نائما أم غير نائم .

أى : أن من صفاتهم أنهم يقضون جانبا من ليلهم ، تارة ساجدين على جباههم لله - تعالى - وتارة قائمين على أقدامهم بين يديه - سبحانه - .

وخص وقت الليل بالذكر ، لأن العبادة فيه أخشع ، وأبعد عن الرياء .

---

(1) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣١ .

(2) سورة القصص آية ٥٥ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ... »(١).

وقوله - سبحانه - : « أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ... »(٢).

ثم حكى - سبحانه - جانبا من دعائهم إياه، وخوفهم من عقابه، فقال: «والذين يقولون»، أي: فى عامة أحوالهم، يا «ربنا» بفضلك وإحسانك «اصرف عنا عذاب جهنم» بأن تبعده عنا وتبعدنا عنه.

«إن عذابها كان غراما»، أي: إن عذابها كان لازما دائما غير مفارق. ومنه سمى الغريم غريما لملازمته لغريمه. ويقال: فلان مغرم بكذا، إذا كان ملازما لمحبته والتعلق به.

«إنها ساءت مستقرا ومقاما»، وساءت بمعنى بئست، والمخصوص بالذم محـــذوف.

أى: إن جهنم بئست مستقرا لمن استقر بها، وبئست مقاما لمن أقام بهـــا.

فالجملة الكريمة تعليل آخر، لدعائهم بأن يصرفها ربهم عنهم.

ثم بين - سبحانه - حالهم فى سلوكهم وفى معاشهم فقال - تعالى - : «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ...».

أى: أن من صفاتهم أنهم ملتزمون فى إنفاقهم التوسط، فلا هم مسرفون ومتجاوزون للحدود التى شرعها الله - تعالى - ولا هم بخلاء فى نفقتهم إلى

---

(١) سورة السجدة الآية ١٦.
(٢) سورة الزمر الآية ٩.

درجة التقتير والتضييق ، وإنما هم خيار عدول يعرفون أن خير الأمور أوسطها .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : « وكان بين ذلك قواما » يعود إلى المذكور من الإسراف والتقتير .

والقوام : الشيء بين الشيئين . وقوام الرجل : قامته وحسن طوله وهيئته وهو خبر لكان ، واسمها مقدر فيها .

أي : وكان إنفاقهم « قواما » أي وسطا بين الإسراف والتقتير ، والتبذير والبخل ، فهم في حياتهم نموذج يقتدى به في القصد والاعتدال والتوازن .

وذلك لأن الإسراف والتقتير كلاهما مفسد لحياة الأفراد والجماعات والأمم ، لأن الإسراف تضييع للمال في غير محله . والتقتير إمساك له عن وجوهه المشروعة ، أما الوسط والاعتدال في إنفاق المال ، فهو سمة من سمات العقلاء الذين على أكتافهم تنهض الأمم ، وتسعد الأفراد والجماعات .

وبعد أن بين - سبحانه - ما هم عليه من طاعات ، أتبع ذلك ببيان اجتنابهم للمعاصي والسيئات فقال : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر » أي : لا يشركون مع الله - تعالى - إلها آخر لا في عبادتهم ولا في عقائدهم . وإنما يخلصون وجوههم لله - تعالى - وحده .

« ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق » أي : ولا يقتلون النفس التي حرم الله - تعالى - قتلها لأي سبب من الأسباب ، إلا بسبب الحق المزيل . والمهدر لعصمتها وحرمتها ، ككفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير ذنب يوجب قتلها .

« ولا يزنون » أي : ولا يرتكبون فاحشة الزنا ، بأن يستحلوا فرجا حرمه الله - تعالى - عليهم .

روى الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أى الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك. قلت: ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أى؟ قال: أن تزانى حليلة جارك ....[1]

وقوله - تعالى - : « ومن يفعل ذلك يلق أثاما .... » بيان لسوء عاقبة من يرتكب شيئاً من تلك الفواحش السابقة.

أى : ومن يفعل ذلك الذى نهينا عنه من الإشراك والقتل والزنا، يلق عقابا شديدا لا يقادر قدره.

وقوله « يضاعف له العذاب يوم القيامة » بدل من « يلق » بدل كل من كل. أى : يضاعف العذاب يوم القيامة لمن يرتكب شيئاً من ذلك « ويخلد فيه مهانا » أى : ويخلد فى ذلك العذاب خلوداً مصحوباً بالذلة والهوان والاحتقار.

ثم استثنى - سبحانه - التائبين من هذا العذاب المهين فقال : إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات .....

أى : يضاعف العذاب لمن يرتكب شيئا من تلك الكبائر . ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب عنها توبة صادقة نصوحا ، وآمن بالله - تعالى - إيمانا حقا، وداوم على إتيان الأعمال الصالحة، فأولئك التائبون المؤمنون المواظبون على العمل الصالح « يبدل الله - تعالى - سيئاتهم حسنات » بأن يمحو - سبحانه - سوابق معاصيهم - بفضله وكرمه - ويثبت بدلها لواحق طاعاتهم ، أو بأن يحبب إليهم الإيمان ، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ويجعلهم من الراشدين.

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٦ ص١٣٤ .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: «وقـــوله «فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما» في معناه قولان:

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الصالحات. قال ابن عباس: هم المؤمنون. كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات..

والثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وذلك إلا أنه كلما قد ذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار..

روى الطبراني عن أبي فروة أنه أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها، ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة؟ فقال له - صلى الله عليه وسلم - أأسلمت؟ قال: نعم.

قال: فافعل الخيرات، واترك السيئات. فيجعلها الله لك خيرات كلها.

قال: وعذراتي وفجراتي؟ قال: نعم. فما زال يكبر حتى توارى»(1).

وقوله - تعالى -: «وكان الله غفورا رحيما» اعتراض تذييلي مقـــرر لمضمون ما قبله. أي: وكان الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب.

ثم أشار - سبحانه - إلى شروط التوبة الصادقة فقال: «ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا».

أي: ومن تاب عن ترك المعاصي تركا تاما، وداوم على العمل الصـالح ليتدرك مافاته منه، فإنه في هذه الحالة يكون قد رجع إلى الله - تعالى - رجوعا صحيحا، مقبولا منه - سبحانه - بحيث يترتب عليه محو للعقاب وإثبات الثواب

---

(1) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣٠ .

وهكذا نجد رحمة الله - تعالى - تحيط بالعبد من كل جوانبه ، لكى تحمله على ولوج باب التوبة والطاعة ، وتوصد فى وجهه باب الفسوق والعصيان .

ثم واصلت السورة حديثها عن عباد الرحمن ، فقال - تعالى - : « والذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما» .

وأصل الزور : تحسين الشيء ووصفه بغير صفته ، ووضعه فى غير موضعه ، مأخوذ من الزور بمعنى الميل والانحراف عن الطريق المستقيم إلى غيره .

واللغو : هو مالاخير فيه من الأقوال أو الأفعال .

أى : أن من صفات عباد الرحمن أنهم لا يرتكبون شهادة الزور ، ولا يحضرون المجالس التى توجد فيها هذه الشهادة ، لأنها من أمهات الكبائر التى حاربها الإسلام .

وفضلا عن ذلك فإنهم « إذا مروا باللغو » أى : بالمجالس التى فيها اللغو من القول أو الفعل « مروا كراما » أى : أعرضوا عنها إكراما لأنفسهم ، وصونا لكرامتهم ، وحفاظا على دينهم ومروءتهم .

والتعبير بقوله - تعالى - « وإذا مروا . . . » فيه إشعار بأن مرورهم على تلك المجالس كان من باب المصادفة والاتفاق ، لأنهم أكبر من أن يقصدوا حضورها قصدا .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »(١) .

ثم بين - سبحانه - سرعة تأثرهم وتذكرهم ، وقوة عاطفتهم نحو دينهم فقال : « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم ، لم يخروا عليها صما وعميانا » .

---

(١) سورة القصص . الآية ٥٥

والمراد بآيات ربهم : القرآن الكريم وما اشتمل عليه من عظات وهدايات.

أى : أن من صفات هؤلاء المتقين أنهم . إذا ذكرهم مذكر بآيات الله - تعالى - المشتملة على المواعظ والثواب والعقاب . وأكبوا عليها ، وأقبلوا على المذكر بها بآذان واعية ، وبعيون مبصرة ، وليس كأولئك الكفار أو المنافقين الذين ينكبون على عقائدهم الباطلة انكباب الصم العمى الذين لا يعقلون ، وينكرون ما جاءهم به رسول ربهم بدون فهم أو وعى أو تدبر .

فالآية الكريمة مدح للمؤمنين على حسن تذكرهم وتأثرهم ووعيهم ، وتعريض بالكافرين والمنافقين الذين يسقطون على باطلهم سقوط الأنعام على ما يقدم لها من طعام وغيره .

قال صاحب الكشاف : « قوله : « لم يخروا . . . » ليس بنفى للخرور ، وإنما هو إثبات له ، ونفى للصمم والعمى ، كما تقول : لا يلقانى زيد مسلما هو نفى للسلام لا للقاء .

والمعنى : أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصا على استماعها ، وأقبلوا على المذكر بها . وهم فى إكبابهم عليها ، سامعون بآذان واعية ، مبصرون بعيون راعية ، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها . . . وهم كالصم العميان حيث لا يعونها كالمنافقين وأشباههم »(١) .

ثم ذكر - سبحانه - فى نهاية الحديث عنهم أنهم لا يكتفون بهذه المناقب الحميدة التى وهبهم الله إياها . وإنما هم يتضرعون إليه - سبحانه - أن يجعل منهم الذرية الصالحة ، وأن يرزقهم الزوجات الصالحات . فقال - تعالى - : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين . واجعلنا للمتقين إماما .

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٢٩٥

أى : يقولون فى دعائهم وتضرعهم « ياربنا هب لنـا ، بفضلك وجودك « من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، أى : ما يجعل عيوننا تسربهم ، ونفوسنا تنشرح برؤيتهم ، وقلوبنا تسكن وتطمئن بوجودهم ، لأنهم أتقياء صـالحون مهتدون . . .

« واجعلنا ، ياربنا « للمتقين إماما ، أى : اجعلنا قدوة وأسوة للمتقين . يقتدون بنا فى أقوالنا الطيبة ، وأعمالنا الصالحة ، فأنت تعلم ـ يامولانا ـ أننا نعمل على قدر ما نستطيع فى سبيل إرضـائك وفى السير على هدى رسولك ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه هى صفات عباد الرحمن ذكرها القرآن فى هذه الآيات الكريمة ، وهى تدل على قوة إيمانهم ، وصفـاء نفوسهم ، وطهـارة قلوبهم . . . فماذا أعد الله ـ تعالى ـ لهم ؟

لقد بين ـ سبحانه ـ ماأعده لهم فقال : « أولئك يجزون الغرفة بماصبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما » .

والغرفة فى الأصل : كل بنـاء مرتفع ، والجمع غرف وغرفات كما فى قوله ـ تعالى ـ : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقهـا غرف مبنية.(١) وقوله ـ سبحانه ـ : « وهم فى الغرفات آمنون(٢) » .

والمراد بها هنا : أعلى منـازل الجنة أو الجنة نفسها أو جنسهـا الصـادق بغرف كثيرة .

أى : أولئك المتقون المتصفون بالصفات السابقة ، يجازيهم الله ـ تعالى ـ بأعلى المنازل والدرجات فى الجنة ، بسبب صبرهم على طاعته ، وبعدهم عن معصيته ، ويلقون فى تلك المنازل الرفيعة « تحية وسلاما » من ربهم ـ عز وجل ـ ، ومن ملائـكته الكرام ، ومن بعضهم لبعض .

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٢٠ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٣٧ .

« خالدين فيها » أى : فى تلك المنازل الرفيعة ، والجنات العالية ، خلودا أبديا .

« حسنت » تلك الغـــرفة والمنزلة « مستقرا » يستقرون فيه « ومقاما » يقيمون فيه وذلك فى مقابل ما أعد للكافرين من نار ساءت مستقرا ومقاما.

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله :

« قُلْ ما يَعْبَأُ بِكُم رَبِّى لَوْلاَ دُعَاؤُكُم فقد كَذَّبتُم فَسَوْفَ يكُونُ لِزَاماً (٧٧) » .

قال القرطبى : «يقال : ماعبأت بفلان ، أى : ما باليت به . أى: ما كان له عندى وزن ولا قدر .

وأصل يعبأ : من العبء وهو الثقل .. فالعبء :الحمل الثقيل،والجمع أعباء. و « ما » استفهامية ، وليس يبعد أن تكون نافية ؛ لأنك إذا حكمت أنها استفهام فهو نفى خرج مخرج الاستفهام ، وحقيقة القول عندى أن موضع « ما » نصب . والتقدير : أى عبء يعبأ بكم ربى ؟ أى : أى مبالاة يبالى بكم ربى بكم لولا دعاؤكم ...»[1].

هذا ، وللعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال منها : أن قوله - تعالى - « قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم » خطاب للمؤمنين أو للناس جميعا ، وأن المصدر وهو « دعاؤكم » مضاف لفاعله ، وأن بقية الآية وهى قوله :«فقد كذبتم ... » خطاب للكافرين ، والمعنى على هذا القول :

قل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنين أو للناس جميعا ، أى اعتداد لكم عند ربكم لولا دعاؤكم ، أى : لولا عبادتكم له - عز وجـــل - . أى : لولا إخلاصكم العبادة له لما اعتد بكم .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٨٤

ثم أفرد الكافرين بالخطاب فقال : « فقد كذبتم أيها الكافرون فسوف يكون لزاما » .

أي : فسوف يكون جزاء التكذيب « لزاما » أي : عذابا دائما ملازما لكم . فلزاما مصدر لازم ، كقاتل قتالا ، والمراد به هنا اسم الفاعل .

وقد وضح صاحب الكشاف هذا القول فقال: « لما وصف الله - تعالى - عبادة العباد ، وعدد صالحاتهم وحسناتهم . . أتبع ذلك ببيان أنه إنما اكترث لأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم ، لأجل عبادتهم ، فأمر رسوله صلى الله عليه وسلم - أن يصرح للناس ، ويجزم لهم القول ، بأن الاكتراث لهم عند ربهم ، إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر . .

وقوله « فقد كذبتم » يقول : إذا أعلمتكم أن حكمى أنى لا أعتد بعبادى إلا من أجل عبادتهم ، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمى ، فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم فى النار . ونظيره فى الكلام أن يقول الملك لمن عصاه : « إن من عادتى أن أحسن إلى من يطيعنى ، ويتبع أمرى ، فقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك . . . »(١) .

ومن العلماء من يرى أن الخطاب فى الآية للكافرين ، وأن المصدر مضاف لمفعوله ، فيكون المعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين ، ما يعبأ بكم ربى ، ولا يكترث لوجودكم ، لولا دعاؤه إياكم على لسانى ، إلى توحيده وإخلاص العبادة له ، وبما أنى قد دعوتكم فكذبتم دعوتى . فسوف يكون عاقبة ذلك ملازمة العذاب لكم .

وهذا قول جيد ولا إشكال فيه وقد تركنا بعض الأقوال لضعفها ، ولغناء هذين القولين عنها .

---

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ٢٩٧ .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الفرقان » تلك السورة التي حكت شبهات المشركين وأبطلتها ، وساقت ماساقت من تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتثبيته ، وبشرت عباد الرحمن بأرفع المنازل .

ونسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا منهم ، وأن يحشرنا فى زمرتهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوى

مساء الجمعة ٤ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ٢٥ / ١ / ١٩٨٥ م

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الفرقان »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة والتمهيد	٢١٣
١	تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ...	٢١٩
٤	وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك ...	٢٢٣
٧	وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ...	٢٢٦
١٢	إذا رأتهم من مكان بعيد ...	٢٣٠
١٧	ويوم نحشرهم ومايعبدون من دون الله ...	٢٣٤
٢٠	وما أرسلنا قبلك من المرسلين ...	٢٣٧
٢١	وقال الذين لايرجون لقاءنا ...	٢٣٩
٣٠	وقال الرسول يارب إن قومى ...	٢٤٨
٣٥	ولقد آتينا موسى الكتاب ...	٢٥٢
٤١	وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ...	٢٥٨
٤٥	ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ...	٢٦٢
٥٥	ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ...	٢٧٢
٦٣	وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ...	٢٧٩
٧٧	قل مايعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ...	٢٨٩

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الشعراء

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء التاسع عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

١ – سورة الشعراء هى السورة السادسة والعشرون فى ترتيب المصحف، أما ترتيبها فى النزول فكان نزولها بعد سورة الواقعة . كما يقول صاحب الإتقان ، أى : هى السادسة والأربعون فى ترتيب النزول .

٢ – قال القرطبى : هى مكية فى قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدنى، الآية التى يذكر فيها الشعراء ، وقوله : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل » . وقال ابن عباس وقتادة: مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله - تعالى - : « والشعراء يتبعهم الغاوون » إلى آخر السورة . وهى مائتان وسبع وعشرون آية . وفى رواية : وست وعشرون[1] .

٣ – وسورة الشعراء تسمى - أيضا - بسورة « الجامعة » ، ويغلب على هذه السورة الكريمة ، الحديث عن قصص الأنبياء مع أقوامهم .

فبعد أن تحدثت فى مطلعها عن سمو منزلة القرآن الكريم ، وعن موقف المشركين من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أتبعت ذلك بالحديث عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل ، ثم عن قصة إبراهيم مع قومه ثم عن قصة نوح مع قومه ، ثم عن قصة هود مع قومه، ثم عن قصة صالح مع قومه، ثم عن قصة لوط مع قومه ، ثم عن قصة شعيب مع قومه . . .

٤ – ثم تحدثت فى أواخرها عن نزول الروح الأمين بالقرآن الكريم على قلب النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وساقت ألوانا من التسلية والتعزية

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٨٧ .

للرسول - صلى الله عليه وسلم - بسبب تكذيب الكافرين له، وأرشدته إلى ما يجب عليه نحو عشيرته الأقربين، ونحو المؤمنين، وبشرت أتباعه بالنصر وأنذرت أعداءه بسوء المصير، فقد ختمت بقوله - تعالى - : «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيرا، وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

٥ — والسورة الكريمة بعد ذلك تمتاز بقصر آياتها، وبجمعها لموضوعات السور المكية، من إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى -، وعلى أن البعث حق، وعلى صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه، وعلى أن هذا القرآن من عند الله. كما نرى أسلوبها يمتاز بالترغيب والترهيب، الترغيب للمؤمنين في العمل الصالح، والترهيب للمشركين بسوء المصير إذا ما استمروا على شركهم.

وقد ختمت كل قصة من قصص هذه السورة الكريمة بقوله - تعالى - : «إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» وقد تكرر ذلك فيها ثماني مرات ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم؟

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر، الأحد ٥ / ٥ / ١٤٠٥ هـ

٢٧/١/١٩٨٥ م

التفسير

«طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينُ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)».

سورة الشعراء من السور التى افتتحت بحرف من الحروف المقطعة، وهو قوله - تعالى - : «طسم».

وقد ذكرنا آراء العلماء فى تلك الحروف المقطعة بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسور: البقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس... الخ.

وقلنا ما خلاصته: لعل أقرب الأقوال إلى الصواب، أن هذه الحروف المقطعة، قد وردت فى افتتاح بعض السور، على سبيل الإيقاظ والتنبيه، للذين تحداهم القرآن.

فكأن الله - تعالى - يقول لهؤلاء المعاندين والمعارضين فى أن القرآن من عند الله: ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو جنس ما تؤلفون منه كلامكم، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم، فإن كنتم فى شك أنه من عند الله - تعالى - فهاتوا مثله،

أو عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله ، فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

واسم الإشارة « تلك » يعود إلى الآيات القرآنية التي تضمنتها هذه السورة الكريمة أو إلى جميع آيات القرآن التي نزلت قبل ذلك .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم الذي تكفل - سبحانه - بإنزاله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - .

والمبين : اسم فاعل من أبان الذي هو بمعنى بان ، مبالغة في الوضوح والظهور .

قال صاحب الصحاح : « يقال : بان الشيء يبين بيانا ، أي : اتضح ، فهو بين ، وكذا أبان الشيء فهو مبين »(١) .

أي : تلك الآيات القرآنية التي أنزلناها عليك - أيها الرسول الكريم - والتي سننزلها عليك تباعا حسب حكمتنا وإرادتنا ، هي آيات الكتاب الواضح إعجازه ، والظاهرة هداياته ودلالاته على أنه من عند الله - تعالى - ، ولو كان من عند غيره - سبحانه - لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

ثم خاطب - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بما يسليه عن تكذيب المشركين له ، وبما يهون عليه أمرهم فقال - تعالى - : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » .

قال بعض العلماء ما ملخصه : « واعلم أن لفظة « لعل » تكون للترجي في المحبوب ، وللإشفاق في المحذور .

واستظهر أبو حيان في تفسيره ، أن « لعل » هنا للاشفاق عليه - صلى الله عليه وسلم - أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم .

(١) تفسير الآلوسي ج ١٤ ص ٣ .

وقال بعضهم : إن « لعل » هنا للنهى . أى : لاتبخع نفسك لعدم إيمانهم. وهو الأظهر ، لكثرة ورود النهى صريحا عن ذلك . قال - تعالى - : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات »(١) .

وأصل البخع : أن تبلغ بالذبح البخاع - بكسر الباء - وهو عرق يجرى فى الرقبة ، وهو أقصى حد الذبح . والمراد بالبخع هنا : كثرة الهم والحزن . يقال فلان بخع نفسه بخعا وبخوعا . أى : قتلها من شدة الغيظ والألم .

والمعنى : لعلك - أيها الرسول الكريم - قاتل نفسك هما وغما . بسبب تكذيب الكافرين لك ، وعدم إيمانهم بدعوتك وإعراضهم عن رسالتك التى أرسلناك بها إليهم ...

لا - أيها الرسول الكريم - لاتفعل ذلك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، وإنك لاتستطيع هداية أحد ولكن الله - تعالى - يهدى من يشاء ، وإننا « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

ومفعول المشيئة محذوف، والمراد بالآية هنا: المعجزة القاهرة التى تجعلهم لا يملكون انصرافا معها عن الإيمان . والأعناق جمع عنق . وقد تطلق على وجوه الناس وزعمائهم. تقول: جاءنى عنق من الناس : أى: جماعة منهم أو من رؤسائهم والمقدمون فيهم .

والمعنى : لا تحزن يا محمد لعدم إيمان كفار مكة بك ، فإننا إن نشأ إيمانهم . ننزل عليهم آية ملجئة لهم إلى الإيمان . تجعلهم ينقادون له ، ويدخلون فيه دخولا ملزما لهم ، ولكننا لا نفعل ذلك ، لأن حكمتنا قد اقتضت أن يكون دخول الناس فى الإيمان عن طريق الاختيار والرغبة ، وليس عن طريق الإلجاء والقسر .

(١) تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ١٤ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وصور - سبحانه - هذه الآية بتلك الصورة الحسية ، فظلت أعناقهم لها خاضعين ، للإشعار بأن هذه الآية لو أراد - سبحانه - إنزالها، لجعلتهم يخضعون خضوعا تاما لها ، حتى لكأن أعناقهم على هيئة من الخضوع والذلة لا تملك معها الارتفاع أو الحركة .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق ؟ قلت : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، وترك الكلام على أصله . كقوله : ذهبت أهل اليمامة ، كأن الأهل غير مذكور . أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء ، قيل : خاضعين . . . وقيل : أعناق الناس : رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم : هم الرءوس والنواصي والصدور . . وقيل : جماعات الناس . »(١).

ثم بين - سبحانه - ما عليه هؤلاء الكافرون من صلف وجحود فقال : «وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين » .

أي : ولقد بلغ الجحود والجهل بهؤلاء الكافرين ، أنهم كلما جاءهم قرآن محدث تنزيله على نبيهم - صلى الله عليه وسلم - ومتجدد نزوله عليه - صلى الله عليه وسلم - ، أعرضوا عنه إعراضا تاما .

وعبر عن إعراضهم بصيغة النفي والاستثناء التي هي أقوى أدوات القصر ، للإشارة إلى عتوهم في الكفر والضلال ، وإصرارهم على العناد والتكذيب .

وفي ذكر اسم الرحمن هنا : إشارة إلى عظيم رحمته - سبحانه - بإنزال هذا الذكر ، وتسجيل لأقصى دركات الجهالة عليهم ، لأنهم أعرضوا عن الهداية التي أنزلها الرحمن الرحيم لسعادتهم ، وحرموا أنفسهم منها وهم أحوج الناس إليها .

و « من » الأولى لتأكيد عموم إعراضهم ، والثانية لابتداء الغاية ، وجملة « إلا كانوا عنه معرضين » حالية .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٩٩

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : « فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » .

أي : فقد كذب هؤلاء الجاحدون بالذكر الذى أتيتهم به - أيها الرسول الكريم - دون أن يكتفوا بالإعراض عنه ، فاصبر فسيأتيهم أنباء العذاب الذى كانوا يستهزئون به عندما تحدثهم عنه وهو واقع بهم لا محالة ولكن فى الوقت الذى يشاؤه - سبحانه - .

وفى التعبير عن وقوع العذاب بهم ، بإتيان أنبائه وأخباره تهويل من شأن هذا العذاب ، وتحقيق لنزوله .

أي : فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا به يستهزئون ، ويصيرون هم أحاديث للناس يتحدثون بها ، ويتناقلون أنباءها . .

ثم وبخهم - سبحانه - على غفلتهم وعلى عدم التفاتهم إلى ما فى هذا الكون من عظات وعبر ، فقال - تعالى - : « أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

أي : أعمى هؤلاء الجاحدون عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بهم ، ولم يروا بأعينهم كيف أخرجنا النبات من الأرض ، وجعلنا فيها أصنافا وأنواعا لا تحصى من النباتات الكريمة الجميلة المشتملة على الذكر والأنثى .

فالآية الكريمة توبيخ لهم على إعراضهم عن الآيات التكوينية ، بعد توبيخهم على إعراضهم عن الآيات التنزيلية ، وتحريض لهم على التأمل فيما فوق الأرض من نبات مختلف الأنواع والأشكال والثمار . . . لعل هذا التأمل ينبه حسهم الخامد وذهنهم البليد وقلبهم المطموس .

قال صاحب الكشاف : وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكرم والكريم : صفة لكل ما يرضى ويحمد فى بابه . يقال : وجه كريم ، إذا رضى

فى حسنه وجماله، وكتاب كريم . أى: مرضى فى معانيه وفوائده . . . والنبات الكريم : المرضى فيما يتعلق به من المنافع . . .

فإن قلت : ما معنى الجمع بين كم وكل ؟ قلت : قد دل « كل » على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل . و « كم » على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة ، فهذا معنى الجمع بينهما ، وبه نبه على كمال قدرته . . »[1]

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات بآيتين تكررتا فى السورة الكريمة ثمانى مرات . ألا وهما قوله ـ تعالى ـ : « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه عن إنباتنا لكل زوج كريم فى الأرض ، « لآية » عظيمة الدلالة على كمال قدرتنا ، وسعة رحمتنا ، وما كان أكثر هؤلاء الكافرين مؤمنين ، لإيثارهم العمى على الهدى ، والغى على الرشد « وإن ربك » ـ أيها الرسول الكريم ـ « لهو العزيز » أى : صاحب العزة والغلبة والقهر « الرحيم » أى : الواسع الرحمة بعباده ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم ، لعلهم يتوبون أو يعقلون .

* * *

ثم حكى ـ سبحانه ـ جانبا من قصة موسى ـ عليه السلام ـ بأسلوب يتناسب مع ما اشتملت عليه السورة الكريمة من إنذار وتخويف . وبطريقة أحاطت بجوانب هذه القصة منذ أن ذهب موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وقومه إلى أن انتهت بهلاكهم وإغراقهم .

لقد بدأ ـ سبحانه ـ هذه القصة بقوله ـ تعالى ـ :

« وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٠٠

أَلاَ يَتَّقونَ (١١) قالَ ربِّ إنِّى أخافُ أَنْ يكذِّبونِ (١٢) ويَضيقُ صَدْرِى ولا يَنطَلِقُ لِسَانِى فأرسِلْ إلَى هارُونَ (١٣) وَلَهُم عَلَىَّ ذنبٌ فأخافُ أنْ يقتلُونِ (١٤) قالَ كلاَّ فاذْهَبَا بآياتِنَا إنَّامعكُم مستمِعُونَ (١٥) فَأتِيَا فِرعَوْنَ فقولاَ إنَّا رسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ (١٦) أنْ أرسِلْ معنَا بَنِى إسرائيل (١٧) » .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، وينتهى نسبه إلى يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - ويرجح المؤرخون أن ولادته كانت فى القرن الثالث عشر قبل ميلاد عيسى - عليه السلام - ، وأن بعثته كانت فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى .

وقد وردت قصة موسى مع فرعون وقومه ، ومع بنى إسرائيل فى كثير من سور القرآن الكريم ، تارة بصورة فيها شىء من التفصيل ، وتارة بصورة فيها شىء من الاختصار والتركيز ، تبعا لمقتضى الحال الذى وردت من أجله .

وقد وردت هنا وفى سورة الأعراف وفى سورة طـه ، وفى سورة القصص بأسلوب فيه بسطة وتفصيل .

لقد افتتحت هنا بقوله - تعالى - : « وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين » .

وهذا النداء كان بالوادى المقدس طوى ، كما جاء فى سورة طه[1] وفى سورة النازعات[2] .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن نادى ربك نبيه موسى

---

(١) سورة طه الآية ١٢ . (٢) سورة النازعات الآية ١٦ .

موسى قائلا له : اذهب إلى القوم الظالمين لتبلغهم رسالتى ... العبادة لى .

وقوله : « قوم فرعون » بدل أو عطف بيان . ووصفهم - سبحانه - ... لعبادتهم لغيره . ولعدوانهم على بنى إسرائيل بقتل الذكور، واستبقاء النساء ...

وقوله - تعالى - : « ألا يتقون » تعجيب من حالهم . أى : ائتهم يا موسى وقل لهم : ألا يتقون الله - تعالى - ، ويخشون عقابه . ويكفون عن كفرهم وظلمهم .

ثم حكى - سبحانه - رد موسى فقال : « قال رب إنى أخاف أن يكذبون » أى : قال موسى فى الإجابة على ربه - عز وجل - : يارب إنى أعرف هؤلاء القوم وأعرف ماهم عليه من ظلم وطغيان ، وإنى أخاف تكذيبهم لى عند ما أذهب إليهم لتبليغ وحيك ، « ويضيق صدرى » أى : وينتابنى الغم والهم بسبب تكذيبهم لى ..

« ولا ينطلق لسانى » أى : وليس عندى فصاحة اللسان التى تجعلنى أظهر ما فى نفسى من تفنيد لأباطيلهم ، ومن إزهاق لشبهاتهم، خصوصا عند اشتداد غضبى عليهم .

« فأرسل إلى هارون » أى : فأرسل وحيك الأمين إلى أخى هارون ، ليكون معينا لى على تبليغ ما تكلفنى بتبليغه .

« ولهم على ذنب » حيث إنى قتلت منهم نفسا « فأخاف أن يقتلون » عندما أذهب إليهم ، على سبيل القصاص منى .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد شكا إلى ربه خوفه من تكذيبهم وضيق صدرى من طغيانهم وعقدة فى لسانه ، وخشيته من قتلهم له عندما يرونه.

وليس هذا من باب الامتناع عن أداء الرسالة، أو الاعتذار عن تبليغها . وإنما هو من باب طلب العون من الله - تعالى - . والاستعانة به - عز وجل -

على تحمل هذا الأ [illegible] إرسال هارون معه . ليكون عونا له فى مهمته [illegible] فى حال قتلهم له . . .

وشبيه بهذا الجواب ما حكاه هنا ـ سبحانه ـ فى سورة طه فى قوله ـ تعالى ـ : « اذهب إلى فرعون إنه طغى . قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى . أشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى . كى نسبحك كثيرا . ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا » .

وقد رد الله ـ تعالى ـ على نبيه موسى ـ عليه السلام ـ ردا حاسما لإزالة الخوف ، ومزهقا لكل ما يحتمل أن يساور نفسه من عدوان عليه ، فقال ـ تعالى ـ : قال : « كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون » . . .

أى : قال الله ـ تعالى ـ لموسى على سبيل الإرشاد والتعليم : كلا ، لا تخف أن يكذبوك أو أن يضيق صدرك ، أو أن لا ينطلق لسانك ، أو أن يقتلوك . كلا لا تخف من شىء من ذلك ، فأنا معكما برعايتى وما دام الأمر كذلك فاذهب أنت وأخوك بآياتنا الدالة على وحدانيتنا فإننا معكم سامعون لما تقولانه لهم ولما سيقولونه لكما

وعبر ـ سبحانه ـ بكلا المفيدة للزجر ، لزيادة إدخال الطمأنينة على قلب موسى ـ عليه السلام ـ

والمراد بالآيات هنا : المعجزات التى أعطاها ـ سبحانه ـ لموسى وعلى رأسها العصا . . .

وقال ـ سبحانه ـ « إنا معكم » مع أنهما إثنان ، تعظيما لشأنهما ، أو لكون الإثنين أقل الجمع . أو المراد هما ومن أرسلا إليه .

والتعبير بقوله « إنا معكم مستمعون » بصيغة التأكيد والمعية والاستماع فيه ما فيه من العناية بشأنهما والرعاية لهما . والتأييد لأمرهما .

والفاء في قوله : « فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بني إسرائيل » لترتيب ما بعدها على ماقبلها من الوعد برعايتهما .

و « أن » في قوله « أن أرسل » مفسرة . لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول .

أي : إذهبا وأنتما متسلحان بآياتنا الدالة على صدقكما ، فنحن معكم برعايتنا وقدرتنا . فأتيا فرعون بدون خوف أو وجل منه « فقولا » له بكل شجاعة وجراءة ، إنا رسول رب العالمين ، أي: رب جميع العوالم التي من بينها عالم الجن . وعالم الملائكة . . .

وقــد أرسلنا ـ سبحانه ـ إليك ، لكي تطلق سراح بني إسرائيل من ظلمك وبغيك ، وتتركهم يذهبون معنا إلى أرض الله الواسعة لكي يعبدوا الله ـ تعالى ـ وحده .

قال الألوسي: « وإفراد الرسول في قوله « إنا رسول رب العالمين » لأنه مصدر بحسب الأصل ، وصف به كما يوصف بغـيره من المصادر للمبالغة ، كرجل عدل . . . أو لوحدة المرسل أو المرسل به ـ أي : لأنهما ذهبا برسالة واحدة وفي مهمة واحدة »[1].

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا ، ما أمر الله ـ تعالى ـ به نبيه موسى ـ عليه السلام . ومازوده به ـ سبحانه ـ من إرشاد وتعليم ، بعد أن التمس منه ـ سبحانه ـ العون والتأييد .

° ° °

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما دار بين موسى وفرعون من محاورات فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) تفسير الآلوسي جـ١٩ ص٦٦ .

« قالَ أَلمْ نُرَبِّكَ فينا وليداً ، ولبثتَ فِينا من عُمُرِكَ سنينَ (١٨) وفعلتَ فَعْلتكَ التى فعلتَ وأنتَ مِنَ الكافِرِينَ (١٩) قالَ فعلتُها إذاً وَأَنا مِنَ الضالِّينَ (٢٠) ففررتُ منكُم لما خِفتكُم فوهَب لِي ربِّى حُكماً وجَعلنِي من المرسَلِينَ (٢١) وَتِلكَ نِعمةٌ تَمُنُّها علىَّ أَنْ عبَّدتَ بنى إسرائيلَ (٢٢) قالَ فِرعونُ ومارَبُّ العالمينَ (٢٣) قال : ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينَهُمَا إنْ كنتُم موقنِين (٢٤) قالَ لمن حولَهُ ألاَ تستمِعُونَ (٢٥) قالَ ربُّكُم وربُّ آبائِكُم الأولينَ (٢٦) قالَ إنَّ رسولَكُمُ الذى أُرسِلَ إليكُم لمجنُونٌ (٢٧) قالَ ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينَهُما إن كنتُم تعقِلُون (٢٨) قالَ لئن اتخذتَ إلهاً غيرى لأجعلنَّكَ من المسجُونِينَ (٢٩) قالَ أولَوا جئتُكَ بشيءٍ مُبِينٍ (٣٠) قالَ فأتِ بهِ إنْ كنتَ من الصادِقِينَ (٣١) فألقى عصاهُ فإذَا هِيَ ثعبانٌ (٣٢) ونزعَ يدَهُ فإذَا هِيَ بيضاءُ للنَّاظِرِينَ (٣٣) » .

أى : قال فرعون لموسى بعد أن عرفه ، وبعد أن طلب منه موسى أن يرسل معه بنو إسرائيل . قال له ياموسى « ألم نربك فينا وليدا » أى : ألم يسبق لك أنك عشت فى منزلنا ، ورعيناك وأنت طفل صغير عندما قالت امرأتى « لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . . . » .

« ولبثت فينا » أى : فى كنفنا وتحت سقف بيتنا « من عمرك سنين » عددا .

« وفعلت فعلتك التى فعلت » وهى قتلك لرجل من شيعتى « وأنت من الكافرين » .

أى : وأنت من الجاحدين بعد ذلك لنعمتى التى أنعمتها عليك ، فى حال طفولتك ، وفى حال صباك ، وفى حال شبابك .

لأنك جئتنى أنت وأخوك بما يخالف ديننا ، وطلبتما منا أن نرسل معكما بنى إسرائيل . فهل هذا جزاء إحسانى إليك ؟

وهكذا نرى فرعون يوجه إلى موسى - عليه السلام - تلك الأسئلة على سبيل الإنكار عليه لما جاء به ، متوهما أنه قد قطع عليه طريق الإجابة .

ولكن موسى - عليه السلام - وقد استجاب الله - تعالى - دعاءه وأزال عقدة لسانه ، رد عليه ردا حكيما ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : « قال فعلتها إذا وأنا من الضالين » .

أى قال موسى فى جوابه على فرعون : أنا لا أنكر أنى قد فعلت هذه الفعلة التى تذكرنى بها ، ولكنى فعلتها وأنا فى ذلك الوقت من الضالين ، أى : فعلت ذلك قبل أن يشرفنى الله بوحيه ، ويكلفنى بحمل رسالته ، وفضلا عن ذلك فأنا كنت أجهل أن هذه الوكزة تؤدى إلى قتل ذلك الرجل من شيعتك ، لأنى ماقصدت قتله ، وإنما قصدت تأديبه ومنعه من الظلم لغيره .

فالمراد بالضلال هنا : الجهل بالشىء ، والذهاب عن معرفة حقيقته .

وقوله : « ففررت منكم لما خفتكم » بيان لما ترتب على فعلته التى فعلها .

أى : وبعد هذه الفعلة التى فعلتها وأنا من الضالين ، توقعت الشر منكم ، ففررت من وجوهكم حين خشيت منكم على نفسى ، فكانت النتيجة أن وهبنى « ربى حكما » ، أى : علما نافعا ، وجعلنى من المرسلين ، الذين اصطفاهم الله - تعالى - لحمل رسالته ، والتشرف بنبوته .

ثم أضاف موسى - عليه السلام - إلى هذا الرد الملزم لفرعون ، ردا آخر أشد إلزاما وتوبيخا فقال : « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل » .

واسم الإشارة « تلك » يعود إلى التربية المفهومة من قوله - تعالى - قبل ذلك : « ألم نربك فينا وليدا ... الخ » .

وقوله « تمنها » من المن بمعنى الإنعام يقال : منّ فلان على فلان منة إذا أنعم عليه بنعمة .

وعبدت : أي اتخذتهم عبيدا لك تسخرهم لخدمتك .

قال الجمل : « و « تلك » مبتدأ . و « نعمة » خبر . و « تمنها » صفة للخبر . و « أن عبدت » عطف بيان للمبتدأ موضح له .

وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يرى بعضهم أنه قاله على جهة الاعتراف له بالنعمة ، فكأنه يقول له : تلك التربية التي ربيتها لي نعمة منك علي ، ولكن ذلك لا يمنع من أن أكون رسولا من الله - تعالى - إليك ، لكي تقلع عن كفرك ، ولكي ترسل معنا بني إسرائيل .

ويرى آخرون أن هذا الكلام من موسى لفرعون ، إنما قاله على سبيل التهكم به ، والإنكار عليه فيما امتن به عليه ، فكأنه يقول له : إن ما تمتن به علي هو في الحقيقة نقمة ، وإلا فأية منة لك علي في استعبادك لقومي وأنا واحد منهم ، إن خوف أمي من قتلك لي هو الذي حملها على أن تلقي بي في البحر ، وتربيتي في بيتك كانت لأسباب خارجة عن قدرتك . . .

ويبدو لنا أن هذا الرأي أقرب إلى الصواب ، لأنه هو المناسب لسياق القصة ، ولذا قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآية : « ثم كر موسى على امتنان فرعون عليه بالتربية ، فأبطله من أصله ، واستأصله من سنسخه - أي : من أساسه - ، وأبى أن يسمى نعمته إلا نقمه ، حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل ، لأن تعبيدهم وقصدهم بالذبح لأبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته ، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه ، وتذليلهم واتخاذهم خدما له . . »[1] .

وبهذا الجواب التوبيخي ألقم موسى - عليه السلام - فرعون ، وجعله

---

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ٣٠٦ .

يحول الحديث عن هذه المسألة التى تتعلق بتربيته لموسى إلى الحديث عن شىء آخر حكاه القرآن فى قوله : « قال فرعون ومارب العالمين ، أى قال فرعون لموسى : أى شىء رب العالمين الذى أنت وأخوك جئتما لتبلغا رسالته لى، وما صفته ؟

وهذا السؤال يدل على طغيان فرعون - قبحه الله - وتجاوزه كل حد فى الفجور ، فإن هذا السؤال يحمل فى طياته استنكار أن يكون هناك إله سواه، كما حكى عنه القرآن فى آية أخرى قوله : « وقال فرعون يا أيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى ...»[1] .

فهو ينكر رسالة موسى -عليه السلام- من أساسها ...

وهنا يرد عليه موسى - بقوله : « قال رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين » .

أى : قال موسى : ربنا - يافرعون - هو رب السموات ورب الأرض، ورب مابينهما من أجرام وهواء . وإن كنتم موقنين بشىء من الأشياء ، فإيمانكم بهذا الخالق العظيم وإخلاصكم العبادة له أولى من كل يقين سواه.

وفى هذا الجواب إستصغار لشأن فرعون . وتحقير لمزاعمه، فكأنه يقول له : إن ربنا هو رب هذا الكون الهائل العظيم ، أما ربوبيتك أنت - فمع بطلانها - هى ربوبية لقوم معينين خدعتهم بدعواك الألوهية، فأطاعوك لسفاهتهم وفسقهم ...

وهنا يلتفت فرعون إلى من حوله ليشاركوه التعجيب مما قاله موسى ، وليصرفهم عن التأثر بما سمعوه منه ، فيقول لهم : « ألا تستمعون » أى : ألا تستمعون إلى هذا القول الغريب الذى يقوله موسى . والذى لاعهد لنا به. ولا قبول عندنا له . ولا صبر لنا عليه ...

(١) سورة القصص الآية ٣٨ .

ولكن موسى - عليه السلام - لم يمهلهم حتى يردوا على فرعون بل أكد لهم وحدانية الله - تعالى - وهيمنته على هذا الكون بقوله: «ربكم ورب آبائكم الأولين».

أي: ربنا الذي هو رب السموات والأرض ومابينهما، هو ربكم أنتم - أيضا - وهو رب آبائكم الأولين، فكيف تتركون عبادته، وتعبدون عبدا من عباده ومخلوقا من مخلوقاته هو فرعون؟

وهنا لم يملك فرعون إلا الرد الدال على إفلاسه وعجزه، فقال ملتفتا إلى من حوله: «إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون».

أي: قال فرعون - على سبيل السخرية بموسى - مخاطبا أشراف قومه: «إن رسولكم الذي أرسل إليكم» بما سمعتم «لمجنون»، لأنه يتكلم بكلام لا تقبله عقولنا، ولا تصدقه آذاننا وسماه رسولا على سبيل الاستهزاء، وجعل رسالته إليهم لا إليه، لأنه - في زعم نفسه - أكبر من أن يرسل إليه رسول، ولكي يهيجهم حتى ينكروا على موسى قوله...

ولكن موسى - عليه السلام - لم يؤثر ماقاله فرعون في نفسه، بل رد عليه وعليهم بكل شجاعة وغلظة فقال: «رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون».

أي: قال موسى: ربنا رب السموات والأرض ومابينهما. وربكم ورب آبائكم الأولين. ورب المشرق الذي هو جهة طلوع الشمس وطلوع النهار. ورب المغرب الذي هو جهة غروب الشمس وغروب النهار.

وخصهما بالذكر. لأنهما من أوضح الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ولأن فرعون أو غيره من الطغاة لا يجرء ولا يملك إدعاء تصريفهما أو التحكم فيهما على تلك الصورة البديعة المطردة. والتي لااختلال فيها ولا اضطراب...

كما قال إبراهيم الذى حاجه فى ربه : « إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر .... » .

وجملة « إن كنتم تعقلون » حض لهم على التعقل والتدبر ، وتحذير لهم من التمادى فى الجحود والعناد .

أى : ربنا وربكم هو رب هذه الكائنات كلها ، فأخلصوا العبادة له ، إن كانت لكم عقول تعقل ما قلته لكم . وتفهم ما أرشدتكم إليه .

وهكذا انتقل بهم موسى من دليل إلى دليل على وحدانية الله وقدرته ، ومن حجة إلى حجة ، ومن أسلوب إلى أسلوب لكى لا يترك مجالا فى عقولهم للتردد فى قبول دعوته ...

ولكن فرعون ـ وقد شعر بأن حجة موسى قد ألقمته حجرا انتقل من أسلوب المحاورة فى شأن رسالة موسى إلى التهديد والوعيد ـ شأن الطغاة عندما يعجزون عن دفع الحجة بالحجة ـ فقال لموسى عليه السلام ـ : « لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين » .

أى : قال فرعون لموسى بثورة وغضب : لئن اتخذت إلها غيرى يا موسى ليكون معبودا لك من دونى ، لأجعلنك واحدا من جملة المسجونين فى سجنى فهذا شأنى مع كل من يتمرد على عبادتى ، ويخالف أمرى ...

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ألم يكن لأسجننك أخصر من « لأجعلنك من المسجونين » ، ومؤديا مؤداه ؟

قلت : أما كونه أخصر فنعم وأما كونه مؤديا مؤداه فلا ، لأن معناه : « لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم فى سجونى . وكان من عادته أن تأخذ من يريد سجنه فيطرحه فى هوة ذاهبة فى الأرض . بعيدة العمق . لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل »(١) ..

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ٢٠٨ .

ولكن موسى - عليه السلام - لم يخفه هذا التهديد والوعيد ... بل رد عليه ردا حكيما فقال له « أو لو جئتك بشيء مبين » .

والاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على كلام مقدر يستدعيه المقام ، والمعنى : أتفعل ذلك بي بأن تجعلني من المسجونين ، ولو جئتك بشيء مبين ، يدل دلالة واضحة على صدقي في رسالتي وعلى أني رسول من رب العالمين .

وعبر عن المعجزة التي أيده الله بها بأنها « شيء مبين » للتهويل من شأنها ، والتفخيم من أمرها . ولعل مقصد موسى - عليه السلام - بهذا الكلام ، أن يجر فرعون مرة أخرى إلى الحديث في شأن الرسالة التي جاءه من أجلها بعد أن رآه يريد أن يحول مجرى الحديث عنها إلى التهديد والوعيد ، وأن يسد منافذ الهروب عليه أمام قومه . ولذا نجد فرعون لا يملك أمام موسى إلا أن يقول له : « فأت به إن كنت من الصادقين » .

أي : فأت بهذا الشيء المبين ، إن كنت - يا موسى - من الصادقين في كلامك السابق .

وهنا كشف موسى - عليه السلام - عما أيده الله - تعالى - به من معجزات حسية خارقة ، « فألقى عصاه » على الأرض أمام فرعون وقومه « فإذا هي ثعبان مبين » .

أي : فإذا هي حية عظيمة في غاية الجلاء والوضوح على أنها حية حقيقية ، لا شائبة معها للتخييل أو التمويه كما يفعل السحرة ...

ولم يكتف موسى بذلك في الدلالة على صدقه . بل « نزع يده » أي : من جيبه « فإذا هي بيضاء للناظرين » أي : فإذا هي بيضاء بياضا يخالف لون جسمه - عليه السلام - ، فهي تتلألأ كأنها قطعة من القمر ، ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ، وليس فيها مايشير إلى أن بها سوءا أو مرض .

وهنا أحس فرعون بالرعب يسري في أوصاله ، وبأن ألوهيته المزعومة

قد أوشكت على الانكشاف ، وبأن معجزة موسى توشك أن تجعل الناس يؤمنون به ، فالتفت إليهم وكأنه يحاول جذبهم إليه ، واستطلاع رأيهم فيما شاهدوه ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

« قالَ للملإِ حولَه إنَّ هذَا لساحرٌ عليمٌ (٣٤) يريدُ أنْ يُخرِجكُم من أرضِكُم بِسحْرِه فماذَا تأمُرونَ (٣٥) قالُوا أرجِهْ وأخاهُ وابعَثْ فى المَدائنِ حاشِرِينَ (٣٦) يأتُوكَ بكلِّ سحَّارٍ عَليمٍ (٣٧) فجُمِعَ السحرةُ لميقاتِ يومٍ معلومٍ (٣٨) وقيلَ للناسِ هَلْ أنتم مُجتمِعونَ (٣٩) لعلَّنَا نتبِعُ السَّحرةَ إنْ كانُوا هُمُ الغالبينَ (٤٠) فلمَّا جاء السحرةُ قالُوا لفِرعونَ أَئِنَّ لنَا لأجراً إنْ كنَّا نحنُ الغَالبينَ (٤١) قالَ نعمْ وإنكُم إذاً لمِنَ المقرَّبينَ » .

أى : قال فرعون الملأ المحيطين به - بعد أن زلزلته معجزة موسى - « إن هذا لساحر عليم » .

أى : لساحر بارع فى فن السحر ، فهو مع إعترافه بضخامة ما أتى به موسى ، يسميه سحرا .

ثم يضيف إلى ذلك قوله لهم : « يريد أن يخرجكم » هذا الساحر « من أرضكم » التى نشأتم عليها « فماذا تأمرون » أى : فبأى شىء تشيرون على وأنتم حاشيتى ومحل ثقتى ؟

وفى هذه الجملة الكريمة تصوير بديع لنفس هذا الطاغية وأمثاله . . .
إنه منذ قليل كان يرغى ويزبد . وإذا به بعد أن فاجأه موسى بمعجزته، يصاب بالذعر ويقول لمن زعم أنه ربهم الأعلى « فماذا تأمرون » ؟

وهكذا الطغاة عندما يضيق الخناق حول رقابهم يتذللون ويتباكون.. فإذا ما انفك الخناق من حول رقابهم، عادوا إلى طغيانهم وفجورهم.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال: «ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين، وبقي لا يدري أي طرفيه أطول، حتى زل عنه ذكر دعوى الألوهية. وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية. وارتعدت فرائصه، وانتفخ سحره - أي رئتــه - خوفا وفرقا، وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم: أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه وتوقعه وأحس به من جهة موسى - عليه السلام -....»[1].

ورد الملأ من قوم فرعون عليه بقولهم: «أرجه وأخاه» أي: أخر أمرهما. يقال: أرجأت هذا الأمر وأرجيته. إذا أخرته. ومنه أخذ لفظ المرجئة لتلك الفرقة التي تؤخر العمل وتقول: لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

«وابعث في المدائن حاشرين» أي: وابعث في مدن مملكتك رجالا من شرطتك يحشرون السحرة، أي: يجمعونهم عندك لتختار منهم من تشاء.

وقوله: «يأتوك بكل سحار عليم» مجزوم في جواب الأمر. أي: إن تبعثهم يأتوك بكل سحار فائق في سحره، عليم بفنونه ومداخله.

ولبى فرعون طلب مستشاريه، فأرسل في المدائن من يجمع له السحرة «فجمع السحرة» أي: المعروفون ببراعتهم فيه «لميقات يوم معلوم» أي: جمعوا وطلب منهم الإستعداد لمنازلة موسى - عليه السلام - في وقت معين هو «يوم الزينة» أي: يوم العيد. كما قال - تعالى - في آية أخــرى: قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى.

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٣١٠

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما فعله أعوان فرعون من حض للناس على حضور تلك المباراة فقال : « وقيل للناس هل أنتم مجتمعون » أى : فى ذلك اليوم المعلوم الذى ينازل فيه السحرة موسى فالمقصود بالاستفهام الحض على الحضور والحث على عدم التخلف .

والترجى فى قولهم « لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين » المقصود به ـ أيضا ـ حض السحرة على بذل أقصى جهدهم ليتغلبوا على موسى ـ عليه السلام ـ ، فكأنهم يقولون لهم : إبذلوا قصارى جهدكم فى حسن إعداد سحركم فنحن نرجو أن تكون الغلبة لكم ، فنكون معكم لا مع موسى ـ عليه السلام ـ .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ماقاله السحرة لفرعون عند التقائهم به فيقول : « فلما جاء السحرة قالوا لفرعون » بعد أن التقى بهم ليشجعهم على الفوز « أئن لنا لأجرا » مجزيا « أن كنا نحن الغالبين » لموسى ـ عليه السلام ـ .

وهنا يرد عليهم فرعون ، فيعدهم ، ويمنيهم ويقول : « نعم » أى : نعم لكم الأجر العظيم الذى يرضيكم ، وفضلا عن ذلك فستكونون عندى من الرجال المقربين إلى نفسى . والذين سأخصهم برعايتى ومشورتى .

وهكذا يعد فرعون السحرة ويمنيهم ، « ومايعدهم الشيطان إلا غرورا » .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما قال فرعون لهم بعد أن أعلنوا إيمانهم ، فقال ـ تعالى ـ :

« قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُم مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُم وَعِصِيَّهُم وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُم لَهُ قَبْلَ

أَنْ آذَنَ لَكُم ، إنّه لَكبيرُكُم الذى علمكُم السحرَ لأقطعَنَّ أيديَكُم وَأرجُلَكُم مِنْ خِلافٍ ولأصلبنكُم أجمعِينَ (٤٩) قالُوا لاضَيْرَ إنَّا إلَى ربّنَا منقلِبُونَ (٥٠) إنَّا نطمعُ أن يغفِرَ لنَا ربُّنَا خطَايَانَا أنْ كنَّا أوّلَ المؤمنينَ (٥١) » .

أي : « قال موسى للسحرة » - بعد أن أعدوا عدتهم لمنازلته ، ومن خلفهم فرعون وقومه يشجعونهم على الفوز قال لهم : « ألقوا ما أنتم ملقون » من السحر ، فسوف ترون عاقبة منازلتكم لى .

وأسلوب الآية الكريمة يشعر بعدم مبالاة موسى - عليه السلام - بهم أو بتلك الحشود التى من ورائهم ، فهو مطمئن إلى نصر ربه - سبحانه - له .

« فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا » أي: عند إلقائهم لتلك الحبال والعصى « بعزة فرعون » أي : بقوته وجبروته وسطوته « إنا لنحن الغالبون » لا موسى - عليه السلام - ولم تفصل السورة هنا مافصلته سورة الأعراف من أنهم حين ألقوا حبالهم وعصيهم « سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » أو ماوضحته سورة طه من أنهم حين ألقوا حبالهم : « أوجس فى نفسه خيفة موسى .... » .

ولعل السر فى عدم التفصيل هنا ، إن السورة الكريمة تسوق الأحداث متتابعة تتابعا سريعا ، تربط معها قلب القارىء وعقله بما ستسفر عنه هذه الأحداث من ظهور الحق ، ومن دحور الباطل .

ولذا جاء التعقيب السريع بما فعله موسى - عليه السلام - فقال - تعالى - : « فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف » أي تبتلع بسرعة ، وتأخذ بقسوة « ما يأفكون » أي : ما فعلوه وما يفعلونه من السحر ، الذى يقلبون به حقائق الأشياء عن طريق التمويه والتخييل . ورأى السحرة بأعينهم وعقولهم

وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث يقول فى حديثه الذ
رواه الشيخان: « ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إ
شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه ».

ثم يحكى - سبحانه - بعد ذلك موقف فرعون وقد رأى ماحطامه وزلز
فقال - تعالى - « قال » أى فرعون للسحرة « آمنتم له » أى : لموسى « قب
أن آذن لكم » بالإيمان به . . .

« إنه » أى : موسى - عليه السلام - « لكبيركم الذى علمكم السحر » أى
فأنتم متواطئون معه على هذه اللعبة « فلسوف تعلمون » ماأنزله بكم
من عذاب .

« لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف » أى : لأقطعن من كل واحد منكم

يده اليمنى مع رجله اليسرى . «ولأصلبنكم أجمعين» أي : فى جذوع النخل - كما جاء فى آية أخرى - وفالمتأمل فى قول فرعون - كما حكاه القرآن عنه يرى فيه الطغيان والكفر ، فهو يستنكر على السحرة إيمانهم بدون إذن .

ويرى فيه الكذب الباطل الذى قصد من ورائه تشكيك قومه فى صدق موسى وفى نبوته فهو يقول لهم : « إنه لكبيركم الذى علمكم السحر » .

ويرى فيه هذا التلبيس على قومه ، والتهديد الغليظ - شأن الطغاة فى كل زمان ومكان - فهو يقول للسحرة الذين صاروا مؤمنين : «فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين» أى: بدون إستثناء لواحد منهم .

ولم يلتفت السحرة إلى هذا التهديد والوعيد بعد أن إستقر الإيمان فى قلوبهم ، بل قالوا - كما حكى القرآن عنهم - : « لا ضير » مصدر ضاره الأمر يضوره ويضيره ضيرا ، أى : ضره وألحق به الأذى .

أى : قالوا - بكل ثبات وعدم مبالاة بوعيده - لا ضرر علينا من عقابك فسنتحمله صابرين فى سبيل الحق الذى آمنا به .

« إنا إلى ربنا منقلبون » أى : راجعون إليه ، فيجازينا على صبرنا .

« إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا » التى وقعنا فيها قبل الإيمان، كعبادة فرعون وكتعاطى السحر « أن كنا أول المؤمنين » بالحق بعد أن جاءنا .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان ما أمر به نبيه موسى -عليه السلام- وما حل بفرعون وقومه من هلاك بسبب كفرهم وبغيهم ، فقال - تعالى - :

« وأَوْحَيْنَا إلى موسَى أَنْ أَسْرِ بعبادِي إنكُم متَّبَعُون (٥٢) فأرسَلَ فِرعونُ فى المدائنِ حاشِرينَ (٥٣) إنَّ هؤلاء لشِرذِمةٌ قليلُونَ (٥٤) وإنَّهم لنا لغَائِظُون (٥٥) وإنَّا لجميعٌ حاذِرُونَ (٥٦) فأخرجنَاهُم منجنات

وعُيونٍ (٥٧) وكنوزٍ ومقامٍ كريمٍ (٥٨) كذلكَ وأورثناها بني إسرائيلَ (٥٩) فأتبعُوهمُ مُشرقينَ (٦٠) فلما تراءَ الجمعانِ قالَ أصحابُ مُوسَى إنَّا لمدرَكُونَ (٦١) قالَ كلاَّ إنَّ مَعِيَ ربِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فأوْحَينا إلَى موسَى أن اضربْ بعصَاكَ البحرَ فانفلقَ ، فكانَ كلُّ فِرْقٍ كالطَّودِ العظيمِ (٦٣) وأزْلَفنا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وأنجَيْنا موسَى وَمَنْ مَعَهُ أجمعينَ (٦٥) ثم أغرَقنا الآخَرينَ (٦٦) إنَّ في ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثرُهُمْ مُؤمنين (٦٧) وإنَّ ربَّكَ لَهُوَ العزيزُ الرحيمُ (٦٨)».

وقوله ـ سبحانه ـ : « وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ... » معطوف على كلام مقدور يفهم من سياق القصة .

والتقدير : وبعد أن انتصر موسى على السحرة نصرا جعلهم يخرون ساجدين لله ـ تعالى ـ وبعد أن مكث موسى فى مصر حينا من الدهر ، يدعو فرعون وقومه إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ فلم يستجيبوا له ...

بعد كل ذلك « أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى » أى : سر ببنى إسرائيل ليلا إلى جهة البحر وعبر ـ سبحانه ـ عنهم بعبادى . تلطفا بهم بعد أن ظلوا تحت ظلم فرعون مدة طويلة .

وقوله : « إنكم متبعون » تعليل للأمر بالإسراء . أى : سر بهم ليلا إلى جهة البحر ، لأن فرعون سيتبعكم بجنوده ، وسأقضى قضائى فيه وفى جنده .

والفاء فى قوله ـ تعالى ـ : « فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين » هى الفصيحة ، والحاشرين جمع حاشر : والمراد بهم الذين يحشرون الناس ويجمعونهم فى مكان معين ، لأمر من الأمور الهامة .

قالوا : جمعوا له جيشا كبيرا يتكون من مئات الآلاف من الجنود . أى :

وعلم فرعون بخروج موسى ومعه بنو إسرائيل . فأرسل جنوده ليجمعوا له الناس من المدائن المتعددة فى مملكته .

وبعد أن اكتمل عددهم، أخذ فى التهوين من شأن موسى ومن معه فقال: « إن هؤلاء لشرذمة قليلون ».

والشرذمة : الطائفة القليلة من الناس . وخصها بعضهم بالأخساء والسفلة منهم .

ومنه قولهم : هذا ثوب شرذام ، وثياب شرذام، أى. رديئة متقطعة .

أى : إن هؤلاء الذين خرجوا بدون إذنى وإذنكم ، لطائفة قليلة من الناس الذين هم بمنزلة العبيد والخدم لى ولكم .

« إنهم لنا لغائظون » أى: وإنهم بجانب قلتهم ، وخروجهم بدون إذننا ، يأتون بأقوال وبأفعال تغيظنا وتغضبنا ، على رأسها إقتراحهم علينا أن نترك ديننا .. »

« وإنا لجميع حاذرون » أى : متيقظون لمكائدهم ، ومحتاطون لمكرهم ، وممسكون بزمام الأمور حتى لا يؤثر فينا خداعهم .

يقال : حذر فلان حذرا ـ من باب تعب ـ بمعنى : استعد الأمر وتأهب له بيقظه .

وكلام فرعون هذا ـ الذى حكاه القرآن عنه ـ يوحى بهلعه وخوفه مما فعله موسى ـ عليه السلام ـ إلا أنه أراد أن يستر هذا الهلع والجزع بالتهوين من شأنه ومن شأن الذين خرجوا معه وبتحريض قومه على اللحاق بهم وتأديبهم ، وبالظهور بمظهر المستعد هو وقومه لمجابهة الأخطار والتمرد بكل قوة وحزم .

قال صاحب الكشاف : « والمعنى : أنهم ـ أى موسى ومن معه ـ لقلتهم

لا يبالى بهم، ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم، ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده. وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه. وقرىء: حذرون . . . والحذر: اليقظ. والحاذر: الذى يجدد حذره . . .»[1].

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما اقتضته إرادته ومشيئته فى فرعون وقومه فقال: «فأخرجناهم من جنات وعيون» أى: فأخرجناهم بقدرتنا وإرادتنا من «جنات».

أى: بساتين كانوا يعيشون فيها «وعيون» عذبة الماء كانوا يشربون منها.

«وكنوز» أى: وأموال كانت تحت أيديهم «ومقام كريم» أى: ومساكن حسنة جميلة كانوا يقيمون فيها.

أى: أخرجناهم من كل ذلك بقدرتنا ومشيئتنا، ليلقوا مصيرهم المحتوم وهو الغرق، بسبب إصرارهم على كفرهم وطغيانهم.

وقوله: «كذلك» خبر لمبتدأ محذوف. أى: الأمر كذلك.

وقوله: «وأورثناها بنى إسرائيل» أى: وأورثنا تلك الجنات والعيون والكنوز والمنازل الحسنة لبنى إسرائيل.

قال الجمل: «وقوله: «وأورثناها» أى: الجنات والعيون والكنوز لبنى إسرائيل، وذلك أن الله - عز وجل - رد بنى إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن الحسنة...

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ٣١٥

والظاهر أن هذه الجملة اعتراضية، وأن قوله - بعد ذلك - «فأتبعوهم» معطوف على قوله - تعالى - «فأخرجناهم من جنات وعيون . . .» لأن إعطاء البساتين وما بعدها لبنى إسرائيل، كان بعد هلاك فرعون وقومه.»(١)

ومن العلماء من يرى أن بنى إسرائيل لم يعودوا لمصر بعد هلاك فرعون وقومه، وأن الضمير فى قوله - تعالى - «وأورثناها» لا يعود إلى الجنات والعيون التى أخرجَ الله - تعالى - منها فرعون وقومه. فيقول:

«ولا يعرف أن بنى إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة، وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه، لذلك يقول المفسرون إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه. فهى وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم»(٢).

وقيل: المراد بالوراثة هنا: وراثة ما استعاره بنو إسرائيل من حلى آل فرعون عند خروجهم من مصر مع موسى - عليه السلام - .

ويبدو لنا أنه لا مانع من عودة الضمير فى قوله - تعالى - «وأورثناها» إلى الجنات والعيون والكنوز التى أخرج الله - تعالى - منها فرعون وقومه، بأن عاد موسى ومن معه إلى مصر - لفترة معينة - بعد هلاك فرعون وملئه، ثم خرجوا منها بعد ذلك مواصلين سيرهم إلى الأرض المقدسة، التى أمرهم موسى - عليه السلام - بدخولها.

ولعل مما يؤيد ما نرجحه قوله - تعالى - «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٢٨٠

(٢) فى ظلال القرآن ج١٩ ص٢١٢

على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون »(١).

وقوله - سبحانه - : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »(٢).

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ماحدث من فرعون وقومه ، وما قاله بنو إسرائيل عندما شاهدوهم ، فقال - تعالى - : « فأتبعوهم مشرقين . . . »

أى : أخرجنا فرعون وقومه من أموالهم ومساكنهم . . . فساروا مسرعين خلف موسى ومن معه ، « فأتبعوهم » أى : فلحقوا بهم « مشرقين » أى : فى وقت شروق الشمس يقال: أشرق فلان إذا داخل فى وقت الشروق كأصبح إذا دخل فى وقت الصباح .

« فلما تراءا الجمعان » أى : تقاربا بحيث يرى كل فريق خصمه.

« قال » بنو إسرائيل لنبيهم موسى - عليه السلام - والخوف يملأ نفوسهم: « إنا لمدركون » أى : سيدركنا بعد قليل فرعون وجنوده ، ولا قدرة لنا . . على قتالهم . . .

وهنا رد عليهم موسى - عليه السلام - بثقة وثبات بقوله : « كلا » أى : كلا لن يدركوكم ، فاثبتوا ولا تجزعوا ، إن معى ربى سيهدين » .

بهذا الجزم والتأكيد رد موسى على بنى إسرائيل ، وهو رد يدل على قوة إيمانه ، وثبات يقينه ، وثقته التى لاحدود لها فى نصر الله - تعالى - له، وفى هدايته إياه إلى طريق الفوز والفلاح .

ولم يطل انتظار موسى لنصر الله - تعالى - بل جاءه سريعا ، متمثلا فى قوله

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٧

(٢) سورة القصص الآية ٥، ٦

. سبحانه ـ « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر » أي: البحر الأحمر ـ على أرجح الأقوال ـ وهو الذى كان يسمى ببحر القلزم..

فضربه « فانفلق » إلى إثنى عشر طريقا « فكان كل فرق » أى : قسم منه « كالطود العظيم » أى : كالجبل الشامخ الكبير.

وسار موسى ومن معه فى الطريق اليابس بين أمواج البحر ـ بقدرة الله تعالى ـ ، « وأزلفنا ثم الآخرين » أى : وقربنا ـ بقدرتنا وحكمتنا ـ هنالك القوم الآخرين وهم فرعون وجنوده . أى: قربناهم من موسى وقومه، فدخلوا وراءهم فى الطريق الذى سلكوه بين أمواج البحر ، فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن خرج موسى ومن معه سالمين، أما فرعون وجنوده فقد نطبق عليهم البحر فأغرقهم أجمعين .

وصدق الله إذ يقول : « وأنجينا » ـ أى : بقدرتنا ورحمتنا ـ موسى ومن معه أجمعين » من الغرق ومن لحاق فرعون بهم « ثم أغرقنا الآخرين » وهم فرعون وجنوده .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه القصة ـ كما ختم غيرها ـ بقوله: « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

أى : إن فى ذلك الذى قصصناه عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ من قصة موسى وفرعون ، « لآية » عظيمة تدعو إلى إخلاص العبادة والطاعة لنا ، ومع ذلك فلم يؤمن بما جاء به نبينا موسى ؛ إلا عدد قليل ، وإن ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ « لهو العزيز » .

أى : الغالب المنتقم من أعدائه « الرحيم » أى : الواسع الرحمة بأوليائه، حيث جعل العاقبة لهم.

وهكذا ساق لنا ـ سبحانه ـ هنا جانبا من قصة موسى ـ عليه السلام ـ بهذا الأسلوب البديع ، لتكون عبرة وعظة لقوم يؤمنون.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال ـ تعالى ـ :

« واتلُ عليهِمْ نبأَ إبراهيمَ (٦٩) إذ قالَ لأبيهِ وقومِهِ ما تعبُدونَ (٧٠) قالُوا نعبُد أَصناماً فنظلُّ لهاَ عاكفِينَ (٧١) قالَ هل يسمعونكُم إذ تدعُونَ (٧٢) أو ينفعونكُم أو يضرُّونَ (٧٣) قالُوا وَجدْنَا آباءنَا كذلِكَ يفعلُونَ (٧٤) قالَ أفرأيتُم ما كنتُم تعبدُونَ (٧٥) أنتم وآباؤكُم الأقْدَمونَ (٧٦) فإنَّهم عدوٌّ لِي إلا ربَّ العالمينَ (٧٧) الذي خلقَنِي فهوَ يهدِينِ (٧٨) والذي هو يطعِمُنِي ويسقِينِ (٧٩) وإذَا مرضت فهوَ يَشفِينِ (٨٠) والذي يميتُنِي ثم يُحيينِ (٨١) والذي أطمع أن يغفِرَ لِي خَطيئتِي يومَ الدينِ (٨٢) ربِّ هَبْ لي حُكما وألْحِقْنِي بالصالحِينَ (٨٣) واجْعَلْ لِي لسانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْني من ورَثةِ جنةِ النعيم (٨٥) وَاغفِرْ لأبي إنَّه كانَ من الضَّالِّينَ (٨٦) ولاتُخزِنِي يومَ يبعثُونَ (٨٧) يومَ لاينفعُ مالٌ ولابنونَ (٨٨) إلاَّ مَن أَتَى اللهَ بقلبٍ سَليم (٨٩) » .

وقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد وردت في القرآن في سور متعددة ، وبأساليب متنوعة ، وردت في سورة البقرة، وكان معظم الحديث فيها يدور حول بنائه للبيت الحرام هو وابنه إسماعيل، وحكاية تلك الدعوات الخاشعات التي تضرع بها إلى ربه .

ووردت في سورة الأنعام ، وكان معظم الحديث فيها يدور حول إقامته الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ عن طريق التأمل في مشاهد هذا الكون .

ووردت فى سورة هود ، وكان معظم الحديث فيها يدور حول تبشيره بإسحاق ..

ووردت فى سورة إبراهيم ، وكان معظم الحديث فيها يدور حول ماتوجه به إلى ربه من دعاء بعد أن ترك بعض ذريته فى جوار بيت الله الحرام.

ووردت فى سورة الحجر . وكان معظم الحديث فيها يدور حول مادار بينه وبين الملائكة من مناقشات ...

ووردت فى سورة مريم ، وفيها حكى القرآن تلك النصائح الحكيمة التى وجهها لأبيه وهو يدعوه لعبادة الله - تعالى - وحده .

ووردت فى سورة الأنبياء . وفيها عرض القرآن لما دار بينه وبين قومه من مجادلات ومن تحطيم الأصنام ، ومن إلقائهم إياه فى النار فصارت بأمر الله - تعالى - بردا وسلاما عليه .

أما هنا فى سورة الشعراء ، فيحكى لنا - سبحانه - مادار بينه وبين قومه من مناقشات ، وما توجه به إلى خالقه من دعوات .

لقد افتتحت بقوله - تعالى - : « واتل عليهم نبأ إبراهيم » أى : واقرأ - أيها الرسول الكريم - على قومك - أيضا - نبأ رسولنا إبراهيم - عليه السلام - الذى يزعم قومك أنهم ورثته ، وأنهم يتبعونه فى ديانته، مع أن إبراهيم برىء منهم ومن شركهم ، لأنه ما أرسل إلا لنهى أمثالهم عن الإشراك بالله - تعالى - .

وقوله : « إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون » منصوب على الظرفية . أى : اقرأ عليهم نبأه وقت أن قال لأبيه وقومه على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة: أى شىء هذا الذى تعبدونه من دون الله - عز وجل - .

فأجابوه بقولهم : « نعبد أصناما فنظل لها عاكفين » وكان يكفيهم فى الجواب

أن يقولوا : نعبد أصناما ، ولكنهم لغبائهم وجهلهم قصدوا التباهي والتفاخر بهذه العبادة الباطلة أي : نعبد أصناما منحوتة من الحجر أومما يشبهه، ونداوم على عبادتها ليلا ونهارا ، ونعكف على التقرب لها كما يتقرب الحبيب إلى حبيبه.

وهكذا ، عندما تنحط الأفهام، تتباهى بما يجب البعد عنه، وتفتخر بالمرذول من القول والفعل . . .

وقد رد عليهم إبراهيم - عليه السلام - بما يوقظهم من جهلهم لو كانوا يعقلون ، فقال لهم : «هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون».

أى : قال لهم إبراهيم على سبيل التنبيه والتبكيت : هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله ، هل تسمع دعاءكم إذا دعوتموها ، وهل تحس بعبادتكم لها إذا عبدتموها ، وهل تملك أن تنفعكم بشىء من النفع أو بشىء من الضر ؟

ولم يستطع القوم أن يواجهوا إبراهيم بجواب . بعد أن ألقمهم حجرا بنصاعة حجته ، فلجأوا إلى التمسح بآبائهم فقالوا : «بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون» .

أى : قالوا له : إن هذه الأصنام هى كما قلت يا إبراهيم لا تسمع دعاءنا، ولا تنفعنا ولا تضرنا ، ولكننا وجدنا آباءنا يعبدونها ، فسرنا على طريقتهم فى عبادتها ، فهم قالوا ما قاله أمثالهم فى الجهالة فى كل زمان ومكان «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» .

وأمام هذا التقليد الأعمى، نرى إبراهيم -عليه السلام- يعلن عداوته لهم ولمعبوداتهم الباطلة ، ويجاهرهم بأن عبادته إنما هى لله - تعالى - وحده فيقول:

«أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين» .

أى : قال لهم إبراهيم على سبيل الإنكار والتأنيب : أفرأيتم وشاهدتم هذه الأصنام التى عبدتموها أنتم وآباؤكم الأقدمون من دون الله - تعالى -

إنها عدو لى لأن عبادتها باطلة لكن الله - تعالى - رب العالمين هو ولي وصاحب الفضل على فى الدنيا والآخرة، فلذا أعبده وحده.

فقوله «إلا رب العالمين» استثناء منقطع من ضمير «إنهم».

قال صاحب الكشاف: وإنما قال: «عدو لى» تصويرا للمسألة فى نفسه، على معنى: أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو فاجتنبتها وآثرت عبادة الذى الخير كله منه، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولا، وبنى عليها تدبير أمره، لينظروا فيقولوا: مانصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، ليكون أدعى لهم إلى القبول، ولو قال: فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة، ولأنه دخل فى باب من التعريض، وقد يبلغ التعريض للمنصوح مالا يبلغه التصريح. لأنه يتأمل فيه، فربما قاده التأمل إلى التقبل. ومنه مايحكى عن الشافعى - رحمه الله -: أن رجلا واجهه بشىء، فقال: لو كنت بحيث أنت، لاحتجت إلى الأدب، وسمع رجل ناسا يتحدثون فى الحجر فقال: ماهو بيتى ولا بيتكم...»[1].

ثم حكى القرآن الكريم، ما وصف به إبراهيم خالقه من صفات كريمة تليق بجلاله - سبحانه - فقال: «الذى خلقنى فهو يهدين» أى: أخلص عبادتى لرب العالمين، الذى أوجدنى بقدرته، والذى يهدينى وحده إلى مايصلح شأنى فى دنياى وفى آخرتى.

قال الجمل: «وقوله: «الذى خلقنى» يجوز فيه أوجه: النصب على النعت لرب العالمين أو البدل أو عطف البيان... أو الرفع على الابتداء، وقوله «فهو يهدين» جملة اسمية فى محل رفع خبر له»[2].

وقوله «والذى هو يطعمنى ويسقين» معطوف على ماقبله. أى: وهو

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣١٨.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٨٢.

ـ سبحانه ـ وحده الذي يطعمني ويسقيني من فضله، ولو شاء لأمسك عني ذلك.

وأضاف المرض إلى نفسه في قوله « وإذا مرضت فهو يشفين» وإن كان الكل من الله ـ تعالى ـ ، تأدبا مع خالقه ـ عز وجل ـ وشكرا له ـ سبحانه ـ على نعمة الخلق والهداية ، والإطعام والإسقاء والشفاء . . .

والمراد بالإحياء في قوله « والذي يميتني ثم يحيين» : إعادة الحياة إلى الميت يوم القيامة أي : ومن صفات رب العالمين الذي أخلص له العبادة، أنه ـ سبحانه ـ الذي بقدرته وحده أن يميتني عند حضور أجلي ، ثم يعيدني إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والحساب .

وجاء العطف « بثم » في قـــوله « ثم يحيين » لاتساع الأمر بين الإماتة في الدنيا والإحياء في الآخرة .

ثم ختم إبراهيم هذه الصفات الكريمة بقوله : «والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » أي : وهو وحده الذي أطمع في أن يغفر لي ذنوبي يوم ألقاه ، لأنه لا يقدر على ذلك أحد سواه ـ عز وجل ـ .

وفي هذه الآية أسمى درجات الأدب من إبراهيم مع ربه ـ سبحانه ـ ، لأنه يوجه طمعه في المغفرة إليه وحده ، ويستعظم ـ عليه السلام ـ ما صدر منه من أمور قد تكون خلاف الأولى ، ويعتبرها خطايا ، هضما لنفسه ، وتعليما للأمة أن تجتنب المعاصي ، وأن تكون منها على حذر ، وأن تفوض رجاءها إلى الله ـ تعالى ـ وحده .

وبعد أن أثنى إبراهيم ـ عليه السلام ـ على ربه بهذا الثناء الجليل، اتبع ذلك بتلك الدعوات الخاشعات فقال : « رب هب لي حكما » أي : علما واسعا مصحوبا بعمل نافع .

« وألحقني بالصالحين » من عبادك الذين رضيت عنهم ـ ورضوا عنك ، بحيث ترافقني بهم في جنتك .

« واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » أى : واجعل لى ذكراً حسناً ، وسمعة طيبة ، وأثراً كريما فى الأمم الأخرى التى ستأتى من بعدى .

ولقد أجاب - سبحانه - له هذه الدعوة ، فجعل أثره خالداً ، وجعل من ذريته الأنبياء والصالحين ، وعلى رأسهم سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

« واجعلنى من ورثة جنة النعيم » أى : واجعلنى فى الآخرة عندما ألقاك - يا ربى - للحساب ، من عبادك الذين أكرمتهم بدخول جنتك وبوراثتها فضلا منك وكرما .

« واغفر لأبى إنه كان من الضالين » عن طريق الحق ، فإنى قد وعدته بأن أستغفر له عندك - يا إلهى - .

قال ابن كثير : « وهذا مما رجع عنه إبراهيم - عليه السلام - كما قال - تعالى : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم »(١) .

وقطع - تعالى - الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال : « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده . إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء . . . »(٢) .

« ولا تخزنى » أى : ولا تفضحنى « يوم يبعثون » أى : يوم تبعث عبادك فى الآخرة للحساب ، بل استرنى وأجرنى وتجاوز عن تقصيرى .

« يوم لا ينفع مال ولا بنون » من أحد لديك .

« إلا من أتى الله بقلب سليم » أى : واسترنى - يا إلهى - ولا تفضحنى يوم القيامة . يوم لا ينتفع الناس بشىء من أموالهم ولا من أولادهم ، ولكنهم

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٤
(٢) سورة الممتحنة الآية ٤

ينتفعون بإخلاص قلوبهم لعبادتك . وبسلامتها من كل شرك أو نفاق . وبصيانتها من الشهوات المرذولة ، والأفعال القبيحة » .

وهكذا نرى فى قصة إبراهيم : الشجاعة فى النطق بكلمة الحق ، حيث جابه قومه وأباه ببطلان عبادتهم للأصنام .

ونرى الحجة الدامغة التى جعلت قومه لا يجدون عذرا يعتذرون به عن عبادة الأصنام سوى قولهم : « وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » .

ونرى الثناء الحسن الجميل منه على ربه - عز وجل - : « الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين ... » .

ونرى الدعاء الخاشع الخالص الذى يتضرع به إلى خالقه - عز وجل - ، لكى يرزقه العلم والعمل ، وبأن يحشره مع الصالحين ، وبأن يجعل له أثرا طيبا بعد وفاته بين الأمم الأخرى ، وبأن يجعله من الوارثين لجنة النعيم ، وبأن يستره بستره الجميل يوم القيامة ، يوم لا ينفع الناس شىء سوى إخلاص قلوبهم وعملهم الصالح . وهى دعوات يرى المتأمل فيها شدة خوف إبراهيم - وهو الحليم الأواه المنيب - من أهوال يوم الحساب .

نسأل الله - تعالى - بفضله وكرمه ، أن يجنبنا إياها ، وأن يسترنا بستره الجميل .

* * *

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مشهدا من مشاهد يوم القيامة ، ويحكى أقوال الغاوين وحسراتهم ... فيقول :

« وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ

أجمعُونَ (٩٥) قالُوا وهُمْ يختَصِمُونَ (٩٦) تاللهِ إنْ كُنَّا لفِى ضَلاَلٍ مبِينٍ (٩٧) إذ نُسوِّيكُم بربِّ العالمينَ (٩٨) وَمَا أَضلَّنَا إلاَّ المجرمُونَ (٩٩) فما لَنَا من شافِعِينَ (١٠٠) ولا صديقٍ حميمٍ (١٠١) فلو أنَّ لَنا كرَّةً فنكونَ من المؤمنينَ (١٠٢) إنَّ فى ذلكَ لآيةً وما كانَ أَكثرُهُمْ مؤمنين (١٠٣) وَإنَّ ربَّكَ لَهُوَ العزيزُ الرحيمُ (١٠٤) ».

وقوله - سبحانه - : « وأزلفت الجنة .... » من الإزلاف بمعنى القرب والدنو .

أى : وقربت الجنة يوم القيامة للمتقين ، الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضاه الله - تعالى - ، وصارت بحيث يشاهدونها ويتلذذون برؤيتها .

« وبرزت الجحيم للغاوين » أى : أما الغاوون الذين استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الغواية على الهداية ، فقد برزت الجحيم لهم بأهوالها وسعيرها ثم قيل لهؤلاء الكافرين على سبيل التقريع والتأنيب : « أين ما كنتم تعبدون من دون الله » أى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا من دون الله - تعالى - وتزعمون أنها شفعاؤكم عنده ؟!

« هل ينصرونكم » الآن من هذا العذاب المعد لكم « أو ينتصرون » هم من العذاب الذى سيحل بهم معكم ؟

كلا ثم كلا ، إنكم وهم حصب جهنم ، وستدخلونها جميعا خاسئين .

وليس المقصود بالسؤال الاستفهام ، وإنما المقصود به التقريع والتوبيخ ، ولذا لا يحتاج إلى جواب .

ثم ذكر - سبحانه - ما حل بهؤلاء الأشقياء من عذاب فى أعقاب هذا التأنيب فقال : « فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود إبليس أجمعون » .

والكبكبة : تكرير الكب ، وهو الإلقاء على الوجه مرة بعد أخرى ، وضمير الجمع للآلهة التى عبدها الكافرون من دون الله - تعالى - ، وجيء بضمير العقلاء على سبيل التهكم بهم ، أى : فألقى المعبودون والعابدون فى جهنم، ومعهم جنود إبليس كلهم ، سواء أكانوا من الشياطين أم من أتباعه من الجن والإنس .

وفى التعبير بكبكبوا تصوير صادق مؤثر لحالة هؤلاء الضالين ، وهم يتساقطون - والعياذ بالله - فى جهنم، بلا رحمة ، ولا عناية ، ولا نظام ، بل بعضهم فوق بعض وقد تناثرت أشلاؤهم . . .

ثم بين - سبحانه - ما قاله الغاوون لآلهتهم فقال : « قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . . . » .

أى : قال العابدون لمعبوديهم على سبيل المخاصمة لهم ، والبرؤ منهم : تالله ما كنا إلا فى ضلال مبين، وقت أن كنا فى الدنيا نسويكم برب العالمين فى العبادة مع أنكم خلق من خلقه لا تضرون ولا تنفعون.

« وما أضلنا » عن اتباع طريق الحق « إلا المجرمون » من شياطين الإنس والجن . الذين زينوا لنا الكفر والفسوق والعصيان، وصدونا عن الإيمان والطاعة والهداية .

« فما لنا » اليوم « من شافعين » يشفعون لنا عند ربنا. وما لنا - أيضاً - من « صديق حميم » ، أى : مخلص فى صداقته ، يدافع عنا عند ربنا ، ويهتم بأمرنا فى هذا الموقف العصيب .

قال الآلوسى: والمراد التلهف والتأسف على فقد شفيع يشفع لهم مما هم فيه ، أو صديق شفيق يهمه ذلك . وقد ترقوا لمزيد انحطاط حالهم فى التأسف، حيث نفوا - أولا - أن يكون لهم من ينفعهم فى تخليصهم من العذاب بشفاعته ، ونفوا - ثانيا - أن يكون لهم من يهمه أمرهم ، ويشفق عليهم ،

ويتوجع لهم، أو يخلصهم»[1].

و «لو» في قوله - تعالى - «فلو أن لنا كرة ....» للتمني الدال على كال التحسر والكرة: الرجعة إلى الدنيا مرة أخرى، لتدارك مافاتهم من الإيمان.

أي: فياليت لنا عودة إلى الدنيا مرة أخرى، فنستدرك مافاتنا من طاعة لله - تعالى - «ونكون من المؤمنين» الذين أزلفت الجنة لهم، وأبعدت عنهم النار التي نحن مخلدون فيها.

ثم ختم - سبحانه - قصة إبراهيم بما ختم به قصة موسى - عليهما السلام - فقال: «إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ....».

إن في ذلك الذي ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن حال إبراهيم مع قومه ومع أبيه، وعن أهوال يوم القيامة، إن ذلك كله لحجة وعظة لمن أراد أن يؤمن ويعتبر، ومع ذلك فإن أكثر قوم إبراهيم ما كانوا مؤمنين «وإن ربك لهو العزيز الرحيم».

* * *

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة نوح مع قومه، فقال - تعالى -:

«كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا

(١) تفسير الآلوسي ج ١٩ ص ١٠٤.

إلاَّ نذيرٌ مُبينٌ (١١٥) قالُوا لئنْ لمْ تَنتهِ يانوحُ لتكونَنَّ منَ المرجُومينَ (١١٦)
قالَ ربِّ إنَّ قومِي كذَّبُونِ (١١٧) فافتَحْ بيني وبينَهم فتحاً ونجِّني
ومَن معِيَ منَ المؤمنينَ (١١٨) فأنجيناه ومَنْ معَهُ في الفُلكِ المشحُونِ (١١٩)
ثم أغرقنَا بعدُ الباقينَ (١٢٠) إنَّ في ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثرُهُم
مؤمنينَ (١٢١) وإنَّ ربَّكَ لهُوَ العزيزُ الرحيمُ (١٢٢) » .

تلك هي قصة نوح مع قومه ، كما وردت في هذه السورة ، وقد ذكرت في سور أخرى منها : سور الأعراف ، وهود ، والمؤمنون ، ونوح ... ولكن بأساليب أخرى .

وينتهي نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم ، وقد ذكر نوح في القرآن في ثلاث وأربعين موضعا .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نوحا ، ليدلهم على طريق الرشاد .

وقوم الرجل : أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد . وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا لمجاورته لهم .

قال الآلوسي : « والقوم - كما في المصباح - يذكر ويؤنث ، وكذلك كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر ، ولذا يصغر على قويمة ، وقيل : هو مذكر ولحقت فعله علامة التأنيث على إرادة الأمة والجماعة منه .. »[1] .

والمراد بالمرسلين في قوله - تعالى - : « كذبت قوم نوح المرسلين » نبيهم نوحا - عليه السلام - وعبر عنه بذلك ، لأن تكذيبهم له ، بمثابة التكذيب لجميع الرسل ، لأنهم قد جاءوا جميعا برسالة واحدة في أصولها التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان .

(١) تفسير الآلوسي جـ ١٩ ص ١٠٦ .

و «إذ» في قوله - تعالى - : «إذ قال لهم أخوهم نوح» أى : كذبوا نبيهم نوحا وقت أن قال لهم ناصحا ومنذرا «ألا تتقون» أى : ألا تتقون الله - تعالى - الذى خلقكم ورزقكم، فتخلصوا له العبادة وتتركوا عبادة غيره.

ووصفه - سبحانه - بالأخوة لهم، لأنه كان واحدا منهم يعرفون حسبه ونسبه ونشأته بينهم.

ثم علل نصحه لهم بقوله - كما حكى القرآن عنه - : «إنى لكم رسول أمين» آمركم بتقوى الله - تعالى - لأنى رسول معروف بينكم بالأمانة وعدم الخيانة أو الغش أو المخادعة.

ومادام أمرى كذلك : «فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه» أى على هذا النصح «من أجر» دنيوى «إن أجرى» فيما أدعوكم إليه «إلا على رب العالمين» فهو الذى أرسلنى إليكم، وهو الذى يتفضل بمنحى أجرى لا أنتم..

ولقد بينت لكم حقيقة أمرى «فاتقوا الله وأطيعون».

وهكذا نرى أن نوحا قد سلك مع قومه أحكم الطرق فى دعوتهم إلى الله، فهو يحضهم ثلاث مرات على تقوى الله، بعد أن يبين لهم أخوته لهم، وأمانته عندهم، وتعففه عن أخذ أجر منهم فى مقابل ما يدعوهم إليه من حق وخير، ومصارحته إياهم بأن أجره إنما هو من الله رب العالمين، وليس من أحد سواه.

فماذا كان ردهم على هذا القول الحكيم لنبيهم؟ لقد حكى القرآن ردهم فقال : «قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون».

والأرذلون : جمع الأرذل. وهو الأقل من غيره فى المال والجاه والنسب.

أى : قال قوم نوح له عندما دعاهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - : يا نوح أنؤمن لك، والحال أن الذين اتبعوك من سفلة الناس وفقرائهم وأصحاب الحرف الدنيئة فينا..؟

وهذا المنطق المرذول قد حكاه القرآن فى كثير من آياته ، على ألسنة المترفين ، وهم يردون على أنبيائهم عندما يدعونهم إلى الدين الحق ...

وهنا يرد عليهم نوح ردا حكيما فيقول: «وما علمى بما كانوا يعملون. إن حسابهم إلا على ربى ...»

أى: قال لهم على سبيل الاستنكار لما واجهوه به : وأى علم لى بأعمال أتباعى ، إن الذى يعلم حقيقة نواياهم وأعمالهم هو الله - تعالى - أما أنا فوظيفتى قبول أعمال الناس على حسب ظواهرها .

وهؤلاء الضعفاء - الأرذلون فى زعمكم - ليس حسابهم إلا على الله - تعالى - وحده ، فهو أعلم ببواطنهم وبأحوالهم منى ومنكم «لو تشعرون» أى : لو كنتم من أهل الفهم والشعور بحقائق الأمور لا بزيفها ، لعلمتم سلامة ردى عليكم ولكنكم قوم تزنون الناس بميزان غير عادل ، لذا قلتم ماقلتم .

ثم يحسم الأمر معهم فى هذه القضية فيقول : «وما أنا» بحال من الأحوال «بطارد المؤمنين» الذين اتبعونى وصدقونى وآمنوا بدعوتى سواء أكانوا من الأرذلين - فى زعمكم - ، أم من غيرهم ، فما أنا «إلا نذير مبين» أى : ليست وظيفتى إلا الإنذار الواضح للناس بسوء المصير ، إذا ما استمروا على كفرهم ، سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء .

فأنت ترى أن نوحا - عليه السلام - قد جمع فى رده عليهم ، بين المنطق الرصين الحكيم ، وبين الحزم والشجاعة والزجر الذى يخرس ألسنتهم .

لذا نراهم وقد أخرسهم المنطق المستقيم الذى سلكه نوح معهم ، يلجأون إلى التهديد والوعيد ، فيقولون لنبيهم - عليه السلام - : «لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين» .

أى : إذا لم تكف يانوح عن مجادلتك لنا ، وعن دعوتك إيانا إلى ترك عبادة آلهتنا ، لتكونن من المرجومين منا بالحجارة حتى تموت .

وهكذا الطغاة يلجأون إلى القوة والتهديد والوعيد، عند مايجدون أنفسهم وقد حاصرهم أصحاب الحق من كل جوانبهم ، بالحجة الواضحة ، وبالرأى السديد . . .

ويئس نوح -عليه السلام - من إيمان قومه ، بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وبعد أن سمع منهم مايدل على رسوخهم فى الكفر والضلال ، تضرع إلى ربه وقال : « رب إن قومى كذبون » ، واستمروا على هذا التكذيب تلك القرون المتطاولة « فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين » أى : فاحكم بقدرتك العادلة بينى وبينهم حكما من عندك ، تنجى به أهل الحق . وتمحق به أهل الباطل.

وسمى الحكم فتحا . لما فيه من إزالة الإشكال فى الأمر ، كما أن فتح الشىء المغلق ، يؤدى إلى إزالة هذا الإغلاق . ولذا قيل للحاكم فاتح . لفتحه أغلاق الحق.

ثم حكى - سبحانه - أنه قد استجاب لنوح دعاءه فقال : فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين .

والفلك - كما يقول الآلوسى - : يستعمل الواحد وللجمع . وحيث أتى فى القرآن الكريم فاصلة استعمل مفرداً . وحيث أتى غير فاصلة استعمل جمعا .

والمشحون : المملوء بهم وبكل مايحتاجون إليه من وسائل المعيشة .

أى : فاستجبنا لعبدنا نوح دعاءه. فأنجيناه ومن معه من المؤمنين فى السفينة المملوءة بهم . وبما هم فى حاجة إليه ، ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه على كفرهم وضلالهم . . .

« إن فى ذلك » الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن نوح وقومه « لآية » كبرى على وحدانيتنا وقدرتنا « وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ».

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك، جانبا من قصة هود - عليه السلام - مع قومه، قال - تعالى -:

« كذَّبتْ عادٌ المرسَلينَ (١٢٣) إذ قال لهُم أخوهُم هودٌ ألا تتقونَ (١٢٤) إني لكُم رسولٌ أمينٌ (١٢٥) فاتقُوا اللهَ وأطيعونِ (١٢٦) وما أسألكُم عليه مِنْ أجرٍ إن أجْرِيَ إلاَّ عَلَى ربِّ العالمينَ (١٢٧) أتبنُونَ بكُلِّ ريعٍ آيةً تعبثُونَ (١٢٨) وتتخذُونَ مصانعَ لعلكُم تخلُدونَ (١٢٩) وإذَا بطَشتُم بطَشتُم جبَّارين (١٣٠) فاتقوا اللهَ وأطيعونِ (١٣١) واتقوا الذى أمدَّكُم بما تعلَمونَ (١٣٢) أمدَّكُم بأنعامٍ وبَنينَ (١٣٣) وجناتٍ وعيونٍ (١٣٤) إني أخافُ عليكُم عذابَ يومٍ عظيمٍ (١٣٥) قالُوا سواءٌ علينا أوعظتَ أمْ لمْ تكُن من الواعظِينَ (١٣٦) إنْ هذَا إلاَّ خلقُ الأولينَ (١٣٧) وما نحنُ بمعذَّبينَ (١٣٨) فكذَّبُوه فأهلكناهُم إن فى ذلِكَ لآيةً وما كانَ أكثرهُم مؤمنينَ (١٣٩) وإنَّ ربَّكَ لهوَ العزيزُ الرحيمُ (١٤٠) ».

وقد وردت قصة هود مع قومه فى سور شتى منها: سورة الأعراف، وهود، والأحقاف...

وينهى نسب هود - عليه السلام - إلى نوح - عليهما السلام -.

وقومه هم قبيلة عاد - نسبة إلى أبيهم الذى كان يسمى بهذا الاسم - وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن - والأحقاف جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل -.

وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله - تعالى - نبيهم هودا لينهاهم عن

ذلك ، وليأمرهم بعبادة الله وحده ، وبشكره - سبحانه - على مازهبم من قوة وغنى .

وقد افتتح هود نصحه لقومه ، بحضهم على تقوى الله وإخلاص العبادة له وببيان أنه أمين فى تبليغ رسالة الله - تعالى - إليهم ، فهو لا يكذب عليهم ولا يخدعهم ، وببيان أنه لا يسألهم أجرا على نصحه لهم ، وإنما يلتمس الأجر من الله - تعالى - وحده .

وقد سلك فى ذلك المسلك الذى اتبعه جده - عليه السلام - مع قومه ، وسار عليه الأنبياء من بعده .

ثم استنكر هود - عليه السلام - ما كان عليه قومه من ترف وطغيان فقال لهم : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون » .

والريع بكسر الراء - جمع ريعة ، وهو المكان المرتفع من الأرض . أو الجبل المرتفع . . وقيل: المراد به أبراج الحمام كانوا يبنونها للهو واللعب والأكثرون على أن المراد به : المكان المرتفع ومنه : ريع النبات ، وهو ارتفاعه بالزيادة .

أى : أتبنون - على سبيل اللهو واللعب - فى كل مكان مرتفع ، بناء يعتبر آية وعلامة على عبثكم وترفكم ، وغروركم .

« وتتخذون » أى : وتعملون « مصانع » أى : قصورا ضخمة متينة ، أو حياضا تجمعون فيها مياه الأمطار . . « لعلكم تخلدون » أى : عاملين عمل من يرجو الخلود فى هذه الحياة الفانية « وإذا بطشتم » أى : وإذا أردتم السطو والظلم والبغى على غيركم « بطشتم جبارين »

أى : أخذتموه بعنف وقهر وتسلط دون أن تعرف الرحمة إلى قلوبكم سبيلا .

فأنت ترى ان هودا - عليه السلام - قد استنكر على قومه تطاولهم فى

البنيان بقصد التباهي والعبث والتفاخر ، لا بقصد النفع العام لهم ولغيرهم ، كما استنكر عليهم إنصرافهم عن العمل الصالح الذي ينفعهم في آخرتهم، وانهماكهم في التكاثر من شئون دنياهم حتى لكأنهم مخلدون فيها ، كما استنكر عليهم ـ كذلك ـ قسوة قلوبهم ، وتحجر مشاعرهم ، وإنزالهم الضربات القاصمة بغيرهم بدون رأفة أو شفقة .

وبعد نهيه إياهم عن تلك الرذائل ، أمرهم بتقوى الله وطاعته وشكره على نعمه فقال : « فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .

أي : اتركوا هذه الرذائل ، واتقوا الله وأطيعون في كل ما آمركم به ، أو أنهاكم عنه ، واتقوا الله ـ تعالى ـ الذي أمدكم بألوان لا تحصى من النعم ، فقد أمدكم بالأنعام ـ وهي الإبل والبقر والغنم ـ التي هي أعز أموالكم ، وأمدكم بالأولاد ليكونوا قوة لكم ، وأمدكم بالبساتين العامرة بالثمار، وبالعيون التي تنتفعون بمائها العذب .

ثم ختم إرشاده لهم ، ببيان أنه حريص على مصلحتهم ، وأنه يخشى عليهم إذا لم يستجيبوا لدعوته أن ينزل بهم عذاب عظيم في يوم تشتد أهواله ولا تنفعهم فيه أموالهم ولا أولادهم .

وبذلك نرى أن هودا ـ عليه السلام ـ قد جمع في نصحه لقومه بين الترهيب والترغيب ، وبين الإنذار والتبشير ، وبين التعفف عن دنياهم ، والحرص على مصلحتهم .

ولكن هذه النصائح الحكيمة ، لم يستقبلها قومه إستقبالا حسنا ، ولم تجد منهم قبولا ، بل قالوا له ـ كما حكى القرآن عنهم ـ : « سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين .... » .

أي : قال قوم هود له بعد أن وعظهم ونصحهم : قالوا له بكل إستهتار

وسوء أدب : ياهود يستوى عندنا وعظك وعدمه ، ولا يعنينا أن تكون ممن يجيدون الوعظ أو من غيرهم ممن لا يحسنون الوعظ والإرشاد .

قال صاحب الكشاف : « فإن قيل : « أوعظت » أو لم تعظ » كان أخصر . والمعنى واحد .

قلت : ليس المعنى بواحد وبينهما فرق ، لأن المراد : سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ ، أم لم تكن أصلا من أهله ومباشريه ، فهو أبلغ فى قلة إعتدادهم بوعظه ، من قولك : أم لم تعظ . . . »(١) .

ثم أضافوا إلى قولهم هذا قولا آخر لا يقل عن سابقه فى الغرور وإنطماس البصيرة فقالوا : « إن هذا إلا خلق الأولين » أى : ما هذا الذى تنهانا عنه من التطاول فى البنيان ، ومن إتخاذ المصانع .... إلا خلق آبائنا الأولين ، ومنهجهم فى الحياة ، ونحن على آثارهم نسير وعلى منهجهم نمشى .

قال القرطبى ما ملخصه : « قرأ أكثر القراء « إلا خلق الأولين » - بضم الخاء واللام - أى : عادتهم ودينهم ومذهبهم وما جرى عليه أمرهم » .

وقرأ ابن كثير وأبوا عمرو والكسائى إلا خلق الأولين » - بفتح الخاء وإسكان اللام - أى : ماهذا الذى جئتنا به ياهود إلا إختلاق الأولين وكذبهم ، والعرب تقول : حدثنا فلان بأحاديث الخلق ، أى : بالخرافات والأحاديث المفتعلة . . . »(٢) .

وعلى كلتا القراءتين فالآية الكريمة تصور ما كانوا عليه من تحجر وجهالة تصويراً بليغا .

ثم إنتقلوا بعد ذلك إلى غرور أشد وأشنع فقالوا : « وما نحن بمعذبين » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ص ٣٢٧

(٢) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٢٥

أي : هذه حالنا التي ارتضيناها لحياتنا ، وما نحن بمعذبين على هذه الأعمال التي نعملها .

وهكذا رد قوم هود على نبيهم - عليه السلام - بهذا الرد السيء الذي يدل على استهتارهم وجفائهم وجحودهم على باطلهم .

وإذا جاءت نهايتهم الأليمة بسرعة وحسم ، قال - تعالى - : « فكذبوه فأهلكناهم » .

أي : أصر قوم هود على باطلهم وغرورهم فأهلكناهم « بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، أهلكهم الله - تعالى - دون أن تنفعهم أموالهم ، أو قوتهم التي كانوا يدلون بها ويقولون : « من أشد منا قوة » .

وختم - سبحانه - قصتهم بما ختم به قصة نوح مع قومه من قبلهم ، فقال - تعالى - : « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك قصة صالح مع قومه ، فقال - تعالى - :

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ

المُسحَّرِينَ (١٥٣) ما أَنتَ إلا بشَرٌ مثلُنـاَ فأْتِ بآيةٍ إنْ كنتَ من الصادقينَ (١٥٤) قالَ هـــذهِ ناقةٌ لهاَ شِربٌ ولـكُم شِربُ يومٍ معلومٍ (١٥٥) ولا تمسُّوهاَ بسوءٍ فيأخذكُم عذابُ يومٍ عظيمٍ (١٥٦) فعقرُوهاَ فأصبَحُوا نادِمِين (١٥٧) فأخذَهُمُ العذابُ ، إنَّ فى ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثرُهُمْ مؤمنين(١٥٨) وإنَّ ربَّكَ لهُوَ العزيزُ الرحيمُ(١٥٩)».

وقد وردت قصة صالح مع قومه فى سور أخرى منها الأعراف، وهود، والنمل، والقمر ... وثمود اسم للقبيلة التى أرسل إليها صالح - عليه السلام -، والثمد : الماء القليل ... وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - واحدا منهم - هو صالح - لكى يأمرهم بعبادة الله وحده .

ومازالت مساكنهم تعرف إلى الآن بمدائن صالح ، فى المنطقة التى بين المدينة المنورة والشام ، وقد مر النبى - صلى الله عليه وسلم - على ديارهم وهو متوجه إلى غزوة تبوك ...

وقد نصح صالح قومه ، بما نصح به هود ونوح قومهما من قبله ، فقد أمرهم بتقوى الله وصارحهم بصدقه معهم ، وبتعففه عن تعاطى الأجر على نصحه لهم .

ثم وعظهم بما يرقق القلوب ، وبما يحمل العقلاء على شكر الله - تعالى - على نعمه فقال لهم : « أتتركون فيما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم ... » .

والاستفهام للإنكار . والطلع : اسم من الطلوع وهو الظهور ، وأصله ثمر النخل فى أول مايطلع ، وهو بعد التلقيح يسمى خلالا - بفتح الخاء - ، ثم يصير بسرا ، فرطبا ، فتمرا .

والهضيم: اليانع النضيج، أو الرطب اللين اللذيذ الذى تداخل بعضه فى بعض وهو وصف للطلع الذى قصد به هنا الثمار الناضجة الطيبة لصيرورته إليها.

والمعنى: أتظنون أنكم متروكون بدون حساب أو سؤال من خالقكم -عز وجل- وأنتم تتقلبون فى نعمه التى منها ما أنتم فيه من بساتين وأنهار وزروع كثيرة متنوعة.

إن كنتم تظنون ذلك، فأقلعوا عن هذا الظن، واعتقدوا بأنكم أنتم وما بين أيديكم من نعم، إلى زوال، وعليكم أن تخلصوا لخالقكم العبادة والشكر لكى يزيدكم من فضله..

فأنت ترى أن - صالحا - عليه السلام - قد استعمل مع قومه أرق ألوان الوعظ، لكى يوقظ قلوبهم الغافلة، نحو طاعة الله - تعالى - وشكره، وقد استعمل فى وعظه لفت أنظارهم إلى ما يتقلبون فيه من نعم تشمل البساتين والعيون. والزروع المتعددة، والنخيل الجيدة الطلع، اللذيذة الطعم، حتى لكأن ثمرها لجودته ولينه، ولا يحتاج إلى هضم فى البطون.

ثم ذكرهم بنعمة أخرى، وكرر عليهم الأمر بتقوى الله فقال: «وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين. فاتقوا الله وأطيعون».

وقوله: «وتنحتون» معطوف على «تتركون» فهو داخل فى حيز الإنكار عليهم، لعدم شكرهم لله - تعالى - والنحت: البرى. يقال: نحت فلان الحجر نحتا إذا براه وأعده للبناء.

و «فارهين» أى: ماهرين حاذقين فى نحتها. من فره - ككرم - فراهة. إذا برع فى فعل الشىء، وعرف غوامضه ودقائقه.

قال القرطبى: «وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «فرهين» بغير ألف فى القاء. وهى بمعنى واحد... وفرق بينهما قوم فقالوا: «فارهين» أى حاذقين فى نحتها... وفرهين - بغير ألف - أى: أشرين بطريق فرهين...»[1].

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٣٩

أى : وأنهاكم — أيضا — عن إنهماككم فى نحت الحجارة من الجبال بمهارة وبراعة ، لكى تبنوا بها بيوتا وقصورا بقصد الأشر والبطر ، لا بقصد الإصلاح والشكر لله — تعالى — فمحل النهى إنما هو قصد الأشر والبطر فى البناء وفى النحت .

ثم نهاهم عن طاعة المفسدين فى الأرض بعد أن أمرهم بتقوى الله فقال : «ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون» .

أى : اجعلوا طاعتكم لله ـ تعالى ـ وحده ، ولى بصفتى رسوله إليكم ، واتركوا طاعة زعمائكم وكبرائكم المسرفين فى إصرارهم على الكفر والجحود . والذين من صفاتهم أنهم يفسدون فى الأرض فسادا لا يخالطه إصلاح .

قال الآلوسى : « قوله : « ولا تطيعوا أمر المفسدين . . . » كأنه عنى بالخطاب جمهور قومه . وبالمسرفين كبراءهم فى الكفر والإضلال ، وكانوا تسعة رهط . . . والإسراف : تجاوز الحد فى كل أمر . . . والمراد به هنا : زيادة الفساد . . . والمراد بالأرض : أرض ثمود ، وقيل : الأرض كلها . ولما كان قوله « يفسدون » لا ينافى إصلاحهم أحيانا ، أردفه بقوله ـ تعالى ـ : « ولا يصلحون » لبيان كمال إفسادهم ، وأنه لم يخالطه إصلاح أصلا »(١) .

ولكن هذا النصح الحكيم من صالح لقومه ، لم يقابل منهم بأذن صاغية ، بل قابلوه بالتطاول والاستهتار وإنكار رسالته فقالوا له : « إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا ، فأت بآية إن كنت من الصادقين » .

أى : قال قوم صالح له : أنت لست إلا من الذين غلب عليهم السحر ، وأثر فى عقولهم ، فصاروا يتكلمون بكلام المجانين ، وما أنت ـ أيضا ـ إلا بشر مثلنا تأكل الطعام كما نأكل ، وتشرب الشراب كما نشرب . . فإن كنت رسولا حقا فأتنا بعلامة ومعجزة تدل على صدقك فى دعواك الرسالة

(١) تفسير الآلوسى ج ١٩ ص ١١٩

وكأنهم - لجهلهم وانطماس بصائرهم - يرون أن البشرية تتنافى مع النبوة وتضرع صالح - عليه السلام - إلى ربه - عز وجل - أن يمنحه معجزة لعلها تكون سببا فى هداية قومه، وأجاب الله - تعالى - تضرعه، فقال - سبحانه -: «قال هذه ناقة لها شرب، ولكم شرب يوم معلوم. ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم».

قال ابن كثير: «ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، فطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من صخرة عندهم ناقة عشراء من صفتها كذا وكذا. فعند ذلك أخذ عليهم صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به، فأنعموا بذلك - أى: قالوا نعم - فقام نبى الله صالح فصلى، ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها. عن ناقة عشراء. عن الصفة التى وصفوها. فآمن بعضهم وكفر أكثرهم»(١).

والمعنى: قال لهم صالح - عليه السلام - بعد أن طلبوا منه معجزة تدل على صدقه: هذه ناقة «لها شرب ولكم شرب يوم معلوم» أى: لها نصيب معين من الماء، ولكم نصيب آخر منه، وليس لكم أن تشربوا منه فى يوم شربها. وليس لها أن تشرب منه فى يوم شربكم، واحذروا أن تمسوها بسوء - كضرب أو قتل - فيأخذكم عذاب يوم عظيم.

ووصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه من عذاب ينزل بهم إذا مسوها بسوء ولكن قومه لم يفوا بعهودهم «فعقروها» أى: فعقروا الناقة التى هى معجزة نبيهم. وأسند العقر إليهم جميعا، مع أن الذى عقرها بعضهم، لأن العقر كان برضاهم جميعا، كما يرشد إليه قوله - تعالى - فى آية أخرى: «فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر».

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٦٦.

وقوله « فأصبحوا نادمين » بيان لما ترتب على عقرهم لها . وندمهم إنما كان بسبب خوفهم من وقوع العذاب عليهم بسبب ذلك ، ولم يكن بسبب إيمانهم وتوبتهم . أو أن ندمهم جاء فى غير أوانه ، كما يشعر بذلك قوله - تعالى - : « فأخذهم العذاب » .

أى أخذتهم الرجفة وتبعتها الصيحة التى صاحها بهم جبريل فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ثم يجىء التعقيب السابق : « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

ثم جاءت بعد ذلك قصة لوط مع قومه ، فقال - تعالى - :

« كَذَّبَتْ قومُ لوطٍ المرسلينَ (١٦٠) إذْ قالَ لهُم أخوهُمْ لوطٌ أَلاَ تتقُون (١٦١) إنِّى لكُم رسولٌ أمينٌ (١٦٢) فاتقوا اللهَ وأطيعونِ (١٦٣) وما أسألُكم عليه من أجرٍ ، إنْ أجرِىَ إلا عَلَى ربِّ العالمينَ (١٦٤) أتأتونَ الذكرانَ من العالمينَ (١٦٥) وتذَرُونَ ما خلقَ لكُم ربُّكُم من أزْوَاجِكُم ، بلْ أنتُم قومٌ عادونَ (١٦٦) قالُوا لئن لم تنتهِ يا لوطُ لتكُونَنَّ من المُخرجينَ (١٦٧) قالَ إنِّى لعَمَلِكُم من القالينَ (١٦٨) ربِّ نجِّنى وأهلِى مما يعملُونَ (١٦٩) فنجَّيناهُ وأهلَه أجمعين (١٧٠) إلاَّ عجوزاً فى الغابرينَ (١٧١) ثم دمَّرنا الآخرينَ (١٧٢) وأمطَرْنا عَليهم مطراً ، فساء مطرُ المنذَرين (١٧٣) إنَّ فى ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثرُهم مؤمنينَ (١٧٤) وإنَّ ربَّكَ لهُوَ العزيزُ الرحيم (١٧٥) » .

قال ابن كثير - رحمه الله - : ولوط هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم ، وكان قد آمن مع إبراهيم ، وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى ، يدعوهم إلى الله - تعالى -

ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سذوم - وهي قرية بوادي الأردن - عليهم لعائن الله »(١) .

ولقد بدأ لوط - عليه السلام - دعوته لقومه بأمرهم بتقوى الله، وبإخبارهم بأنه رسول أمين من الله - تعالى - إليهم ، وبأنه لا يسألهم أجرا على دعوته لهم إلى الحق والفضيلة .

ثم نهاهم عن أبرز الرذائل التي ، كانت متفشية فيهم فقال : « أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم، بل أنتم قوم عادون » .

والاستفهام للإنكار والتقريع. والذكران: جمع ذكر وهو ضد الأنثى .

والعادون : جمع عاد . يقال : عدا فلان في الأمر يعدو ، إذا تجاوز الحد في الظلم.

أي : قال لوط لقومه : أبلغ بكم انحطاط الفطرة ، وانتكاس الطبيعة ، أنكم تأتون الذكور الفاحشة ، وتتركون نساءكم اللاتي أحلهن الله - تعالى - لكم ، وجعلهن الطريق الطبيعي للنسل وعمارة الكون .

إنكم بهذا الفعل القبيح الذميم ، تكونون قد تعديتم حدود الله - تعالى - وتجاوزتم ما أحله الله لكم ، إلى ما حرمه عليكم .

وقد ردوا عليه بما يدل على شذوذهم وعلى إنتكاس فطرتهم، فقد قالوا له على سبيل التهديد والوعيد : « لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين ».

أي : قالوا له متوعدين : لئن لم تسكت يالوط عن نهيك إيانا عما نحن

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٣

« وأمطرنا عليهم » بعد ذلك الإهلاك «مطرا» عجيبا أمره فقد كان نوعا فيه ، لتكونن من المخرجين من قريتنا إخراجا تاما، والمطرود لك خارج ديارنا.

وهكذا النفوس عندما تنحدر فى الرذيلة ، وتنغمس فى المنكر، تعادى من يدعوها إلى الفضيلة وإلى الطهر والعفاف.

وقد رد لوط - عليه السلام - على سفاعتهم وسوء أدبهم بقوله : « إنى لعملكم من القالين ».

والقالين : جمع قال . يقال : قليت فلان أقليه - كرميته أرميه - إذا كرهته كرها شديداً.

أى : قال لهم لوط موبخا ومؤنبا : إنى لعملكم القبيح الذى ترتكبونه مع الذكور . من المبغضين له أشد البغض، المنكرين له أشد الإنكار .

ثم توجه إلى ربه - تعالى - بقوله: « رب نجنى وأهلى مما يعملون» أى : نجنى يارب ، ونج أهلى المؤمنين معى، مما يعمل هؤلاء الأشرار من منكر لم يسبقهم إليه أحد فأجاب الله - تعالى- دعاءه فقال : « فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً فى الغابرين » .

والمراد بهذه العجوز : امرأته وكانت كافرة وراضية عن فعل قومها.

والغابرين : جمع غابر وهو الباقى بعد غيره . يقال غبر الشىء يغبر غبورا إذا بقى .

وقوله : « إلا عجوزاً » استثناء من أهله.

أى : فاستجبنا للوط دعاءه ، فأنجيناه وأهله المؤمنين جميعا، إلا امرأته العجوز فإننا لم ننجها بل بقيت مع المهلكين لخبثها وعدم إيمانها.

« ثم دمرنا الآخرين » أى: ثم أهلكنا قوم لوط المصرين على كفرهم وعلى إتيانهم المنكر ، تدميراً شديداً ، بأن جعلنا أعلى قريتهم سافلها ، وأبدناهم عن آخرهم.

من الحجارة ، كما جاء فى آية أخرى فى قوله - تعالى - : « وأمطرنا عليها حجارة من سجيل » .

وقوله - سبحانه - : « فساء مطر المنذرين » بيان لسوء مصيرهم .

أى : دمرنا هؤلاء القوم ، وأمطرنا عليهم مطرا من الحجارة زيادة فى إهانتهم ، فساءت عاقبتهم ، وتحقق ما أنذرناهم به من دمار ...

ثم ختم - سبحانه - قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، بمثل ما ختم به القصص السابقة . فقال : « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

ثم جاءت فى نهاية هذه القصص ، قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه . فقال - تعالى - :

« كَذَّبَ أَصحابُ الأيكةِ المرسلينَ (١٧٦) إذ قالَ لهُم شعيبٌ ألاَ تتقونَ (١٧٧) إنِّى لكُم رسولٌ أمينٌ (١٧٨) فاتقوا اللهَ وأطيعونِ (١٧٩) وما أسألكُم عليهِ مِنْ أجرٍ إنْ أجرىَ إلا عَلَى ربِّ العالمينَ (١٨٠) أوفُوا الكيلَ ولاتكونُوا من المخسرينَ (١٨١) وزِنُوا بالقِسطاسِ المستقيمِ (١٨٢) ولاَ تبخسُوا الناسَ أشياءهم ، ولا تعثَوا فى الأرضِ مفسدينَ (١٨٣) واتقُوا الذى خلقكمْ والجِبلَّةَ الأولينَ (١٨٤) قالُوا إنَّما أنتَ من المسحَّرينَ (١٨٥) وما أنتَ إلاَّ بشرٌ مثلُنا ، وإن نظنُّكَ لمن الكاذبينَ (١٨٦) فأسقِطْ علينا كِسَفاً من السماء إن كنتَ من الصادقينَ (١٨٧) قالَ ربِّى أعلمُ بمَا تعملونَ (١٨٨) فكذَّبوه فأخذَهم عذابُ يومِ الظُّلَّةِ ، إنَّهُ كانَ عذابَ يومٍ عظيمٍ (١٨٩) إنَّ فى ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثرُهُمْ مؤمنينَ (١٩٠) وإنَّ ربَّكَ لهُوَ العزيزُ الرحيمُ (١٩١) » .

والأيكة : منطقة مليئة بالأشجار ، كانت ـ فى الغالب ـ بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، ولعلها المنطقة التى تسمى بمعان .

وشعيب ينتهى نسبه إلى إبراهيم ـ عليهما السلام ـ وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا ذكر شعيبا قال : « ذلك خطيب الأنبياء » لحسن مراجعته لقومه ، وقوة حجته .

وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان ، وقطع للطرق . فدعاهم إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ ، وإلى مكارم الأخلاق .

قال ابن كثير : « هؤلاء ـ أعنى أصحاب الأيكة ـ هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبى الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هاهنا أخوهم شعيب ، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهى شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغيضة . كانوا يعبدونها . فلهذا لما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، لم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب ، وإنما قال : إذ قال لهم شعيب ، فقطع نسبة الأخوة بينهم ، للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسبا ، ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة ، ف... ح ر لأيكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيبا ـ عليه السلام ـ بعثه الله إلى أمتين .... والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا فى كل مقام بشىء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء .... »[1].

وقد افتتح شعيب ـ عليه السلام ـ دعوته لقومه ، بأمرهم بتقوى الله ـ تعالى ـ وببيان أنه أمين فى تبليغهم ما أمره الله بتبليغه إليهم ، وبمصارحتهم بأنه لا يسألهم أجراً على دعوته إياهم إلى ما يسعدهم .

ثم نهاهم عن أخس الرذائل التى كانت منتشرة فيهم فقال لهم : « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٦٨ .

الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين، واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ...»

والجبلة : الجماعة الكثيرة من الناس الذين كانوا من قبل قوم شعيب . والمقصود بهم أولئك الذين كانوا ذوى قوة كأنها الجبال فى صلابتها ، كقوم هود وأمثالهم ممن اغتروا بقوتهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

قال القرطبى: « وقوله : « واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين» ، الجبلة : هى الخليقة . ويقال : جبل فلان على كذا ، أى : خلق . فالخلق جبلة وجبلة - بكسر الجيم والميم وضمهما - .

والجبلة : هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ، ومنه قوله - تعالى - : « ولقد أضل منكم جبلا كثيراً ....»[1] .

والمعنى : قال شعيب - عليه السلام - لقومه ناصحاً ومرشداً: ياقوم، أوفوا الكيل ، أى : أتموه ولا تكونوا من المخسرين، الذين يأكلون حقوق غيرهم عن طريق التطفيف فى الكيل والميزان.

ثم أكد نصحه هذا بنصح آخر فقال : « وزنوا » للناس الذين تتعاملون معهم « بالقسطاس المستقيم » أى : بالعدل الذى لاجور معه ولا ظلم .

ثم أتبع هذا الأمر بالنهى فقال : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » أى : ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم ، أيا كان مقدار هذا الشىء .

« ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » والعثو : أشد أنواع الفساد. يقال : عثا فلان فى الأرض يعثوا ، إذا اشتد فساده .

أى : ولا تنتشروا فى الأرض حالة كونكم مفسدين فيها بالقتل وقطع الطريق ، وتهديد الآمنين .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٣٦ .

فقوله « مفسدين » حال مؤكدة لضمير الجمع فى قوله « تعثوا » .

ثم ذكرهم بأحوال السابقين ، وبأن الله - تعالى - هو الذى خلقهم وخلق أولئك السابقين فقال : « واتقوا الذى خلقكم » من ماء مهين ، وخلق - أيضا - الأقوام السابقين ، الذين كانوا أشد منكم قوة وأكثر جمعا . والذين أهلكهم - سبحانه - بقدرته ، بسبب إصرارهم على كفرهم وبغيهم .

واستمع قوم شعيب إلى تلك النصائح الحكيمة ، ولكن لم يتأثروا بها ، بل اتهموا نبيهم فى عقله وفى صدقه . وتحدوه فى رسالته فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : « إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا ، وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين » .

قالوا له بسفاهة وغرور : إنما أنت يا شعيب من الذين أصيبوا بسحر عظيم جعلهم لا يعقلون ما يقولون ، أو إنما أنت من الناس الذين يأكلون الطعام ، ويشربون الشراب ، ولا مزية لك برسالة أو بنبوة علينا ، فأنت بشر مثلنا ، وما نظنك إلا من الكاذبين فيما تدعيه ، فإن كنت صادقا فى دعوى الرسالة فأسقط علينا « كسفا من السماء » أى : قطعا من العذاب الكائن من جهة السماء .

وجاء التعبير بالواو هنا فى قوله « وما أنت إلا بشر مثلنا » للإشارة إلى أنه جمع بين أمرين منافيين لدعواه الرسالة ، وهما : كونه من المسحرين وكونه بشرا وقصدوا بذلك المبالغة فى تكذيبه ، فكأنهم يقولون له : إن وصفا واحدا كاف فى تجريدك من نبوتك فكيف إذا اجتمع فيك الوصفان ، ولم يكتفوا بهذا بل أكدوا عدم تصديقهم له فقالوا : وما نظنك إلا من الكاذبين .

ثم أضافوا إلى كل تلك السفاهات . الغرور والتحدى حيث تعجلوا العـــذاب ...

ولكن شعيبا - عليه السلام - قابل استهتارهم واستهزاءهم بقوله : « ربى أعلم بما تعملون » .

أى : ربى وحده هو العليم بأقوالكم وأعمالكم ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب أليم .

ثم يعجل - سبحانه - ببيان عاقبتهم السيئة فيقول : « فكذبوه ، فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم » .

قال الآلوسى : «وذلك على ما أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم عن ابن عباس : أن الله - تعالى - بعث عليهم حرا شديدا ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا أجواف البيوت ، فدخل عليهم ، فخرجوا منها هرابا إلى البرية ، فبعث الله - تعالى - عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس ، وهى الظلة ، فوجدوا لها بردا ولذة ، فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها ، أسقطها الله عليهم نارا ، فأهلكتهم جميعا ... »(١) .

وقال الإمام ابن كثير : «وقد ذكر الله - تعالى - صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن . كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق .

ففى الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا : « لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا .. » ، فلما أرجفوا بنبى الله ومن تبعه - أى : حاولوا زلزلتهم وتخويفهم - فأخذتهم الرجفة .

وفى سورة هود قال : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » ، وذلك لأنهم استهزءوا بنبى الله فى قولهم : « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا .. » فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم ...

وها هنا قالوا : « فأسقط علينا كسفا من السماء ... » على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن ينزل بهم ما استبعدوا وقوعه فقال : « فأخذهم عذاب يوم الظلة ... »(٢) .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٩ ص ١٣٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٧٠ .

ثم ختم ـ سبحانه ـ قصة شعيب مع قومه . بمثل ماختم به قصص الرسل السابقين مع أقوامهم فقال ـ تعالى ـ : « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم »

وإلى هنا نرى سورة الشعراء قد ساقت لنا سبع قصص من قصص الأنبياء مع أقوامهم .

ساقت لنا قصة موسى ، فإبراهيم ، فنوح ، فهود ، فصالح، فلوط ، فشعيب ـ عليهم جميعاً الصلاة والسلام ـ .

ويلاحظ فى قصص هذه السورة ، أنها لم تجىء على حسب الترتيب الزمنى ـ كما هو الشأن فى سورة الأعراف ـ وذلك لأن المقصود الأعظم هنا هو الاعتبار والاتعاظ ، فأما فى سورة الأعراف ، فكان التسلسل الزمنى مقصودا لعرض أحوال الناس منذ آدم ـ عليه السلام ـ .

كما يلاحظ أن معظم القصص هنا ، قد افتتح بافتتاح متشابه ، وهو أمر كل نبى قومه بتقوى الله ، وببيان أنه رسول أمين . وببيان أنه لا يطلب من قومه أجرا على دعوته ، نرى ذلك واضحاً فى قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط مع أقوامهم .

ولعل السر فى ذلك التأكيد على أن الرسل جميعا قد جاءوا برسالة واحدة فى أصولها وأسسها ، ألا وهى الدعوة إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ، وإلى مكارم الأخلاق .

كما يلاحظ ـ أيضاً ـ أن كل قصة من تلك القصص ، قد اختتمت بقوله ـ تعالى ـ : « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

ولعل السر فى ذلك تكرار التسلية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتثبيت فؤاده . وبيان أن ما أصابه من قومه ، قد أصاب الرسل السابقين ، فعليه أن يصبر كما صبروا ، وقد قالوا : « المصيبة إذا عمت خفت » .

كما يلاحظ - كذلك - على قصص هذه السورة التركيز على أهم الأحداث وبيان الرذائل التي انغمس فيها أولئك الأقوام، باستثناء قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون فقد جاءت بشيء من التفصيل.

° ° °

وكما بدأت السورة بالحديث عن القرآن، وعن الرسول - صلى الله عليه وسلم -، عادت مرة أخرى بعد الحديث عن قصص بعض الأنبياء - إلى متابعة الحديث عن القرآن الكريم، وعن نزوله. وعن تأثيره، وعن مصدره. فقال - تعالى - :

« وإنَّهُ لتنزيلُ ربِّ العالمينَ (١٩٢) نَزَلَ به الروحُ الأمينَ (١٩٣) على قَلبكَ لتَكونَ من المنذِرينَ (١٩٤) بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ (١٩٥) وإنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأوّلينَ (١٩٦) أو لم يكُنْ لهُم آيةً أن يعلَمَهُ علماءُ بني إسرائيلَ (١٩٧) ولو نزّلناهُ عَلَى بعضِ الأعجمينَ (١٩٨) فقرأهُ عليهِمْ ما كانوا به مُؤمنينَ (١٩٩) ».

والضمير في قوله «وإنه» يعود إلى القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من قصص وهدايات...

أي: وإن هذا القرآن لتنزيل رب العالمين، لا تنزيل غيره، والتعبير عن إنزاله بالتنزيل، للمبالغة في إنزاله من عند الله - تعالى - وحده.

ووصف - سبحانه - ذاته بالربوبية للعالمين، للإيذان بأن إنزاله بهذه الطريقة، من مظاهر رحمته بعباده، وإحكام تربيته لهم جميعا.

قال - تعالى - : «تنزيل من رب العالمين»، قال - سبحانه - : «تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا».

ثم وصف ـ سبحانه ـ من نزل به بالأمانة فقال: « نزل به الروح الأمين »، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ وعبر عنه بالروح، لأن الأرواح تحيا بما نزل به كما تحيا الأجسام بالغذاء.

أي: نزل جبريل الأمين ـ بأمرنا ـ بهذا القرآن كاملا غير منقوص، « على قلبك » ـ أيها الرسول الكريم « لتكون من المنذرين » أي: من أجل أن تنذر به الناس، وتخوفهم بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم وفسوقهم عن أمر الله ـ تعالى ـ.

قال الجمل: « وفي الكرخي: وقوله « على قلبك » خصه بالذكر وهو إنما أنزل عليه ليؤكد أن ذلك المنزل محفوظ، والرسول متمكن من قلبه لا يجوز عليه التغير، ولأن القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختيار وأما سائر الأعضاء فمسخرة له، ويدل على ذلك القرآن والحديث في المعقول.

أما القرآن فقوله ـ تعالى ـ « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ».

وأما الحديث فقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب ».

وأما المعقول: فإن القلب إذا غشي عليه، لم يحصل له شعور، وإذا أفاق القلب شعر بجميع ماينزل بالأعضاء من الآفات »(١).

وقال الآلوسي ما ملخصه: « وخص القلب بالإنزال قيل: للإشارة إلى كمال تعقله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفهمه ذلك المنزل، حيث لم تعتبر واسطة في وصوله إلى القلب ...

وقيل. للإشارة إلى صلاح قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث كان منزلا لكلام الله تعالى ـ ... »(٢).

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٩٢.

(٢) تفسير الآلوسي جـ ١٩ ص ٣٢١.

وقوله - تعالى - : « بلسان عربي مبين » متعلق بقوله - تعالى - « نزل » . أي نزل هذا القرآن باللسان العربي ليكون أوضح في البلاغ والبيان لقومك لأننا لو نزلناه بلسان أعجمي أو بلغة أعجمية لتعللوا بعدم فهمه وقلة إدراكهم لمعناه.

وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد بين لنا مصدر القرآن ، والنازل به ، والنازل عليه ، وكيفية النزول ، وحكمة الإنزال ، واللغة التي نزل بها ، وكل ذلك أدلة من القرآن ذاته على أنه من عند الله - تعالى - وأنه من كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثم بين - سبحانه - أن الكتب السماوية السابقة قد ذكرت ما يدل على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي أنزل الله - تعالى - عليه هذا القرآن فقال - تعالى - : « وإنه لفي زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » .

والزبر : جمع زبور ، وهو الكتاب المقصور على الحكم والمواعظ ، كزبور داود . مأخوذ من الزبر بمعنى الزجر . لزجره الناس عن اتباع الباطل .

والمعنى : وإن نعت هذا القرآن الكريم ، ونعت الرسول الذي سينزل عليه هذا القرآن ، لموجود في كتب السابقين .

قال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - : وإن ذكر هذا القرآن ، والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم ، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيبا في ملئه بالبشارة بأحمد : « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدي من التوراة . ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . . . »(١) .

والاستفهام في قوله « أولم يكن لهم آية . . . » للإنكار والتوبيخ . والواو

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٧٣ .

للعطف على مقدر ، والتقدير : أغفلوا عن ذلك وجهلوه ، ولم يكفهم للدلالة على صدقه وحقيته أن يعلم ذلك علماء بنى إسرائيل ، ويتحدث عنه عدولهم ، وينتظرون مبعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - ونزول القـــرآن عليه - صلى الله عليه وسلم -.

قال تعالى - : ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين »(١) .

وقال -سبحانه -: « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ....»(٢).

ثم ذكر - سبحانه - طرفا من جحود الكافرين وعنادهم فقال : « ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » .

والأعجمين : جمع أعجم ، وهو الذى لا يفصح وفى لسانه عجمة وإن كان عربى النسب . أو جمع أعجمى ، إلا أنه حذف منه ياء النسب تخفيفاً ، كأشعر جمع أشعرى .

أى : ولو نزلنا هذا القرآن على رجل من الأعجمين ، الذين لا يحسنون النطق بالعربية ، فقرأ هذا القرآن على قومك أيها الرسول الكريم - قراءة صحيحة لكفروا به عنادا ومكابرة مع أنهم فى قرارة أنفسهم يعرفون صدقه ، وأنه ليس من كلام البشر .

فالآيتان الكريمتان المقصود بهما تسلية الرسول -صلى الله عليه وسلم- عما يراه من إنكار المشركين لدعوته ، ومن وصفهم للقرآن تارة بأنه سحر ، وتارة بأنه أساطير الأولين ، وتصوير صادق لما وصل إليه أولئك المشركون من جحود وعناد ومكابرة .

(١) سورة البقرة الآية ٨٩ .   (٢) سورة الأعراف الآية ١٥٧

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة، وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ... »(١).

ثم بين - سبحانه - أنهم مع علمهم بأن هذا القرآن من عند الله، وتأثرهم به سيستمرون على كفرهم حتى يروا العذاب الأليم، فقال - تعالى - :

« كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) ».

وقوله - تعالى - : « سلكناه » من السلك بمعنى إدخال الشيء في الشيء تقول : سلكت الطريق إذا دخلت فيه . والضمير يعود إلى القرآن الكريم وقوله : « كذلك سلكناه » : نعت لمصدر محذوف .

أي : مثل ذلك الإدخال العجيب ، أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين ، حيث جعلناهم - بسبب جحودهم وعنادهم - مع تأثرهم به وإعترافهم بفصاحته لا يؤمنون به ، حتى يروا بأعينهم العذاب الأليم .

(١) سورة الأنعام الآية ١١١ .

ومنهم من يرى أن الضمير فى « سلكناه » يعود إلى كفر الكافرين وتكذيبهم . والمعنى - كما يقول ابن كثير - : « كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد . أى : أدخلناه فى قلوب المجرمين « لا يؤمنون به » أى : « بالحق حتى يروا العذاب الأليم » حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار »(١) .

والرأيان متقاربان فى المعنى ، لأن المراد بالتكذيب على الرأى الثانى تكذيبهم بالقرآن ، إلا أن الرأى الأول أنسب بسياق الآيات ، وبانتظام الضمائر ...

ثم بين - سبحانه - أن نزول العذاب بالمجرمين سيكون مباغتا لهم فقال: « فيأتيهم » أى : العذاب « بغتة » فجأة وعلى غير توقع « وهم لا يشعرون » أى : بإتيانه بعد أن يحيط بهم .

وعندئذ يقولون على سبيل التمنى والتحسر « هل نحن منظرون » أى : ليتنا نمهل قليلا لكى نصلح ما أفسدناه من أقوال وأعمال .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت: ما معنى التعقيب فى قوله : « فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا ... »

قلت : ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته ، وسؤال النظرة فيه فى الوجود ، وإنما المعنى ترتبها فى الشدة ، كأنه قيل : لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب ، فما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة ، فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة .

ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه : إذا أسأت مقتك الصالحون ، فمقتك الله فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين ، وإنما

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٧٣ .

قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسوء ، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين ، فما هو أشد من مقتهم وهو مقت الله . . .»(١).

والإستفهام فى قوله - تعالى - : «أفبعذابنا يستعجلون» للتوبيخ والتهكم بهؤلاء المجرمين . أبلغ الحق والجهل بهؤلاء المجرمين أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم ، وقالوا لنا : «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم».

أى : إن من يستعجل هلاك نفسه ، ويسعى إلى حتفه بظلفه ، لا يكون من العقلاء أبداً .

ثم بين - سبحانه - أن مافيه هؤلاء المجرمون من متاع ونعمة ، سينسونه نسياناً تاما عند مايعمهم العذاب المعد لهم ، فقال - تعالى - : «أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون».

وقوله «أفرأيت» معطوف على قوله : «فيقولوا . . » والاستفهام للتعجب من أحوالهم .

والمعنى : إن شأن هؤلاء المجرمين لموجب للعجب : إنهم قبل نزول العذاب بهم يستعجلونه ، فإذا مانزل بساحتهم قالوا - على سبيل التحسر والندم - هل نحن منظرون .

اعلم - أيها الرسول الكريم - أننا حتى لو أمهلناهم وأخرناهم ، ثم جاءهم عذابنا بعد ذلك ، فإن هذا التمتع الذى عاشوا فيه . وذلك التأخير الذى لوشئنا لأجبناهم إليه ... كل ذلك لن ينفعهم بشىء عند حلول عذابنا، بل عند حلول عذابنا بهم سينسون ما كانوا فيه من متاع ومن نعيم ومن غيره .

قال الإمام ابن كثير : «وفى الحديث الصحيح : يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول :

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٣٧

لا والله يارب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا كان فى الدنيا ، فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له: هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا والله يارب .

ولهذا كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتمثل بهذا البيت :

كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذى كنت تطلب »[1]

ثم بين سبحانه - سنته التى لا تتخلف فقال: « وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ، ذكرى وما كنا ظالمين»

وقوله : « ذكرى » مفعول لأجله ، فيكون المعنى : لقد اقتضت سنتنا وعدالتنا . أننا لا نهلك قرية من القرى الظالم أهلها ، إلا بعد أن نرسل فى أهل تلك القرى رسلا منذرين ، لكى يذكروهم بالدين الحق ... وليس من شأننا أن نكون ظالمين لأحد ، بل من شأننا العدالة والإنصاف ، وتقديم النصيحة والإرشاد والإنذار للفاسقين عن أمرنا ، قبل أن تنزل بهم عذابنا .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »[2] .

وقوله - سبحانه - : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون»[3] .

ثم عادت السورة الكريمة إلى تأكيد أن هذا القرآن من عند الله-تعالى- وردت شبهات المشركين بأسلوب منطقى رصين ، قال - تعالى - : «وما تنزلت به الشياطين » .

أى : إن هذا القرآن الكريم ، ما تنزلت به الشياطين - كما يزعم مشركوا قريش ، حيث قالوا : إن لمحمد - صلى الله عليه وسلم - تابعا من الجن يخبره

---

(١) تفسير ابن كثير ج٦ص١٧٤
(٢) سورة الإسراء . الآية ١٥
(٣) سورة القصص الآية ٥٩

بهذا القرآن ويلقيه عليه - وإنما هذا القرآن نزل به الروح الأمين ، على قلبه - صلى الله عليه وسلم -.

وإن الشياطين « ما ينبغى لهم » ذلك إذهم يدعون إلى الضلالة والقرآن يدعو إلى الهداية « وما يستطيعون » أن ينزلوا به ولا يقدرون على ذلك أصلا « إنهم عن السمع لمعزولون » أى : إن هؤلاء الشياطين عن سماع القرآن الكريم لمعزولون عزلا تاما . فالشهب تحرقهم إذا ما حاولوا الاستماع إليه . كما قال - تعالى - : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديداً وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا »(١).

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد صان كتابه عن الشياطين ، بأن بين بأنهم ما نزلوا به ، ثم بين - ثانيا - أنهم ما يستقيم لهم النزول به لأن ما اشتمل عليه من هدايات يخالف طبيعتهم الشريرة ، ثم بين - ثالثاً - بأنهم حتى لو حاولوا ما يخالف طبيعتهم لما استطاعوا ، ثم بين - رابعا - بأنه حتى لو انبغى واستطاعوا حمله ، لما وصلوا إلى ذلك ، لأنهم بمعزل عن الاستماع إليه ، إذ ما يوحى به - سبحانه - إلى أنبيائه ، الشياطين محجوبون عن سماعه ، وهكذا صان الله - تعالى - كتابه صيانة تامة . وحفظه حفظا جعله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثم نهى - سبحانه - عن الشرك بأبلغ وجه ، وأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بأن يجهر بدعوته ، وبأن يتوكل عليه وحده - سبحانه - فقال :

« فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)

---

(١) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الذى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فى السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) » .

والفاء فى قوله - تعالى - « فلا تدع . . . » فصيحة ، والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - على سبيل طلب الازدياد من إخلاص العبادة لله - تعالى - .

أى : إذا علمت - أيها الرسول الكريم - ما أخبرناك به ، فأخلص العبادة لنا ، واحذر أن تعبد مع الله - تعالى - إلها آخر ، فتكون من المعذبين .

وخوطب - صلى الله عليه وسلم - بهذه الآية وأمثالها ، مع أنه أخلص الناس فى عبادته لله - تعالى - ، لبيان أن الشرك أقبح الذنوب وأكبرها ، وأنه لو انحرف إليه - على سبيل الفرض - أشرف الخلق وأكرمهم عند الله - تعالى - لعذبه - سبحانه - على ذلك ، فكيف يكون حال غيره ممن هم ليسوا فى شرفه ومنزلته .

لا شك أن عذابهم سيكون أشد ، وعقابهم سيكون أكبر .

ثم أمر الله تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن ينذر أقرب الناس إليه ، ليكونوا قدوة لغيرهم . وليعلموا أن قرابتهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - لن تنجيهم من عذاب الله ، إذا ما استمروا على شركهم ، فقال - تعالى - « وأنذر عشيرتك الأقربين » .

والعشيرة : أهل الرجل الذين يتكثر بهم ، و « الأقربين » هم أصحاب القرابة القريبة كالآباء والأبناء والأخوة والأخوات ، والأعمام والعمات وما يشبه ذلك .

وقد ذكر المفسرون أحاديث متعددة ، فيما فعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد نزول هذه الآية ، منها : ما أخرجه الشيخان عن ابن عباس قال : لما أنزل الله - تعالى - هذه الآية . أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - الصفا

فصعد عليه ثم نادى : ياصباحاه - وهى كلمة يقولها المستغيث أو المنذر لقومه - فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يجىء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يابنى عبد المطلب ، يابنى فهر ، يابنى لؤى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح الجبل تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ، وأنزل الله : « تبت يدا أبى لهب وتب »(١) .

قال الآلوسى : « ووجه تخصيص عشيرته الأقربين بالذكر مع عموم رسالته - صلى الله عليه وسلم - : دفع توهم المحاباة ، وأن الاهتمام بشأنهم أهم ، وأن البداءة تكون بمن يلى ثم من بعده .. »(٢) .

أى : أن هذه الآية الكريمة ، لا تتعارض مع عموم رسالته - صلى الله عليه وسلم - للناس جميعا ، لأن المقصود بها : البدء بإنذار عشيرته الأقربين ، ليكونوا أسوة لغيرهم .

وقوله - سبحانه - : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » إرشاد منه - سبحانه - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى كيفية معاملته لأتباعه .

وخفض الجناح : كناية عن التواضع ، واللين ، والرفق ، فى صورة حسية مجسمة ، إذ من شأن الطائر حين يهبط أو حين يضم صغاره إليه أن يخفض جناحه ، كما أن رفع الجناح يطلق على التكبر والتعالى ، ومنه قول الشاعر :

وأنت الشهير بخفض الجنا ح فلاتك فى رفعه أجدلا(٣)

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٦ ص ١٧٦ . فقد ساق جملة من الأحاديث فى هذا المعنى .

(٢) تفسير الآلوسى ج١٩ ص١٣٤

(٣) والأجدل : هو الصقر . أى : فلاتك شبيها به فى القسوة والغلظة .

أى : وكن - أيها الرسول الكريم - متواضعا لين الجانب، لمن اتبعك من المؤمنين ، ولقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم - سيد المتواضعين مع أصحابه ، إلا أن الآية الكريمة تعلم المسلمين فى كل زمان ومكان - وخصوصا الرؤساء منهم - كيف يعامل بعضهم بعضا .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : المتبعون الرسول - صلى الله عليه وسلم - هم المؤمنون ، والمؤمنون هم المتبعون الرسول - صلى الله عليه وسلم - فما معنى قوله : « لمن اتبعك من المؤمنين » ؟

قلت : فيه وجهان : أن يسميهم قبل الدخول فى الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك ، وأن يراد بالمؤمنين المصدقين بألسنتهم ، وهم صنفان : صنف صدق الرسول واتبعه فيما جاء به : وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب ، ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين ، والمنافق والفاسق لا يخفض الجناح . . . »[1] .

ويبدو لنا أنه لا داعى إلى هذه التقسيمات التى ذهب إليها صاحب الكشاف - رحمه الله - ، وأن المقصود بقوله : « لمن اتبعك من المؤمنين » تأكيد الأمر بخفض الجناح ، والإشعار بأن جميع أتباعه من المؤمنين ، ومثل هذا الأسلوب كثير فى القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : « يقولون بأفواههم . . » ، ومن المعلوم أن الأقوال لا تكون إلا بالأفواه ، وقوله - تعالى - « ولا طائر يطير بجناحيه . . . » ومن المعروف أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه .

ثم بين - سبحانه - لنبيه كيف يعامل العصاة فقال : « فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » .

قال الآلوسى : « الظاهر أن الضمير المرفوع فى « عصوك » عائد على من

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٤١

أمر - صلى الله عليه وسلم - بإنذارهم، وهم العشيرة. أى: فإن عصوك ولم يتبعوك بعد إنذارهم، فقل إنى برىء من عملكم، أو من دعائكم مع الله إلها آخر. وجوز أن يكون عائدا على الكفار المفهوم من السياق.

وقيل: هو عائد على من اتبع من المؤمنين. أى: فإن عصوك يا محمد فى الأحكام وفروع الإسلام، بعد تصديقك والإيمان بك وتواضعك لهم، فقل إنى برىء مما تعملون من المعاصى..."[1].

وكان هذا فى مكة، قبل أن يؤمر - صلى الله عليه وسلم - بقتال المشركين.

ثم أمره - سبحانه - بالتوكل عليه وحده فقال: «وتوكل على العزيز الرحيم» أى: اخفض جناحك لأتباعك المؤمنين، وقل لمن عصاك بعد إنذاره إنى برىء من أعمالكم، واجعل توكلك واعتمادك على ربك وحده، فهو - سبحانه - صاحب العزة والغلبة، والقهر، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شىء.

وهو عز وجل - «الذى يراك حين تقوم» إلى عبادته وإلى صلاته دون أن يكون معك أحد.

وهو - سبحانه - الذى يرى «تقلبك فى الساجدين»، أى: يراك وأنت تصلى مع المصلين، فتؤمهم وتنتقل بهم من ركن إلى ركن، ومن سنة إلى سنة حال صلاتك، والتعبير بقوله «تقلبك» يشعر بحرصه - صلى الله عليه وسلم - على تعهد أصحابه، وعلى تنظيم صفوفهم فى الصلاة، وعلى غير ذلك مما هم فى حاجة إليه من إرشاد وتعليم.

وعبر عن المصلين بالساجدين، لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، فهذا التعبير من باب التشريف والتكريم لهم.

---

(١) تفسير الآلوسى ج١٤ ص١٣٦

« إنه - سبحانه - هو السميع » لكل مايصح تعلق السمع به «العليم» بكل الظواهر والبواطن ، لايخفى عليه شيء فى الأرض ولا السماء .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان أن الشياطين من المحال أن تتنزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - الصادق الأمين ... وإنما تتنزل على الكاذبين الخائنين ، فقال - تعالى - :

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) » .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « هل أنبئكم ... » للتقرير ، والخطاب للمشركين الذين اتهموا النبي - صلى الله عليه وسلم - تارة بأنه كاهن ، وتارة بأنه ساحر أو شاعر .

أى : ألا تريدون أن تعرفوا - أيها المشركون - على من تتنزل الشياطين؟ إنهم لا يتنزلون على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لأن طبعه يتباين مع طباعهم ، ومنهجه يتعارض مع مسالكهم ، فهو يدعو إلى الحق وهم يدعون إلى الباطل .

إنما تتنزل الشياطين « على كل أفاك » أى : كثير الإفك والكذب «أثيم» أى : كثير الارتكاب للآثام والسيئات ، كأولئك الكهنة الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

والضمير فى قوله « يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » يجوز أن يعود إلى كل أفاك أثيم ، وهم الكهان وأشباههم ، والجملة صفة لهم ، أو مستأنفة .

والمراد بإلقائهم السمع : شدة الإنصات ، وقوة الإصغاء للتلقى .

والمعنى : تتنزل الشياطين على كل أفاك أثيم . وهؤلاء الأفاكون الآثمون، منصتون إنصاتا شديدا إلى الشياطين ليسمعوا منهم ، وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيما يقولونه للناس ، وفيما يخبرون به عن الشياطين.

روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سأل ناس النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الكهان ، فقال : إنهم ليسوا بشىء، قالوا : يارسول الله ، وإنهم يحدثون بالشىء يكون حقا ؟ فقال النبى - صلى الله عليه وسلم: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقرها - أى : فيرددها - فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة . فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة »(١).

ويجوز أن يعود الضمير على الشياطين، وتكون الجملة حالية أومستأنفة، ومعنى إلقائهم السمع : إنصاتهم إلى الملأ الأعلى ليسترقوا شيئا من السماء.

فيكون المعنى : تتنزل الشياطين على كل أفاك أثيم ، حالة كون الشياطين ينصتون إلى الملأ الأعلى ، ليسترقوا شيئا من السماء ، وأكثر هؤلاء الشياطين كاذبون فيما ينقلونه إلى الأفاكين والآثمين من الكهان .

ويصح أن يكون السمع بمعنى المسموع . أى : يلقى كل من الشياطين والكهنة مايسمعونه إلى غيرهم .

قال الجمل : « قوله « وأكثرهم كاذبون» الأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم ، على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكون عن الجنى أو المعنى: وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب إلى أكثرهم كون أقلهم صادقا على الإطلاق ... فالكثرة فى المسموع لا فى ذوات القائلين.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير حـ ٦ ص ١٨٣

قال بعضهم . المراد بالأكثر الكل ...»[1] .

والمقصود من هذه الآيات الكريمة، إبطال مازعمه المشركون من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد تلقى هذا القرآن عن الشياطين أو عن غيرهم ، وإثبات أن هذا القرآن مانزل إلا من عند الله - تعالى - بواسطة الروح الأمين .

وقوله - سبحانه -: «والشعراء يتبعهم الغاوون» إبطال لشبهة أخرى من شبهات وهى زعمهم أنه - صلى الله عليه وسلم - شاعر.

والشعراء : جمع شاعر كعالم وعلماء . والغاوون : جمع غاو وهو الضال عن طريق الحق .

أى : ومن شأن الشعراء أن الذين يتبعونهم من البشر ، هم الضالون عن الصراط المستقيم ، وعن جادة الحق والصواب .

وقوله - تعالى -: «ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون» تأكيد لما قبله ، من كون الشعراء يتبعهم الغاوون . والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية والمعرفة .

والوادى : هو المكان المتسع . والمراد به هنا : فنون القول وطرقه .

ويهيمون : من الهيام وهو أن يذهب المرء على وجهه دون أن يعرف له جهة معينة يقصدها .

يقال : هام فلان على وجهه ، إذا لم يكن له مكان معين يقصده . والهيام داء يستولى على الإبل فيجعلها تشرد عن صاحبها بدون وقوف فى مكان معين ، ومنه قوله - تعالى - : «فشاربون شرب الهيم» أى: الجمال العطاش الشاردة.

والمعنى : ألم تر - أيها العاقل - أن هؤلاء الشعراء فى كل فن من فنون

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين .

المكذب فى الأقوال يخوضون، وفى كل فح من فجاج الباطل والعبث والفحش يتكلمون، وأنهم فوق ذلك يقولون مالا يفعلون فهم يحضون غيرهم على الشيء ويتقبلونه، وهم يقولون فعلنا كذا وفعلنا كذا- على سبيل التباهى والتفاخر- مع أنهم لم يفعلوا.

قال صاحب الكشاف: ذكر الوادى والهيوم: فيه تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو فى المنطق، ومجاوزة حد القصد فيه، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم، وأن يبهتوا البرىء، ويفسقوا التقى[1].

وقوله- تعالى-: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعدما ظلموا...» استثناء من الشعراء المذمومين الذين يتبعهم الغاوون، والذين هم فى كل واد يهيمون.

أى: إلا الشعراء الذين آمنوا بالله- تعالى- وعملوا الأعمال الصالحات، وذكروا الله كثيرا بحيث لم يشغلهم شعرهم عن طاعة الله، وانتصروا من بعد ما ظلموا من أعدائهم الكافرين، بأن ردوا على أباطيلهم، ودافعوا عن الدين الحق...

إلا هؤلاء، فإنهم لا يكونون من الشعراء المذمومين، بل هم من الشعراء الممدوحين قال ابن كثير: ولما نزل قوله- تعالى-: «والشعراء يتبعهم الغاوون» جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحه، وكعب بن مالك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وهم يبكون وقالوا: قد علم الله- تعالى- أنا شعراء. فتلا عليهم النبي- صلى الله عليه وسلم- «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» قال: أنتم.

«وذكروا الله كثيرا» قال أنتم «وانتصروا من بعدما ظلموا» قال أنتم[2]

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٤٤.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٦.

فالشعراء منهم المذمومون وهم الذين فى كل واد يهيمون . ويقولون مالا يفعلون . . .

ومنهم الممدوحون وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا .

والشعر فى ذاته كلام : حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ،فخذ الحسن ، واترك القبيح .

وقد تكلم العلماء هنا كلاما طويلا يتعلق بتفسير هذه الآيات التى تحدثت عن الشعراء فارجع إليه إن شئت، (١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى -: « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

والمنقلب : المرجع والمصير ، وهو مفعول مطلق . أى : ينقلبون أى إنقلاب والجملة الكريمة مشتملة على أشد ألوان التهديد والوعيد للظالمين .

قال القرطبى :« ومعنى: « أى منقلب ينقلبون» أى مصير يصيرون،وأى مرجع يرجعون ، لأن مصيرهم إلى النار، وهو أقبح مصير ، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع والفرق بين المنقلب والمرجع، أن المنقلب الإنتقال إلى ضد ما هو فيه ، والمرجع العود من حال هو فيها ، إلى حال كان عليها ، فصار كل مرجع منقلبا ، وليس كل منقلب مرجعا»(٢) .

وقال الإمام ابن كثير :« والصحيح أن هذه الآية عامة فى كل ظالم . . . وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كتب أبى وصيته من سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبى قحافة ، عند خروجه من الدنيا . حين يؤمن الكافر . وينتهى الفاجر،ويصدق الكاذب. إنى استخلفت

---

(١) راجع الآلوسى جـ١٩ ص ١٤٥ (٢) تفسير القرطبى جـ١٣ ص ١٥٣

عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظنى به ، ورجائى فيه ، وإن يظلم ويبدل فلا أعلم الغيب « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وبعد : فهذه سورة الشعراء ، وهذا تفسير محرر لها ، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة ـ مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوى

ظهر الأحد ١٩ / ٥ / ١٤٠٥ هـ

الموافق ١٠ / ٢ / ١٩٨٥ م

فهرس إجمالي لتفسير «سورة الشعراء»

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة والتمهيد	٣٠١
١	طسم ، تلك آيات الـكتاب المبين ...	٣٠٣
١٠	وإذا نادى ربك موسى ...	٣٠٨
١٨	قال ألم نربك فينا وليدا ...	٣١٣
٣٤	قال للملأ حوله إن هذا ...	٣٢٠
٤٣	قال لهم موسى ألقوا ...	٣٢٢
٥٢	وأوحينا إلى موسى ...	٣٢٥
٦٩	واتل عليهم نبأ إبراهيم ...	٣٣٢
٩٠	وأزلفت الجنة للمتقين ...	٣٣٨
١٠٥	كذبت قوم نوح المرسلين ...	٣٤١
١٢٣	كذبت عاد المرسلين ...	٣٤٦
١٤١	كذبت ثمود المرسلين ...	٣٥٠
١٦٠	كذبت قوم لوط المرسلين ...	٣٥٥
١٧٦	كذب أصحاب الأيـكة ...	٣٥٨
١٩٢	وإنه لتنزيل رب العالمين ...	٣٦٤
٢٠٠	كذلك سلـكناه في قلوب المجرمين ...	٣٦٨
٢١٣	فلا تدع مع الله إلها آخر ...	٣٧٢
٢٢١	هل أنبئـكم على من تنزل الشياطين ...	٣٧٧

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة النمل

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء التاسع عشر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
تليفون ٩٠٧٣٧٩
ص . ب ١١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ ــ سورة النمل، من السور المكية : وهى السورة السابعة والعشرون فى ترتيب المصحف، وكان نزولها بعد سورة الشعراء .

قال القرطبي : سورة النمل، مكية كلها فى قول الجميع(١) .

٢ ــ وسميت بسورة النمل، لقوله ـ تعالى ـ : « حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة » .

قال الآلوسى : «وتسمى ـ أيضا ـ كما فى الدر المنثور، سورة سليمان، وعدد آياتها خمس وتسعون آية ـ عند الحجازيين ـ، وأربع وتسعون ـ عند البصريين ـ وثلاث وتسعون ـ عند الكوفيين ـ »(٢) .

٣ ــ وقد افتتحت سورة النمل بالثناء على القرآن الكريم، وعلى المؤمنين الذين يحافظون على فرائض الله ـ تعالى ـ، ويوقنون بالآخرة ومافيها من ثواب أو عقاب ...

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة، فقد أنذرتهم بسوء المصير « أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الأخسرون » .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١٣ ص ١٥٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ١٥٤ .

٤ — ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن جانب من قصة موسى - عليه السلام - فذكرت لنا ماقاله موسى لأهله عندما آنس من جانب الطور نارا، وما قاله الله - تعالى - له عندما جاءها، وما أمره - سبحانه - به، فى قوله - تعالى -: «وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب. ياموسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون».

٥ — ثم تحدثت السورة بعد ذلك عما منحه الله - تعالى - لداود وسليمان - عليهما السلام - من علم واسع، ومن عطاء كبير، وحكت ماقالته نملة عندما رأت سليمان وجنوده، كما حكت مادار بين سليمان - عليه السلام - وبين الهدهد، وما دار بينه - عليه السلام - وبين ملكة سبأ من كتب ومحاورات انتهت بإسلام ملكة سبأ، حيث قالت: «رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين».

٦ — ثم ساقت السورة جانبا من قصة صالح مع قومه، فتحدثت عن الرهط التسعة الذين كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، والذين بيتوا السوء لنبيهم صالح وللمؤمنين معه، فكانت نتيجة مكر هؤلاء المفسدين الخسار والهلاك. كما قال - تعالى -: «ومكروا مكرا ومكرنا مكرا، وهم لايشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا».

٧ — وبعد أن ساقت السورة جانبا من قصة لوط - عليه السلام - مع قومه، أتبعت ذلك بالحديث عن وحدانية الله - تعالى - وقدرته، فذكرت ألوانا من الأدلة على ذلك، وقد قال - سبحانه - فى أعقاب كل دليل «أإله مع الله»، وكرر ذلك خمس مرات، فى خمس آيات.

٨ — وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر وحدانية الله وقدرته

ـ سبحانه ـ ، أخذت السورة الكريمة فى تسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى تثبيت فؤاده ، وفى بيان أن هذا القرآن هداية ورحمة .

قال ـ تعالى ـ : « إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين . إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين » .

٩ — ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بالحديث عن علامات الساعة وأهوالها ، وعن عاقبة المؤمنين ، وعاقبة الكافرين ، وعن المنهج الذى اتبعه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر غيره باتباعه ، فقال ـ تعالى ـ : « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين . وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ، وما ربك بغافل عما تعملون » .

١٠ — وبعد : فهذا عرض مجمل لسورة النمل . ومنه نرى أن السورة الكريمة زاخرة بالحديث عن أدلة وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، وعن مظاهر فضله ـ تعالى ـ على عباده . وعن علمه ـ سبحانه ـ المحيط بكل شىء ، وعن آياته الكونية التى يكشف منها للناس ما يشاء كشفه وبيانه .

كما نرى أن السورة الكريمة قد اشتمل القصص على جانب كبير منها ، خصوصاً قصص بعض أنبياء بنى إسرائيل ، فقد حدثتنا عن جانب من قصة موسى ، وداود ، وسليمان . ثم بينت أن على بنى إسرائيل المعاصرين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعودوا إلى القرآن ، ليعرفوا منه الأمر الحق فى كل ما اختلفوا فيه ، قال ـ تعالى ـ : « إن هذا القرآن نقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » .

كما نراها تجمع فى توجيهاتها وإرشاداتها بين الترغيب والترهيب ، وبين

التذكير بنعم الله التي نشاهدها في هذا الكون ، وبين التحذير من أهوال يوم القيامة ، وتختم بهذه الآية الجامعة : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ، وما ربك بغافل عما تعملون » .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة ـ مدينة نصر　　　　د . محمد سيد طنطاوي

٢٦ / ٥ / ١٤٠٥ هـ

١٦ / ٢ / ١٩٨٥ م

التفســير

قال الله تعالى : « طَس . تِلْكَ آياتُ القرآن وَكِتَابٍ مبين (١) وَبُشْرَى للمؤمنينَ (٢) الذينَ يُقِيمُونَ الصلاةَ وَيُؤْتُونَ الزكاةَ وَهُمْ بوقِنُون (٣) إنَّ الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخرةِ زَيَّنَّا لهم أعمالَهُم فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الذينَ لَهُم سُوءُ العَذَابِ وهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الأخْسَرُونَ (٥) وإنَّكَ لَتُلَقَّى القرآنَ مِن لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ (٦) » .

سورة النمل : من السور التى إفتتحت ببعض الحروف المقطعة، وهو قوله ـ تعالى ـ « طس » .

وقد ذكرنا آراء العلماء فى هذه الحروف المقطعة بشيء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ... الخ .

وقلنا ماخلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى إفتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه ، للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لأولئك الكافرين الذين زعموا أن هـذا القرآن ليس من عنده ـ تعالى ـ : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ماتؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية ، التى تنظمون منها حروفكم، فإن كنتم فى شك فى أنه من عند الله ـ تعـالى ـ فهاتوا مثله ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو هاتوا سورة واحدة من مثله .

فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عندالله ـ عزوجل ـ

واسم الإشارة « تلك » يعود إلى الآيات القرآنية التي تضمنتها هذه السورة الكريمة . أو إلى جميع آيات القرآن التي نزلت قبل ذلك .

وهو - أي لفظ «تلك» - مبتدأ وخبره قوله - سبحانه - « آيات القرآن » . أي : تلك الآيات الحكيمة التي أنزلناها إليك - أيها الرسول الكريم - هي آيات القرآن ، الذي أنزلناه إليك لتخرج الناس به من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

فإضافة الآيات إلى القرآن لتعظيم شأنها ، وسمو منزلتها .

وقوله - تعالى - : « وكتاب مبين » معطوف على القرآن من باب عطف إحدى الصفتين على الأخرى ، كقولهم هذا فعل فلان السخي والجواد الكريم.

قال الآلوسي : والمبين : إما من أبان المتعدي ، أي : مظهر ما في تضاعيفه من الحكم والأحكام وأحوال القرون الأولى . . . وإما من أبان اللازم ، بمعنى بان . أي : ظاهر الإعجاز . . وهو على الاحتمالين ، صفة مادحة لكتاب ، مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة . . . »(1) .

وقوله - تعالى - : « هدى وبشرى للمؤمنين » في حيز النصب على الحالية من قوله « آيات » ، ولفظ « هدى » مصدر هداه هدى وهداية ، ومعناه : الدلالة الموصلة إلى البغية .

و « البشرى » : الخبر السار ، فهي أخص من مجرد الخبر ، وسمي الخبر السار بشرى ، لأن أثره يظهر على البشرة ، وهي ظاهر جلد الإنسان .

أي : أنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم - هذه الآيات القرآنية ، حالة كونها هداية للمؤمنين إلى طريق السعادة والفلاح ، وبشارة لهم بما يشرح صدورهم ، ويدخل الفرح والسرور على نفوسهم .

(1) تفسير الآلوسي ج ١٩ ص ١٥٥ .

وخص - سبحانه - المؤمنين بذلك، لأنهم المنتفعون بهذه الهداية والبشارة، دون سواهم من الكافرين والمنافقين .

قال - تعالى - : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد »(١) .

وقال - سبحانه - : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون »(٢) .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المؤمنين بثلاث صفات جامعة بين خيري الدنيا والآخرة فقال : « الذين يقيمون الصلاة » أي : يؤدونها في أوقاتها المقدرة لها ، مستوفية لواجباتها وسننها وآدابها وخشوعها .

« ويؤتون الزكاة » التي كلفهم الله - تعالى - بإيتائها، بإخلاص وطيب نفس .

« وهم بالآخرة هم يوقنون » . والآخرة تأنيث الآخر . والمراد بها الدار الآخرة ، وسميت بذلك لأنها تأتي بعد الدنيا هي الدار الأولى .

وقوله : « يوقنون » من الإيقان . وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، بحيث لا يطرأ عليه شك ، أو تحوم حوله شبهة . يقال : يقن الماء ، إذا سكن وظهر ما تحته .

ويقال : يقنت من هذا الشيء يقنا ، وأيقنت ، وتيقنت ، واستيقنت ، اعتقدت اعتقادا جازما من وجوده أو صحته .

أي: وهم بالدار الآخرة وما فيها من حساب وعقاب ، يوقنون إيقانا قطعيا ، لا أثر فيه للادعاءات الكاذبة ، والأوهام الباطلة .

قال الجمل : « ولما كان إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، مما يتكرر ويتجدد في

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٤

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٤

أوقاتهما ، أتى بهما فعلين ، ولما كان الإيقان بالآخرة أمرا ثابتا مطلوبا دوامه ، أتى به جملة اسمية .

وجعل خبرها مضارعاء للدلالة على أن إيقانهم يستمر على سبيل التجدد»(١).

وبعد أن مدح - سبحانه - المؤمنين بتلك الصفات الطيبة ، أتبع ذلك ببيان ماعليه غيرهم من ضلال وحيرة فقال : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون » .

وقوله : « زينا » من التزيين ، بمعنى التحسين والتجميل .

و « يعمهون » من العمه بمعنى التحير والتردد . يقال : عمه فلان - كفرح ومنع - إذا تحير وتردد فى أمره .

والمعنى : إن الذين لا يؤمنون بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، « زينا لهم أعمالهم » أى : حسناها لهم ، وحببنا إليهم ، بسبب استحبابهم العمى على الهدى ، والغى على الرشد « فهم يعمهون » أى : فهم يتحيرون ويتخبطون ويرتكبون ما يركبون من قبائح ، ظنا منهم أنها محاسن .

وصدق الله إذ يقول : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء . . »(٢) .

ثم بين - سبحانه - قبح عاقبتهم فقال : « أولئك الذين لهم سوء العذاب » .

أى : أولئك الذين لم يؤمنوا بالآخرة ، لهم أشد أنواع العذاب الذى يذلهم ويؤلمهم فى الدنيا « وهم فى الآخرة هم الأخسرون » أى : وهم فى الآخرة أشد خسارة منهم فى الدنيا إذ عذاب الدنيا له نهاية . أما عذاب الآخرة فلا نهاية له .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين حـ٣ ص ٢٩٨

(٢) سورة فاطر ، الآية ٨

وقوله - تعالى - : « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » كلام مستأنف سيق بعد بيان بعض صفات القرآن الكريم ، تمهيداً لما سيأتى بعد ذلك من قصص وآداب وأحكام وهدايات .

وقوله « تلقى » من التلقى بمعنى الأخذ عن الغير ، والمراد به جبريل - عليه السلام - .

أى : وإنك - أيها الرسول الكريم - لتتلقى القرآن الكريم - بواسطة جبريل - عليه السلام - من لدن ربك الذى يفعل كل شىء بحكمة ليس بعدها حكمة ، ويدبر كل أمر بعلم شامل لكل شىء .

وصدرت هذه الآية الكريمة بحرف التأكيد - وهما إن ولام القسم - للدلالة على كمال العناية بمضمونه .

والتعبير بقوله « لتلقى » يشعر بمباشرة الأخذ عن جبريل - عليه السلام - بأمر الله - تعالى - الحكيم العليم ، كما يشعر بقوته وشدته ، كما فى قوله - سبحانه - : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .

وجاء الأسلوب بالبناء للمفعول فى قوله « تلقى » وحذف الفاعل وهو جبريل للتصريح به فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين » .

وجمع - سبحانه - فى وصفه لذاته بين الحكم والعلم ، للدلالة على أن هذا القرآن تتجلى فيه كل صفات الإتقان والإحكام ، لأنه كلام الحكيم فى أفعاله ، العليم بكل شىء .

وبعد أن بين - سبحانه - أن هذا القرآن ، قد تلقاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من لدن حكيم عليم أتبع ذلك بجانب من قصة موسى - عليه السلام -

لتكون بمثابة التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عن موقف كفار مكة منه - عليه الصلاة والسلام - ، فقال - تعالى - :

« إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ، سَآتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ ، أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ، قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا ، وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) » .

هذا جانب من قصة موسى - عليه السلام - كما جاءت فى هذه السورة، وقد جاءت فى سور أخرى بصورة أوسع ، كسور : البقرة ، والأعراف ، ويونس ، والشعراء ، والقصص . . .

وقد افتتحت هنا بقوله - تعالى - : «إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا».

والظرف « إذ » متعلق بمحذوف تقديره : اذكر .

و « موسى » - عليه السلام - هو ابن عمران ، وينتهى نسبه إلى يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - ، وكانت بعثته - على الراجح - فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد .

والمراد بأهله : زوجته ، وهى ابنة الشيخ الكبير الذى قال له - بعد أن سقى لابنتيه غنمهما - : «إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج.. »(١) .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « وكان ذلك بعد أن قضى موسى الأجل الذى بينه وبين صهره ، فى رعاية الغنم ، وسار بأهله ، قيل : قاصدا بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال.. فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نارا.. »(٢) .

وقوله : « آنست » من الإيناس ، بمعنى الإبصار الواضح الجلى يقال : آنس فلان الشىء إذا أبصره وعلمه وأحس به .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وذكر أتباعك ليعتبروا ويتعظوا، وقت أن قال موسى لأهله ، وهو فى طريقه من جهة مدين إلى مصر .

إنى أبصرت إبصارا لا شبهة فيه نارا. فامكثوا فى مكانكم ، فإنى سآتيكم منها بخبر ، أى : سآتيكم من جهتها بخبر ينفعنا فى رحلتنا هذه ، ونسترشد به فى الوصول إلى أهدى الطرق التى توصلنا إلى المكان الذى نريده .

و « أو » فى قوله - سبحانه - : « أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » مانعة خلو .

قال القرطبى : ما ملخصه: « قرأ عاصم وحمزة والكسائى : « بشهاب قبس » بتنوين « شهاب » وقرأ الباقون بدون تنوين على الإضافة ، أى : بشعلة نار ، من إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة . والشهاب : كل ذى نور، نحو الكواكب ، والعود الموقد . والقبس : اسم لما يقتبس من جمر وما أشبهه ، فالمعنى بشهاب من قبس .. ومن قرأ « بشهاب قبس » بالتنوين جعله بدلا منه، أو صفة له ، تأويله بمعنى المقبوس .. »(٣) .

(١) سورة القصص الآية ٢٧ (٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧

(٣) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٥٧

وقوله « تصطلون » أي : تستدفئون ، والاصطلاء : الدنو من النار لتدفئة البدن عند الشعور بالبرد . قال الشاعر :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه شاتيا فليصطل

والمعنى : قال موسى - عليه السلام - لأهله عندما شاهد النار : امكثوا في مكانكم ، فإني ذاهب إليها ، لكي آتيكم من جهتها بخبر ينفعنا في رحلتنا ، فإن لم يكن ذلك ، فإني آتيكم بشعلة مقتطعة منها ، ومقتبسة من أصلها ، لعلكم تستدفئون بها في تلك الليلة الشديدة البرودة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : - قوله - تعالى : هنا « سآتيكم منها بخبر » مع قوله - تعالى - في سورة القصص[1] « لعلى آتيكم منها بخبر » كالمتدافعين ، لأن أحدهما ترج ، والآخر تيقن . قلت : قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيكون كذا ، مع تجويزه الخيبة .

فإن قلت : كيف جاء بسين التسويف - هنا - ؟ قلت : عدة لأهله أنه يأتيهم وإن أبطأ ، أو كانت المسافة بعيدة .

فإن قلت : فلم جاء بأو دون الواو ؟ قلت : بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما : إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ، ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده ...»[2] .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى عندما اقترب من النار فقال : « فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها ... » و « أن » هنا مفسرة ، لما في النداء من معنى القول .

وقوله : « بورك » من البركة ، بمعنى ثبوت الخير وكثرته : والخير هنا يتمثل في تكليم الله - تعالى - لنبيه موسى . وفي ندائه له ، وتشريفه رسالته ، وتأييده بالمعجزات .

---

(١) الآية ٢٩ (٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٤٩

والمراد بمن فى النار : من هو قريب منها ، وهو موسى ـ عليه السلام ـ والمراد بمن حولها : الملائكة الحاضرون لهذا النداء ، أو الأماكن المجاورة لها .

أى : فلما وصل موسى ـ عليه السلام ـ إلى القرب من مكان النار ، نودى موسى من قبل الله ـ عز وجل ـ على سبيل التكريم والتحية : أن قدس وطهر وأختير للرسالة من هو بالقرب منها وهو موسى ـ عليه السلام ـ ، ومن حولها من الملائكة ، أو الأماكن القريبة منها .

قال الآلوسى : «قوله : «من فى النار ومن حولها» ، ذهب جماعة إلى أن فى الكلام مضافا مقدرا فى موضعين . أى : من فى مكان النار ، ومن حول مكانها قالوا : ومكانها البقعة التى حصلت فيها ، وهى البقعة المباركة ، المذكورة فى قوله ـ تعالى ـ : «فلما أتاها ـ أى النار ـ نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ...» .

وقيل : من فى النار : موسى ـ عليه السلام ـ ، ومن حولها : الملائكة الحاضرون ... وقيل : الأول الملائكة ، والثانى موسى . واستغنى بعضهم عن تقدير المضاف بجعل الظرفية مجازا عن القرب التام ... وأيا ما كان فالمراد بذلك بشارة موسى ـ عليه السلام ـ»[1].

وقال الشوكانى : «ومذهب المفسرين أن المراد بالنار ـ هنا ـ النور»[2].

وقوله ـ تعالى ـ : «وسبحان الله رب العالمين» من تتمة النداء ، وخبر منه ـ تعالى ـ لموسى بالتنزيه . لئلا يتوهم من سماع كلامه ـ تعالى ـ التشبيه بما للبشر من كلام .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ١٦٠ (٢) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ١٢٧

أى : وتنزه الله ـ عز وجل ـ وتقدس رب العالمين عن كل سوء ونقص ومماثلة للحوادث .

وقوله ـ سبحانه : « ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » إعلام منه ـ عز وجل ـ لعبده موسى بأن المخاطب له ، إنما هو الله ـ تعالى ـ الذى عز كل شىء وقهره وغلبه . والذى أحكم كل شىء خلقه .

والضمير فى قوله « إنه » للشأن . وجملة « أنا الله » مبتدأ وخبر والعزيز الحكيم صفتان لذاته ـ عز وجل ـ

أى : ياموسى إن الحال والشأن إنى أنا الله العزيز الحكيم ، الذى أخاطبك وأناجيك . فتنبه لما سآمرك به . ونفذ ما سأكلفك بفعله .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك بعض ما أمر به موسى ـ عليه السلام ـ فقال : وألق عصاك .

والجملة الكريمة معطوفة على ماتضمنه النداء .

أى : نودى أن بورك من النار ومن حولها . . . ونودى أن ألق عصاك التى بيدك .

وقوله : « فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب . . » معطوف على كلام مقدر .

أى : فاستجاب موسى ـ عليه السلام ـ لأمر ربه فألقى عصاه فصارت حية ، فلما رآها تهتز .

أى : تضطرب وتتحرك بسرعة شديدة حتى لكأنها « جان » فى شدة حركتها وسرعة تقلبها « ولى مدبرا » عنها من الخوف « ولم يعقب » أى : ولم يرجع على عقبه . بل استمر فى إدباره عنها دون أن يفكر فى الرجوع إليها . يقال : عقب المقاتل . إذا كر على عدوه بعد الفرار منه .

والجان : الحية الصغيرة السريعة الحركة . أو الحية الكبيرة ، والمراد هنا : التشبيه بها فى شدة الحركة وسرعتها مع عظم حجمها.

وإنما ولى موسى مدبرا عنها ، لأنه لم يخطر بباله أن عصاه التى بيده ، يحصل منها مارآه بعينه ، من تحولها إلى حية تسعى وتضطرب وتتحرك بسرعة كأنها جان ، ومن طبيعة الإنسان أنه رأى أمرا غريبا اعتراه الخوف منه ، فما بالك بعصا تتحول إلى حية تسعى .

ثم بين - سبحانه - ما نادى به موسى على سبيل التثبيت وإدخال الطمأنينة على قلبه ، فقال : « ياموسى لا تخف » .

أى : فلما ولى موسى ولم يعقب عندما ألقى عصاه فانقلبت حية ، ناداه ربه - تعالى - بقوله : ياموسى لا تخف مما رأيت ، أو من شىء غيرى ما دمت فى حضرتى .

وجملة « إنى لا يخاف لدى المرسلون » تعليل للنهى عن الخوف ، أى إنى لا يخاف عندى من اخترته لحمل رسالتى ، وتبليغ دعوتى .

وقوله - سبحانه - : « إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم » استثناء منقطع مما قبله .

أى : إنى يا موسى لا يخاف لدى المرسلون ، لكن من ظلم وارتكب فعلا سيئا من عبادى . ثم تاب إلى توبة صادقة ، بأن ترك الظلم إلى العدل والشر إلى الخير . والمعصية إلى الطاعة ، فإنى أغفر له ما فرط منه ، لأنى أنا وحدى الواسع المغفرة والرحمة .

قال ابن كثير : «هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على شىء ثم أقلع عنه وتاب وأناب ، فإن الله يتوب عليه ، كما قال - تعالى - « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » وقال - تعالى -

« ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما»(١).

وقيل : إن الاستثناء متصل ، فيكون المعنى : لا يخاف لدى المرسلون ، إلا من ظلم منهم بأن وقع فى الصغائر التى لا يسلم منها أحد ، ثم تاب منها وأقلع عنها ، فإنى غفور رحيم.

قال الآلوسى : « والظاهر - هنا - انقطاع الاستثناء ، والأوفق بشأن المرسلين ، أن يراد بمن ظلم : من ارتكب ذنبا كبيرا أو صغيرا من غيرهم . و « ثم » يحتمل أن تكون للتراخى الزمانى فتفيد الآية المغفرة لمن يدل على الفور من باب أولى . ويحتمل أن تكون للتراخى الرتبى ، وهو ظاهر بين الظلم والتبديل ... »(٢) .

وعبر - سبحانه - عن ترك الظلم بالتبديل ، للإشارة إلى الإقلاع التام عن هذا الظلم ، وإلى أن هذا الظالم قد حل محله العدل والطاعة والانقياد لأمره - تعالى - .

ثم أرشد - سبحانه - موسى - عليه السلام - إلى معجزة أخرى، لتكون دليلا على صدقه فى رسالته إلى من سيرسله إليهم فقال : « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » .

والمراد بجيبه : فتحة ثوبه أو قميصه عند مدخل رأسه ، أو عند جانبه الأيمن ، وأصل الجيب : القطع . يقال : جاب الشىء إذا قطعه .

والمعنى : وأدخل ياموسى يدك اليمنى فى فتحة ثوبك ، ثم أخرجها تراها تخرج بيضاء من غير سوء . أى : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض ، دون

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٩١

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ١٦٦

أن يكون بها أى سوء من مرض أو برص أو غيرهما ، وإنما يكون بياضها بياضا مشرقا مصحوبا بالسلامة بقدرة الله - تعالى وإرادته .

قال الحسن البصرى : أخرجها - والله - كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه قد لقى ربه .

وقوله : « تخرج » جواب الأمر فى قوله : « وأدخل » ، و « بيضاء » حال من فاعل تخرج ، و « من غير سوء » يجوز أن يكون حالا أخرى ، أو صفة لبيضاء .

والمراد باليد هنا : كف يده اليمنى . والسوء الردىء والقبيح من كل شىء ، وهو هنا كناية عن البرص لشدة قبحه .

وقوله - تعالى - : « فى تسع آيات إلى فرعون وقومه » يصح أن يكون حالا ثالثة من فاعل « تخرج » فيكون المعنى : وأدخل ياموسى يدك فى جيبك تخرج حالة كونها بيضاء ، وحالة كونها من غير سوء ، وحالة كونها مندرجة أو معدودة فى ضمن تسع آيات زودناك بها ، لتكون معجزات لك أمام فرعون وقومه ، على أنك صادق فيما تبلغه عن ربك .

قال الجمل : « وقوله : « فى تسع آيات » فيه وجوه : أحدها : أنه حال ثالثة يعنى من فاعل تخرج ، أى : آية فى تسع آيات . الثانى : أنه متعلق بمحذوف أى : اذهب فى تسع آيات ... »(1) .

والمراد بالآيات التسع التى أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . كما جاء ذلك عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

وقد جاء الحديث عن هذه الآيات فى مواضع أخرى من القرآن الكريم منها قوله - تعالى - : « فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين »(2) .

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣٠١ .
(2) سورة الشعراء الآيتان : ٣٢ ، ٣٣

وقوله - سبحانه - : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون »(١) .

وقوله - عز وجل - : « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم »(٢) .

وقال - تعالى - : « فأرسلنا عليهم الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم .. »(٣) .

وتحديد الآيات بالتسع ، لا ينفي أن هناك معجزات أخرى ، أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - إذ من المعروف عند علماء الأصول أن تحديد العدد بالذكر ، لا يدل على نفي الزائد عنه .

قال ابن كثير : « وقد أوتي موسى - عليه السلام - آيات أخرى كثيرة ، منها ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه ... وغير ذلك . مما أوتوه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر . ولكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التي شاهدها فرعون وقومه ، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحودا »(٤) .

وقوله - تعالى - : « إنهم كانوا قوما فاسقين » استئناف مسوق لبيان سبب إرسال موسى إلى فرعون وقومه .

أي : هذه الآيات التسع أرسلناك بها ياموسى إلى فرعون وقومه ، لأنهم كانوا قوما فاسقين عن أمرنا ، وخارجين على شرعنا ، وعابدين لغيرنا من مخلوقاتنا .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وقومه من هذه المعجزات الدالة على صدق موسى فقال :

(١) سورة الشعراء الآية ١٣٠
(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٠
(٣) سورة الأعراف الآية ١٢٣
(٤) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٢١

فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

وقوله : « مبصرة » من الإبصار والظهور . وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول ، للاشعار بشدة وضوحها وإنارتها ، حتى لكأنها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر ، كما يقال : ماء دافق بمعنى مدفوق .

وقوله : « وجحدوا بها » من الجحود . وهو إنكار الحق مع العلم بأنه حق ، يقال : جحد فلان حق غيره ، إذا أنكره مع علمه به .

وقوله : « واستيقنتها » من الإيقان وهو الاعتقاد الجازم الذى لا يطرأ عليه شك وجىء بالسين لزيادة التأكيد .

والمعنى : وذهب موسى - عليه السلام - ومعه المعجزات الدالة على صدقه ، إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، فلما جاءهم موسى بتلك المعجزات المضيئة الواضحة الدلالة على صدقه ، قالوا على سبيل العناد والغرور ، هذا الذى نراه منك ياموسى ، سحر بين وظاهر فى كونه سحرا .

وجحد فرعون وقومه هذه المعجزات التى جاء بها موسى من عند ربه - تعالى - ، مع أن أنفسهم قد علمت علما لا شك معه أنها معجزات وليست سحرا ، ولكنهم خالفوا علمهم ويقينهم « ظلما » للآيات حيث أنزلوها عن منزلتها الرفيعة وسموها سحرا « وعلوا » أى : ترفعا واستكبارا عن الإيمان بها .

« فانظر » أيها العاقل « كيف كان عاقبة المفسدين » ؟ لقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الله جميعا ، بسبب كفرهم وظلمهم وجحودهم وفسادهم فى الأرض .

وفى التعبير بقوله : « فلما جاءتهم آياتنا . . » إشعار بأن هذه الآيات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - قد وصلت إليهم بدون أن

« ولقدْ آتينا داودَ وسُليمانَ عِلماً ، وقالاَ الحمدُ لله الذى فضَّلنا على كثيرٍ مِنْ عبادِهِ المؤمنينَ (١٥) وَوَرِثَ سليمانُ داودَ وقالَ يأيُّها الناسُ عُلِّمنا منطقَ الطَّيرِ وأُوتِينا مِنْ كُلِّ شىْء ، إنَّ هذا لهوَ الفضْلُ المبينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُليمانَ جنودُهُ من الجِنِّ والإنسِ والطَّيرِ فهم يُوزَعُونَ (١٧) حتّى إذَا أتَوا على وادِ النَّملِ قالَتْ نملةٌ يأيُّها النَّملُ ادخلُوا مساكِنكم لا يَحْطِمنكُم سليمانُ وجنودهُ وهُم لا يَشعُرونَ (١٨) فتبسَّمَ ضاحكاً مِنْ قولِها ، وقالَ ربِّ أوزِعْنِي أنْ أشكُرَ نعمتَكَ التى أنعمتَ علَيَّ وعلَى والديَّ ، وأَنْ أعملَ صالِحًا ترْضاهُ ، وأَدْخِلنِي برحمتِكَ فى عبادِكَ الصالحينَ (١٩) » .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ولقد آتينا داود وسليمان علما » كلام مستأنف مسوق لتقرير قوله ـ تعالى ـ : « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم خبير » إذ القرآن الكريم هو الذى قص الله ـ تعالى ـ فيه أخبار السابقين ، بالصدق والحق .

وداود هو ابن يسى ، من سبط يهوذا من بنى إسرائيل ، وكانت ولادته فى بيت لحم سنة ١٠٨٥ ق م ـ تقريبـا ـ ، وهو الذى قتل جالوت ، كما قال ـ تعالى ـ : « فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ... »(١) . وكانت وفاته سنه ١٠٠٠ ق م تقريبا .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥١ .

وسليمان هو ابن داود - عليهما السلام - ولد بأورشليم حوالى سنة ١٠٤٣ ق م وتوفى سنة ٩٧٥ ق م .

وقد جاء ذكرهما فى سور الأنبياء وسبأ وغيرهما .

ويعتبر عهدهما أزهى عهود بنى إسرائيل ، فقد أعطاهما الله - تعالى - نعما جليلة

والمعنى : والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علما واسعا من عندنا ، ومنحناهما بفضلنا وإحساننا معرفة غزيرة بعلوم الدين والدنيا .

أما داود فقد أعطاه - سبحانه - علم الزبور ، فكان يقرؤه بصوت جميل ، كما علمه صناعة الدروع .. قال - تعالى - : « ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد .. »(١) .

وأما سليمان فقد آتاه - سبحانه - ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلمه منطق الطير ، ورزق الحكم السديد بين الناس . قال - تعالى - : « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما »(٢) .

وقوله - سبحانه - : « وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » بيان لموقفهما من نعم الله - تعالى - عليهما ، وهو موقف يدل على حسن شكرهما لخالقهما .

والواو فى قوله « وقالا » للعطف على محذوف ، أى : آتيناهما علما غزيرا فعملا بمقتضاه وشكرا الله عليه ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا بسبب ما آتانا من علم ونعم ، على كثير من عباده المؤمنين ، الذين لم ينالوا ما نلنا من خيره وبره - سبحانه .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥١

(٢) سورة سبأ الآية ١٠

قال صاحب الكشاف : «وفى الآية دليل على شرف العلم، وإنافة محله ، وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل النعم ، وأجزل القسم ، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد الله ....»(١) .

وفى التعبير بقوله ـ تعالى ـ « فضلنا على كثير .... » دلالة على حسن أدبهما ، وتواضعهما ، حيث لم يقولا فضلنا على جميع عباده .

والمراد بالوراثة فى قوله ـ تعالى ـ : « وورث سليمان داود ... » وراثة العلم والنبوة والملك ، أى : وورث سليمان داود فى نبوته وعلمه وملكه .

قال ابن كثير : « وقوله: « وورث سليمان داود » . أى : فى الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال ، إذ لو كان كذلك ، لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود . . ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، أخبر بذلك رسول الله ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »(٢) .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله سليمان على سبيل التحدث بنعم الله عليه ، فقال ـ تعالى ـ : « وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء .. »

أى : وقال سليمان ـ عليه السلام ـ على سبيل الشكر لله ـ تعالى ـ : يا أيها الناس : علمنا الله ـ تعالى ـ بفضله وإحسانه فهم ما يريده كل طائر إذا صوت أو صاح ، وأعطانا ـ سبحانه ـ من كل شىء نحتاجه وننتفع به فى ديننا أو دنيانا .

وقدم نعمة تعليمه منطق الطير ، لأنها نعمة خاصة لا يشاركه فيها غيره ، وتعتبر من معجزاته ـ عليه السلام ـ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٥٣

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٩٢

وقيل : إنه علم منطق جميع الحيوانات ، وإنما ذكر الطير لأنه أظهر فى النعمة ، ولأن الطير كان جندا من جنده ، يسير معه لتظليله من الشمس .

قال الآلوسى : «والجملتان - علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء - كالشرح للميراث .

وعن مقاتل : أنه أريد بما أوتيه النبوة والملك وتسخير الجن والإنس والشياطين والريح .

وعن ابن عباس: هو ما يريده من أمر الدنيا والآخرة»(١) .

وعبر عن نعم الله - تعالى - عليه بنون العظمة فقال « أوتينا » ولم يقل وأوتيت ، للاشعار بأنه عبد من عباد الله المطاعين ، الذين سخر لهم جنودا من الجن والإنس والطير ، ليكونوا فى خدمته. وليستعملهم فى وجوه الخير لا فى وجوه الشر ، فهو لم يقل ذلك على سبيل التباهى والتعالى ، وإنما قاله على سبيل التحدث بنعمة الله .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى- : « إن هذا لهو الفضل المبين » يعود إلى ما أعطاه الله - تعالى - إياه ، من العلم والملك وغيرهما .

أى : إن هذا الذى أعطاناه إياه من العلم والملك ، وكل شىء تدعو إليه الحاجة ، لهو الفضل الواضح ، والإحسان الظاهر منه - عز وجل -

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر ملك سليمان - عليه السلام - فتقول : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » .

والحشر : الجمع . يقال: حشر القائد جنده إذا جمعهم لأمر من الأمور التى تهمه .

وقوله : « يوزعون » من الوزع بمعنى الكف والمنع . يقال: وزعه عن الظلم وزعا ، إذا كفه عنه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٩ ص ١٦٤

ومنه قول عثمان بن عفان - رضى الله عنه - : « إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » .

ومنه قول الشاعر :

ولا يزع النفس اللجوج عن الهوى من الناس ، إلا وافر العقل كامله

والمعنى : وجمع لسليمان - عليه السلام - عساكره وجنوده من الجن والإنس والطير « فهم يوزعون » أى : فهم محبوسون ومجموعون بنظام وترتيب ، بحيث لا يتجاوز أحدهم مكانه أو منزلته أو وظيفته المسئول عنها

فالتعبير بقوله « يوزعون » يشعر بأن هؤلاء الجنود مع كثرتهم، لهم من يزعهم عن الفوضى والاضطراب ، إذ الوازع فى الحرب ، هو من يدير أمور الجيش ، وينظم صفوفه ، ويرد من شذ من أفراده إلى جادة الصواب .

وقد ذكر بعض المفسرين هنا أقوالا فى عدد جيش سليمان ، رأينا أن نضرب عنها صفحا ، لضعفها ويكفينا أن نعلم بأن الله - تعالى - قد سخر لسليمان جندا من الجن والإنس والطير، إلا أن عدد هؤلاء الجنود مرد علمه إلى الله - تعالى - وحده ، وإن كان التعبير القرآنى يشعر بأن هؤلاء الجند المجموعين ، يمثلون موكبا عظيما ، وحشدا كبيرا .

ثم حكى - سبحانه - ماقالته نملة عندما رأت هذا الجيش العظيم المنظم، فقال - تعالى : « حتى إذا أتوا على وادى النمل ،قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » .

و « حتى » هنا ابتدائية . أى : يبتدأ بها الكلام ، وقوله « قالت نملة » جواب إذا .

وقوله : « يحطمنكم » من الحطم ، وأصله : كسر الشىء . يقال : حطم فلان الشىء إذا كسره ، والمراد به هنا : الإهلاك والقتل .

والمعنى: وحشر لسليمان جنوده، فسار هؤلاء الجنود في قوة ونظام، «حتى إذا أتوا على وادي النمل» أي: على مكان يعيش فيه النمل في مملكة سليمان «قالت نملة» على سبيل النصح والتحذير بعد أن رأت سليمان وجنوده: «يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم» أي: ادخلوا أماكن سكناكم، وابتعدوا عن طريق هذا الجيش الكبير، وانجوا بأنفسكم، كي لا يحطمنكم سليمان وجنوده، وهم لا يشعرون بكم.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم عدى «أتوا» بعلى؟ قلت: يتوجه على معنيين: أحدهما: أن إتيانهم كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء... والثاني: أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره، من قولهم أتى على الشيء، إذا أنفذه وبلغ آخره...

فإن قلت: «لا يحطمنكم» ما هو؟ قلت: يحتمل أن يكون جوابا للأمر، وأن يكون نهيا بدلا من الأمر. والذي جوز أن يكون بدلا منه: أنه في معنى: لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم، على طريقه: لا أرينك ههنا[1].
أي: لا تحضرها هنا بحيث أراك.

ثم بين - سبحانه - مافعله سليمان بعد أن أدرك ما قالته النملة لأفراد جنسها، فقال - تعالى -: «فتبسم ضاحكا من قولها» أي: فسمع قولها السابق فاهتزت نفسه، وتبسم ضاحكا من قولها، لفطنتها إلى تحذير أبناء جنسها، ولسروره بما قالته عنه وعن جيشه، حيث وصفتهم بأنهم لا يقدمون على إهلاك النمل، إلا بسبب عدم شعورهم بهم.

وقوله «ضاحكا» حال مؤكدة لأنه قد فهم الضحك من التبسم. وقيل التبسم أول الضحك.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٥٦

ثم حكى - سبحانه - ما نطق به سليمان بعد ذلك فقال: «وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ...».

أى: وقال سليمان: يارب ألهمنى المداومة على شكرك والامتناع عن جحود نعمك، والكف عن كل ما يؤدى إلى كفران منتك التى أفضتها على وعلى والدى.

ووفقنى كذلك لأن «أعمل» عملا «صالحا» ترضاه عنى وتقبله منى «وأدخلنى» يا إلهى برحمتك وإحسانك «فى عبادك الصالحين» الذين رضيت عنهم ورضوا عنك.

وهكذا جمع سليمان - عليه السلام - فى هذا الدعاء البليغ المؤثر، أسمى ألوان الخشية من الله - تعالى - والشكر له - سبحانه - على نعمه، والرجاء فى رضاه وعطائه الجزيل.

* * *

ثم تحكى السورة الكريمة بعد ذلك مادار بين سليمان - عليه السلام - وبين جندى من جنود مملكته وهو الهدهد، فقال - تعالى -:

«وَتَفَقَّدَ الطيْرَ فقالَ مالِىَ لا أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الغَائبِينَ (٢٠) لأعذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً أوْ لأذبحَنَّهُ، أو ليأتيَنِّى بسُلطانٍ مبينٍ (٢١) فمكثَ غيرَ بعيدٍ فقالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وجئتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يقينٍ (٢٢) إنِّى وَجَدْتُ امرَأَةً تملِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كل شىء وَلَها عرشٌ عظيمٌ (٢٣) وَجَدتُهَا وَقومَها يَسْجدُونَ للشَّمسِ مِنْ دُونِ اللهِ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعمالَهُم، فصدَّهُمْ عن السبيلِ فهُم لايهتدُونَ (٢٤) ألَّا يسجدُوا لله الذى يُخرجُ الخَبْءَ فى السموات وَالأرض، وَيَعْلمُ ما تُخفُونَ وَمَا تُعلِنُونَ (٢٥) وَاللهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ رَبُّ العرْشِ العَظيم (٢٦)».

والتفقد : تطلب الشيء ومعرفة أحواله ، ومنه قولهم : تفقد القائد جنوده ، أي : تطلب أحوالهم ليعرف حاضرهم من غائبهم .

والطير : اسم جنس لكل مايطير ، ومفرده طائر . والمراد بالهدهد هنا : طائر معين وليس الجنس .

و « أم » منقطعة بمعنى بل .

أي : وأشرف سليمان - عليه السلام - على أفراد مملكته ليعرف أحوالها ، فقال بعد أن نظر فى أحوال الطير : « مالى لا أرى الهدهد » أي : ما الذى حال بينى وبين رؤية الهدهد، ثم تأكد من غيابه فقال: بل هو من الغائبين .

قال الآلوسى : «والظاهر أن قوله - عليه السلام - ذلك ، مبنى على أنه ظن حضوره ومنع مانع له من رؤيته ، أي : عدم رؤيتى إياه مع حضوره، لأى سبب ؟ ألساتر أم لغيره . ثم لاح له أنه غائب، فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : « أم كان من الغائبين » كأنه يسأل عن صحة مالاح له . فأم هى المنقطعة ، كما فى قولهم : « إنها لابل أم شاء ...»(١) .

وقوله - تعالى - : « لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين » بيان للحكم الذى أصدره سليمان - عليه السلام - على الهدهد بسبب غيابه بدون إذن .

أي : لأعذبن الهدهد عذابا شديدا يؤلمه، أو لأذبحنه، أو ليأتى بحجة قوية توضح سبب عذره . وتقنعنى بالصفح عنه ، وبترك تعذيبه، أو ذبحه .

فأنت ترى أن سليمان - عليه السلام - وهو النبى الملك الحكيم العادل - يقيد تعذيب الهدهد أو ذبحه . بعدم إتيانه بالعذر المقبول لسبب غيابه ، أما إذا أتى بهذا العذر فإنه سيعفو عنه ، ويترك عقابه .

فكأنه - عليه السلام - يقول: هذا الهدهد الغائب إما أن أعذبه عذاباً شديداً،

---

(١) تفسير الآلوسى ج١٩ ص ١٨٢

وإما أن أذبحه بعد حضوره ، وإما أن يأتيني بعذر مقبول عن سبب غيابه ، وفي هذه الحالة فأنا سأعفو عنه .

ثم يحكي القرآن بعد ذلك ما كان من الهدهد فقال : « فمكث غير بعيد » أي فمكث الهدهد زمانا غير بعيد من تهديد سليمان له ، ثم أتاه فقال له : « أحطت بما لم تحط به » أي : علمت أشياء أنت لم تعلمها . وابتدأ كلامه بهذه الجملة التي فيها ما فيها من المفاجأة لترغيبه في الإصغاء إليه ، ولاستمالة قلبه لقبول عذره بعد ذلك .

قال صاحب الكشاف : « ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام ، على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة ، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له في علمه ، وتنبيها على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفا له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء ... »(١)

وقوله : « وجئتك من سبأ بنبأ يقين » تفسير وتوضيح لقوله قبل ذلك : أحطت بما لم تحط به وسبأ في الأصل : اسم لسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ثم صار بعد ذلك اسما لحي من الناس سموا باسم أبيهم ، أو صار اسما للقبيلة ، أو لمدينة تعرف بمأرب باليمن . بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال.

وقد قرأ بعضهم هذا اللفظ بالتنوين باعتباره اسم رجل ، وقرأه آخرون بغير تنوين لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث .

أي : قال الهدهد لسليمان بادئا حديثه بما يشير إلى قبول عذره : علمت شيئا أنت لم تعلمه ، وجئتك من جهة قبيلة سبأ بنبأ عظيم خطير ، أنا متيقن من صدقه .

ثم قص عليه ما رآه فقال : « إني وجدت امرأة تملكهم » والمراد بهذه

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٥٩

المرأة : بلقيس بنت شراحيــل بن مالك بن ريان . . . ورثت الملك عن أبيها .

أى : إنى وجدت قبيلة سبأ تحكمها امرأة ، وتتصرف فى أمورهم دون أن يعترض عليها معترض ، أو ينافسها منافس . .

وقوله « وأوتيت من كل شىء » معطوف على ما قبله . أى : وبين يديها جميع الأشياء التى تحتاجها لتصريف شئون مملكتها ، والمحافظة على قوتها واستقرارها . . .

وفضلا عن كل ذلك : « لها عرش عظيم » أى : لها سرير ملك فخم ضخم يدل على غناها وترفها ، ورقى مملكتها فى الصناعة وغيرها .

والمراد أن لها عرشا عظيما بالنسبة إلى أمثالها من ملوك الدنيا .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله . . . »

أى : والأهم من كل ذلك أنى وجدت هذه المرأة ومعها قومها يتركون عبادة الله ـ تعالى ـ ، ويعبدون الشمس التى هى من مخلوقاته ـ عز وجل ـ .

« وزين لهم الشيطان أعمالهم » التى هى عبادتهم للشمس ، وما يشبهها من ألوان الكفر والفسوق عن أمر الله ـ تعالى ـ .

« فصدهم » أى : فمنعهم الشيطان « عن السبيل » الحق « فهم » بسبب ذلك « لا يهتدون » إلى عبادة الله ـ تعالى ـ الذى لا معبود بحق سواه .

وقوله : « ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض » بيان لما ترتب على إغواء الشيطان لهم . وقد قرأ عامة القراء « ألا » ـ بتشديد اللام ـ و « يسجدوا » فعل مضارع منصوب بأن المدغمة فى لفظه لا ، وهو مع ناصبه فى تأويل مصدر ، فى محل نصب على أنه مفعول لأجله .

والمعنى : وزين لهم الشيطان أعمالهم من أجل أن يتركوا السجود لله ـ تعالى ـ

« الذي يخرج الخبء » أي: الذي يظهر الشيء المخبوء في السموات والأرض، كائنا ما كان هذا الشيء، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء فيهما.

قال الآلوسي: وقوله - تعالى -: « أن لا يسجدوا لله »أي: لئلا يسجدوا لله واللام للتعليل، وهو متعلق بصدهم أو بزين. والفاء في « فصدهم » لا يلزم أن تكون سببية لجواز كونها تفريعية أو تفصيلية، أي: فصدهم عن ذلك لأجل أن لا يسجدوا لله -عز وجل- . أو زين لهم ذلك لأجل أن لا يسجدوا له - تعالى - .

ثم قال: وقرأ الكسائي « ألا » - بتخفيف اللام -على أنها حرف استفتاح وتنبيه. و « يا » حرف نداء، والمنادى محذوف، والتقدير: ألا يا قوم اسجدوا لله ... »(١).

وقوله - تعالى -: « ويعلم ما تخفون وما تعلنون » معطوف على ما قبله.

والمعنى: وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله الذي يعلم المخبوء والمستور في السموات والأرض، ويعلم ما تخفون من أسرار، وما تعلنون من أقوال.

قال بعض العلماء: « واعلم أن التحقيق أن آية النمل هذه، محل سجدة على كلتا القراءتين، لأن قراءة الكسائي فيها الأمر بالسجود، وقراءة الجمهور فيها ذم تارك السجود وتوبيخه »(٢).

وقوله - تعالى - « الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » في معنى التعليل لحقيقة السجود لله - تعالى - وحده.

أي: اجعلوا سجودكم لله - تعالى - وحده، واتركوا السجود لغيره، لأنه - سبحانه - لا إله بحق سواه، وهو - سبحانه - صاحب العرش العظيم، الذي لا يدانيه ولا يشبهه شيء مما يطلق عليه هذا اللفظ.

---

(١) راجع تفسير الآلوسي ج١٩ ص ١٩٠

(٢) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطي ج ٦ ص ٤٠٥

ثم تحكى السورة بعد ذلك ما كان من سليمان - عليه السلام - وما كان من ملكة سبأ بعد أن وصلها كتابه، فقال - تعالى - :

« قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ، فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ».

وقوله - سبحانه - : « قال سننظر ... » حكاية لما قاله سليمان - عليه السلام - فى رده على الهدهد، الذى قال له فى تبرير عذره: « أحطت بما لم تحط به . . الخ ».

والفعل « ننظر » من النظر بمعنى التأمل فى الأمور، والتدبر فى أحوالها، والسين للتأكيد .

أى : قال سليمان للهدهد بعد أن استمع إلى حجته : سننظر - أيها الهدهد - فى أقوالك، ونرى أكنت صادقا فيها، أم أنت من الكاذبين .

وهكذا نرى نبى الله سليمان - وهو العاقل الحكيم - لايتسرع فى تصديق الهدهد أو تكذيبه، ولايخرجه النبأ العظيم الذى جاءه به الهدهد، عن اتزانه ووقاره، وإنما يبنى أحكامه على ماسيسفر عنه تحققه من صدق خبره أوكذبه.

وهذا هو اللائق بشأن النبي الكريم سليمان ، الذي أتاه الله - تعالى - النبوة والملك والحكمة .

قال القرطبي : « وقوله : « سننظر » من النظر الذي هو التأمل والتصفح « أصدقت أم كنت من الكاذبين » أي : في مقالتك . و « كنت » بمعنى أنت . وقال : « سننظر أصدقت » ولم يقل سننظر في أمرك ، لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم في قوله : « أحطت بما لم تحط به » ، صرح له سليمان بقوله : سننظر أصدقت أم كذبت ، فكان ذلك كفاء لما قاله »(١) .

وقوله — تعالى — : « اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون » بيان لما أمر به سليمان - عليه السلام - الهدهد ، بعد أن قال له ، سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .

أي : خذ - أيها الهدهد - كتابي هذا . فاذهب به إلى هؤلاء القوم من أهل سبأ ، « ثم تول عنهم » أي : ثم انصرف عنهم إلى مكان قريب منهم « فانظر ماذا يرجعون » أي : فتأمل ماذا يقول بعضهم لبعض ، وبماذا يراجع بعضهم بعضا ، ثم أخبرني بذلك .

قال ابن كثير : « وذلك أن سليمان - عليه السلام - كتب كتابا إلى بلقيس وقومها ، وأعطاه لذلك الهدهد فحمله .. وذهب به إلى بلادهم ، فجاء إلى قصر بلقيس . إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ، ثم تولى ناحية أدبا ، فتحيرت مما رأت ، وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقرأته .. »(٢) .

وقال صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم قال : فألقه إليهم ، على لفظ الجمع ؟ قلت : لأنه قال : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس » ، فقال : فألقه إلى الذين

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ١٨٩ (٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٩٨

هذا دينهم ، اهتماما منه بأمر الدين ، واشتغالا به عن غيره . وبنى الخطاب فى الكتاب على لفظ الجمع لذلك »(١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما فعلته ملكة سبأ ، بعد أن جاءها كتاب سليمان ـ عليه السلام ـ ، فقال ـ تعالى ـ: «قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين » .

أى : قالت لحاشيتها بعد أن قرأت الكتاب وفهمت مافيه : « ياأيها الملأ » ـ أى : يا أيها الأشراف من قومى « إنى ألقى إلى كتاب كريم ».

وصفته بالكرم لاشتماله على الكلام الحكيم ، والأسلوب البديع ، والتوجيه الحسن ، وبجمال هيئته ، وعجيب أمره .

ثم أفصحت عن مصدره فقالت : « إنه من سليمان » وعن مضمونه فقالت : « وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» وفى ذلك إشارة إلى وصفه بالكرم، حيث اشتمل على اسم الله ـ تعالى ـ وعلى بعض صفاته ،وعلى ترك التكبر، وعلى الدخول فى الدين الحق ، كما يدل عليه قوله ـ تعالى ـ : « ألا تعلوا على » أى : ألا تتكبروا على كما يفعل الملوك الجبابرة، وأتونى منقادين طائعين لشريعة الله ـ وحده ، التى توجب عليكم إخلاص العبادة له،دون أحد سواه، إذ هو ـ سبحانه ـ الخالق لكل شىء ، وكل معبود سواه فهو باطل .

فالكتاب ـ مع إيجازه ـ متضمن لفنون البلاغة ، ولمظاهر القوة الحكيمة العادلة ، التى اتبعها سليمان فى رسالته إلى ملكة سبأ وقومها.

وبعد أن بلغت حاشيتها بمصدر الكتاب ومضمونه ، استأنفت حديثها

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٦٣

فقالت : « يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى » والفتوى : الجواب على المستفتى فيما سأل عنه . والمراد بها هنا : المشورة وإبداء الرأى .

أى : قالت يا أيها الأشراف والقـادة من قومى ، أشيروا على ماذا سأفعل فى أمر هـذا الكتاب الذى جاءنى من سليمان ، والذى يطلب منا فيه ما سمعتم ؟

ثم أضافت إلى ذلك قولها : « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » أى : أنتم تعلمون أنى لا أقطع أمرا يتعلق بشئون المملكة إلا بعد استشارتـكم ، وأخذ رأيكم .

وفى قولها هذا دليل على حسن سياستها ، ورجاحة عقلهـا ، حيث جمعت رءوس مملكتها ، واستشـارتهم فى أمرها ، وأعلمتهـم أن هذه عادة مطردة عندها . وبذلك طابت نفوسهم ، وزادت ثقتهم فيها .

فقد قالوا لها : « نحن أولوا قوة » أى : أصحاب قوة فى الأجساد « وأولوا بأس شديد » .

أى : وأصحاب بلاء شديد فى القتال .

ومع ذلك « فالأمر إليك » أى : موكول إلى رأيك ، وإلى ما تطمئن إليه نفسك من قرار .

« فانظرى ماذا تأمرين » أى : فتأملى وتفـكرى فيما تأمرينا به بالنسبة لهذا الكتاب ، فنحن سنطيعك فى كل ما تطلبينه منا .

وهنا يحكى لنا القرآن الكريم ، ما كانت عليه تلك المرأة من دهاء وكياسة ، وإيثار للسلم على الحرب ، واللين على الشدة ، فقـال ـ تعـالى ـ : « قالت إن الملوك » من شأنهم أنهم « إذا دخلوا قرية » من القرى ، أو مدينة من المدن ، بعد تغلبهم على أهلها عن طريق الحرب والقتال . . « أفسدوها » أى : أشاعوا فيها الفساد والخراب والدمار .

وفوق ذلك: «وجعلوا أعزة أهلها أذلة»، أى: أهانوا أشرافها ورؤساءها، وجعلوهم أذلة بعد أن كانوا أعزة. ليكونوا عبرة لغيرهم.

«وكذلك يفعلون»، أى: وهذه هى عادتهم التى يفعلونها عند دخولهم قرية من القرى، عن طريق القهر والقسر والقتال.

والمقصود من قولها هذا: التلويح لقومها بأن السلم أجدى من الحرب، وأن الملاينة مع سليمان - عليه السلام - أفضل من المجابهة والمواجهة بالقوة.

ثم صرحت لهم بما ستفعله معه فقالت: «وإنى مرسلة إليهم بهدية، فناظرة بم يرجع المرسلون». وقوله «فناظرة» معطوف على «مرسلة» وهو من الانتظار بمعنى الترقب.

أى: وإنى قد قررت أن أرسل إلى سليمان وجنوده هدية ثمينة تليق بالملوك أصحاب الجاه والقوة والسلطان، وإنى لمنتظرة ماذا سيقول سليمان لرسلى عندما يرى تلك الهدية، وماذا سيفعل معهم.

قال ابن عباس: قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه.

وقال قتادة: رحمها الله ورضى عنها ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها!! لقد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس (١).

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما كان من سليمان عندما رأى الهدية، فقال - تعالى -:

«فلمّا جاءَ سليمانَ قالَ أتُمِدُّونَنِ بمالٍ، فما آتانيَ اللهُ خيرٌ مما آتاكُم، بل أنتُم بهديتِكُم تفرحُونَ (٣٦) ارجعْ إليهِمْ، فلنأتينَّهُم بجنودٍ لا قِبَلَ لهُم بها، ولنُخرجنَّهُم منها أذِلَّةً وهُمْ صاغِرُونَ (٣٧)».

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٠٠

وفى الكلام حذف يفهم من السياق . وتقتضيه بلاغة القرآن الكريم ، والتقدير : وهيأت ملكة سبأ الهدية الثمينة لسليمان - عليه السلام - وأرسلتها مع من اختارتهم من قومها لهذه المهمة ، «فلما جاء سليمان» أى : فلما وصل الرسل إلى سليمان ومعهم هدية ملكتهم إليه .

فلما رآها قال - على سبيل الإنكار والاستخفاف بتلك الهدية - : «أتمدونن بمال» أى: أتقدمون إلى هذا المال الزائل والمتمثل فى تلك الهدية لأكف عن دعوتكم إلى إتيانى وأنتم مخلصون العبادة لله - تعالى - وحده . وتاركون لعبادة غيره؟

كلا لن ألتفت إلى هديتكم «فما آتانى الله» من النبوة والملك الواسع «خير مما آتاكم» من أموال من جملتها تلك الهدية .

فالجملة الكريمة تعليل لإنكاره لهديتهم، ولاستخفافه بها، وسخريته منها.

وقوله - سبحانه - : «بل أنتم بهديتكم تفرحون» إضراب عما ذكره من إنكاره لتلك الهدية وتعليله لهذا الإنكار، إلى بيان ما هم عليه من ضيق فى التفكير ، حيث توهموا أن هذه الهدية ، قد تفيد فى صرف سليمان عن دعوتهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، وقد تحمله على تركهم وشأنهم .

أى : إفهموا - أيها الرسل - وقولوا لمن أرسلكم بتلك الهدية: إن سليمان ما آتاه الله من خير ، أفضل مما آتاكم ، وإنه يقول لكم جميعا : انتفعوا أنتم بهديتكم وافرحوا بها، لأنكم لا تفكرون إلا فى متع الحياة الدنيا، أما أنا ففى غنى عن هداياكم ولا يهمنى إلا إيمانكم .

ثم أتبع سليمان - عليه السلام - هذا الاستنكار بالتهديد فقال - كما حكى القرآن عنه - : «ارجع إليهم» .

أى : قال سليمان لمن أرسلته بلقيس بالهدية : من حيث أتيت ومعك هديتك ...

« فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها » أى : فو الله لنأتينهم بجنود لا قدرة لهم على مقاومتهم ، ولا طاقة لهم على قتالهم .

« ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » أى : والله لنخرجن هذه الملكة وقومها من بلاد سبأ ، حالة كونهم أذلة ، وحالة كونهم مهزومين مقهورين ، بعد أن كانوا فى عزة وقوة .

وعاد الرسل بهديتهم إلى الملكة ، دون أن يهتم القرآن بما جرى لهم بعد ذلك ، لأن القرآن لايهتم إلا بالجوهر واللباب فيما يقص من أحداث .

٭ ٭ ٭

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ماطلبه سليمان - عليه السلام - من جنوده فيقول :

« قالَ يَاأَيُّها المَلأُ أَيُّكم يأْتِينِى بعَرشِها قبلَ أَنْ يأتُونِى مُسلِمِينَ (٣٨) قالَ عفرِيتٌ مِن الجِنِّ أنا آتيكَ بهِ قبلَ أَنْ تقومَ مِنْ مقامِكَ وإنِّى عليهِ لقَوِىٌّ أمينٌ (٣٩) قالَ الذى عِندَه عِلْمٌ مِنَ الكتابِ أنا آتِيكَ بهِ قبلَ أن يرتدَّ طَرْفُكَ ، فلمَّا رآهُ مستقِرًّا عِندَه قالَ هذا من فضلِ ربِّى لِيبلوَنِى أأشكُرُ أَمْ أكفُر ، ومَنْ شكَرَ فإنَّما يشكُرُ لنفسِه ، ومَنْ كفَر فإنَّ ربِّى غنِىٌّ كريمٌ (٤٠) » .

قال ابن كثير مامخلصه : فلما رجعت الرسل إلى ملكة سبأ بما قاله سليمان ، قالت : قد - والله - عرفت ماهذا بملك ، ومالنا به من طاقة . . . وبعثت إليه : إنى قادمة إليك بملوك قومى ، لأنظر فى أمرك وماتدعونا إليه من دينك . . . ثم شخصت إليه فى اثنى عشر ألف رجل من أشراف قومها - بعد أن أقفلت الأبواب على عرشها - فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من عنده من الإنس والجن ممن تحت يده فقال : « ياأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » .

أى : قال سليمان لجنوده : أى واحد منكم يستطيع أن يحضر لى عرش هذه الملكة قبل أن تحضر إلى هى وقومها مسلمين ، أى : منقادين طائعين مستسلمين لما أمرتهم به .

ولعل سليمان - عليه السلام - قد طلب إحضار عرشها - من بلاد اليمن إلى بيت المقدس حيث مقر مملكته ، ليطلعها على عظيم قدرة الله - تعالى - ، وعلى ما أعطاه - سبحانه - له من ملك عريض ، ومن نعم جليلة ، ومن قوة خارقة ، حيث سخر له من يحضر له عرشها من مكان بعيد فى زمن يسير .

ولعل كل ذلك يقودها هى وقومها إلى الإيمان بالله رب العالمين .

وبعد أن قال سليمان لجنـــده أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، رد عليه عفريت من الجن بقوله : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » .

والعفريت : هو المارد القوى من الشياطين ، الذين سخرهم الله - تعالى - لخدمة سليمان ، وللقيام بأداء ما يكلفهم به . ويقال له : عفريت ، وعفر وعفرية - بكسر العين وسكون الفاء - .

أى : قال عفريت من الجن لسليمان ، أنا آتيك بعرش هذه الملكة ، قبل أن تقوم من مقامك ، أى : قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذى تجلس فيه للقضاء بين الناس ، أو قبل أن تقف من جلوسك .

« وإنى عليه لقوى أمين » أى : وإنى على حمله وإحضاره من تلك الأماكن البعيدة إليك ، لقوى على ذلك ، بحيث لا يثقل على حمله ، ولأمين على إحضاره دون أن يضيع منه شىء .

وكان سليمان قد استبطأ إحضاره عرش تلك المملكة فى هذه الفترة التى حددها ذلك العفريت القوى ، فنهض جندى آخر من جنوده ، ذكره القرآن بقوله : « قال الذى عنده علم من الكتاب ، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » .

قالوا : والمراد بهذا الذى عنده علم من الكتاب : آصف بن برخيا ، وهو

رجل من صلحاء بنى إسرائيل ، آتاه الله - تعالى - من لدنه علما ، وكان وزيرا لسليمان .

قالوا : وكان يعلم اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به - سبحانه - أجاب الداعى ، وإذا سئل به - تعالى - أجاب السائل .

وقيل : المراد به سليمان نفسه ، ويكون الخطاب على هذا العفريت ، فكأنه استبطأ ما قاله العفريت فقال له : - على سبيل التحقير - أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .

وقيل : المراد به جبريل . والأول هو المشهور عند المفسرين .

أى : قال الرجل الذى عنده علم من كتاب الله - تعالى - ياسليمان أنا آتيك بعرش بلقيس ، قبل أن تغمض عينك وتفتحها ، وهو كناية عن السرعة الفائقة فى إحضاره .

وفى ذلك ما فيه من الدلالة على شرف العلم وفضله ، وشرف حامليه وفضلهم وأن هذه الكرامة التى وهبها الله - تعالى - لهذا الرجل ، كانت بسبب ما آتاه - سبحانه - من علم .

وجاء عرش الملكة لسليمان من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، بتلك السرعة الفائقة ، فلما رآه مستقرا عنده ، أى : فلما رأى سليمان العرش المذكور حاضرا لديه ، وكائنا بين يديه ... لم يغتر ولم يتكبر ، ولم يأخذه الزهو والعجب ... بل قال - كما حكى القرآن عنه - : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر » .

أى : قال سليمان : هذا الذى أراه من إحضار العرش بتلك السرعة ، من فضل ربى وعطائه ، لكى يمتحننى أأشكره على نعمه أم أجحد هذه النعم . « ومن شكر » الله - تعالى - على نعمه « فإنما يشكر لنفسه » حيث يزيده - سبحانه - منها .

« ومن كفر » نعم الله - تعالى - وجحدها « فإن ربى غنى » عن خلقه « كريم »

فى معاملته لهم ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل يعفو ويصفح عن كثير من ذنوبهم .

* * *

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة البديعة ، ببيان مافعله سليمان بالعرش ، وبما قاله للملكة سبأ بعد أن قدمت إليه أمرها ، فقال - تعالى - :

« قالَ نَكِّرُوا لها عرشَها نَنْظر أتهتدِى أم تكونُ منَ الذين لا يهتدونَ (٤١) فلمَّا جاءتْ قيلَ أهكذَا عرشُكِ قالَتْ كأنَّه هُو ، وأوتِينَا العِلمَ مِنْ قبلِها وكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وصدَّهَا ما كانَتْ تعبدُ مِن دُونِ اللهِ إنها كانتْ من قومٍ كافرينَ (٤٣) قيلَ لهـا ادخُلِي الصَّرْحَ ، فلمَّا رأَتْهُ حَسِبَتْهُ لجةً وكشَفَتْ عن سَاقيها ، قالَ إنَّه صرحٌ ممرَّدٌ من قواريرَ ، قالَتْ ربِّ إنِّى ظلَمتُ نَفسِى وأسلمتُ معَ سُلَيْمَانَ للهِ ربِّ العالمينَ (٤٤) » .

وقوله : « نكروا لها عرشها » من التنكير الذى هو ضد التعريف، وهو جعل الشىء على هيئة تخالف هيئته السابقة حتى لا يعرف .

أى : قال سليمان لجنوده، بعدأن استقر عنده عرش بلقيس : غيروا لهذه الملكة عرشها ، كأن تجعلوا مؤخرته فى مقدمته ، وأعلاه أسفله ...

وافعلوا ذلك لكى « ننظر » ونعرف « أتهتدى » إليه بعد هذا التغيير ، أو إلى الجواب اللائق بالمقام عند ماتسأل « أم تكون من الذين لايهتدون » إلى معرفة الشىء بعد تغيير معالمه المميزة له ، أو إلى الجواب الصحيح عندما تسأل عنه .

فالمقصود بتغيير هيئة عرشها : اختبار ذكائها وفطنتها ، وحسن تصرفها ،

عند مفاجأتها بإطلاعها على عرشها الذى خلفته وراءها فى بلادها، وإيقافها على مظاهر قدرة الله - تعالى - وعلى ما وهبه لسليمان - عليه السلام - من معجزات.

وقوله - تعالى - : « فلما جاءت ... » شروع فى بيان ما قالته عندما عرض عليها سليمان عرشها .

أى : فلما وصلت بلقيس إلى سليمان - عليه السلام - عرض عليها عرشها بعد تغيير معالمه . ثم قيل لها من جهته - عليه السلام - : « أهكذا عرشك» أى : أمثل هذا العرش الذى ترينه الآن، عرشك الذى خلفتيه وراءك فى بلادك .

فالهمزة للاستفهام ، والهاء للتنبيه - والكاف حرف جر ، وذا اسم إشارة مجرور بها ، والجار والمجرور خبر مقدم ، وعرشك مبتدأ مؤخر.

ولم يقل لها: أهذا عرشك ، لئلا يكون إرشادا لها إلى الجواب، فيفوت المقصود من اختبار ذكائها وحسن تصرفها

ولا شك أن هذا القول يدعوها للدهشة والمفاجأة بما لم يكن فى حسبانها، وإلا فأين هى عرشها الذى تركته خلفها على مسافة بعيدة. بينها وبين مملكة سليمان عشرات الآلاف من الأميال.

ولكن الملكة الأريبة العاقلة، هداها تفكيرها إلى جواب ذكى، فقالت - كما حكى القرآن عنها - : « كأنه هو » أى : هذا العرش - الذى غيرت هيئته - كأنه عرش الذى تركته فى بلادى، فهى لم تثبت أنه هو ، ولم تنف أنه غيره ، وإنما تركت الأمر مبنيا على الظن والتشبيه ، لكى يناسب الجواب السؤال ، مما يدل على فطنتها، وشدة فراستها، وثباتها أمام المفاجآت التى لم تكن تتوقعها.

وقوله - سبحانه - : « وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » يرى بعض المفسرين أنه من تتمة كلام بلقيس ، وكأنها عندما استشعرت مما شاهدته اختبار عقلها قالت : وأوتينا العلم من قبلها ، أى : من قبل تلك الحالة التى شاهدناها ، بصحة نبوة سليمان ، وكنا مسلمين ، طائعين لأمره .

ومنهم من يرى أنه من كلام سليمان . وتكون الجملة معطوفة على كلام مقدر وجيء بها من قبيل التحدث بنعمة الله ـ تعالى ـ .

والمعنى : قال سليمان : لقد أصابت بلقيس فى الجواب ، وعرفت الحق ، ولكننا نحن الذين أوتينا العلم من قبلها ـ أى من قبل حضور ملكة سبأ ـ وكنا مسلمين لله ـ تعالى ـ وجوهنا .

ويبدو لنا أن كون هذه الجملة ، حكاها القرآن على أنها من تتمة كلامها أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من سياق الكلام .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : « وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » من تتمة كلامها على ما اختاره جمع من المفسرين . كأنها استشعرت مما شاهدته اختبارها ، وإظهار معجزة لها . ولما كان الظاهر من السؤال هو الأول ، سارعت إلى الجواب أنبأ عن كمال عقلها ، ولما كان إظهار المعجزة دون ذلك فى الظهور ، ذكرت ما يتعلق به آخرا وهو قولها : « وأوتينا العلم . . » وفيه دلالة على كمال عقلها ـ أيضاً ـ .

والمعنى : وأوتينا العلم بكمال قدرة الله ، وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة أو من قبل هذه الحالة ، بما شاهدناه من أمر الهدهد . وما سمعناه من رسلنا إليك ، وكنا مؤمنين من ذلك الوقت ، فلا حاجة إلى إظهار هذه المعجزة»[1].

وقوله ـ سبحانه ـ « وصدها ما كانت تعبد من دون الله . . » بيان للأسباب التى منعتها من الدخول فى الإسلام قبل ذلك . و « ما » موصولة على أنها فاعل « صد » .

أى : وصدها ومنعها الذى كانت تعبده من دون الله ـ تعالى ـ وهو الشمس عن عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، وعن المسارعة إلى الدخول فى الإسلام .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٩ ص ٢٠٧ .

ويصح أن تكون « ما » مصدرية ، والمصدر هو الفاعل . أى : وصدها عبادة الشمس ، عن المسارعة إلى الدخول فى الإسلام .

وجملة « إنها كانت من قوم كافرين » تعليل لسببيه عبادتها لغير الله - تعالى - .

أى : إن هذه المرأة كانت من قوم كافرين بالله - تعالى - ، جاحدين لنعمه ، عابدين لغيره ، منذ أزمان متطاولة ، فلم يكن فى مقدورها إظهار إسلامها بسرعة وهى بينهم .

فالجملة الكريمة كأنها اعتذار لها عن سبب تأخرها فى الدخول فى الإسلام .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان ما فاجأها به سليمان ، لتزداد يقينا بوحدانية الله - تعالى - ، وبعظم النعم التى أعطاها - سبحانه - له فقال : « قيل لها أدخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها » .

والصرح : القصر ويطلق على كل بناء مرتفع ، ومنه قوله - تعالى - : « وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب » .

ويطلق - أيضاً - على صحن الدار وساحته . يقال : هذه صرحة الدار ، أى : مساحتها وعرصتها .

وكان سليمان - عليه السلام - قد بنى هذا الصرح ، وجعل بلاطه من زجاج نقى صاف كالبلور ، بحيث يرى الناظر ما يجرى تحته من ماء .

أى : قال سليمان لملكة سبأ بعد أن سألها : أهكذا عرشك ، وبعد أن أجابته بما سبق بيانه . قال لها : أدخلى هذا القصر ، فلما رأت هذا الصرح وما عليه من جمال وفخامة ، حسبته لجة ، أى : ظنته ماء غزيرا كالبحر .

« وكشفت عن ساقيها » لئلا تبتل بالماء أذيال ثيابها .

وهنا قال سليمان مزيلا لما اعتراها من دهشة : « إنه » أي : ما حسبته لجة « صرح ممرد من قوارير » أي : قصر مملس من زجاج لا يحجب ما وراءه.

فقوله « ممرد » بمعنى مملس ، مأخوذ من قولهم : شجرة مرداء، إذا كانت عارية عن الورق ، وغلام أمرد ، إذا لم يكن في وجهه شعر. والتمريد في البناء. معناه : التمليس والتسوية والنعومة . .

والقوارير : جمع قارورة ، وهي إناء من زجاج ، وتطلق القارورة على المرأة ، لأن الولد يقر في رحمها، أو تشبيها لها بآنية الزجاج من حيث ضعفها، ومنه الحديث الشريف : « رفقا بالقوارير » والمراد بالقوارير هنا ، المعنى الأول.

ثم حكى - سبحانه - ما قالته بلقيس بعد أن رأت جانبا من عجائب صنع الله فقال : « قالت رب إني ظلمت نفسي » أي . بسبب عبادتي لغيرك قبل هذا الوقت ... « وأسلمت مع سليمان » طائعة مختارة ، وإسلامي إنما هو « لله رب العالمين » وليس لأحد سواه .

وبعد ، فهذا تفسير محرر لتلك القصة ، وقد أعرضنا عن كثير من الإسرائيليات التي حشا بها بعض المفسرين تفاسيرهم ، عند حديثهم عن الآيات التي وردت في هذه القصة ، ومن ذلك ما يتعلق بسليمان - عليه السلام - ، وبجنوده من الطير ، وبمحاورة النملة له ، وبالهدية التي أرسلتها ملكة سبأ إليه ، وبما قالته الشياطين لسليمان عن هذه المرأة ... ألخ وقد اشتملت هذه القصة على عبر وعظات وأحكام وآداب ، من أهمها ما يأتي :

١ - أن الله - تعالى - قد أعطى - بفضله وإحسانه - داود وسليمان - عليهما السلام - نعما عظيمة ، على رأسها نعمة النبوة ، والملك ، والعلم النافع .

وأنهما قد قابلا هذه النعم بالشكر لله - تعالى - واستعمالها فيما خلقت له .

ونرى ذلك في قوله - تعالى - : « ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » .

وفى قوله - تعالى - : « رب أوزعـــنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين».
وفى قوله - سبحانه - : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم» .
٢ - أن سليمان - عليه السلام - قد أقام دولته على الإيمان بالله - تعالى - وعلى العلم النافع ،وعلى القوة العادلة .

أما الإيمان بالله - تعالى - وإخلاص العبادة له - سبحانه - ، فهو كائن له - عليه السلام - بمقتضى نبوته التى إختاره الله لها ، وبمقتضى دعوته غيره إلى وحدانية الله - عز وجل - فقد حكى القرآن عنه أنه قال فى رسالته إلى ملكة سبأ : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين» .
وأما العلم النافع ، فيكفى أن القصة الكريمة قد افتتحت بقوله - تعالى - : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً . . » .
وإشتملت على قوله - سبحانه - : « وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير . . » .

وعلى قوله - عز وجل -: « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» .
وأما القوة ، فنراها فى قوله - تعالى - : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » .
وفى قوله - سبحانه - : « ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .
وما من أمة تقوم على هذه الأسس، إلا وتنال ما تصبوا إليه من خير وعزة.
٣ - أن سليمان - عليه السلام - كانت رسالته الأولى نشر الإيمان بالله - تعالى - فى الأرض ، وتطهيرها من كل معبود سواه .

والدليل على ذلك أن الهدهد عندما أخبره بحال الملكة التي كانت هي وقومها يعبدون الشمس من دون الله . . .

ما كان من سليمان ـ عليه السلام ـ إلا أن حمله كتابا قويا بليغا يأمرهم فيه بترك للتكبر والغرور ، وبإسلام وجوههم لله وحده : « ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » .

٤ ـ أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان يمثل الحاكم اليقظ المتنبه لأحوال رعيته ، بحيث يعرف شئونها الصغيرة والكبيرة، ويعرف الحاضر من أفرادها والغائب ، حتى ولو كان الغائب طيراً صغيراً ، من بين آلاف الخلائق الذين هم تحت قيادته.

ولقد صور القرآن ما كان عليه سليمان ـ عليه السلام ـ من يقظة ودراية بأفراد رعيته أبدع تصوير فقال : « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين » .

قال الإمام القرطبى ـ رحمه الله ـ : « فى هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ، والمحافظة عليهم فانظر إلى الهدهد مع صغره ، كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بعظام الملك . . . » .

ثم يقول ـ رحمه الله ـ على سبيل التفجع والشكوى عن حال الولاة فى عهده: « فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان . . » ورحم الله القائل :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها « (١)

٥ ـ أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان بجانب تعهده لشئون رعيته ، يمثل الحاكم الحازم العادل ، الذى يحاسب المهمل ، ويتوعد المقصر ، ويعاقب من يستحق العقاب ، وفى الوقت نفسه يقبل عذر المعتذر متى اعتذر عذراً مشروعا ومقنعا .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ١٧٨ .

أنظر إليه وهو يقول ـ كما حكى القرآن عنه ـ عندما تفقد الهدهد فلم يجده: « لأعذبنه عذابا شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين » .

إن الجيوش الجرارة التى تحت قيادة سليمان ـ عليه السلام ـ لا تؤثر فيها غياب هدهد منها ... ولكن سليمان القائد الحازم، كأنه يريد أن يعلم جنوده، أن لكل جندى رسالته التى يجب عليه أن يؤديها على الوجه الأكمل، سواء أكان هذا الجندى صغيراً أم كبيرا ، وأن من فرط فى الأمور الصغيرة ، لا يستبعد منه أن يفرط فى الأمور الكبيرة .

٦ ـ أن الجندى الصغير فى الأمة التى يظلها العدل والحرية والأمان ... لا يمنعه صغره من أن يرد على الحاكم الكبير ، بشجاعة وقوة ...

أنظر إلى الهدهد ـ مع صغره ـ يحكى عنه القرآن، أنه رد على نبى الله سليمان الذى « آتاه الله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده » بقوله : « أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ... » .

ونجد سليمان ـ عليه السلام ـ لا يؤاخذه على هذا القول ، بل يضع قوله موضع التحقيق والاختبار فيقول له : « سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » .

وهكذا الأمم العاقلة الرشيدة ، لا يهان فيها الصغير ، ولا يظلم فيها الكبير .

٧ ـ أن حكمة الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أن تتألف الأمم من حاكمين ومحكومين، وأن كل فريق له حقوق وعليه واجبات ، وأن الأمم لا تصلح بدون حاكم يحكمها ويرعى شئونها ، ويحق الحق ويبطل الباطل .

قال القرطبى عند تفسيره لقوله ـ تعالى ـ « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » : فى الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزعة ـ أى ولاة ، أو قضاة ـ يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض ...

قال ابن عون : سمعت الحسن يقول وهو فى مجلس قضائه : والله مايصلح هؤلاء الناس إلا وزعته »(١) .

ومن الأقوال الحكيمة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

٨ - أن الحاكم العاقل هو الذى يستشير من هو أهل للاستشارة فى الأمور التى تهم الأمة ...

فهاهى ذى ملكة سبأ عند ما جاءها كتاب سليمان - عليه السلام - جمعت وجوه قومها ، وقالت لهم - كما حكى القرآن عنها - : « يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ... » .

قال القرطبى : « وفى هذه الآية دليل على صحة المشاورة . وقد قال الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - « وشاورهم فى الأمر » وقد مدح الله الفضلاء بقوله : « وأمرهم شورى بينهم » والمشاورة من الأمر القديم وخاصة فى الحرب ، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس من دون الله « قالت : يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ... » لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم . وربما كان فى استبدادها برأيها وهن فى طاعتها ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ماتريده من قوة شوكتهم ، وشدة مدافعتهم ، الا ترى إلى قولهم فى جوابهم : « نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ... »(٢) .

٩ - أن الهدية إذا لمس المهدى إليه من ورائها ، عدم الإخلاص فى إهدائها ، وأن المقصد منها صرفه عن حق يقيمه ، أو عن باطل يزيله ... فإن من الواجب عليه أن يرد هذه الهدية لصاحبها ، وأن يمتنع عن قبولها ..

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١٩٤ .

ألا ترى إلى سليمان - عليه السلام - قد رد الهدية الثمينة التى أهدتها بلقيس إليه، حين أحس أن من وراء هذه الهدية شيئا، يتنافى مع تبليغ وتنفيذ رسالة الله - تعالى - التى أمره بتبليغها وتنفيذها، ألا وهى: الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى -، والنهى عن الإشراك به. وبلقيس إنما كانت تقصد بهديتها، إختبار سليمان، أنبى هو أم ملك، كما سبق أن أشرنا ...

لذا وجدنا القرآن يحكى عن سليمان - عليه السلام - أنه رد هذه الهدية مع من جاءوا بها، وقال: «أتمدونن بمال، فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون».

١٠ - أن ملكة سبأ دل تصرفها على أنها كانت ملكة عاقلة رشيدة حكيمة، فقد استشارت خاصتها فى كتاب سليمان - عليه السلام -، ولوحت لهم بقوته وبما سيترتب على حربه، وآثرت أن تقدم له هدية على سبيل الامتحان، واستحبت المسالمة على المحاربة. وكان عندها الاستعداد لقبول الحق والدخول فيه، وما أخرها عن المسارعة إليه إلا لكونها كانت من قوم كافرين ...

وعندما التقت بسليمان، وانكشفت لها الحقائق، سارعت إلى الدخول فى الدين الحق، وقالت: «رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين».

هذه بعض العبر والعظات التى تؤخذ من هذه القصة... ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه، فقال - تعالى -:

«ولَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ، لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ،

قالَ طائِرُكُم عِندَ اللهِ ، بل أنتُم قومٌ تُفتَنُونَ (٤٧) وكانَ في المدينةِ تسعةُ رَهطٍ يفسِدُونَ في الأرضِ ولا يُصلِحُونَ (٤٨) قالُوا تقاسَمُوا باللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهلَهُ ثمَّ لنقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شهِدْنا مَهلِكَ أهلِهِ وإنَّا لصادِقونَ (٤٩) ومكَرُوا مكراً ومَكَرْنا مَكراً وهُم لا يشعُرُونَ (٥٠) فانظُر كيفَ كانَ عاقبَةُ مكْرِهِم أنَّا دَمَّرناهُم وقومَهم أجمَعِين (٥١) فتِلكَ بيُوتُهُمْ خَاويةً بما ظلَمُوا ، إنَّا في ذلكَ لآيةً لقومٍ يعلَمُونَ (٥٢) وأنجينا الذينَ آمنُوا وكانوا يَتَّقُونَ (٥٣) » .

وقوله - سبحانه - : « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا . . . » معطوف على قوله - تعالى - : « ولقد آتينا داود وسليمان علما » .

واللام في قوله « ولقد أرسلنا . . » جواب القسم محذوف ، و « ثمود » اسم للقبيلة التي منها صالح - عليه السلام - ، سميت باسم جدها ثمود . وقيل : سميت بذلك لقلة مائها ، لأن الثمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - ، وهو مكان بين الحجاز والشام ، ومازالت مساكنهم تعرف بمدائن صالح إلى اليوم . وقد مر النبي - صلى الله عليه وسلم - بديارهم ، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك ، سنة تسع قبل الهجرة .

وصالح - عليه السلام - هو نبيهم ، وكان واحدا منهم ، وينتهي نسبه إلى نوح - عليه السلام - وقبيلة ثمود تسمى عادا الثانية ، أما قبيلة عاد فتسمى عادا الأولى ، ونبيهم هود - عليه السلام - . قالوا : وكان بين القبيلتين زهاء مائة عام .

والمعنى : وبالله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود ، أخاهم صالحا - عليه السلام - ،

فقال لهم ما قاله كل نبي لقومه : « أن اعبدوا الله » ـ تعالى ـ وحـــده ، ولا تشركوا معه آلهة أخرى .

و « إذا » في قوله ـ تعالى ـ : « فإذا هم فريقان يختصمون » هي الفجائية و « يختصمون » من المخاصمة بمعنى المجادلة والمنازعة .

أي : أرسلنا نبينا صالحا إلى قومه . فكانت المفاجأة أن انقسم قومه إلى قسمين : قسم آمن به ـ وهم الأقلون ـ ، وقسم كفر به ـ وهم الأكثرون .

وهذه الخصومة بين الفريقين ، قد أشار إليها القرآن في قوله ـ تعالى ـ : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه ، للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم ، أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنه بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون »(١) .

وقوله ـ تعالى ـ : « قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة .... » بيان لما وجهه صالح إلى الكافرين من قومه ، من نصائح حكيمة ...

أي : قال صالح ـ عليه السلام ـ المكذبين لرسالته من قومه بأسلوب رقيق حكيم : ياقوم لماذا كلما دعوتكم إلى الحق أعرضتم عن دعوتي ، وآثرتم الكفر على الإيمان ، واستعجلتم عقوبة الله ـ تعالى ـ التي حذرتكم منها ، قبل أن تتضرعوا إليه ـ سبحانه ـ بطلب الهداية والرحمة .

وقوله « لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون » حض منه على الإقلاع عما هم فيه من عناد وضلال » .

أي : هلا استغفرتم الله ـ تعالى ـ وأخلصتم له العبادة ، واتبعتموني فيما أدعوكم إليه ، لكي يرحمكم ربكم ويعفو عنكم .

فالمراد بالسيئة : العذاب الذي تعجلوه ، والذي أشار إليه ـ سبحانه ـ

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ٧٥ : ٧٦ .

فى قوله : « فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين »(١).

ثم حكى - سبحانه - ما رد به هؤلاء المتكبرون على نبيهم فقال - تعالى - « قالوا اطيرنا بك وبمن معك ... »

وقوله : « اطيرنا » أصله تطيرنا ، فأدغمت التاء فى الطاء ، وزيدت همزة الوصل ، ليتأتى الابتداء بالكلمة . والتطير : التشاؤم.

قال الآلوسى: وعبر عنه بذلك، لأنهم كانوا إذا خرجوا لسفر ونحوه يمرون بطائر يزجرونه ، فإن مر سانحا - بأن مر من ميامن الشخص إلى مياسره - تيمنوا ، وإن مر بارحا - بأن مر من المياسر إلى الميامن - تشاءموا . . فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر والشر إلى الطائر ، أستعير لما كان سببا لهما من قدر الله - تعالى - وقسمته - عز وجل - أو من عمل العبد الذى هو سبب الرحمة والنعمة »(٢).

أى قال المكذبون من قوم صالح فى الرد عليه : أصابنا الشؤم والنحس بسبب وجودك فينا ، وبسبب المؤمنين الذين استجابوا لدعوتك ، حيث أصبنا بالقحط بعد الرخاء ، وبالضراء بعد السراء .

ولا شك أن قولهم هذا يدل على جهلهم المطبق ، وعلى سوء تفكيرهم ، لأن السراء والضراء من عند الله - تعالى - وحده ، ولا صلة لهما بوجود صالح والذين آمنوا معه بينهم . ولذا رد عليهم صالح - عليه السلام - بقوله « طائركم عند الله » .

أى : قال لهم موبخا وزاجرا : ليس الأمر كما زعمتم من أن وجودنا بينكم هو السبب فيما أصابكم من شر ، بل الحق أن ما يصيبكم من شر وقحط هو من

(١) سورة الأعراف : الآية ٧٧ (٢) تفسير الآلوسى ج١٩ ص ٢١ .

عند الله ، بسبب أعمالكم السيئة ، وإصراركم على الكفر ، واستحبابكم المعصية على الطاعة ، والعقوبة على المغفرة .

ثم زاد صالح - عليه السلام - الأمر توضيحاً وتبيانا فقال لهم : « بل أنتم قوم تفتنون » .

أى قال لهم : ليس ما أصابكم بسببنا ، بل أنتم قوم « تفتنون » أى تختبرون وتمتحنون بما يقع عليكم من شر ، حتى تتوبوا إلى خالقكم ، قبل أن ينزل بكم العذاب الماحق ، إذا ما بقيتم على كفركم .

فأنت ترى أن صالحا - عليه السلام - قد رد على جهالتهم بأسلوب قوى رصين ، بين لهم فيه ، أن تشاؤمهم فى غير محله ، وأن حظهم ومستقبلهم ومصيرهم بيد الله - تعالى - وحده ، وأن ما أصابهم من بلاء وقحط ، إنما هو لون من امتحان الله - تعالى - لهم ، لكى ينتبهوا ويستجيبوا لدعوة الحق ، قبل أن يفاجئهم الله - تعالى - بالعذاب الذى يهلكهم .

ولكن هذا النصح الحكيم الذى وجهه صالح إلى المكذبين من قومه ، لم يجد أذنا صاغيا منهم ، بل قابله زعماؤهم بالتكبر وبالإصرار على التخلص من صالح - عليه السلام - ومن أهله ، وقد حكى القرآن ذلك فى قوله - تعالى - : « وكان فى المدينة تسعة رهط ، يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا : تقاسموا بالله ، لنبيتنه وأهله ، ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون » .

والمراد بالمدينة : مدينة قوم صالح - عليه السلام - وهى الحجر - بكسر الحاء وإسكان الجيم .

قال الجمل : « قوله : « تسعة أشخاص ، وبهذا الاعتبار وقع تمييزا للتسعة ، لا باعتبار لفظه ، وهم الذين سعوا فى عقر الناقة ، وباشره منهم « قدار بن سالف » وكانوا من أبناء أشراف قوم صالح ، والإضافة بيانية . أى : تسعة هم رهط . وفى المصباح : الرهط دون العشرة من الرجال ، ليس فيهم امرأة . »(١) .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣١٩ .

ووصفهم بأنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، الإشارة إلى أن نفوسهم قد تمخضت للفساد والإفساد ، ولا مكان فيها للصلاح والإصلاح .

وقوله : « تقاسموا » فعل أمر عكى بالقول ، بمعنى: احلفوا بالله ، ويجوز أن يكون فعلا ماضيا مفسرا لقالوا ، فكأنه قيل : ما الذى قالوه ؟ فكان الجواب : تقاسموا ، أى : أقسموا .

وقوله : « لنبيتنه » من التبيات وهو مباغتة العدو ليلا لقتله . يقال بيت القوم العدو ، إذا أوقعوا به ليلا .

والمراد بوليه : المطالبون به من أقاربه ، وفى ذلك إشارة إلى أن هؤلاء الظالمين لم يكونوا ليستطيعوا قتل صالح - عليه السلام - علانية ، خوفا من مناصرة أقاربه له .

و « مهلك » بفتح الميم وكسر اللام بزنة مرجع - مصدرميمى ، من هلك الثلاثى ، وقرأ بعضهم « مهلك » بضم الميم وفتح اللام - من أهلك الرباعى ، فهو أيضا مصدر ميمى من أهلك ، ويجوز أن يكونا إسم زمان أو مكان .

والمعنى : وكان فى المدينة التى يسكنهاصالح - عليه السلام - وقومه ، تسعة أشخاص ، دأبهم وديدنهم ، الإفساد فى الأرض ، وعدم الإصلاح فيها ، بأى حال من الأحوال .

وقد تعاهد هؤلاء التسعة . وأكدوا ما تعاهدوا عليه بالإيمان المغلظة . على أن يباغتوا نبيهم وأهله ليلا ، فيقتلوهم جميعا ، ثم ليقولن بعد جريمتهم الشنعاء لأقارب صالح - عليه السلام - : ما حضرنا هلاك أهله وهلاك صالح معهم ، ولا علم عندنا بما حل بهم وبه من قتل، وإنا لصادقون فى كل ماقلناه.

وهكذا المفسدون فى الأرض ، يرتكبون أبشع الجرائم وأشنعها ، ثم يبررونها بالحيل الساذجة الذميمة ثم بعد ذلك يحلفون بأغلظ الايمان أنهم برءون من تلك الجرائم .

ومن العجيب أن هؤلاء المجرمين الغادرين يقولون فيما بينهم: «تقاسموا بالله» أي: أحلفوا بالله، على أن تنفذوا ما اتفقنا عليه من قتل صالح وأهله ليلا غيلة وغدرا، فهم يؤكدون إصرارهم على الإجرام بالحلف بالله، مع أن الله - تعالى - برىء منهم ومن غدرهم.

وقولهم: «ما شهدنا مهلك أهله» نفى منهم لحضور قتلهم، فضلا عن مباشرة قتلهم، وكأنهم أرادوا بهذه الجملة الإتيان بحيلة يبررون بها كذبهم، أى: أننا قتلناهم فى الظلام، فلم نشاهد أشخاصهم، وإنا لصادقون فى ذلك.

ولكن هذا المكر السيء، والتحايل القبيح قد أبطله الله - تعالى - وجعله يحيق بهم وبأشياعهم، فقد قال - تعالى - «ومكروا مكرا» أى بهذا الحلف فيما بينهم على قتل صالح وأهله غدرا «ومكرنا مكرا» أى: ودبرنا لصالح - عليه السلام - ولمن آمن به، تدبيرا محمودا محكما، «وهم لا يشعرون» أى: وهم لا يشعرون بتدبيرنا الحكيم، حيث أنجينا صالحا ومن معه من المؤمنين، وأهلكنا أعداءه أجمعين.

ثم بين - سبحانه - الآثار التى ترتبت على مكرهم السيء، وعلى تدبيره المحكم فقال تعالى -:

«فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، أنا دمرناهم وقومهم أجمعين» أى: فانظر - أيها العاقل - وتأمل واعتبر فيما آل إليه أمر هؤلاء المفسدين، لقد دمرناهم وأبدناهم، وأبدنا معهم جميع الذين كفروا بنبينا صالح - عليه السلام -.

قال بعض العلماء ما ملخصه: «قوله تعالى -: «أنا دمرناهم وقومهم أجمعين» قرأه الجمهور بكسر همزة «إنا» على الاستئناف، وقرأه عاصم وحمزة والكسائى: «أنا دمرناهم» بفتح الهمزة وفى إعراب المصدر المنسبك من أن وصلتها أوجه منها: أنه بدل من «عاقبة أمرهم» ومنها: أنه خبر مبتدأ

محذوف، وتقديره: هي أي: عاقبة مكرهم تدميرنا إياهم»[1].

وقوله - سبحانه - «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا...» مقرر ومؤكد لما قبله من تدمير المفسدين وإهلاكهم.

أي: إن كنت - أيها المخاطب - تريد دليلا على تدميرهم جميعا، فتلك هي بيوتهم خاوية وساقطة ومتهدمة على عروشها، بسبب ظلمهم وكفرهم ومكرهم.

«إن في ذلك» الذي فعلناه بهم من تدمير وإهلاك «لآية» بينة، وعبرة واضحة، «لقوم يعلمون» أي: يتصفون بالعلم النافع الذي يتبعه العمل الصالح.

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة بتأكيد سنته التي لا تتخلف فقال: «وأنجينا» أي: بفضلنا وإحساننا، «الذين آمنوا» وهم نبينا صالح وأتباعه «وكانوا يتقون» أي: وكانوا يتقون الله - تعالى - ويخافون عذابه.

وبذلك تكون السورة الكريمة قد ساقت لنا جانبا من قصة صالح مع قومه هذا الجانب فيه ما فيه من عظات وعبر لقوم يعقلون.

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك طرفا من قصة لوط مع قومه، فقال - تعالى -:

«ولوطًا إذْ قالَ لِقومِهِ، أتأتُونَ الفاحِشةَ وأنتُم تبصِرُونَ (٥٤) أئنَّكُم لتأتُونَ الرِّجالَ شَهوةً من دونِ النِّسَاء، بَلْ أنتُم قومٌ تجهَلُونَ (٥٥) فما كانَ جوابَ قومِهِ إلاَّ أنْ قالُوا أخرجُوا آلَ لُوطٍ من قريتِكُم، إنَّهم أناسٌ يتطهَّرُونَ (٥٦) فأنجيْناهُ وأهلَهُ إلاَّ امرأتَه قدَّرْناها منَ الغابرينَ (٥٧) وأمطَرْنا عليهمْ مَطراً فَسَاء مطر المُنذَرِينَ (٥٨)».

---

(1) أضواء البيان ج ٦ ص ٤١٢ للشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

وقصة لوط - عليه السلام - قد ذكرت في سور متعددة منها : الأعراف، وهود، والحجر ...

وهنا تتعرض السورة الكريمة، لإبراز ما كان عليه أولئك القوم من فجور، وما هددوا به نبيهم.

قال ابن كثير - رحمه الله : « ولوط هو ابن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم - عليه السلام -، وكان لوط قد آمن مع إبراهيم، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله - تعالى - إلى أهل سدوم، وما حولها من القرى، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عما يرتكبونه من المــآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، دون أن يسبقهم إليها أحد من بني آدم .. »(1).

وقوله - تعالى - : « ولوطا ... » منصوب بفعل مضمر محذوف، والتقدير: واذكر - أيها العاقل - وقت أن أرسلنا لوطا إلى قومه، فقال لهم على سبيل الزجر والتوبيخ :

« أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون » أي : أتأتون الفاحشة التي لم يسبقكم إليها أحد، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وأنتم تبصرون بأعينكم أنها تتنافى مع الفطرة السوية حتى بالنسبة للحيوان الأعجم، فأنتم ترون وتشاهدون أن الذكر من الحيوان لا يأتي الذكر، وإنما يأتي الأنثى، حيث يتأتى عن طريقها التوالد والتناسل وعمارة الكون.

فقوله - سبحانه - : « وأنتم تبصرون » جملة حالية المقصود بها زيادة تبكيتهم وتوبيخهم، لأنهم يشاهدون تنزه الحيوان عنها، كما يعلمــون سوء عاقبتها، وسوء عاقبة الذين خالفوا أنبياءهم من قبلهم.

---

(1) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٣٠ .

وقوله - سبحانه - : « أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ... » تأكيد الإنكار السابق ، وتوضيح الفاحشة التي كانوا يأتونها .

والإتيان : كناية عن الاستمتاع والجماع، مأخوذ من أتى المرأة إذا جامعها.

أى : أئنكم - أيها الممسوخون فى فطرتكم وطباعكم - لتصبون شهوتكم التى ركبها الله - تعالى - فيكم فى الرجال دون النساء اللاتى جعلهن الله - تعالى - محل شهوتكم ومتعتكم .

قال الآلوسى: «والجملة الكريمة تثنية للإنكار ، وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الابهام وتحلية الجملة بحرف التأكيد ، للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد ، لكمال شناعته ، وإيراد المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية ، لزيادة التقبيح والتوبيخ ...»[1] .

وقوله - تعالى - : « بل أنتم قوم تجهلون » إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن الأسباب التى جعلتهم يرتكبون هذه القبائح ، وهى أنهم قوم دينهم الجهل والسفاهة والمجون وانطماس البصيرة .

وقد حكى القرآن أن لوطا قد قال لهم فى سورة الأعراف : « بل أنتم قوم مسرفون » .

وقال لهم فى سورة الشعراء : « بل أنتم قوم عادون » ، وقال لهم هنا : « بل أنتم قوم تجهلون : ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل ، وانحراف الفطرة، وتجاوز كل الحدود التى ترتضيها النفوس الكريمة.

ثم حكى القرآن بعد ذلك جوابهم السيء على نبيهم فقال : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم .. »

والفاء للتفريع ، والاستثناء مفرع من أعم الأشياء .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٩ ص ٢١٦

أي : هكذا نصح لوط قومه وزجرهم . فما كان جوابهم شيئا من الأشياء سوى قول بعضهم لبعض أخرجوا لوطا والمؤمنين معـــه من قريتكم التى يساكنونكم فيها .

وفى التعبير بقولهم : « من قريتكم» إشارة إلى غرورهم وتكبرهم فكأنهم يعتبرون لوطا وأهله المؤمنين دخلاء عليهم ، ولا مكان لهم بين هؤلاء المجرمين لأن القرية - وهى سذوم - هى قريتهم وحدهم ، دون لوط وأهله .

وقوله - تعالى - حكاية عنهم : « إنهم أناس يتطهرون» تعليل للإخراج، وبيان لسببه أى : أخرجوهم من قريتكم لأنهم أناس يتنزهون عن الفعل الذى نفعله ، وينفرون من الشهوة التى نشتهيها وهى إتيان الرجال . .

وما أعجب العقول عند ما تنتكس، والنفوس عند ما ترتكس ، إنها تأبى أن يبقى معها الأطهار ، بل تحرض على طردهم ، ليبقى معها الممسوخون والمنحرفون الذين انحطت طباعهم ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا :

ورحم الله صاحب الكشاف . فقد قال: «وقولهم: « إنهم أناس يتطهرون» سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخارا بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد »(1) .

ثم بين - سبحانه - ما آل إليه أمر الفريقين فقال : « فأنجيناه وأهـــله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين » والغابر : الباقى . يقال ، غبر الشىء يغبر غبورا ، إذا بقى .

أى : فكانت عاقبة تلك المحاورة التى دارت بين لوط وقومه، أن أنجينا لوطا وأهله الذين آمنوا معه ، « إلا امرأته » فإننا لم ننجها لخبثها وعدم

(1) تفسير الكشاف ج٣ ص ١٢٧ .

إيمانها ، فبقيت مع القوم الكافرين ، حيث قدرنا عليها ذلك بسبب كفرها ومالئتها لقومها » .

« وأمطرنا » على هؤلاء المجرمين « مطرا » عظيما هائلا عجيبا أمره ، وهو حجارة من سجيل دمرتهم تدميرا « فساء مطر المنذرين » أي : فبئس العذاب عذابهم .

وهكذا تكون عاقبة كل من آثر الكفر على الإيمان ، والرذيلة على الفضيلة .

• • •

وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصص بعض الأنبياء ، ساق - سبحانه - مايدل على وحدانيته ، وكمال قدرته ، وسعة فضله على عباده ، فقال - تعالى - :

« قُلِ الحمدُ للهِ ، وسـلامٌ عَلَى عبادِهِ الذينَ اصْطَفى ، آللهُ خيرٌ أمَّا يُشرِكُون (٥٩) أمَّنْ خلقَ السمواتِ والأرضِ ، وأنزَلَ لكُم من السماءِ ماءً ، فأنبَتْنَا بهِ حدائقَ ذاتَ بَهجةٍ ، ما كانَ لكم أنْ تُنبِتُوا شجرَهَا ، أَإلهٌ مع اللهِ ، بَلْ هُمْ قومٌ يعدِلونَ (٦٠) أمَّنْ جَعَلَ الأرضَ قراراً ، وجعَلَ خلالَها أنهاراً ، وجعلَ لها رواسيَ ، وجعلَ بينَ البَحْرينِ حاجزاً ، أَإلهٌ مع اللهِ ، بل أكثرُهُمْ لا يَعلَمون (٦١) أمَّنْ يجيبُ المضطرَّ إذَا دَعاهُ ، ويكْشِفُ السُّوءَ ، ويَجْعلُكُم خلفاءَ الأرضِ ، أَإلهٌ معَ اللهِ قليلاً ما تذكَّرُونَ (٦٢) أمَّنْ يهديكُم في ظلُماتِ البَرِّ والبَحرِ ، ومَنْ يرسِلُ الرياحَ بُشراً بَيْنَ يَدَىْ رَحمَتِهِ ، أَإلهٌ معَ اللهِ تعالى اللهُ عمَّا يشرِكُونَ (٦٣) أمَّنْ يبدؤُا الخَلْقَ ثمَّ يُعِيدُه ، ومَن يرزُقكُم مِنَ السَّماءِ والأرضِ ، أَإلهٌ مع اللهِ قُلْ هاتُوا بُرْهَانكُمْ إنْ كنتُم صادِقِينَ (٦٤) » .

قال صاحب البحر المحيط : «لما فرغ - سبحانه - من قصص هذه السورة ، أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - بحمده - تعالى - ، والسلام على المصطفين، وأخذ فى مباينة واجب الوجود وهو الله - تعالى - ومباينة الأصنام والأديان التى أشركوها مع الله وعبدوها ، وابتدأ فى هذا التقرير لقريش وغيرهم بالحمد لله، وكأنها صدر خطبة ، لما يلقى من البراهين الدالة على الوحدانية والعلم والقدرة. وقد اقتدى بذلك المسلمون فى تصانيف كتبهم، وخطبهم، ووعظهم ، فافتتحوا بتحميد الله ، والصلاة على رسوله - صلى الله عليه وسلم - وتبعهم المتراسلون فى أوائل كتب الفتوح والتهانى والحوادث التى لها شأن » [1] .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس: « الحمد لله » - تعالى - وحده ، فهو - سبحانه - صاحب النعم والمنن على عباده ، وهو - عز وجل - الذى له الخلق والأمر وليس لأحد سواه .

وقل - أيضا - « سلام على عباده الذين اصطفى » أى : أمان وتحية لعباده الذين اصطفاهم واختارهم - سبحانه - لحمل رسالته وتبليغ دعوته ، والاستجابة لأمره ونهيه ، والطاعة له فى السر والعلن .

والاستفهام فى قوله « آلله خير أما يشركون » للإنكار والتقريع ، والألف منقلبة عن همزة الاستفهام .

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - : آلله الذى له الخلق والأمر والذى أنعم عليكم بالنعم التى لا تحصى ، خير ، أم الآلهة الباطلة التى لا تنفع ولا تضر والتى يعبدها المشركون من دون الله - تعالى - . إن كل من عنده عقل ، لا يشك فى أن المستحق للعبادة والطاعة، هو الله رب العالمين .

ولفظ « خير » ليس للتفضيل ، وإنما هو من باب التهكم بهم ، إذ لا خير

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٧ ص ٨٨ .

فى عبادة الأصنام أصلا . وقد حكى عن العرب أنهم يقولون : السعادة أحب إليك أم الشقاوة . مع أنه لاخير فى الشقاوة إطلاقا .

قال الآلوسى: «وقوله «آلله» بالمد لقلب همزة الاستفهام ألفا، والأصل أالله ؟، خير أما يشركون » والظاهر أن « ما » موصولة ، والعائد محذوف أى : آلله الذى ذكرت شئونه العظيمة خير أم الذى يشركونه من الأصنام و « خير » أفعل تفضيل ، ومرجع الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته ـ عز وجل ـ وتسفية آرائهم الركيكة ، والتهكم بهم ، إذ من البين أنه ليس فيما أشركوه به ـ سبحانه شائبة خير ، حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من هو خير محض . . . »(١)

ثم ساق ـ سبحانه ـ خمس آيات ، وكل آية فيها ما يدل على كمال قدرته وعلمه ، وختم كل آية بقوله : « أإله مع الله » ؟ فقال ـ تعالى ـ « أم من خلق السموات والأرض . . . » و« أم » هنا منقطعة بمعنى بل الإضرابية ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ .

أى : بل قولوا لنا ـ إن كنتم تعقلون أيها الضالون ـ من الذى خلق السموات والأرض ، وأوجدهما على هذا النحو البديع ، والتركيب المحكم .

« وأنزل لكم من السماء ماء » وهو المطر ، الذى لا غنى لكم عنه فى شئون حياتكم .

« فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » ، والحدائق : جمع حديقة، وهى فى الأصل اسم البستان المحاط بالأسوار ، من أحدق بالشىء إذا أحاط به ، ثم توسع فيها فصارت تطلق على كل بستان سواء أكان مسورا بسور أم لا .

أى : وأنزل ـ سبحانه ـ بقدرته من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا لكم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ٣

بسبب هذا الماء حدائق وبساتين وجنات ذات منظر حسن ، يشرح الصدور، ويدخل السرور على النفوس .

وقال - سبحانه - « فأنبتنا ... » بصيغة الالتفات من الغيبة إلى التكلم . لتأكيد أن القادر على هذا الإنبات هو الله - تعالى - وحده ، وللإيذان بأن إنبات هذه الحدائق مع اختلاف ألوانها ، وأشجارها ، وطعومها .. لا يقدر عليه إلا هو - سبحانه - .

ولذا أتبع -عز وجل- هذه الجملة بقوله: «ما كان لكم أن تنبتوا أشجارها» أى : ما كان فى إمكانكم - أيها الناس - بحال من الأحوال ، أن تنبتوا أشجار هذه الحدائق ، فضلا عن إيجاد ثمارها ، وإخراجها من العدم إلى الوجود .

قال الإمام الرازى : « يقال : ما حكمة الالتفات فى قوله : «فأنبتنا . . . » والجواب : أنه لا شبهة فى أن خالق السموات والأرض ، ومنزل الماء من السماء ، ليس إلا الله - تعالى - .

ولكن ربما عرضت الشبهة فى أن منبت الشجرة ، هو الإنسان ، فإن الإنسان قد يقول : أنا الذى ألقى البذر فى الأرض ، وأسقيها الماء... وفاعل السبب ، فاعل للمسبب ، فأنا المنبت للشجرة . . .

فلما كان هذا الاحتمال قائما . لاجرم أزال - سبحانه - هذا الاحتمال . لأن الإنسان قد يأتى بالبذر والسقى .. ولا يأتى الزرع على وفق مراده . . . فلهذه النكتة جاء الالتفات . . . »(١).

وقوله - تعالى - : « أإله مع الله » أى: أ إله آخر كائن مع الله - تعالى - هو الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء . . كلا ، لا شريك مع الله - تعالى - فى خلقه ، وقدرته ، وإيجاده لهذه الكائنات «بل هم قوم يعدلون» .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٤١٤

أى : بل إن هؤلاء المشركين قوم يعدلون عمدا عن الحق الواضح وهو التوحيد ، إلى الباطل البين وهو الشرك .

فقوله : « يعدلون » مأخوذ من العدول بمعنى الإنحراف عن الحق إلى الباطل . أو من العـــدل والمساواة ، فيكون المعنى : بل هم قوم - لجهلهم - يساوون بالله - تعالى - غيره من آلهتهم .

والجملة الكريمة ، إنتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب ، إلى توبيخهم وتجهيلهم ، وبيان سوء تفكيرهم ، وإنطماس بصائرهم .

ثم إنتقلت السورة الكريمة إلى لفت أنظارهم إلى حقائق كونية أخرى يشاهدونها بأعينهم ، ويحسونها بحواسهم . فقال - تعالى - : « أم من جعل الأرض قرارا ، والقرار : المكان الذى يستقر فيه الإنسان ، ويصلح لبناء حياته عليه .

أى : بل قولوا لنا - أيها المشركون : من الذى جعل هذه الأرض التى تعيشون عليها ، مكانا صالحا لاستقراركم ، ولحرثكم ، ولتبادل المنافع فيما بينكم ، ومن الذى دحاها وسواها وجعلها بهذه الطريقة البديعة .

ومن الذى « جعل خلالها ، أى : جعل فيما بينها « أنهارا ، تجرى بين أجزائها ، لتنتفعوا بمياه هذه الأنهار فى شربكم ، وفى غير ذلك من شئون حياتكم . ومن الذى « جعل لها رواسى ، أى : جعل لصلاح حالها جبالا ثوابت ، تحفظها من أن تضطرب بكم .

ومن الذى : « جعل بين البحرين ، أى : جعل بين البحر العذب والبحر الملح « حاجزا ، يجعلهما لا يختلطان ولا يمتزجان .

ثم يأتى الاستفهام الإنكارى « أإله مع الله ، ؟ أى : أإله مع الله - تعالى - هو الذى فعل ذلك ؟ كلا ، ليس مع الله - تعالى - آلهة أخر فعل ذلك .

« بل أكثرهم لا يعلمون ، أى : بل أكثر هؤلاء المشركين ، لا يعلمون الأمور على وجهها الصحيح ، لجهلهم ، وعكوفهم على ماورثوه عن آبائهم بدون تفكير أو تدبر .

وعبر بأكثرهم، لأن هناك قلة منهم تعلم الحق، لكنها تنكره جحودا وعنادا.

ثم تنتقل السورة - للمرة الثالثة - إلى لفت أنظارهم إلى الحقيقة التى هم يحسونها فى خاصة أنفسهم، وفى حنايا قلوبهم فتقول: «أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء».

والمضطر: إسم مفعول من الاضطرار الذى هو إفتعال من الضرورة.

والمراد به: الإنسان الذى نزلت به شدة من الشدائد، جعلته يرفع أكف الضراعة إلى الله - تعالى - لكى يكشفها عنه.

أى: وقولوا لنا - أيها المشركون -: من الذى يجيب دعوة الداعى المكروب، الذى نزلت به المصائب والرزايا؟ ومن الذى يكشف عنه وعن غيره السوء والبلاء؟ إنه الله وحده، هو الذى يجيب دعاء من التجأ إليه وهو وحده - سبحانه - الذى يكشف السوء عن عباده، على حسب ماتقتضيه إرادته وحكمته.

وقولوا لنا - أيضا -: من الذى «يجعلكم خلفاء الأرض» أى: من الذى يجعلكم يخلف بعضكم بعضا، قرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، «أإله مع الله» هو الذى فعل ذلك.

كلا، بل الله وحده - عز وجل - هو الذى يجيب المضطر، وهو الذى يكشف السوء، وهو الذى يجعلكم خلفاء الأرض، لكنكم «قليلا ما تذكرون» أى: ولكنكم زمانا قليلا هو الذى تتذكرون فيه نعم الله - تعالى - عليكم، ورحمته بكم.

وختم - سبحانه - هذه الآية بتلك الجملة الحكيمة، لأن الإنسان من شأنه - إلا من عصم الله - أنه يذكر الله - تعالى - عند الشدائد، وينساه عند الرخاء.

وصدق الله إذ يقول: «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر، فذو دعاء عريض».

ثم إنتقلت السورة الكريمة - للمرة الرابعة - إلى لفت أنظارهم إلى نعمه - سبحانه - عليهم فى أسفارهم فقال - تعالى -: «أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر،

أى : وقولوا لنا - أيها المشركون - : من الذى يرشدكم فى أسفاركم إلى المكان الذى تريدون الذهاب إليه ، عندما تلتبس عليكم الطرق ، وأنتم بين ظلمات البحار وأمواجه ، أو وأنتم فى متاهات الأرض وفجاجها .

وقولوا لنا : « من يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته » أى : ومن الذى يرسل لكم الرياح لتكون مبشرات بقرب نزول المطر الذى هو رحمة من الله - تعالى - لكم ، بعد أن أصابكم اليأس والقنوط ؟

« أ إله مع الله » هو الذى فعل ذلك ، كلا ، فما فعل ذلك أحد سواه .

وقوله - سبحانه - : « تعالى الله عما يشركون » تأكيد لوحدانيته وقدرته ، وتنزيه له - تعالى - عن الشرك والشركاء .

أى : تنزه الله وتقدس عن شرك هؤلاء المشركين ، فهو الواحد الأحد فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله .

ثم انتقلت السورة الكريمة - للمرة الخامسة - إلى لفت أنظارهم إلى نعمة أخروية ، بعد أن ساقت ما ساقت من النعم الدنيوية ، فقال - تعالى - : « أم من يبدأ الخلق ثم يعيده » أى : قولوا لنا - أيها المشركون - من الذى فى قدرته أن يوجد الخلق فى الأرحام من نطفة ، ثم يحولها إلى علقة ، ثم إلى مضغة .. . ثم يعيد هذه المخلوقات جميعها بعد موتها ، إلى الحياة مرة أخرى ؟ لا شك أنه لا يقدر على ذلك أحد سوى الله - تعالى - .

ثم قولوا لنا « ومن يرزقكم من السماء والأرض » بالمطر والنبات والأموال ، وبغير ذلك من ألوان النعم التى لا تحصى ؟

« أإله مع الله » هو الذى فعل ذلك ؟ كلا ، لم يفعل ذلك سوى الله - تعالى - وحده ثم لقن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذى يخرس ألسنتهم عند المعارضة أو المجادلة فقال : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - عند معارضتهم لك ، أحضروا حجتكم

وهاتوا برهانا عقليا أو نقليا ، على أن الله ـ تعالى ـ شريكا فى ملكه ، إن كنتم صادقين فيما انغمستم فيه من جهل وشرك وكفر به ـ عز وجل ـ .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « اعلم أنه ـ تعالى ـ لما عدد نعم الدنيا، أتبع ذلك بنعم الآخرة فقال: «أم من يبدأ الخلق ثم يعيده»، لأن نعم الله بالثواب لاتتم إلا بالإعادة بعد الابتداء . فإن قيل: كيف قيل لهم: «أم من يبدأ الخلق ثم يعيده» ، وهم منكرون الإعادة ؟

فالجواب : أنهم كانوا معترفين بالابتداء ، ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة ظاهرة قوية ، فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة ، صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر فى الإنكار .. »(١).

وبذلك ترى هذه الآيات الكريمة . قد أقامت أوضح الأدلة وأقواها ، على وحدانية الله ـ تعالى ـ ، وعلى كمال قدرته ، وشمول علمه ، وانفراده بالخلق والتدبير ...

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن علم الله ـ تعالى ـ الذى غيبه عن عباده . وعن أقوال المشركين فى شأن البعث والحساب ،وعن توجيهات الله ـ تعالى ـ لنبيه فى الرد عليهم ... فقال ـ تعالى ـ :

« قُلْ لايَعْلَمُ مَنْ فى السَّمواتِ والأَرضِ الغيْبَ إلاَّ اللهُ ، ومايَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهم فى الآخِرةِ ، بَلْ هُمْ فى شَكٍّ مِنْها ، بل هُمْ مِنها عَمُونَ (٦٦) وقالَ الذينَ كفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تراباً وَآباؤُنا أَئِنَّا لمُخرجُونَ (٦٧) لقد وُعِدنا هذَا نحنُ وآباؤُنا مِنْ قبلُ ، إنْ هذَا إلاَّ أساطِيرُ الأوَّلين (٦٨) قُلْ سِيرُوا فى الأرضِ فانظُروا كيفَ كانَ

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٤١٦ .

عاقبةُ المجرمينَ (٦٩) ولا تحزَنْ عليهم ، ولا تكُنْ فى ضَيْقٍ مِمَّا يمْكرونَ (٧٠) ويقولُونَ مَتَى هذَا الوَعدُ إنْ كُنتُم صادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أنْ يكونَ رَدِفَ لكُم بَعْضُ الذى تستعجِلُونَ (٧٢) وإنَّ ربَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ولكنَّ أكثرَهمُ لا يشكُرُونَ (٧٣) وإنَّ ربَّكَ ليَعلَمُ ما تكِنُّ صدُورهمُ وما يُعلِنُونَ (٧٤) ومَا مِنْ غَائِبَةٍ فى السَّماء والأرضِ إلاَّ فى كتابٍ مُبينٍ (٧٥) » .

ذكر بعض المفسرين أن كفار مكة سألوا النبى - صلى الله عليه وسلم - عن وقت قيام الساعة ، فنزل قوله - تعالى - : « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله . . . » .

والغيب : مصدر غاب يغيب ، وكثيرا ما يستعمل بمعنى الغائب ، ومعناه : مالا تدركه الحواس ، ولا يعلم ببداهة العقل .

و « من » اسم موصول فى محل رفع على أنه فاعل « يعلم » و « الغيب » مفعوله فيكون المعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لكل من سألك عن موعد قيام الساعة : لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة فى السموات والأرض ، الغيب إلا الله - تعالى - وحده ، فإنه هو الذى يعلمه .

ويجوز أن يكون لفظ « من » فى محل نصب على المفعولية و « الغيب » بدل منه ، ولفظ الجلالة « الله » فاعل « يعلم » فيكون المعنى : قل لا يعلم الأشياء التى تحدث فى السموات والأرض الغائبة عنا ، إلا الله - تعالى - .

قال القرطبى : « وفى صحيح مسلم عن عائشة ، أن رسول الله - صلى الله وعليه وسلم - قال : « من زعم أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - يعلم مافى غد ، فقد أعظم على الله الفرية »[1] .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٢٢٦ .

وقوله - سبحانه - : « وما يشعرون أيان يبعثون » تأكيد لانفراد الله - تعالى - بعلم الغيوب ، ولفظ « أيان » ظرف زمان متضمن معنى متى .

أى : وما يشعر هؤلاء الكافرون الذين سألوا عن وقت قيام الساعة ، ولا غيرهم ، متى يكون بعثهم من قبورهم للحساب ، إذ علم وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله وحده.

فالجملة الكريمة تنفى عنهم العلم بموعد قيام الساعة فى أدق صورة وأخفاها ، فهم لا يشعرون ولا يحسون بقيام الساعة، « بل تأتيهم بغتة فتبهتهم، فلا يستطيعون ردها ، ولا هم ينظرون »(١) .

ثم بين - سبحانه - حقيقة أمرهم فى الآخرة بصورة أكثر تفصيلا ،فقال : « بل إدراك علمهم فى الآخرة... »

وقوله - تعالى - : « بل ادارك .. » قرأه الجمهور - بكسر اللام وتشديد الدال وبعدها ألف - وأصله تدارك ، بزنة تفاعل .

وللعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال أشهرها : أن التدارك بمعنى الاضمحلال والفناء ، وأصله التتابع والتلاحق . يقال : تدارك بنو فلان ، إذا تتابعوا فى الهلاك ، و« فى » بمعنى الباء .

أى : بل تتابع علم هؤلاء المشركين بشئون البعث حتى اضمحل وفنى ، ولم يبق لهم علم بشىء مما سيكون فيها قطعا مع توافر أسبابه ومباديه من الدلائل.

والمقصود : أن أسباب علمهم بأحوال الآخرة مع توافرها ، قد تساقطت من اعتبارهم لكفرهم بها، فأجرى ذلك مجرى تتابعها فى الانقطاع .

ومنهم من يرى أن التدارك هنا التكامل ، فيكون المعنى : بل تكامل

---

(١) سورة الأنبياء . الآية ٤٠

علمهم بشئون الآخرة ، حين يعاينون ما أعد لهم فيها من عذاب ، بعد أن كانوا ينكرون البعث والحساب فى الدنيا ...

قال الآلوسى ما ملخصه : « قوله : « بل ادارك علمهم فى الآخرة » إضراب عما تقدم على وجه يفيد تأكيده وتقريره ... والمعنى : بل تتابع علمهم فى شأن الآخرة ، التى ما ذكر من البعث حال من أحوالها ، حتى انقطع وفنى ، ولم يبق لهم علم بشىء مما سيكون فيها قطعا ، مع توفر أسبابه ، فهو ترق من وصفهم بجهل فاحش إلى وصفهم بجهل أفحش ... ويجوز أن يكون « ادارك » بمعنى استحكم وتكامل ... »(1)

ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع للقولين ، على معنى أن المشركين اضمحل علمهم بالآخرة لكفرهم بها فى الدنيا ، فإذا ما بعثوا يوم القيامة وشاهدوا العذاب ، أيقنوا بحقيقتها ، وتكامل علمهم واستحكم بأن ما كانوا ينكرونه فى الدنيا . قد صار حقيقة لا شك فيها ، ولا مفر لهم من عذابها ..

ومن الآيات التى توضح هذا المعنى قوله - تعالى - : « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » أى : علمك بما كنت تنكره فى الدنيا قد صار فى نهاية القوة والوضوح .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : « بل أدرك علمهم فى الآخرة » - بسكون اللام من بل ، وهمزة قطع مفتوحة مع سكون الدال فى « أدرك » فهو بزنة أفعل .

أى : بل كمل علمهم فى الآخرة ، وذلك بعد أن شاهدوا أهوالها ، ورأوها بأعينهم ، وقد كانوا مكذبين بها فى الدنيا .

وقوله - سبحانه - : « بل هم فى شك منها . بل هم منها عمون » بيان لأحوالهم فى الدنيا .

(1) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٣

أى : أن هؤلاء المشركين كانوا فى الدنيا يشكون فى الآخرة ، بل كانوا فى عمى عنها ، بحيث لا يفتحون بصائرهم أو أبصارهم ، عما قال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بشأنها.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد انتقلت فى تصوير كفر هؤلاء المشركين بالآخرة ، من حالة شنيعة إلى حالة أخرى أشد منها فى الشناعة والجحود .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : هذه الاضرابات الثلاثة ما معناها ؟

قلت : ما هى إلا تنزيل لأحوالهم . وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون وقت البعث ، ثم لا يعلمون بأن القيامة كائنة ، ثم إنهم يخبطون فى شك ومرية ، فلا يزيلونه مع أى الإزالة مستطاعة ... ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى ، وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يخطر بباله حقا ولا باطلا ، ولا يفكر فى عاقبة »(١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أقوالهم الباطلة ، التى جعلتهم فى عمى عن الآخرة فقال :

« وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا ... لمخرجون » .

أى : وقال الذين كفروا على سبيل الإنكار للبعث والحساب : أئذا متنا وصرنا مثل التراب ، وصار آباؤنا كذلك مثل التراب ، أنبعث ونخرج إلى الحياة مرة أخرى بعد أن صرنا جميعا عظاما نخرة وأجسادا بالية ؟

يقولون هذا ، وينسون لجهلهم وانطماس بصائرهم أن الله - تعالى - أوجدهم بقدرته ولم يكونوا شيئا مذكورا .

والاستفهام للإنكار والنفى ، والعامل فى « إذا » محذوف ، دل عليه « مخرجون » ، وقوله : « وآباؤنا » معطوف على إسم كان . أى : أنبعث ونخرج نحن وآباؤنا إذا كنا كذلك ؟

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٨

ثم يتبعون قولهم هذا ، بقول أشد منه فى الإنكار والتهكم فيقولون : «لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين» .

والأساطير : جمع أسطورة ، كأحاديث وأحدوثة، وأكاذيب وأكذوبة.

ومرادهم بها : الخرافات والتخيلات التى لا حقيقة لها .

أى : «لقد وعدنا هذا الإخراج والإعادة إلى الحياة «نحن وآباؤنا من قبل» أى : من قبل أن يخبرنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، فنحن وآباؤنا ما زلنا نسمع من القصاص أن هناك بعثا وحسابا ، ولكن لا نرى لذلك حقيقة ولا وقوعا ...

وما هذا الذى نسمعه من محمد - صلى الله عليه وسلم - فى شأن الآخرة إلا أكاذيب الأولين ، وخرافاتهم التى لا مكان لها فى عقولنا.

وهكذا يؤكدون إنكارهم الآخرة ، بشتى ألوان المؤكدات، المصحوبة بالتهكم والاستخفاف .

وهنا يلفت القرآن أنظارهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم ،ويأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يحذرهم من سوء مصير هذا الإنكار والاستهزاء ، فيقول : «قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين» .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : سيروا فى الأرض لتروا بأعينكم مصارع المكذبين بما جاءهم به الرسل من قبلكم ، ولتعتبروا بما أصابهم بسبب إجرامهم ، وإنكارهم للبعث والحساب يوم القيامة .

فالآية الكريمة توجههم إلى ما من شأنه أن يفتح مغاليق قلوبهم المتحجرة، وأن يزيل عن نفوسهم قسوتها وعنادها .

وبعد هذا التوجيه الحكيم تأخذ السورة الكريمة فى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من حزن بسبب كفرهم فتقول : «ولا تحزن عليهم ، ولا تكن فى ضيق مما يمكرون» ، والحزن: اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه .

والمقصود بالنهى عن الحزن : النهى عن لوازمه ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب، وتعظيم أمرها، وبذلك تتجدد الآلام،ويصعب نسيانها.

والمكر : التدبير المحكم ، أو صرف الغير عما يريده بحيلة ، لقصد إيقاع الأذى به .

أى : ولا تحزن - أيها الرسول الكريم - على هؤلاء المشركين ، بسبب إصرارهم على الكفر والجحود، ولا يضيق صدرك، ويمتلىء هما وغما بسبب مكرهم . فإن الله - تعالى - عاصمك منهم ، وناصرك عليهم .

ثم تعود السورة إلى سرد أباطيلهم فتقول : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » أى : ويقول هؤلاء المشركون للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه : متى يحصل هذا الوعد الذى توعدتمونا به ، وهو أن عذابا سيصيبنا إذا لم نؤمن بما أنتم مؤمنون به .

إن كنتم صادقين فى وعدكم لنا بهذا العذاب ، فأنزلوه بنا ، فنحن قد طال إنتظارنا له . وهكذا الأشرار يتعجلون مصيرهم الأليم ، ويبحثون عن حتفهم بظلفهم ، وذلك لإيغالهم فى الغرور والعناد .

ولذا جاء الرد عليهم ، يحمل فى طياته العذاب الشديد ، والتهكم المرير ، فيقول - تعالى - آمرا رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالرد عليهم : « قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون » .

والرديف - كما يقول صاحب المصباح - « الذى تحمله خلفك على ظهر الدابة ... ومنه ردف المرأة ، وهو عجزها ، والجمع أرداف . . وترادف القوم : إذا تتابعوا ، وكل شىء تبع شيئا ردفه »[1] .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - لا تتعجلوا العذاب ، فعسى ما تستعجلونه

---

(١) المصباح المنير جـ١ ص ٣٠٦ .

من عذاب ، بعضه قد لحقكم ونزل بكم ، وبعضه فى طريقه إليكم ، وأنتم لا تشعرون بذلك ، لشدة غفلتكم ، وتبلد مشاعركم .

والتعبير بقوله : « ردف لكم » يشعر بأن العذاب ليس بعيدا عنهم، وإنما هو قريب منهم ، كقرب الراكب فوق الدابة ممن هو ردفه - أى خلفه - عليها .

ولقد لحقهم شىء من هذا العذاب الذى تعجلوه فى مكة ، عندما أصيبوا بالقحط والجدب ، ولحقهم شىء منه بعد ذلك فى بدر ، عندما قتل المسلمون أكثر زعمائهم ، كأبى جهل ، وغيره . . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على الناس ، فقال : « وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشعرون » .

أى : وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لذو فضل عظيم ، وإنعام كبير على الناس . ومن مظاهر ذلك : أنه لم يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم، ولكن أكثر هؤلاء الناس لا يشكرونه - سبحانه - على فضله وإنعامه .

والتعبير « بأكثر » للإشعار بأن هناك قلة مؤمنة من الناس ، ملازمة لشكر الله - تعالى - فى السراء والضراء ، والعسر واليسر .

ثم بين - سبحانه - شمول علمه لكل شىء فقال : « وإن ربك » - أيها الرسول الكريم - « ليعلم » علما تاما « ما تكن صدورهم » أى : ما تخفيه وتستره صدورهم من أسرار ، ويعلم - أيضا - « ما يعلنون » أى : ما يظهرونه من أقوال وأفعال .

« وما من غائبة فى السماء والأرض » أى : وما من شىء غائب عن علم الخلق سواء أكان فى السماء أو فى الأرض .

« إلا » وهو عندنا « فى كتاب مبين » أى : إلا وهو عندنا فى كتاب واضح لمن يطالعه بإذن ربه ، وهذا الكتاب المبين هو اللوح المحفوظ الذى سجل - سبحانه - فيه أحوال خلقه .

ومادام الأمر كذلك ، فلا تحزن ـ أيها الرسول الكريم ـ لما عليه هؤلاء المشركون من جحود وعناد ، بل فوض إلينا أمرهم ، فأنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب .

* * *

ثم مدحت السورة الكريمة القرآن الكريم ، وساقت المزيد من التسلية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال ـ تعالى ـ :

« إنَّ هذَا القرآنَ يَقصُّ عَلَى بَنى إسْرَائيلَ أكثَرَ الذى هُمْ فيهِ يختلِفُونَ (٧٦) وإنَّهُ لهدًى ورَحمةٌ للمؤمنينَ (٧٧) إنَّ رَبَّكَ يَقضِي بينَهم بحكمِهِ وهُوَ العزيزُ العَليمُ (٧٨) فتوكَّلْ عَلَى اللهِ ، إنَّكَ عَلَى الْحَقِّ المُبينِ (٧٩) إنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى ولا تُسْمِعُ الصمَّ الدُّعاء إذَا وَلَّوْا مُدبِرِينَ (٨٠) وما أَنتَ بِهادِي العُمْى عن ضَلالَتِهم ، إنْ تُسمعُ إلاَّ مَنْ يُؤمِنُ بآياتِنَا فَهُم مُسلِمُونَ (٨١) » .

قال الإمام الرازى : « اعلم أنه ـ سبحانه ـ لما تمم الكلام فى إثبات المبدأ والمعاد . ذكر بعد ذلك مايتعلق بالنبوة ، ولما كانت الدلالة الكبرى فى إثبات نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو القرآن ، لاجرم بين الله ـ تعالى ـ أولا كونه معجزة . . »(١)

أى : إن هذا القرآن من معجزاته الدالة على أنه من عند الله ـ تعالى ـ ، أنه يقص على بنى إسرائيل ، الذين هم حملة التوراة والإنجيل ، أكثر الأشياء التى اختلفوا فيها ، ويبين لهم وجه الحق والصواب فيما اختلفوا فيه .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٤٢٠

ومن بين ما اختلف فيه بنو إسرائيل : اختلافهم فى شأن عيسى - عليه السلام - ، فاليهود كفروا به ، وقالوا على أمه ما قالوا من الكذب والبهتان ، والنصارى قالوا فيه إنه الله ، أو هو ابن الله ، فجاء القرآن ليبين لهم القول الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - فقال : من بين ما قال - : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . . . »(١)

وقال - سبحانه - : « يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » للإشارة إلى أن القرآن ترك أشياء اختلفوا فيها دون أن يحكيها ، لأنه لا يتعلق بذكرها غرض هام يستدعى الحديث عنها ، ولأن فى عدم ذكرها ستراً لهم، عما وقعوا فيه من أخطاء . . .

وقوله - تعالى - : « وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين» صفة أخرى من صفات القرآن الكريم الدالة على أنه من عند الله - تعالى - .

أى : وإن هذا القرآن لمن صفاته - أيضا - أننا جعلناه هداية للمؤمنين إلى الصراط المستقيم ، ورحمة لهم ينالون بسببها العفو والمغفرة من الله .

وخص هدايته ورحمته بالمؤمنين ، لأنهم هم الذين آمنوا به ، وصدقوا بما فيه ، وعملوا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وطبقوا على أنفسهم أحكامه، وآدابه . وتشريعاته . . .

ثم بين - سبحانه - أن مرد القضاء بين المختلفين إليه وحده فقال : « إن ربك يقضى بينهم بحكمه . . . » .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - يقضى بين بنى إسرائيل الذين اختلفوا فيما بينهم اختلافا كبيرا ، بحكمه العادل ، كما يقضى بين غيرهم، فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

(١) سورة النساء الآية ١٧١

« وهو » ـ سبحانه ـ « العزيز » الذى لا يغالب « العليم » بكل شىء فى هذا الوجود ، والفاء فى قوله ـ تعالى ـ : « فتوكل على الله . . . » للتفريع . أى : ما دمت قد عرفت ذلك ـ أيها الرسول الكريم ـ ففوض أمرك إلى العزيز العليم وحده ، وتوكل عليه دون سواه ، وبلغ رسالته دون أن تخشى أحدا إلا إياه .

وجملة « إنك على الحق المبين » تعليل للتوكل على الله وحده .

أى : توكل على الله ـ تعالى ـ وحده ، لأنك ـ أيها الرسول الكريم ـ على الحق الواضح البين ، الذى لا تحوم حوله شبهة من باطل .

وقوله ـ تعالى ـ : « إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . . . » تعليل آخر لوجوب التوكل على الله ـ تعالى ـ .

وقد شبه ـ سبحانه ـ أولئك المشركين ، بالأموات الذين فقدوا الحياة ، وبالصم الذين فقدوا السمع ، وبالعمى الذين فقدوا البصر ، وذلك لأنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس ، فصاروا كالفاقدين لها .

أى : دم ـ أيها الرسول الكريم ـ على توكلك على الله ـ تعالى ـ وحده ، وإنك لا تستطيع أن تسمع هؤلاء المشركين ، ما يردهم عن شركهم ، لأنهم كالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل ، ولأنهم كالصم الذين فقدوا نعمة السمع .

وقوله : « إذا ولوا مدبرين » لتتميم التشبيه ، وتأكيد نفى السماع . أى : إذا أعرضوا عن الحق إعراضا تاما ، وأدبروا عن الاستماع إليك .

قال الجمل : « فإن قلت : ما معنى قوله « مدبرين » والأصم لا يسمع سواء أقبل أو أدبر ؟

قلت : هو تأكيد ومبالغة للأصم . وقيل : إن الأصم إذا كان حاضرا قد يسمع رفع الصوت ، أو يفهم بالإشارة ، فإذا ولى لم يسمع ولم يفهم .

ومعنى الآية : إنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت ، الذى لا سبيل إلى إسماعه، وكالأصم الذى لا يسمع ولا يفهم»(١) .

وقوله - سبحانه - : «وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم . . » أى : وما أنت - أيها الرسول الكريم - بقادر على أن تصرف العمى عن طريق الضلال الذى انغمسوا فيه ، لأن الهداية إلى طريق الحق ، مردها إلى الله - تعالى - وحده .

ثم بين - سبحانه - فى مقابل ذلك ، من هم أهل السماع والبصر فقال : «إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون» .

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - ماتستطيع أن تسمع إسماعا مجديا نافعا ، إلا لمن يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، لأن هؤلاء هم المطيعون لأمرنا ، المسلمون وجوههم لنا .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت الكثير من وسائل التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من المشركين ، كما ساقت مايدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، وعلى أنه - سبحانه - هو الحكم العدل بين عباده .

ثم أخذت السورة الكريمة تسوق فى أواخرها ، بعض أشراط الساعة وعلاماتها ، وأهوالها ، لكى تعتبر النفوس ، وتخشع لله - تعالى - ، فقال - عز وجل - :

«وإِذَا وقع القولُ عليهِمْ أخرَجْنَا لهُم دَابةً من الأرضِ ، تكلِّمُهُمْ أنَّ الناسَ كانوا بآياتِنَا لا يوقِنُون (٨٢) ويومَ نحشُرُ مِن كلِّ أمةٍ فوجاً ممَّن يكَذِّبَ بآياتِنَا فهُم يُوزَعُونَ (٨٣) حتى إذَا جاءوا قالَ أكذَّبتُم

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣٢٦

بآياتِي ولم تحيطُوا بها علماً ، أمْ ماذَا كنتُم تعمَلُونَ (٨٤) ووقعَ القولُ عليهِم بما ظلمُوا فهُم لاينطِقُونَ (٨٥) ألمْ يرَوْا أنَّا جعلْنا الليلَ ليسكُنُوا فيهِ والنهارَ مُبصِراً ، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يؤمِنُونَ (٨٦) ويومَ ينفخُ في الصُّورِ ففزِعَ مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ إلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ ، وكُلٌّ أتوْهُ داخِرِينَ (٨٧) وترَى الجبالَ تحسبُها جامِدةً وهي تمرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللهِ الذي أتقنَ كلَّ شيْءٍ ، إنَّهُ خبيرٌ بما تفعَلُونَ (٨٨) » .

قال الإمام ابن كثير : هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض، قيل : من مكة ، وقيل من غيرها .

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ جملة من الأحاديث في هذا المعنى منها : مارواه مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غرفته ، ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى بن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن، تسوق ـ أو تحشر ـ الناس ، تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا »[1] .

والدابة : اسم لكل حيوان ذي روح، سواء أكان ذكرا أم أنثى، عاقلا

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٣٠

أم غير عاقل ، من الدبيب وهو فى الأصـــل : المشى الخفيف ، وإختصت فى العرف بذوات القوائم الأربع .

والمراد بوقوع القول عليهم : قرب قيام الساعة ، وإنتهـاء الوقت الذى يقبل فيه الإيمان من الـكافر ، أو الذى تنفع فيه التوبة .

والمعنى : وإذا دنا وقت قيـام الساعة . وإنتهى الوقت الذى ينفع فيه الإيمان أو التوبة . . . أخرجنا للناس بقدرتنا وإرادتنا « دابة من الأرض تـكلمهم » فيفهمون كلامهم ، ويعرفون أن موعد قيام الساعة قد اقترب . « أن الناس، أى : للـكافرين « كانوا بآياتنا» الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا « لا يوقنون » بها ، ولا يصدقون أن هناك بعثا وحسابا .

فخروج الدابة علامة من علامات الساعة الـكبرى، يخرجها الله-عز وجل- ليعلم الناس قرب إنهاء الدنيا وأن الحساب العادل للمؤمنين والـكافرين ، آت لا شك فيه ، وأن التوبة لن تقبل فى هذا الوقت ، لأنهـا جاءت فى غير وقتها المناسب.

وقد ذكر بعض المفسرين أوصافا كثيرة ، منها أن طولها ستون ذراعا وأن رأسها رأس ثور ، وأذنها أذن فيل ، وصدرها صدر أسد . الخ .

ونحن نؤمن بأن هنـاك دابة تخرج فى آخر الزمان ، وأنهـا تـكلم الناس بكيفية يعلمهـا الله ـ عز وجل ـ أماما يتعلق بالمـكان الذى تخــرج منه هذه الدابة ، وبالهيئة التى تـكون عليها من حيث الطول والقصر . فـكل ذلك إلى علمه ـ سبحانه ـ حيث لم يرد حديث صحيح يعتمد عليه فى بيان ذلك .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنافهم يوزعون » بيان إجمـالى لحال المـكذبين بالساعة عند قيامها ، بعد بيان بعض أشراطها .

والظرف متعلق بمحذوف . والحشر : الجمع . قالوا والمراد بهذا الحشر: حشر الكافرين إلى النار ، بعد حشر الخلائق جميعا ، والفصل بينهم .

والفوج : يطلق فى الأصل على الجماعة التى تسير بسرعة ، ثم توسع فيه فصار يطلق على كل جماعة، وإن لم يكن معها مرور أو إسراع .

وقوله : « يوزعون » من الوزع ، بمعنى الكف والمنع ، يقال: وزعه عن الشيء ، إذا كفه عنه ، ومنعه من غشيانه ، والوازع فى الحرب ، هو الموكل بتنظيم الصفوف ، ومنع الاضطراب فيها .

والمعنى : واذكر ـ أيها العاقل لتعتبر وتتعظ ـ يوم « نحشر من كل أمة » من الأمم « فوجا » .

أى : جماعة من الذين كانوا يكذبون فى الدنيا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، « فهم يوزعون » أى : فهم يقفون بين أيدينا ، داخرين صاغرين ، بحيث لا يتقدم أحد منهم على أحد ، وإنما يتحركون ويساقون إلى حيث يراد منهم ، ويتجمعون جميعا ليلقوا مصيرهم المحتوم .

وأفرد ـ سبحانه ـ هؤلاء المكذبين بالذكر ـ مع الحشر يشمل الناس جميعاً ـ لإبراز الحال السيئة التى يكونون عليها عندما يجمعون للحساب دون أن يشذ منهم أحد ، ودون أن تتحرك أولهم حتى يجتمع معه آخرهم . .

ثم بين ـ سبحانه ـ أحوالهم بعد ذلك فقال : « حتى إذا جاءوا» أى: حتى إذا ما وصلوا إلى موقف الحساب « قال » الله ـ تعالى ـ لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ « أكذبتم بآياتى » الدالة على وحدانيتى وعلى أن الآخرة حق ، وأن الحساب حق وجملة « ولم تحيطوا بها علما » حالية ، لزيادة التشنيع عليهم . والتجهيل لهم .

أى : أكذبتم بآياتى الدالة على أن البعث حق ، دون أن تتفكروا فيها ، ودون أن يكون عندكم أى علم أو دليل على صحة هذا التكذيب .

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى هذا التوبيخ لهم، توبيخا أشد وأعظم، فقال: «أم ماذا كنتم تعملون».

أى: إذا لم تكونوا قد كذبتم بآياتى، فقولوا لنا ماذا كنتم تعملون، فإننا لا يخفى علينا شىء منها. ولا نعاقبكم إلا عليها.

ولا شك أن هذا التساؤل المقصود منه تأنيبهم وتقريعهم، والاستهزاء بهم، لأنه من المعروف أنهم كذبوا بآيات الله، وأنهم قد قضوا حياتهم فى الكفر والضلال، ولذا وقفوا واجمين لا يحيرون جوابا، فكانت النتيجة كما قال ـ تعالى ـ بعد ذلك: «ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون»، أى: وحل العذاب عليهم بسبب ظلمهم وجحودهم، فاستقبلوه باستسلام وذلة، دون أن يستطيعوا النطق بكلمة تنفعهم، أو بحجة يدافعون بها عن أنفسهم..

فالمقصود بوقوع القول عليهم: إقامة الحجة عليهم، ونزول العذاب بهم واستحقاقهم له بسبب ظلمهم وكفرهم.

وبعد هذا التوبيخ لهم وهم فى ساحة الحشر، انتقلت السورة إلى توبيخهم على غفلتهم حين كانوا فى الدنيا، فتقول: «ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه. والنهار مبصرا».

أى: أبلغت الغفلة والجهالة بهؤلاء المكذبين ـ أنهم يعيشون فى هذا الكون ليأكلوا ويشربوا ويتمتعوا، دون أن يعتبروا أو يتفكروا.

لقد أوجدنا لهم ليلا يسكنون فيه، وأوجدنا لهم نهارا يبتغون فيه أرزاقهم وجعلنا الليل والنهار بهذا المقدار، لتتيسر لهم أسباب الحياة والراحة، فكيف لم يهتدوا إلى أن لهذا الكون خالقا حكيما قادرا؟

«إن فى ذلك» الذى جعلناه لهم، من وجود الليل والنهار بهذه الطريقة «لآيات» بينات واضحات على وحدانيتنا وقدرتنا «لقوم يؤمنون» بأن الله ـ تعالى ـ هو الخالق لكل شىء، وهو الإله الحق لا إله سواه.

وذلك ، لأن من تأمل فى تعاقب الليل والنهار بتلك الصورة البديعة المطردة ، وفى اختلافهما طولا وقصرا ، وظلمة وضياء . . . أيقن بأن لهذا الكون إلها واحداً قادرا على إعادة الحياة إلى الأموات ، ليحاسبهم على أعمالهم .

قال الآلوسى : « وقوله : « والنهار مبصرا » أى : ليبصروا بما فيه من الإضاءة ، طرق التقلب فى أمور معاشهم ، فبولغ حيث جعل الإبصار الذى هو حال الناس حالا له ، ووصفا من أوصافه التى جعل عليها بحيث لم ينفك عنها ، ولم يسلك فى الليل هذا المسلك . لما أن تأثير ظلام الليل فى السكون ، ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى الإبصار »(١).

وقوله ـ سبحانه ـ : « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله .... » معطوف على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك « ويوم نحشر من كل أمة فوجا » والصور : القرن الذى ينفخ فيه نفخة ، الصعق والبعث ، وذلك يكون عند النفخة الثانية ، والنافخ : إسرافيل ـ عليه السلام ـ .

قال القرطبي ما ملخصه: « والصحيح فى الصور أنه قرن من نور ، ينفخ فيه إسرافيل ..

والصحيح ـ أيضا ـ فى النفخ فى الصور أنهما نفختان ، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لهما ... والمراد ـ هنا النفخة الثانية ـ أى : يحيون فزعين ، يقولون : من بعثنا من مرقدنا ، ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم »(٢) .

والمعنى واذكر ـ أيها العاقل ـ يوم ينفخ إسرافيل فى الصور ، بإذن الله ـ تعالى ـ وأمره « ففزع من فى السموات ومن فى الأرض » ، أى : خافوا

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ٢٩
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٢٤٠ .

وانزعجوا ، وأصابهم الرعب ، لشدة ما يسمعون ، وهول ما يشاهدون ، فى هذا اليوم الشديد.

وقوله : « إلا من شاء الله » استثناء ممن يصيبهم الفزع .

أى : ونفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله - تعالى - لهم عدم الفزع والخوف .

والمراد بهؤلاء الذين لا يفزعون ، قيل : الأنبياء ، وقيل: الشهداء ، وقيل : الملائكة .

ولعل الأنسب أن يكون المراد ما يعم هؤلاء السعداء وغيرهم ، ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لأنه لم يرد نص صحيح يحددهم.

وقوله - سبحانه - : « وكل أتوه داخرين » أى : وكل واحد من هؤلاء الفزعين المبعوثين عند النفخة ، أوتوا إلى موقف الحشر، للوقوف بين يدى الله - تعالى - « داخرين » أى : صاغرين أذلاء .

يقال : دخر فلان - كمنع وفرح - دخرا ودخورا . إذا صغر وذل .

وقوله - تعالى - « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب .. » معطوف على قوله - سبحانه - قبل ذلك : « ينفخ فى الصور » .

أى: فى هذا اليوم الهائل الشديد، يفزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وترى الجبال الراسيات الشامخات، وتحسبها جامدة ، أى ثابتة فى أماكنها ، والحال أنها تمر فى الجو مر السحاب، الذى تسيره الرياح سيرا حثيثا.

وهكذا تصور الآيات الكريمة أهوال ذلك اليوم هذا التصوير البديع المعجز المؤثر ، فالناس جميعاً - إلا من شاء الله - فزعين وجلين ، والجبال كذلك كأنها قد أصابها ما أصاب الناس ، حتى لكأنهما - وهى تسرع الخطى - السحاب فى خفته ومروقه وتناثره ، ثم يعقب - سبحانه - على كل ذلك بقوله « صنع الله الذى أتقن كل شىء » .

ولفظ « صنع » يجوز أن يكون منصوبا على الإغراء . أى : انظروا صنع الله - تعالى - الذى أتقن كل شىء ، فقد أحسن - سبحانه - ماخلقه وأحكمه ، وجعله فى أدق صورة ، وأكمل هيئة ، وصدق الله - تعالى - إذ يقول « وخلق كل شىء فقدره تقديراً » .

قال صاحب فتح القدير : « وانتصاب « صنع » على المصدرية . أى : صنع الله ذلك صنعا . وقيل هو مصدر مؤكد لقوله : « يوم ينفخ فى الصور » وقيل منصوب على الإغراء »(١) .

وجملة : « إنه خبير بما تفعلون » تعليل لما قبله . أى : صنع الله ماخلقه على هذا الإحكام العجيب ، والإتقان البديع ، لأنه - سبحانه - خبير بما تفعلونه ومطلع على ماتخفونه وماتعلنونه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان جزاء من أحسن ، وبيان جزاء من أساء ، وببيان منهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته فقال - تعالى - :

« مَنْ جاء بالحسنَةِ فلَهُ خيرٌ منها ، وهُم من فَزَعٍ يومئذٍ آمنُونَ (٨٩) ومَنْ جاء بالسيِّئةِ فكُبَّتْ وجُوهُهُم فى النارِ ، هَلْ تُجْزَوْنَ إلاَّ ما كنتُم تَعمَلُونَ (٩٠) إنما أُمِرتُ أنْ أَعبُدَ ربَّ هذهِ البَلْدَةِ التى حرَّمَها ولهُ كلُّ شىءٍ ، وأُمِرتُ أنْ أكُونَ مِنَ المسلِمِينَ (٩١) وأنْ أتلُوَ القرآنَ فمَنِ اهتَدَى فإنَّما يهتَدِى لِنَفْسِهِ ، ومَنْ ضَلَّ فقُلْ إنَّما أنَا مِنَ المُنذِرِينَ (٩٢) وقُلِ الحمدُ للهِ سيُرِيكُم آياتِهِ فتَعرِفُونَها ، وما ربُّكَ بِغافلٍ عمَّا تَعمَلُونَ (٩٣) » .

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ١٥٥ للشوكانى .

وقوله - سبحانه -: «من جاء بالحسنة فله خير منها» بيان وتفصيل لمظاهر علم الله - تعالى - لكل ما يفعله الناس، الذي أشير إليه قبل ذلك بقوله: «إنه خبير بما تفعلون».

والمراد بالحسنة: كل ما يقوله أو يفعله المسلم من قول طيب، ومن عمل صالح، فيشمل النطق بالشهادتين، وأداء ما كلف الله الإنسان بأدائه من فرائض وواجبات، واجتناب السيئات والشبهات.

أى: من جاء بالفعلة الحسنة، فله من الله - تعالى - ما هو خير منها عن ثواب وعطاء حسن، كما قال - تعالى - فى آية أخرى: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها».

فالمراد بما هو خير منها: الثواب الذى يمنحه الله - تعالى - لمن أتى بها.

وقوله - تعالى -: «وهم من فزع يومئذ آمنون» تقرير لما قبله، وبشارة للمؤمنين الذين جاءوا بالحسنات، بالأمان والاطمئنان.

أى: وهم من الفزع الكائن للناس فى يوم البعث والحساب، آمنون مطمئنون، كما قال - سبحانه -: «لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون»، وكما قال - تعالى -: «أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة».

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يأتى بالسيئات فقال: «ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار».

قال ابن كثير: قال ابن مسعود: وأبو هريرة، وابن عباس، وأنس ابن مالك وعطاء، وسعيد بن جبير، وغيرهم: «ومن جاء بالسيئة» أى الشرك.

ولعل مما يؤيد أن المراد بالسيئة هنا: الشرك. قوله - تعالى -: «فكبت وجوههم فى النار»، لأن هذا الجزاء الشديد، يتناسب مع رذيلة الشرك - والعياذ بالله -.

أى : ومن جاء بالفعلة الشنيعة فى السوء ، وهى الإشراك بالله ، فكبت وجوههم فى النار ، أى : فألقوا بسبب شركهم فى النـــار على وجوههم منكوسين .

يقال : كب فلان فلانا على وجهه ، وأكبه ، إذا نكسه وقلبه على وجهه.

وفى كبهم على وجوههم فى النار ، زيادة فى إهانتهم وإذلالهم لأن الوجه هو مجمع المحاسن ، ومحل المواجهة للغير .

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ «هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » لزيادة توبيخهم وتقريعهم والجملة بإضمار قول محذوف .

أى : والذين جاءوا بالأفعال السيئة فى دنياهم ، يكبون على وجوههم فى النار يوم القيامة ، ويقال لهم على سبيل الزجر والتأنيب : ما حل بكم من عذاب هو بسبب أعمالكم وشرككم .

وكون المراد بالسيئة هنا الشرك ، لا يمنع من أن الذى يرتكب السيئات من المسلمين ، يعاقب عليها ما لم يتب منها . فالله ـ تعالى ـ يقول : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب . من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا »(١) .

ثم يأمر الله ـ تعالى ـ نبيه أن يعلن الناس منهجه فى دعوته فيقول : « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها . وله كل شىء . . »

والمراد بالبلدة الذى حرمها : مكة المكرمة التى عظم الله ـ تعالى ـ حرمتها لجعلها حراما آمنا ، لا يسفك فيها دم ، ولا يصاد فيها صيد ، ولا يعضد فيها شجر . وقوله : «الذى حرمها » صفة للرب .

وخصت مكة بالذكر : تشريفا لها ، ففيها البيت الحرام الذى هو أول بيت وضع فى الأرض .

(١) سورة النساء الآية ١٢٣

أى : قل - أيها الرسول الكريم - الناس : إن الله - تعالى - أمرنى أن أخلص لله - سبحانه - عبادتى ، فهو رب البلد الحرام مكة ، ورب كل شىء ، وله جميع ما فى هذا الكون خلقا ، وملكا ، وتصرفا .

« وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن » أى : وأمرنى كذلك أن أكون من الثابتين على دينه ، المنقادين لأمره، المسلمين له وجوههم وأمرنى - أيضاً - أن أتلو القرآن على مسامعكم ، لأنه هو معجزتى الدالة على صدق .

« فمن اهتدى » إلى الحق الذى جئته به ، وبينته له « فإنما يهتدى لنفسه » أى : فإن منافع هدايته تعود إلى نفسه .

« ومن ضل » عن طريق الحق ، وأعرض عن دعوتى ، « فقل إنما أنا من المنذرين » .

أى : ومن ضل عن الهدى بعد أن نصحته وأرشدته ، فقد أمرنى ربى أن أقول له : إنما أنا من المنذرين للضالين بسوء العاقبة ، ولست عليهم بحفيظ ، أو بمكره إياهم على الإيمان .

ثم ختمت السورة الكريمة بهذا التوجيه الكريم ، للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - : « وقل الحمد لله » .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - للناس : الثناء كله ، والفضل كله ، لله - تعالى - وحده . وهو - سبحانه - « سيريكم آياته » الدالة على وحدانيته وقدرته « فتعرفونها » أى : فتعرفون صدقها .

وصدق الله - عز وجل - ففى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، يرى عباده بعض آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، فى أنفسهم ، وفى آفاق هذا الكون وما أحكم قوله - تعالى - : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الجملة التى تحمل طابع التهديد والوعيد لمن خالف أمره، فقال - تعالى - : «وماربك بغافل عما تعملون».

أى : وماربك - أيها الرسول الكريم - بغافل عما يعمله الناس، ومايقولونه لك، ومايتهمونك به، فسر فى طريقك، وبلغ ما أمرك - سبحانه - بتبليغه، فإن العاقبة لك ولأتباعك المؤمنين، أما الكافرون والمنافقون فنحن الذى سنتولى حسابهم ...

وبعد : فهذا تفسير لسورة «النمل» نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه، ونافعا لعباده.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر د. محمد سيد طنطاوى

مساء الخميس ١٥ / ٦ / ١٤٠٥ هـ

الموافق ٧ / ٣ / ١٩٨٥ م

فهرس إجمالي لتفسير « سورة النمل »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة والتمهيد	٣٨٩
١	طس ، تلك آيات القرآن . . .	٣٩٣
٧	إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا . . .	٣٩٨
١٥	ولقد آتينا داود وسليمان علما . . .	٤٠٩
٢٠	وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد . . .	٤١٥
٢٧	قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . . .	٤٢٠
٣٦	فلما جاء سليمان ، قال أتمدونن بمال . . .	٤٢٤
٣٨	قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها . . .	٤٢٦
٤١	قال نكروا لها عرشها . . .	٤٢٩
٤٥	ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا . . .	٤٣٨
٥٤	ولوطا إذ قال لقومه . . .	٥٤٥
٥٩	قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . . .	٥٤٩
٦٥	قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله . . .	٥٥٦
٧٦	إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل . . .	٥٦٤
٨٢	وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض . . .	٤٦٧
٨٩	من جاء بالحسنة فله خير منها . . .	٥٧٤

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة القصص

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء العشرون

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مَطْبَعَة السَّعَادَة
ميدان أحمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
تليفون ٩٠٧٣٧٩
ص.ب ١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة القصص، هى السورة الثامنة والعشرون فى ترتيب المصحف، وكان نزولها بعد سورة النمل. فترتيب نزولها موافق لترتيبها فى المصحف. وعدد آياتها ثمانون آية.

٢ - قال القرطبى: وهى مكية كلها فى قول الحسن، وعكرمة، وعطاء. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية نزلت بين مكة والمدينة. وقال ابن سلام: بالجحفة فى وقت هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة، وهى قوله - تعالى -: «إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد...»[1].

فعن يحيى بن سلام قال: بلغنى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - حين هاجر، نزل عليه جبريل بالجحفة وهو متوجه من مكة إلى المدينة فقال له: أتشتاق يا محمد إلى بلدك التى ولدت فيها؟ قال: نعم، فقرأ عليه: «إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد...»[2].

٣ - والمتدبر لهذه السورة الكريمة، يرى أكثر من نصفها، فى الحديث عن قصة موسى - عليه السلام -.

فهى تبدأ بقوله - تعالى -: «طسم. تلك آيات الكتاب المبين، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون....».

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٢٤٧.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٤١.

٤ - ثم تحدثت السورة الكريمة بعد ذلك ، عما ألهم الله - تعالى - به أم موسى بعد ولادتها له ، وعن حالتها النفسية بعد أن عرفت أن إبنها قد التقطه من اليم أعداؤها ، وعما قالته لأخته ، وعن فضل الله - تعالى - عليها ورحمته بها ، حيث أعاد إليها ابنها موسى ، قال - تعالى - : « فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

٥ - ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على موسى - عليه السلام - بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن قتل رجلا من أعدائه ، وكيف أنه خرج من المدينة خائفاً يترقب ، قال : « رب نجني من القوم الظالمين » .

وقد أجاب الله - تعالى - له دعاءه ، فنجاه منهم ، ويسر له الوصول إلى جهة مدين ، فعاش هناك عشر سنين ، أجيراً عند شيخ كبير من أهلها ، وتزوج موسى - عليه السلام - بعد انقضاء تلك المدة ، بإحدى ابنتي هذا الشيخ الكبير .

قال - تعالى - حاكيا بعض ما قاله هذا الشيخ لموسى : « قال إني أريد أن أنكحك إحدى إبنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك . ستجدني إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بيني وبينك ، أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ، والله على ما نقول وكيل » .

٦ - ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن موسى بعد أن قضى المدة التي تعاقد عليها مع الرجل الصالح ، وبعد أن تزوج بابنته ، سار بها متجها إلى مصر ، وفي الطريق رأى نارا ، فلما ذهب إليها ، أمره ربه - تعالى - بأن يذهب إلى فرعون وقومه ليأمرهم بإخلاص العبادة له - عز وجل - ، وذهب موسى - عليه السلام - إليهم ، وبلغهم رسالة ربه ، ولكنهم كذبوه ، فكانت عاقبتهم كما قال - تعالى - : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ... » .

٧ — وبعد هذا الحديث المفصل عن قصة موسى - عليه السلام - أخذت السورة الكريمة فى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه، فذكرت له يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأمرته أن يتحدى المشركين به، وبينت له أنه - عليه الصلاة والسلام - لا يستطيع أن يهدى من يحبه، ولكن الله هو الذى يهدى من يشاء هدايته، وحكت جانبا من أقوال المشركين وردت عليها، كما حكت جانبا من المصير السيء الذى سيكونون عليه يوم القيامة، فقال - تعالى -: «ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين، فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ...».

«ويوم يناديهم فيقول: أين شركائى الذين كنتم تزعمون. ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم، فعلموا أن الحق لله، وضل عنهم ما كانوا يفترون».

٨ — ثم عادت السورة بعد ذلك للحديث عن قصة تتعلق برجل كان من قوم موسى: وهو قارون، فأخبرتنا بجانب من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها عليه، وكيف أنه قابل هذه النعم بالجحود والكنود، دون أن يستمع إلى نصح الناصحين، أو وعظ الواعظين، وكيف أن الذين يريدون الحياة الدنيا تمنوا أن يكونوا مثله، وكيف أن الذين أوتوا العلم قالوا لهم على سبيل الزجر: «ويلكم، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا، ولا يلقاها إلا الصابرون»، وكيف أن الذين يريدون الحياة الدنيا قالوا بعد أن رأوا مصرع قارون: «لولا أن من الله علينا لخسف بنا ...».

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة، ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف فقال - تعالى -: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا، والعاقبة للمتقين».

٩ - وبعد أن انتهت السورة الكريمة، من الحديث المتنوع عن قصص

السابقين ، ومن التعقيبات الحكيمة عنها ...

بعد كل ذلك ، جاء الأمر من الله - تعالى - بإخلاص العبادة له ، والنهى عن الإشراك به ، فقال - سبحانه - « ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون » .

١٠ - وبعد ، فهذا عرض مجمل لما اشتملت عليه سورة القصص من مقاصد وأهداف ، ومن هذا العرض ، نرى أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمور من أهمها ما يأتي :

(ا) تثبيت المؤمنين ، وتقوية عزائمهم ، وتبشيرهم بأن العاقبة لهم ، وبأن الله - تعالى - سيجعل من ضعفهم قوة ، ومن قلتهم كثرة ، كما جعل من موسى وقومه أمة منتصرة بعد أن كانت مهزومة ، وغالبة بعد أن كانت مغلوبة .

نرى هذه التقوية والبشارة فى مثل قوله - تعالى - : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

(ب) أن السورة الكريمة تعطينا صورة زاخرة بالمعانى الكريمة والمؤثرة ، عن حياة موسى - عليه السلام - فهى تحكى لنا حالة أمه . وأحاسيسها ، وخلجات قلبها ، وخوفها ، عند ولادته ، وبعد ولادته ، وبعد إلقائه فى اليم ، وبعد أن علمت بالتقاط آل فرعون له ، وبعد رد الله - تعالى - إليها ابنها ، فضلا منه - سبحانه - ورحمة .

كما تحكى لنا ما جبل عليه موسى - عليه السلام - من مروءة عالية جعلته يأبى أن يرى مظلوما فلا ينصره ، ومحتاجا فلا يعينه .

فعند ما رأى امرأتين عاجزتين عن سقى غنمهما ، قال لهما : « ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ... » .

وعند ما رأى مظلوما يستنصره ، ما كان منه إلا أن نصره ، وقال : « رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين » .

(جـ) تأكيد أن هذا القرآن من عند الله ، بدليل أن هذا القرآن قد قص على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى الناس ، قصصا لا علم لهم بحقيقتها قبل أن يقصها عليهم .

قال - تعالى - : «وما كنت بجانب الغربي ، إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ..

وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك ، لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » .

(د) اهتمت السورة اهتماما واضحا ، ببيان مظاهر قدرة الله - تعالى - في هذا الكون ، هذه القدرة التي نراها في إهلاك الظالمين والمغرورين ، حتى ولو ساندتهم جميع قوى الأرض ..

كما نراها في الرد على كفار مكة الذين زعموا ، أن اتباعهم للحق يؤدي إلى تخطفهم والاعتداء عليهم ، « وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين ، وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » ..

والخلاصة ، أن سورة القصص على رأس السور المكية ، التي حضت المؤمنين على الثبات والصبر ، وساقت لهم من أخبار السابقين ، ما يزيدهم إيمانا على إيمانهم . ويقينا على يقينهم ، بأن الله - تعالى - سيجعل العاقبة لهم ...

القاهرة . مدينة نصر
صباح السبت : ٢ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ
٢٣ / ٢ / ١٩٨٥ م

المؤلف
د. محمد سيد طنطاوي

التفسير

قال الله تعالى : « طَسَم (١) تِلْكَ آياتُ الكتابِ المُبِينِ (٢) نَتْلُوا عليكَ مِنْ نَبإِ مُوسَى وفِرْعَونَ بالحقّ لقومٍ يؤمِنُونَ (٣) إنّ فِرعونَ علاَ فى الأرضِ وجَعلَ أهلها شِيعاً ، يَسْتَضعفُ طائفةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أبناءهُمْ ، ويَسْتَحْيِي نِساءهُمْ ، إنّهُ كانَ من المفسدِينَ (٤) ونُرِيدُ أَنْ نَمنّ عَلَى الذينَ اسْتُضعِفُوا فى الأرضِ ونَجعلَهُم أَئمةً ونَجْعلَهُم الوارثين (٥) ونُمكِّنَ لهُم فى الأرضِ ، ونُرِيَ فِرْعَونَ وهامانَ وجُنودَهما مِنهُم ما كانوا يَحْذَرُونَ (٦) » .

سورة القصص من السور التى افتتحت ببعض الحروف الهجائية ..

وقد رجحنا أن هذه الحروف ، قد افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم ، للإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن الكريم .

فكأن الله - تعالى - يقول لهؤلاء المعارضين فى أن القرآن من عند الله - تعالى - : ها كم القرآن ترونه مؤلفا من حروف هى من جنس الحروف الهجائية ، ومنظوما من كلام هو من جنس ماتؤلفون منه كلامكم .

فإن كنتم فى شك فى كون هذا القرآن من عند الله ، فهاتوا مثله ، أوعشر سور من مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك .

فلما عجزوا - وهم أهل الفصاحة والبيان - ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

و « تلك » اسم إشارة ، والمشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن الكريم ، ويندرج فيها آيات هذه السورة التى معنا .

والكتاب : مصدر كتب كالكتب . وأصله ضم أديم إلى آخر بالخياطة ، واستعمل عرفا في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط . والمراد به : القرآن الكريم .

والمبين : أي : الواضح المظهر للحق من الباطل ، من أبان بمعنى أظهر .

أي : تلك الآيات التي أنزلناها عليك - أيها الرسول الكريم - هي آيات الكتاب المظهر للحق من الباطل ، والموضح للخير من الشر ، والكاشف عن حقائق الأمور ، وعن قصص الأولين .

ثم بين - سبحانه - ما سيقصه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذه السورة فقال : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » .

وقوله - تعالى - « فتلو » من التلاوة بمعنى القراءة المرتلة التي يقصد منها التذكير والإرشاد .

والنبأ : الخبر العظيم المشتمل على أمور من شأنها أن يهتم الناس بها .

وموسى - عليه السلام - : هو ابن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوى ابن يعقوب - عليه السلام - وكانت ولادة موسى في حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

وفرعون : اسم كان يطلق في القديم على كل ملك لمصر ، كما يقال لملك الروم : قيصر ، ولملك اليمن : تبع .

ويرى كثير من المؤرخين أن فرعون مصر ، الذى ولد وبعث في عهده موسى عليه السلام - « منفتاح » ابن الملك رمسيس الثاني .

قال الآلوسى ما ملخصه : « والظاهر أن « من » في قوله « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون . . . » تبعيضية . والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لمفعول « نتلو » المحذوف . وقوله « بالحق » حال من فاعل « نتلو » أى :

نتلو ملتبسين بالحق ، أو من مفعوله ، أي : نتلو شيئا من نبئهما ملتبسا بالحق ... »(١) .

والمعنى : نتلو عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ تلاوة كلها حق وصدق ، شيئا عجيبا ، وخبرا هاما ، يتعلق بقصة موسى ـ عليه السلام ـ ، وبقصة فرعون .

وقوله ـ سبحانه ـ : « لقوم يؤمنون » أي : نتلو عليك هذه الآيات ، لقوم يؤمنون بها ، وينتفعون بما اشتملت عليه من هدايات وعبر وعظات .

وقوله ـ تعالى ـ : « إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعا ... » كلام مستأنف لتفصيل ما أجمله من النبأ .

وقوله « علا في الأرض » أي تكبر فيها وطغى ، من العلو بمعنى الارتفاع . والمقصود أنه جاوز كل حد في غروره وظلمه وعدوانه . والمراد بالأرض : أرض مصر وما يتبعها من بلاد .

و « شيعا » جمع شيعة ، وهم الأتباع والجماعات ، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعته .

أي : إن فرعون طغى وبغى وتجبر في الأرض ، وجعل أهلها شيعا وأتباعا له ، وصار يستعمل كل طائفة منهم ، فيما يريده من أمور دولته ، فهذه الطائفة للبناء ، وتلك للسحر ، وثالثة لخدمته ومناصرته على مايريد ...

وجملة « يستضعف طائفة منهم » لبيان حال الذين جعلهم شيعا وأحزابا . والمراد بهذه الطائفة : بنو إسرائيل .

أي : أنه بعد أن جعل أهل مملكته شيعا وأحزابا ، اختص طائفة منهم بالإذلال والقهر والظلم ، فصار يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم » أي : يذبح الذكور من بني إسرائيل بمجرد ولادتهم ، ويترك الإناث أحياء .

---

(١) تفسير الآلوسي ج ٢٠ ص ٤٢

قال الإمام الرازى ما ملخصه : «وفى ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه :

أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال ، وذلك يقتضى انقطاع النسل ...

ثانيها : أن هلاك الذكور يقتضى فساد مصالح النساء فى أمر المعيشة ، فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال ...

ثالثها : أن قتل الذكور عقب الحمل الطريق ، وتحمل الكد ، والرجاء القوى فى الانتفاع به ، من أعظم العذاب ...

رابعها : أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهم ، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات للأعداء ، وذلك نهاية الذل والهوان»[1] .

قالوا : وإنما كان فرعون يذبح الذكور من بنى إسرائيل دون الإناث ، لأن الكهنة أخبروه ، بأن مولودا سيولد من بنى إسرائيل ، يكون ذهاب ملك فرعون على يده .

وقوله - سبحانه - : «إنه كان من المفسدين» تعليل وتأكيد لما كان عليه فرعون من تجبر وطغيان .

أى : إن فرعون كان من الراسخين فى الفساد والإفساد ، ولذلك فعل مافعل من ظلم لغيره ، ومن تطاول جعله يقول للناس : «أنا ربكم الأعلى» .

ثم بين - سبحانه - ما اقتضته إرادته وحكمته ، من تنفيذ وعيده فى القوم الظالمين ، مهما احتاطوا وحذروا ، ومن إنقاذه للمظلومين بعد أن أصابهم من الظلم ما أصابهم فقال : «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٣٥٨

وقوله «نمن» من المن بمعنى التفضل ، ومن قوله - تعالى - : «لقد من الله على المؤمنين ...» أى : لقد تفضل عليهم ، وأحسن إليهم .

وقوله : «ونمكن لهم فى الأرض» من التمكين ، وأصله : أن نجعل للشىء مكانا يستقر فيه ، ويحل به . ثم استعير للتسليط وللحصول على القوة بعد الضعف ، وللعز بعد الذل .

وقوله : «يحذرون» من الحذر ، بمعنى الاحتراس والاحتراز من الوقوع فى الأمر المخيف . يقال : حذر فلان فلانا ، إذا خافه واحترس منه .

قال الشوكانى : «والواو» فى قوله «ونريد أن نمن» للعطف على جملة «إن فرعون علا فى الأرض» ، لأن بينهما تناسبا من حيث إن كل واحدة منهما ، للتفسير والبيان للنبأ . ويجوز أن تكون حالا من فاعل «يستضعف» بتقدير مبتدأ . أى : ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ... والأول أولى»(١)

والمعنى : لقد طغا فرعون وبغى ، ونحن بإرادتنا وقدرتنا «نريد أن نمن» ونتفضل على بنى إسرائيل «الذين استضعفوا فى الأرض» بأن ننجيهم من ظلمه ، وننقذهم من قهره وبغيه .

«ونجعلهم أئمة» يقتدى بهم المقتدون فى أمور الدين والدنيا ، التى يحبها الله ويرضاها .

«ونجعلهم الوارثين» للأرض المباركة ، التى نعطيهم إياها متى آمنوا وأصلحوا ، كما قال - تعالى - : «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون»(٢).

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ١٥٩
(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٧

وقوله - تعالى - « ونمكن لهم فى الأرض » أى : ونجعلهم أقوياء راسخى الأقسام فى الأرض التى نورثهم إياها ، بعد القوم الظالمين .

« ونرى فرعون وهامان وجنودهما » أى : ونطلع فرعون وهامان - وهو وزير فرعون - وجنودهما التابعين لهما « منهم » أى : من بنى إسرائيل المستضعفين فى الأرض « ما كانوا يحذرون » أى ما كانوا يحاولون دفعه واتقاءه ، فقد كان فرعون وجنده يقتلون الذكور من بنى إسرائيل ، خوفا من ظهور غلام منهم يكون هلاك فرعون على يده.

قال ابن كثير : « أراد فرعون بحوله وقوته ، أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك . بل نفذ الله - تعالى - حكمه ، بأن يكون إهلاك فرعون على يد موسى ، بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده - يا فرعون - ، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان ، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك . . . وهلاكك وهلاك جندك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلا ، هو القاهر الغالب العظيم ، الذى ما يشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن »(١) .

وهكذا تعلن السورة الكريمة فى مطلعها ، أن ما أراده الله - تعالى - لابد أن يتم ، أمام أعين فرعون وجنده ، مهما احتاطوا ومهما احترسوا ، « والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

* * *

ثم فصل - سبحانه - الحديث عن موسى - عليه السلام - فذكر ما ألهمه لأمه عند ولادته . وما قالته امرأة فرعون له عند التقاط آل فرعون لموسى ، وما كانت عليه أم موسى من حيرة وقلق ، وما قالته لأخته ، وكيف رد الله - تعالى - بفضله وكرمه موسى إلى أمه . .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٣١

لنستمع إلى السورة الكريمة ، وهي تفصل هذه الأحداث ، بأسلوبها البديع المؤثر فتقول :

« وأَوْحَينَا إلى أمِّ مُوسَى أنْ أَرْضِعِيه ، فإذَا خِفْتِ عليهِ فألقيهِ في اليَمِّ ولا تخَافي ولا تحْزَنِي ، إنَّا رَادُّوهُ إليكِ وجاعِلُوهُ مِنَ المرسَلِينَ (٧) فَالتَقَطَهُ آلُ فِرعَونَ لِيكُونَ لهُم عَدوًّا وحزَنًا ، إنَّ فِرعَونَ وهامَانَ وَجُنودَهما كانوا خاطِئِينَ (٨) وقالتِ امرأةُ فرعَونَ قرةُ عَينٍ لِي وَلَكَ ، لا تقتـلوهُ عسَى أن ينفَعَنَا أو نتَّخِذَهُ ولداً وهُمْ لايَشعُرُونَ (٩) وأصبَحَ فؤَادُ أُمِّ مُوسَى فارِغاً إنْ كادَتْ لَتُبدِي بِهِ ، لولاَ أنْ رَبَطْنَا عَلَى قلبِها لِتكُونَ مِنَ المؤمنِينَ (١٠) وقالتْ لأختِهِ قُصِّيه ، فَبَصُرَتْ بهِ عَنْ جُنُبٍ وهُم لا يَشعُرُونَ (١١) وحَرَّمنا عليهِ المَراضِعَ من قبلُ ، فقالتْ هَلْ أَدُلُّكم عَلَى أَهْلِ بيْتٍ يكفُلُونَه لكُم وهُمْ له ناصِحُونَ (١٢) فرَدَدْنَاهُ إلى أُمِّهِ كَيْ تقرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تحزنْ ، ولِتَعْلَمَ أنَّ وَعدَ اللهِ حَقٌّ ، ولـكنَّ أكثَرَهُمْ لا يعلَمُونَ (١٣) » .

قال الإمام الرازي : « اعلم أنه ـ تعالى ـ لما قال : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا » ، ابتدأ بذكر أوائل نعمه في هذا الباب فقال : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . . »[1] .

والوحي إلى أم موسى ، يجوز أن يكون عن طريق الإلهام ، كما في قوله ـ تعالى ـ : « وأوحى ربك إلى النحل . . » أو عن طريق المنام ، أو عن طريق إرسال ملك أخبرها بذلك .

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٦ ص ٤٢٦ .

قال الآلوسى : «والظاهر أن الإيحاء إليها كان بإرسال ملك ، ولا ينافى ذلك الإجماع على عدم نبوتها ، لما أن الملائكة - عليهم السلام - قد ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم . .

والظاهر - أيضا - أن هذا الإيحاء كان بعد الولادة . . وقيل : كان قبلها . . .»(1) .

و «أن» فى قوله «أن أرضعيه» مفسرة ، لأن الوحى فيه معنى القول دون حروفه .

والخوف : حالة نفسية تعترى الإنسان ، فتجعله مضطربة المشاعر ، لتوقعه حصول أمر يكرهه . .

والحزن : اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع مايكرهه ، كموت عزيز لديه . أو فقده لشىء يحبه . .

وفى الكلام حذف يعرف من السياق ، والتقدير : وحملت أم موسى به فى الوقت الذى كان فرعون يذبح الأبناء ، ويستحيى النساء ، وأخفت حملها عن غيرها ، فلما وضعته أصابها ماأصابها من خوف وفزع على مصير ابنها ، وهنا ألهمناها بقدرتنا وإرادتنا ، وقذفنا فى قلبها أن أرضعيه فى خفاء وكتمان «فإذا خفت عليه» من فرعون وحاشيته أن يقتلوه كما قتلوا غيره من أبناء بنى إسرائيل «فألقيه فى اليم» أى : فى البحر والمراد به نهر النيل ، وسمى بحرا لاتساعه ، وإن كان الغالب إطلاق البحر على المياه غير العذبة .

«ولاتخافى ولاتحزنى» أى : ولا تخافى عليه من حصول مكروه له ، ولا تحزنى لمفارقته لك ، فهو فى رعايتنا وحمايتنا ، ومن رعاه الله - تعالى - وحماه ، فلا خوف عليه ولا حزن .

---

(1) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ٤٥

وجملة « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » تعليل للنهي عن الخوف والحزن ، وتبشير لها بأن ابنها سيعود إليها، وسيكون من رسل الله - عز وجل -.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما المراد بالخوفين - في الآية - حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر ؟

قلت : أما الأول ، فالخوف عليه من القتل ، لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته ، فينموا عليه ، وأما الثاني : فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ، ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان .

فإن قلت : ما الفرق بين الخوف والحزن ؟ قلت : الخوف ، غم يلحق الإنسان لشيء متوقع .

والحزن : غم يلحقه لشيء وقع ، فنهيت عنهما جميعا وأمنت بالوحي إليها ، ووعدت بما يسليها، ويطمئن قلبها ، ويملؤها غبطة وسرورا ، وهو رده إليها ، وجعله من المرسلين . . »(١)

وهكذا نجد الآية الكريمة قد اشتملت على أبلغ الأساليب وأبدعها ، في بيان قدرة الله - تعالى - ورعايته لمن يريد رعايته .

قالوا : مدح الأصمعي امرأة لإنشادها شعرا حسنا ، فقرأت هذه الآية الكريمة ثم قالت له : أبعد هذه الآية فصاحة ، لقد اشتملت على أمرين وهما « أرضعيه وألقيه » ونهيين وهما « لا تخافي ولا تحزني » وخبرين « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » وبشارتين في ضمن الخبرين، وهما: الرد والجعل المذكوران .

والفاء في قوله : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا . . . » هي الفصيحة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٣٩٣ .

والالتقاط : وجود الشيء والحصول عليه من غير طلب ولا قصد .

والمراد بآل فرعون : جنوده وأتباعه الذين عثروا على التابوت الذى به موسى ، وحملوه إلى فرعون . والحزن ـ بالتحريك وبضم فسكون ـ نقيض السرور ، وفعله كفرح .

يقال : حزنه الأمر وأحزنه ، أى : جعله حزينا .

واللام فى قوله : (ليكون . .) هى لام العاقبة والصيرورة .

قال القرطبى : « قوله ـ تعالى ـ (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) لما كان التقاطه إياه يؤدى إلى كونه عدوا لهم وحزنا ، فاللام فى (ليكون) لام العاقبة والصيرورة ، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين ، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوا وحزنا ، فذكر الحال بالمآل كما فى قول الشاعر :

وللمنايا تربى كل مرضعة ودورنا لخراب الدهر نبنيها

أى : فعاقبة البناء : الخراب ، وإن كان فى الحال مفروحا به»(١) .

ويرى بعضهم أن اللام هنا يصح أن تكون للتعليل ، بمعنى ، أن الله ـ تعالى ـ بمشيئته وإرادته فرعون وآله ، لالتقاط موسى ، ليجعله لهم عدوا وحزنا ، فكأنه ـ سبحانه ـ يقول : قدرنا عليهم التقاطه بحكمتنا وإرادتنا ، ليكون لهم عدوا وحزنا .

وإلى هذا المعنى أشار الإمام ابن كثير بقوله : قال محمد بن إسحاق وغيره اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل ، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ـ أى : لم يريدوا بالتقاطه العداوة والحزن ـ ، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى ماقالوا ، ولكن إذا نظرنا إلى معنى السياق ، فإنه تبقى اللام للتعليل ، لأن معناه : أن الله ـ تعالى ـ قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوا وحزنا ، فيكون

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٢٥٢ .

أبلغ فى إبطال حذرهم منه ...»(١)

وعع وجاهة الرأيين، إلا أننا نميل إلى الرأى الثانى، لأنه - كما قال الإمام ابن كثير - أبلغ فى إبطال حذرهم منه، ولأن قوله - تعالى - : «إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين» يشير إلى أن اللام للتعليل.

والمعنى: ونفذت أم موسى ما أوحيناه إليها، فأرضعت إبنها موسى، وألقته فى اليم حين خافت عليه القتل، فالتقطه آل فرعون من اليم، ليكون لهم عدوا وحزنا، وليعلموا أن ماأردناه لابدأن يتم مهما إحترسوا واحتاطوا وحذروا، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقوله - تعالى - «إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين» تعليل لما قبله، و«خاطئين» أى: مرتكبين للخطيئة التى هى الذنب العظيم، كقوله - تعالى - فى قوم نوح - عليه السلام - : «مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا ...».

وكقوله - سبحانه - فى شأن الكافرين «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته. فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

أى: فعلنا ما فعلنا من جعل موسى عدوا وحزنا لفرعون وآله، لأن فرعون، ووزيره هامان، وجنودهما الذين يناصرونهما، كانوا مرتكبين للذنوب العظيمة فى كل ما يأتون ويذرون، ومن مظاهر ذلك قتلهم لذكور بنى إسرائيل، وإبقاؤهم لإناثهم.

وقوله - سبحانه : «وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ...» بيان لما أنطق الله به امرأة فرعون للدفاع عن موسى - عليه السلام -.

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٠٢.

قال الجمل : « وامرأة فرعون هى : آسيا بنت مزاحم، وكانت من خيار النساء، ومن بنات الأنبياء، وكانت أما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم»[١]

ويكفى فى مدحها قوله - تعالى - : « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله، ونجنى من القوم الظالمين »[٢]

أى : وقالت امرأة فرعون بعد أن أخرج موسى من التابوت ، ورأته بين أيدى فرعون وآله : « قرة عين لى ولك » أى : هذا الطفل هو قرة عين لى ولك ، أى : هو محل السرور والفرح لعينى ولعينك يا فرعون .

فالجملة الكريمة كناية عن المسرور به ، « إذ لفظ » « قرة » مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار ، وذلك لأن العين إذا رأت ما تحبه ، إستقر نظرها عليه ، وإنشغلت به عن غيره .

ثم أضافت إلى ذلك قولها « لا تقتلوه » والخطاب لفرعون وجنده .

ثم علات النهى عن قتله بقولها : « عسى أن ينفعنا » فى مستقبل حياتنا ، فنجنى من ورائه خيرا .

« أو نتخذه ولدا » لنا ، فإن هيئته وصورته تدل على النجابة والجمال واليمن وهكذا شاءت إرادة الله - تعالى - ، أن نجعل امرأة فرعون ، سببا فى إنقاذ موسى من القتل ، وفى أن يعيش فى بيت فرعون ، ليكون له فى المستقبل عدوا وحزنا .

وقوله - تعالى - : « وهم لا يشعرون » جملة حالية ، أى: فعلوا ما فعلوا والحال أنهم لا يشعرون أن هلاكهم سيكون على يديه .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٣٧ .

(٢) سورة التحريم آية ١١ .

وأصل الربط : الشد والتقوية للشيء ، ومنه قولهم : فلان رابط الجأش، أي : قوى القلب .

وقوله - تعالى - « لتكون من المؤمنين » علة لتثبيت قلبها وتقويته، فهو متعلق بقوله : « وربطنا » .

أي : ربطنا على قلبها لتكون من المصدقين بوعد الله - تعالى - ، وأنه سيرد إليها ابنها ، كى تقر عينها ولا تحزن .

ثم بين - سبحانه - ما فعلته أم موسى بعد ذلك فقال : « وقالت لأخته قصيه . . » أى لم تسكت أم موسى بعد أن علمت بالتقاط آل فرعون له ، بل قالت لأخت موسى « قصيه » أى : تتبعى أثره وخبره وما آل إليه أمره . يقال : قص فلان أثر فلان فهو يقصه ، إذا تتبعه ، ومنه القصص للأخبار المتتبعة .

والفاء فى قوله - سبحانه - : « فبصرت به عن جنب . . » هى الفصيحة . والجنب : الجانب .

أى: فقصت أخت موسى أثره ، فأبصرته عن جانب منها، وكأنها لا تريد أن تطلع أحدا على أنها تبحث عن أخيها ، وتتبع أثره، والجار والمجرور حال من الفاعل ، أى: أبصرت به مستخفية كائنة عن جنب .

قال الآلوسى : « عن جنب » أى عن بعد ، وقيل عن شوق إليه . . . وقال الكرمانى : «جنب» صفة لموصوف محذوف، أى عن مكان جنب بعيد وكأنه من الأضداد ، فإنه يكون بمعنى القريب - أيضا - كالجار الجنب . وقيل عن جانب . . وقيل: النظر عن جنب، أن تنظر الشيء كأنك لا تريده[1] .

والتعبير بقوله - تعالى - « فبصرت به عن جنب » يشعر بأن أخت موسى أبصرت أخاها إبصارا فيه مخادعة لآل فرعون ، حتى لا تجعلهم يشعرون بأنها تبحث عنه .

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ٢٠ ص ٥٠

والظاهر أن هذه الجملة من كلام الله - تعالى - ، وليست حكاية لما قالته امرأة فرعون .

ثم صورت السورة الكريمة تصويراً بديعا مؤثراً ، ما كانت عليه أم موسى من لهفة وقلق ، بعد أن فارقها إبنها ، فقال-تعالى- : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ... » أى : وبعد أن ألقت أم موسى به في اليم ، والتقطه آل فرعون ، وعلمت بذلك أصبح قلبها وفؤادها خاليا من التفكير فى أى شيء فى هذه الحياة ، إلا فى شيء واحد وهو مصير إبنها موسى - عليه السلام - .
وفى هذا التعبير مافيه من الدقة فى تصوير حالتها النفسية ، حتى لكأنها صارت فاقدة لكل شيء فى قلبها سوى أمر إبنها وفلذة كبدها .

قال ابن كثير : « قوله - تعالى - : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا » من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى ، وقتادة ... وغيرهم »[1] .
و « إن » فى قوله - تعالى - : « إن كادت لتبدى به » هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، وتبدى بمعنى تظهر ، من بدا الشيء يبدوا وبداء إذا ظهر ظهورا واضحا .
والضمير فى « به » يعودا إلى موسى - عليه السلام - .
أى: وصار فؤاد أم موسى فارغا من كل شيء سوى التفكير فى مصيره ، وإنها كادت لتصرح للناس بأن الذى التقطه آل فرعون، هو إبنها ، وذلك لشدة دهشتها وخوفها عليه من فرعون وجنده .
وجواب الشرط فى قوله - تعالى - : « لولا أن ربطنا على قلبها » محذوف دل عليه ماقبله .
أى : لولا أن ربطنا على قلبها بقدرتنا وإرادتنا . بأن ثبتناه وقويناه، لأظهرت للناس أن الذى التقطه آل فرعون هو إبنها .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٣

ويشهد لذلك قوله - تعالى - «وهم لا يشعرون» أي: وهم - أي آل فرعون - لا يشعرون أنها أخته تبحث عنه وتتبع أخباره.

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر حكمته وقدرته وتدبيره لأمر موسى كي يعود إلى أمه، فقال - تعالى -: «وحرمنا عليه المراضع من قبل...».

والمراد بالتحريم هنا: المنع، والمراضع: جمع مرضع - بضم الميم وكسر الضاد - وهى المرأة التى ترضع.

أى: ومنعنا موسى بقدرتنا وحكمتنا من أن يرضع من المرضعات. وكان ذلك من قبل أن تعلم بخبره أمه وأخته.

قال ابن كثير: قوله - تعالى -: «وحرمنا عليه المراضع من قبل» أى: تحريما قدريا، وذلك لكرامة الله له، وصانه عن أن يرتضع غير ثدى أمه، ولأنه - سبحانه - جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه، لترضعه وهى آمنة بعد أن كانت خائفة...»(١).

وقوله - سبحانه -: «فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون» حكاية لما قالته أخت موسى لفرعون وحاشيته، والاستفهام للتخصيص.

أى: وبعد أن بصرت أخت موسى به عن جنب، ورأت رفضه للمراضع، وبحثهم عمن يرضعه، قالت لهم: ألا أدلكم «على أهل بيت يكفلونه لكم» أى: يقومون بتربيته وإرضاعه من أجل راحتكم وراحته، «وهم له ناصحون» أى: وهم لا يمنعونه ما ينفعه فى تربيته وغذائه، ولا يقصرون فيما يعود عليه بالخير والعافية.

وقوله - سبحانه -: «فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن...» معطوف

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٢٢٣

على كلام محذوف، والتقدير: فسمعوا منها ماقالت، ودلتهم على أمه، فرددناه إليها، كى يطمئن قلبها وتقر عينها برجوع ولدها إليها، ولا تحزن لفراقه.

«ولتعلم أن وعد الله - تعالى - حق»، أى: أن وعده - سبحانه - لا خلف فيه، بل هو كائن لا محالة.

«ولكن أكثرهم لا يعلمون»، أى: ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة حق العلم، ولذا يستعجلون الأمور، دون أن يفطنوا إلى حكمته - سبحانه - فى تدبير أمر خلقه.

وبذلك نرى هذه الآيات قد صاغت لنا بأبلغ أسلوب، جانبا من حياة موسى - عليه السلام -، ومن رعاية الله - تعالى - له، وهو مازال فى سن الرضـــاعة.

* * *

ثم قص علينا - سبحانه - جانبا من حياة موسى - عليه السلام - بعد أن بلغ أشده واستوى، فقال - تعالى -:

«ولمَّا بلَغَ أشُدَّهُ واستَوى، آتيناهُ حُكْماً وعِلماً، وكذلكَ نَجْزِى المحسنينَ (١٤) ودخَلَ المدينةَ عَلَى حينِ غَفْلَةٍ من أهلِهاَ فوجدَ فيها رَجلَين يقتَتِلاَنِ، هـذَا من شيعتهِ وهذَا من عدُوِّه، فاستغاثَهُ الذى من شيعتهِ عَلَى الذى من عَدُوِّه، فوكزَهُ موسَى فقضَى عليهِ، قالَ هذَا من عمَلِ الشَّيطانِ، إنَّه عَدُوٌّ مُضِلٌّ مبينٌ (١٥) قالَ ربِّ إنِّى ظلمتُ نَفْسى فاغفِرْ لِى فغفَرَ لهُ، إنَّهُ هُوَ الغفُور الرحيمُ (١٦) قالَ ربِّ بما أنعمتَ عَلَىَّ فلَنْ أكونَ ظهيراً للمُجرمينَ (١٧) فأصبح فى المدينة خائفاً يترقبُ فإذَا الذِى استنْصرهُ بالأمْسِ يَسْتصرِخُه، قالَ لهُ موسَى

إنّكَ لَغوِىٌّ مُبِين (١٨) فلمَّا أنْ أرادَ أنْ يَبْطِش بالَّذِى هوَ عدوٌّ لهما قالَ يامُوسَى أتُرِيدُ أنْ تقتُلَنِى كماقتلتَ نفساً بالأمسِ، إنْ تُرِيدُ إلاّ أنْ تكونَ جبَّاراً فى الأرضِ، وما تُريدُ أنْ تكُونَ مِنَ المُصلِحِينَ (١٩) وجاءَرجُلٌ مِنْ أقصَى المدِينةِ يسعَى قالَ ياموسَى إنّ الملأَ يأتمِرُونَ بكَ لِيقتُلوكَ، فاخرُج إنى لكَ من النَّاصِحينَ (٢٠) فخرجَ منها خائفاً يترقبُ قالَ ربِّ نجِّنِى مِنَ القومِ الظَّالمينَ (٢١) » .

وقوله - سبحانه - : « ولما بلغ أشده واستوى . . . » بيان لجانب من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها على موسى فى تلك المرحلة من حياته .

و « لما » ظرف بمعنى حين . والأشد : قوة الإنسان ، واشتعال حرارته من الشدة بمعنى القوة والارتفاع . يقال : شد النهار إذا ارتفع . وهو مفرد جاء بصيغة الجمع ولا واحد له من لفظه .

وقوله : « واستوى » من الاستواء بمعنى الاكتمال وبلوغ الغاية والنهاية .

أى : وحين بلغ موسى - عليه السلام - منتهى شدته وقوته ، واكتمال عقله ، قالوا : وهى السن التى كان فيها بين الثلاثين والأربعين .

« آتيناه » بفضلنا وقدرتنا « حكما » أى : حكمة . وهى الإصابة فى القول والفعل ، وقيل : النبوة .

« وعلما » أى : فقها فى الدين، وفهما سليما للأمور، وإدراكا قويما لشئون الحيـاة .

وقوله - سبحانه - : « وكذلك نجزى المحسنين » بيـــان لسنة من سننه - تعالى - التى لاتتخلف .

أى : ومثل هذا الجزاء الحسن ، والعطاء الكريم ، الذى أكرمنا به موسى

وأمه نعطى ونجازى المحسنين . الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - به . فكل من أحسن فى أقواله وأعماله ، أحسن الله - تعالى - جـزاءه ، وأعطاه الكثير من آلائه.

ثم حكى - سبحانه - بعض الأحداث التى تعرض لها موسى - عليه السلام - فى تلك الحقبة من عمره فقال : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها . . . » .

والمراد بالمدينة : مصر . وقيل : ضاحية من ضواحيها ، كعين شمس ، أو منف

وجملة « على حين غفلة من أهلها » حال من الفاعل . أى : دخلها مستخفيا

قيل : والسبب فى دخوله على هذه الحالة ، أنه بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فخافهم وخافوه ، فاختفى وغاب ، فدخلها متنكرا »[1].

أى : وفى يوم من الأيام ، وبعد أن بلغ موسى سن القوة والرشد ، دخل المدينة التى يسكنها فرعون وقومه ، « على حين غفلة من أهلها » أى : دخلها مستخفيا فى وقت كان أهلها غافلين عما يجرى فى مدينتهم من أحداث ، بسبب راحتهم فى بيوتهم فى وقت القيلولة ، أو ما يشبه ذلك .

« فوجد » موسى « فيها » أي فى المدينة « رجلين يقتتلان » أى : يتخاصمان ويتنازعان فى أمر من الأمور .

« هذا من شيعته » أى : أحد الرجلين كان من طائفته وقبيلته . أى : من بنى إسرائيل : « وهذا من عدوه » أى : والرجل الثانى كان من أعدائه وهم القبط الذين كانوا يسومون بنى إسرائيل سوء العذاب .

« فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه » أى : فطلب الرجـل الإسرائيلى من موسى ، أن ينصره على الرجل القبطى .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ٥٢

والاستغاثة: طلب الغوث والنصرة، ولتضمنه معنى النصرة عدى بعلى.

«فوكزه موسى فقضى عليه»، والفاء هنا فصيحة. والوكز: الضرب بجميع الكف.

قال القرطبي: «والوكز واللكز واللهز بمعنى واحد، وهو الضرب بجميع الكف...»(١).

أي: فاستجاب موسى لمن استنصر به، فوكز القبطي، أي: فضربه بيده مضمومة أصابعها في صدره، «فقضى عليه» أي: فقتله. وهو لا يريد قتله، وإنما كان يريد دفعه ومنعه من ظلم الرجل الإسرائيلي.

والتعبير بقوله - تعالى -: «فوكزه موسى فقضى عليه» يشير إلى أن موسى - عليه السلام - كان على جانب عظيم من قوة البدن، كما يشير - أيضا - إلى ما كان عليه من مروءة عالية، حملته على الانتصار للمظلوم بدون تقاعس أو تردد.

ولكن موسى - عليه السلام - بعد أن رأى القبطي جثة هامدة، استرجع وندم، وقال: «هذا من عمل الشيطان» أي: قال موسى: هذا الذي فعلته وهو قتل القبطي، من عمل الشيطان ومن وسوسته. ومن تزيينه . .

«إنه» أي: الشيطان «عدو» للإنسان «مضل» له عن طريق الحق «مبين» أي: ظاهر العداوة والإضلال.

ثم أضاف إلى هذا الندم والاسترجاع، ندما واستغفارا آخر فقال: «رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، فغفر له ...».

أي: قال موسى - عليه السلام - بعد قتله القبطي بدون قصد - مكررا الندم والاستغفار: يارب إني ظلمت نفسي، بتلك الضربة التي ترتب عليها

(١) تفسير القرطبي جـ ٣ ص ٢٦٠

الموت، فاغفر لى ذنبى، «فغفر» الله - تعالى -، «له» ذنبه، «إنه» - سبحانه - «هو الغفور الرحيم»، ثم أكد موسى - عليه السلام - المرة الثالثة، توبته إلى ربه، وشكره إياه على نعمه، فقال: «رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرًا للمجرمين».

والظهير: المعين لغيره والناصر له. يقال: ظاهر فلان إذا أعانه. ويطلق على الواحد والجمع. ومنه قوله - تعالى -: «والملائكة بعد ذلك ظهير».

قال صاحب الكشاف: «قوله «بما أنعمت على» يجوز أن يكون قسما جوابه محذوف، تقديره: أقسم بإنعامك على بالمغفرة لأتوبن «فلن أكون ظهيرا للمجرمين»، وأن يكون استعطافا، كأنه قال: رب اعصمنى بحق ما أنعمت على من المغفرة فلن أكون - إن عصمتنى - ظهيرا للمجرمين.

وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون. وانتظامه فى جملته، وتكثيره سواده، حيث كان يركب بركوبه، كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون. وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كظاهرة الإسرائيلى المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له ...»(١).

وهذه الضراعة المتكررة إلى الله - تعالى - من موسى - عليه السلام -، تدل على نقاء روحه، وشدة صلته بربه، وخوفه منه، ومراقبته له - سبحانه -، فإن من شأن الأخيار فى كل زمان ومكان، أنهم لا يعينون الظالمين، ولا يقفون إلى جانبهم ...

قال القرطبى: «ويروى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته، ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة، يوم تزل الأقدام، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه، أزل الله قدميه على

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٩٨

الصراط يوم تدحض فيه الأقدام »(1) .

ثم بين - سبحانه - ما كان من أمر موسى بعد هذه الحادثة فقال : « فأصبح في المدينة خائفا يترقب ... »

أى : واستمر موسى - عليه السلام - بعد قتله للقبطى ، يساوره القلق ، فأصبح يسير في طرقات المدينة التى حدث فيها القتل ، « خائفا » من وقوع مكروه به « يترقب » ماسيسفر عنه هذا القتل من اتهامات وعقوبات ومساءلات .

والتعبير بقوله « خائفا يترقب » يشعر بشدة القلق النفسى الذى أصاب موسى - عليه السلام - في أعقاب هذا الحادث ، كما يشعر - أيضا - بأنه - عليه السلام - لم يكن في هذا الوقت على صلة بفرعون وحاشيته ، لأنه لو كان على صلة بهم ، ربما دافعوا عنه ، أوخففوا المسألة عليه .

« وإذا » في قوله - تعالى - : « فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه .. » فجائيـــة .

ويستصرخه : أى : يستغيث به ، مأخوذ من الصراخ وهو رفع الصوت ، لأن من عادة المستغيث بغيره أن يرفع صوته طالبا النجدة والعون .

أى : وبينما موسى على هذه الحالة من الخوف والترقب ، فإذا بالشخص الإسرائيلى الذى نصره موسى بالأمس ، يستغيث به مرة أخرى من ، قبطى آخر ويطلب منه أن يعينه عليه .

وهنا قال موسى - عليـــه السلام - لذلك الإسرائيلى المشاكس : « إنك لغوى مبين » .

والغوى : فعيل من أغوى يغوى ، وهو بمعنى مغو ، كالوجيع والأليم بمعنى : الموجع والمؤلم . والمراد به هنا : الجاهل أو الخائب أو الضال عن الصواب .

(1) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٢١٣

أى : قال له موسى بحدة وغضب: إنك لضال بين الضلال والجاهل واضح الجهالة ، لأنك تسببت فى قتله لرجل بالأمس، وتريد أن تحملنى اليوم على أن أفعل مافعلته بالأمس ، ولأنك لجهلك تنازع من لاقدرة لك على منازعته أو مخاصمته .

ومع أن موسى - عليه السلام - قد قال للإسرائيلى « إنك لغوى مبين » إلا أن همته العالية ، وكراهيته للظلم ، وطبيعته التى تأبى التخلى عن المظلومين كل ذلك دفعه إلى إعداد نفسه لتأديب القبطى ، ويحكى القرآن ذلك فيقول: « فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما . . » .

والبطش : هو الأخذ بقوة وسطوة . يقال : بطش فلان ، إذا ضربه بعنف وقسوة .

أى : فحين هيأ موسى - عليه السلام - نفسه للبطش بالقبطى الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلى ، حيث لم يكن على دينهما .

« قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » .

ويرى بعض المفسرين ، أن القائل لموسى هذا القول ، هو الإسرائيلى ، الذى طلب من موسى النصرة والعون ، وسبب قوله هذا : أنه توهم أن موسى يريد أن يبطش به دون القبطى ، عندما قال له : « إنك لغوى مبين » .

فيكون المعنى : قال الإسرائيلى لموسى بخوف وفزع : ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا - هى نفس القبطى - بالأمس ، وماتريد بفعلك هذا إلا أن تكون « جبارا فى الأرض » أى : ظالما قتالا للناس فى الأرض ، « وماتريد أن تكون من المصلحين » الذين يصلحون ، بين الناس ، فتدفع التخاصم بالتى هى أحسن .

ويرى بعضهم أن القائل لموسى هذا القول هو القبطى ، لأنه فهم من قول

موسى للإسرائيلى « إنك لغوى مبين » أنه ـ أى : موسى ـ هو الذى قتل القبطى بالأمس .

وقد رجح الإمام الرازى هذا الوجه الثانى فقال: « والظاهر هذا الوجه ، لأنه ـ تعالى ـ قال : « فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدولهما قال ياموسى» فهذ القول إذن منه ـ أى من القبطى ـ لا من غيره . وأيضا قوله : « إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض » لايليق إلا بأن يكون قولا من كافر ـ وهو القبطى ـ . . »(١)

وما رجحه الإمام الرازى هو الذى نميل إليه ، وإن كان أكثر المفسرين قدرجحوا الرأى الأول ، وسبب ميلنا إلى الرأى الثانى ، أن السورة الكريمة قد حكت ما كان عليه فرعون وملؤها من علو وظلم واضطهاد لبنى إسرائيل، ومن شأن الظالمين أنهم يستكثرون الدفاع عن المظلومين ، بل و يتهمون من يدافع عنهم بأنه جبار فى الأرض ، لذا نرى أن القائل هذا القول لموسى ، هو القبطى ، وليس الإسرائيلى ـ والله أعلم بمراده ـ .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى . . . » معطوف على كلام محذوف يرشد إليه السياق .

والتقدير : وانتشر خبر قتل موسى للقبطى بالمدينة ، فأخذ فرعون وقومه فى البحث عنه لينتقموا منه . وجاء رجل ـ قيل هو مؤمن من آل فرعون ـ من أقصى المدينة ، أى : من أطرافها وأبعد مكان فيها « يسعى » أى : يسير سيرا سريعا نحو موسى ، فلما وصل إليه قال له : « ياموسى إن الملأ » وهم زعماء قوم فرعون .

« يأتمرون بك ليقتلوك » أى : يتشاورون فى أمرك ليقتلوك ، أو يأمر بعضهم بعضا بقتلك ، وسمى التشاور بين الناس ائتمارا ، لأن كلا من المتشاورين

يأمر الآخر ، ويأتمر بأمره . ومنه قوله - تعالى - : « وأتمروا بينكم بمعروف » أي : وتشاوروا بينكم بمعروف .

وقوله : « فاخرج إني لك من الناصحين » أي : قال الرجل لموسى : مادام الأمر كذلك ياموسى فاخرج من هذه المدينة ، ولا تعرض نفسك للخطر ، إنى لك من الناصحين بذلك ، قبل أن يظفروا بك ليقتلوك .

واستجاب موسى لنصح هـذا الرجل « فخرج منها » أى : من المدينة ، حالة كونه « خائفا » من الظالمين « يترقب » التعرض له منهم ، ويعد نفسه للتخفى عن أنظارهم .

وجعل يتضرع إلى ربه قائلا : « رب نجنى » بقدرتك وفضلك « من القوم الظالمين » بأن تخلصنى من كيدهم ، وتحول بينهم وبينى ، فأنا ماقصدت بما فعلت ، إلا دفع ظلمهم وبغيهم ..

وإلى هنا تكون السورة الكريمة ، قد قصت علينا هذا الجانب من حياة موسى ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن دفع بهمته الوثابة ظلم الظالمين ، وخرج من مدينتهم خائفاً يترقب ، ملتمسا من خالقه - عز وجل - النجاة من مكرهم .

* * *

ثم حكت لنا السورة الكريمة بعد ذلك ، ما كان منه عند ماتوجه إلى جهة مدين ، وما حصل له فى تلك الجهة من أحداث ، فقال - تعالى - :

« ولمَّا توجَّهَ تلقاءَ مَدْينَ قالَ عسَى ربى أنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السبيلِ (٢٢) ولمَّا وردَ ماءَ مَدْيَنَ وجد عليهِ أُمةً من النَّاسِ يَسْقُونَ ، ووجَد من دُونِهِم امرأتَين تَذُودَانِ ، قالَ ما خَطبُكُماَ ، قالَتَا لاَ نَسْقِى

حتَّى يصدِرَ الرِّعَاءُ وأبونَا شيخٌ كبيرٌ (٢٣) فسقى لهما ثُمَّ تولَّى إلَى الظِّلِّ، فقالَ ربِّ إنِّي لما أنزَلتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فقيرٌ (٢٤) فَجاءَتْهُ إحدَاهما تمشِي عَلَى استحياءٍ قالَتْ : إنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ليجزِيَكَ أجْرَ ما سقيتَ لنَا ، فلمَّا جاءَهُ وقصَّ عليهِ القَصَصَ قالَ لا تخَفْ ، نجوتَ من القَوْمِ الظالمِين (٢٥) قالتْ إحداهُما يا أَبتِ استأجِرْهُ إنَّ خيرَ مَن استأجَرتَ القويُّ الأمِينُ (٢٦) قالَ إنِّي أريدُ أنْ أُنكِحَكَ إحدَى ابنَتَيَّ هَاتينِ عَلَى أَنْ تَأجُرَنِي ثمانِيَ حِجَجٍ ، فإنْ أتمَمْتَ عشراً فمِنْ عندِكَ وما أُريدُ أنْ أشُقَّ عليكَ ستَجِدُنِي إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّالحينَ (٢٧) قالَ ذلكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، أيَّما الأجلَيْنِ قَضَيْتُ فلا عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَاللهُ عَلَى ما نقُولُ وكِيلٌ (٢٨) » .

ولفظ « تلقاء » فى قوله ـ تعالى ـ : « ولما توجه تلقاء مدين » منصوب على الظرفية المكانية ، وهو فى الأصل اسم مصدر . يقال : دارى تلقاء دار فلان ، إذا كانت محاذية لها .

و « مدين » اسم لقبيلة شعيب ـ عليه السلام ـ أو القرية التى كان يسكن فيها ، سميت بذلك نسبة إلى مدين بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

وإنما توجه إليها موسى ـ عليه السلام ـ ، لأنها لم تكن داخلة تحت سلطان فرعون وملئه .

أى : وبعد أن خرج موسى من مصر خائفا يترقب ، صرف وجهه إلى جهة قرية مدين التى على أطراف الشام جنوبا ، والحجاز شمالا .

صرف وجهه إليها مستسلما لأمر ربه ، متوسلا إليه بقوله : « عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » .

أى : قال على سبيل الرجاء فى فضل الله - تعالى - وكرمه: عسى ربى الذى خلقنى بقدرته ، وتولانى برعايته وتربيته ، أن يهدينى ويرشدنى إلى أحسن الطرق التى تؤدى بى إلى النجاة من القوم الظالمين .

فالمراد بسواء السبيل : الطريق المستقيم السهل المؤدى إلى النجاة ، من إضافة الصفة إلى الموصوف . أى : عسى أن يهدينى ربى إلى الطريق الوسط الواضح

وأجاب الله - تعالى - دعاءه ، ووصل موسى بعد رحلة شاقة مضنية إلى أرض مدين ، ويقص علينا القرآن ما حدث له بعد وصوله إليها فيقول : « ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ... » .

قال القرطبى : وورود الماء : معناه بلغه لأنه دخل فيه . ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول فى المورود، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل . فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه .. »[1]

وقوله - تعالى - : « تذودان » من الذود بمعنى الطرد والدفع والحبس . يقال : ذاد فلان إبله عن الحوض ، ذودا وذيادا إذا حبسها ومنعها من الوصول إليه .

والمعنى وحين وصل موسى - عليه السلام - إلى الماء الذى تستقى منه قبيلة مدين « وجد أمة » أى : جماعة كثيرة « من الناس يسقون » أى · يسقون إبلهم وغنمهم ، ودوابهم المختلفة ..

« ووجد من دونهم » أى : ووجد بالقرب منهم ، أو فى جهة غير جهتهم . « امرأتين تذودان » أى : امرأتين تطردان وتمنعان أغنامهما أو مواشيهما

(١) تفسير القرطبى جـ١٣ ص ٢٦٧

عن الماء، حتى ينتهى الناس من السقى، ثم بعد ذلك هما تسقيان دوابهما، لأنهما لا قدرة لهما على مزاحمة الرجال.

وهنا قال لهما موسى - صاحب الهمة العالية، والمروءة السامية، والنفس الوثابة نحو نصرة المحتاج - قال لهما بما يشبه التعجب: «ما خطبكما»؟ أى: ما شأنكما؟ وما الدافع لكما إلى منع غنمكما من الشرب من هذا الماء، مع أن الناس يسقون منه؟

وهنا قالتا له على سبيل الإعتذار وبيان سبب منعهما لمواشيهما عن الشرب: «لا نسقى حتى يصدر الرعاء، وأبونا شيخ كبير».

ويصدر: من أصدر. والصدر عن الشيء: الرجوع عنه، وهو ضد الورود. يقال: صدر فلان من الشيء، إذ رجع عنه.

قال الشوكانى: وقرأ الجمهور «يصدر» بضم الياء وكسر الدال - مضارع أصدر المتعدى بالهمزة. وقرأ ابن عامر وأبو عمرو «يصدر» بفتح الياء وضم الدال - من صدر يصدر اللازم، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف، أى: يرجعون مواشيهم..»[1] والرعاء، جمع الراعى، مأخوذ من الرعى بمعنى الحفظ.

أى: قالتا لموسى - عليه السلام -: إن من عادتنا أن لا نسقى مواشينا حتى يصرف الرعاء دوابهم عن الماء، ويصبح الماء خاليا لنا، لأننا لا قدرة لنا على المزاحمة، وليس عندنا رجل يقوم بهذه المهمة، وأبونا شيخ كبير فى السن لا يقدر - أيضا - على القيام بمهمة الرعى والمزاحمة على السقى.

وبعد أن سمع موسى منهما هذه الإجابة، سارع إلى معاونتهما - شأن أصحاب النفوس الكبيرة، والفطرة السليمة، وقد عبر القرآن عن هذه المسارعة بقوله: «فسقى لهما».

(١) فتح القدير جـ ٤ ص ١٦٦

أى : فسق لهما مواشيهما سريعاً ، من أجل أن يريحهما ويكفيهما عناء الإنتظار وفى هذا التعبير إشارة إلى قوته، حيث إنه إستطاع وهو فرد غريب بين أمة من الناس يسقون ـ أن يزاحم تلك الكثرة من الناس ، وأن يسق للمرأتين الضعيفتين غنمهما ، دون أن يصرفه شىء عن ذلك .

رحم الله صاحب الكشاف ، فقد أجاد عند عرضه لهذه المعانى ، فقال ما ملخصه : « قوله : فسق لهما » أى: فسق غنمهما لأجلهما . وروى أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجرا لا يقله إلا سبعة رجال .. فأقله وحده .

وإنما فعل ذلك، رغبة فى المعروف وإغاثة الملهوف. والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء ، وقد إزدحمت عليه أمة من الناس ، متكاثفة العدد ، ورأى الضعيفتين من ورائهم ، مع غنمهما مترقبتين لفراغهم ، فما أخطأت همته فى دين الله تلك الفرصة ، مع ما كان به من النصب والجوع ، ولكنه رحمهما فأغاثهما ، بقوة قلبه ، وبقوة ساعده .

فإن قلت : لم ترك المفعول غير مذكور فى قوله : «يسقون، وتذودان» قلت : لأن الغرض هو الفعل لا المفعول . ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السق ، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلا ...

فإن قلت : كيف طابق جوابهما سؤاله ؟ قلت: سألهما عن سبب الذود فقالتا : السبب فى ذلك أننا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ، فلا بد لنا من تأخير السق إلى أن يفرغوا ، وما لنا رجل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ كبير ، فقد أضعفه الكبر ، فلا يصلح للقيام به ، فهما قد أبدتا إليه عذرهما فى توليهما السق بأنفسهما .

فإن قلت : كيف ساغ لنبى الله الذى هو شعيب ـ عليه السلام ـ أن

يرضى لابنته بسقي الماشية ؟ قلت : الأمر فى نفسه ليس بمحظور ، فالدين لا يأباه ، وأما المروءة فالناس مختلفون فى ذلك ، والعادات متباينة فيه . وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم . ومذهب أهل البدو غير مذهب أهل الحضر ، خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة ...»[1] .

وقوله - تعالى - : « ثم تولى إلى الظل ، فقال : رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » بيان لما فعله موسى وقاله بعد أن سقى للمرأتين غنمهما .

أى : فسقى موسى للمرأتين غنمهما، ثم أعرض عنهما متجها إلى الظل الذى كان قريبا منه فى ذلك المكان ، قيل كان ظل شجرة ، وقيل ظل جدار .

« فقال » على سبيل التضرع إلى ربه : يا ربى : إنى فقير ومحتاج إلى أى خير ينزل منك على ، سواء أكان هذا الخير طعاما أم غيره .

قال الآلوسى ما ملخصه : «وقوله : « فقال رب إنى لما أنزلت إلى » أى : لأى شىء تنزله من خزائن كرمك إلى « من خير » جل أو قل « فقير » أى محتاج ، وهو خبر إن ، وعدى باللام لتضمنه معنى الاحتياج ، و« ما » نكرة موصوفة ، والجملة بعدها صفتها ، والرابط محذوف ، ومن خير بيان لها والتنوين فيه للشيوع ، والكلام تعريض لما يطعمه ، بسبب ما ناله من شدة الجوع ...

يدل لذلك ما أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لما سقى موسى للجاريتين ، ثم تولى إلى الظل، فقال: رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير، وإنه يومئذ فقير إلى كف من تمر»[2] .

واستجاب الله - تعالى - لموسى دعاءه . وأرسل إليه الفرج سريعا ، يدل لذلك قوله - تعالى - بعد هذا الدعاء من موسى : « فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .. » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٠٢ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٦٤

وفى الكلام حذف يفهم من السياق، وقد أشار اليه ابن كثير بقوله : « لما رجعت المرأتان سراعا بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعـــا ، فسألهما عن خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسى - عليه السلام - . فبعث إحداهما اليه لتدعوه إلى أبيها ، كما قال - تعالى - : « فجاءته إحداهما تمشى على إستحياء » أى : مشى الحرائر ، كما روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : كانت مستترة بكم درعها - أى : قميصها .

ثم قال ابن كثير : وقد إختلف المفسرون فى هذا الرجل من هو؟ على أقوال : أحدها أنه شعيب النبي - عليه السلام - الذى أرسله الله إلى أهل مدين ، وهذا هو المشهور عند كثيرين وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد ورواه ابن أبى حاتم .

وقد روى الطبرانى عن مسلمة بن سعد العنزى أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال له : مرحبا بقوم شعيب ، وأختان موسى .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب . وقيل : رجل مؤمن من آل شعيب .

ثم قال - رحمه الله - ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب ، أنه لو كان إياه لاوشك أن ينص على إسمه فى القرآن ههنا . وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده »(١) .

والمعنى : ولم يطل إنتظار موسى للخير الذى التمسه من خالقه - عز وجل - فقد جاءته إحدى المرأتين اللتين سقى لهما، حالة كونها « تمشى على إستحياء » أى : على تحشم وعفاف شأن النساء الفضليات .

وقالت، بعبارة بليغة موجزة: «إن أبى يدعوك» للحضور اليه « ليجزيك أجر ما سقيت لنا » أى : ليكافئك على سقيك لنا غنمنا .

واستجاب موسى لدعوة أبيها، وذهب إليها للقائه « فلما جاءه » أى : فلما

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٣٨

وصل موسى إلى بيت الشيخ الكبير ، وقص عليه القصص ، أى : وقص عليه ما جرى له قبل ذلك ، من قتله القبطى ، ومن هروبه إلى أرض مدين ..

فالقصص هنا مصدر بمعنى اسم المفعول . أى : المقصوص .

«قال» أى: الشيخ الكبير لموسى « لاتخف نجوت من القوم الظالمين » أى : لاتخف ياموسى من فرعون وقومه ، فقد أنجاك الله - تعالى - منهم ومن كل ظالم . . .

وهذا القول من الشيخ الكبير لموسى ، صادف مكانه ، وطابق مقتضاه ، فقد كان موسى - عليه السلام - أحوج ما يكون فى ذلك الوقت إلى نعمة الأمان والاطمئنان ، بعد أن خرج من مصر خائفا يترقب .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ، ما أشارت به إحدى الفتاتين على أبيها : فقال - تعالى - : « قالت إحداهما » ولعلها التى جاءت إلى موسى على استحياء لتقول له : « إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » .

« يا أبت استأجره » أى : قالت لأبيها بوضوح واستقامة قصد - شأن المرأة السليمة الفطرة ، النقية العرض ، القوية الشخصية - يا أبت استأجر هذا الرجل الغريب ، ليكفينا تعب الرعى ، ومشقة العمل خارج البيت . . .

ثم عللت طلبها بقولها : « إن خير من استأجرت القوى الأمين » أى : استأجره ليرعى غنمنا ، فإنه جدير بهذه المهمة ، لقوته وأمانته ، ومن جمع فى سلوكه وخلقه بين القوة والأمانة ، كان أهلا لكل خير ، ومحلا لثقة الناس به على أموالهم وأعراضهم . . .

قال ابن كثير : « قال عمر، وابن عباس، وشريح القاضى، وأبو مالك ، وقتادة . . . وغير واحـــد : لما قالت : « إن خير من استأجرت القوى الأمين » قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت : إنه رفع الصخرة التى

لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لى : كونى من ورائى ، فإذا اجتنبت الطريق فاحذفى - أى فارمى - بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدى إليه»(١) .

واستجاب الشيخ الكبير لما اقترحته عليه ابنته ، وكأنه أحس بصدق عاطفتها ، وطهارة مقصدها وسلامة فطرتها ، فوجه كلامه إلى موسى قائلا : «إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين . . .» .

أى : قال الشيخ الكبير لموسى مستجيبا لاقتراح ابنته: ياموسى إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين .

ولعله أراد بإحداهما ، تلك التى قالت له : يا أبت استأجره ، لشعوره - وهو الشيخ الكبير ، والأب العطوف ، الحريص على راحة ابنته - بأن هناك عاطفة شريفة تمت بين قلب ابنته ، وبين هذا الرجل القوى الأمين ، وهو موسى - عليه السلام - .

وفى هذه الآيات مافيها من الإشارة إلى رغبة المرأة الصالحة ، فى الرجل الصالح ، وإلى أنه من شأن الآباء العقلاء أن يعملوا على تحقيق هذه الرغبة .

قال الشوكانى : «فى هذه الآية مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل ، وهذه سنة ثابتة فى الإسلام ، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، وغير ذلك مما وقع فى أيام الصحابة أيام النبوة ، وكذلك ماوقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله - صلى الله عليه وسلم-»(٢) .

وقوله - سبحانه - : «على أن تأجرنى ثمانى حجج . . .» بيان لما اشترطه الشيخ الكبير على موسى - عليه السلام - .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٢٣٩

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ١٦٩ .

أى قال له بصيغة التأكيد : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين ، بشرط أن تعمل أجيرا عندى لرعى غنمى « ثمانى حجج » أى : ثمانى سنين .

قال الجمل : « وقوله : « على أن تأجرنى » فى محل نصب على الحال ، إما من الفاعل أو من المفعول .

أى : مشروطا على أو عليك ذلك .. و « تأجرنى » مفعوله الثانى محذوف أى : تأجرنى نفسك و « ثمانى حجج » ظرف له .. »[1] .

وقوله « فإن أتممت عشرا فمن عندك » أى : فإن أتممت عشر سنين كأجير عندى لرعاية غنمى ، أى : فهذا الإتمام من عندك على سبيل التفضل والتكرم فإنى لا أشترط عليك سوى ثمانى حجج .

وقوله « وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين » بيان لحسن العرض الذى عرضه الشيخ على موسى .

أى : وما أريد أن أشق عليك أو أتعبك فى أمر من الأمور خلال استئجارى لك ، بل ستجدنى - إن شاء الله - تعالى - من الصالحين ، فى حسن المعاملة ، وفى لين الجانب ، وفى الوفاء بالعهد .

وقال : « ستجدنى إن شاء الله ... » للدلالة على أنه من المؤمنين ، الذين يفوضون أمورهم إلى الله - تعالى - ، ويرجون توفيقه ومعونته على الخير .

ثم حكى - سبحانه - مارد به موسى فقال : « قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على ، والله على مانقول وكيل » .

أى : « قال » موسى فى الرد على الشيخ الكبير « ذلك بينى وبينك » أى : ذلك الذى قلته لى واشترطته على ، كائن وحاصل بينى وبينك ، وكلانا مطالب بالوفاء به فاسم الإشارة مبتدأ ، وبينى وبينك خبره ، والإشارة مرجعها إلى ما تعاقدنا عليه و « أى » فى قوله « : أيما الأجلين » شرطية ، وجوابها ، « فلا عدوان على » و « ما » مزيدة للتأكيد .

(١) حاشية الجمل على الجلالين حـ٣ ص ٣٤٥ .

والمعنى : أى الأجلين - أى الثمانية الأعوام أو العشر الأعوام - قضيت، أى: وفيت به ، وأديته معك أجيرا عندك « فلا عدوان على » أى : فلا ظلم على، وأصل العدوان : تجاوز الحد .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « أى قال موسى: ذلك الذى قلته .. قائم بيننا جميعا لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما اشترطت على ، ولا أنت عما اشترطت على نفسك .. ثم قال: أى أجل من الأجلين قضيت - أطولهما أو أقصرهما - « فلا عدوان على » أى: فلا يعتدى على فى طلب الزيادة عليه .

فإن قلت : تصور العدوان إنما هو فى أحد الأجلين الذى هو الأقصر ، وهو المطالبة بتتمة العشر ، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعا ؟

قلت : معناه ، كما أنى إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدوانا لا شك فيه ، فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان . أراد بذلك تقرير أمر الخيار، وأنه ثابت مستقر ، وأن الأجلين على السواء إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما فى القضاء ، وأما التتمة فهى موكولة إلى رأيى . إن شئت أتيت بها ، وإلا لم أجبر عليها .. »[1].

والمقصود بقوله : « والله على ما نقول وكيل » توثيق العهد وتأكيده ، وأنه لا سبيل لواحد منهما على الخروج عنه أصلا .

أى : والله - تعالى - شهيد ووكيل ورقيب على ما اتفقنا عليه ، وتعاهدنا على تنفيذه ، وكفى بشهادته - سبحانه - شهادة .

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الآثار التى تدل على أن موسى - عليه السلام - قد قضى أطول الأجلين ، ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « سألت جبريل : أى الأجلين قضى موسى ؟ قال : أكملهما وأتمهما . وفى رواية : أبرهما وأوفاهما »[2]

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة، يرى فيها بجلاء ووضوح، ما جبل

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٠٦

(٢) راجع ابن كثير جـ ٦ ص ٢٣٠

عليه موسى - عليه السلام- من صبر على بأساء الحياة وضرائها ومن همة عالية تحمله فى كل موطن على إعانة المحتاج ، ومن طبيعة إيجابية تجعله دائما لا يقف أمام مالا يرضيه مكتوف اليدين ، ومن عاطفة رقيقة تجعله فى كل الأوقات دائم التذكر لخالقه ، كثير التضرع إليه بالدعاء ..

كما يرى فيها الفطرة السوية ، والصدق مع النفس ، والحياء ، والعفاف ، والوضوح ، والبعد عن التكلف والالتواء ، كل ذلك متمثل فى هاتين المرأتين اللتين سقى لهما موسى غنمهما ، واللتين جاءته إحداهما تمشى على استحياء ، ثم قالت لأبيها: يا أبت استأجره .

كما يرى فيها ما كان يتحلى به ذلك الشيخ الكبير ، من عقل راجح ،ومن قول طيب حكيم ، يدخل الأمان والاطمئنان على قلب الخائف ، ومن أبوة حانية رشيدة ، تستجيب للعواطف الشريفة ، وتعمل على تحقيق رغباتها عن طريق الزواج الذى شرعه الله- تعالى -..

ومضت السنوات العشر ، التى قضاها موسى أجيرا عند الشيخ الكبير فى مدين ، ووفى كل واحد منهما بما وعد به صاحبه ، وتزوج موسى بإحدى ابنتى الشيخ الكبير ،وقرر الرجوع بأهله إلى مصر ، فماذا حدث له فى طريق عودته ؟ يحكى لنا القرآن الكريم بأسلوبه البديع ما حدث لموسى - عليه السلام - بعد ذلك فيقول :

« فلمَّا قضَى موسَى الأجلَ وسَارَ بأهْلِه آنَس منْ جانِب الطُّور نارًا، قال لأهْلِه امكُثُوا إنِّى آنَسْت نارًا، لعلِّى آتيكُم منها بِخَبرٍ أو جَذْوةٍ من النَّار لعلَّكُم تَصْطَلونَ (٢٩) فلمَّا أتاهَا نودِى من شاطئِ الوادِى الأيمنِ ، فى البقعةِ المباركةِ من الشَّجَرة ، أنْ يا موسَى إنِّى أنا اللهَ

ربُّ العالمينَ (٣٠) ألقِ عصاكَ ، فلمَّا رآها تهتزُّ كأنَّها جانٌّ ولَّى مدبراً ولم يعقِّبْ ، يا موسَى أَقبِلْ ولا تخَفْ ، إنَّكَ من الآمنينَ (٣١) اسلُكْ يدكَ في جَيْبِكَ تخرُجْ بيضاءَ من غيرِ سُوءٍ ، واضمُمْ إليكَ جَناحكَ من الرَّهْبِ فذانِكَ برهانانِ من ربِّكَ إلى فرْعونَ وملَئِهِ ، إنَّهم كانوا قوماً فاسِقينَ (٣٢) قالَ ربِّ إنِّي قتلتُ منهُم نفساً فأخافُ أنْ يقتُلونِ (٣٣) وأخِي هارونُ هو أفصَحُ منِّي لساناً فأرسِلْه معِي رِدْءاً يُصَدِّقنِي إنِّي أخافُ أن يكذِّبونِ (٣٤) قالَ سنَشُدُّ عضُدَكَ بأخيكَ ، ونجعلُ لكُمَا سُلطاناً فلا يصِلُونَ إليكُمـا ، بآياتِنـا أنتُما ومَنِ اتَّبعكُما الغالِبُونَ (٣٥) » .

والمراد بالأجل في قوله ـ تعالى ـ : « فلما قضى موسى الأجل .. » المدة التي قضاها موسى أجيرا عند الشيخ الكبير ، بجهة مدين .

والمعنى : ومكث موسى عشر سنين في مدين ، فلما قضاها وتزوج بإحدى ابنتي الشيخ الكبير ، استأذن منه ، وسار بأهله ، أي وسار بزوجته متجها إلى مصر ليرى أقاربه وذوى رحمه ، أو إلى مكان آخر قيل : هو بيت المقدس .

« آنس من جانب الطور نارا » ولفظ : « آنس » من الإيناس ، وهو إبصار الشيء ورؤيته بوضوح لا التباس معه ، حتى لكأنه يحسه بجانب رؤيته له .

أي : وخلال سيره بأهله إلى مصر ، رأى بوضوح وجلاء « من جانب الطور نارا » .

أى : رأى من الجهة التى تلى جبل الطور نارا عظيمة .

قال الآلوسى: «واستظهر بعضهم أن المبصر كان نورا حقيقة ، إلا أنه عبر عنه بالنار ، اعتبارا لاعتقاد موسى - عليه السلام - . وقال بعضهم : كان المبصر فى صورة النار الحقيقية ، وأما حقيقته ، فوراء طور العقل ، إلا أن موسى - عليه السلام - ظنه النار المعروفة» (١).

وقوله - سبحانه - «قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا ...» حكاية لما قاله موسى - عليه السلام - لزوجته ومن معها عند ما أبصر النار .

أى : عند ما أبصر موسى النار بوضوح وجلاء ، قال لأهله امكثوا فى مكانكم «إنى آنست نارا» على مقربة منى ، وسأذهب إليها ...

«لعلى آتيكم منها بخبر» ينفعنا فى مسيرتنا ، «أو» أقتطع لكم منها «جذوة من النار لعلكم تصطلون» .

قال الجمل : «قرأ حمزة : «أو جذوة» بضم الجيم . وقرأ عاصم بالفتح ، وقرأ الباقون بالكسر ، وهى لغات فى العود الذى فى رأسه نار ، هذا هو المشهور . وقيده بعضهم فقال : فى رأسه نار من غير لهب ، وقد ورد ما يقتضى وجود اللهب فيه ، وقيل : الجذوة العود الغليظ سواء أكان فى رأسه نار أم لم يكن ، وليس المراد هنا إلا ما فى رأسه نار ...» (٢).

وقوله : «تصطلون» من الاصطلاء بمعنى الاقتراب من النار للاستدفاء بها من البرد ، والطاء فيه مبدلة من تاء الافتعال .

أى : قال موسى لأهله امكثوا فى مكانكم حتى أرجع إليكم ، فإنى أبصرت نارا سأذهب إليها ، لعلى آتيكم من جهتها بخبر يفيدنا فى رحلتنا ، أو أقتطع لكم منها قطعة من الحجر ، كى تستدفئوا بها من البرد .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ٧٢
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٤٦

قال ابن كثير ما ملخصه : « وكان ذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم ، وسار بأهله . قيل : قاصدا بلاد مصر بعد ماطالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته ، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، فى برد وشتاء ، وسحاب وظلام وضباب وجعل يقدح بزند معه ليورى نارا - أى : ليخرج نارا - كما جرت العادة به ، فجعل لا يقدح شيئا ، ولا يخرج منه شرر ولا شيء ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نارا .... »(١) .

ثم بين - سبحانه - ماحدث لموسى بعد أن وصل إلى الجهة التى فيها النار فقال - تعالى - : « فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين » .

والضمير فى «أتاها» يعاد إلى النار التى رآها . وشاطىء الوادى : جانبه، والأيمن : صفته .

أى : فحين أتى موسى - عليه السلام - إلى النار التى أبصرها ، « نودى من شاطىء الوادى الأيمن » أى : سمع نداء من الجانب الأيمن بالنسبة له ، أى : لموسى وهو يسير إلى النار التى رآها . فمن لابتداء الغاية .

ويرى بعضهم أن المراد بالأيمن ، أى : المبارك ، مأخوذ من اليمن بمعنى البركة .

وقوله : « فى البقعة المباركة » متعلق بقوله « نودى » أو بمحذوف حال من الشاطىء .

وقوله : « من الشجرة » بدل اشتمال من شاطىء الوادى ؛ فإنه كان مشتملا عليها .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٠ .

والبقعة : اسم للقطعة من الأرض التي تكون غير هيئة القطعة المجاورة لها وجمعها بقع - بضم الباء وفتح القاف - وبقاع .

ووصفت بالبركة ، لما وقع فيها من التكليم والرسالة لموسى ، وإظهار المعجزات والآيات على يديه .

أى : فلما اقترب موسى من النار ، نودى من ذلك المكان الطيب ، الكائن على يمينه وهو يسير إليها ، والمشتمل على البقعة المباركة من ناحية الشجرة .

ولعل التنصيص على الشجرة ، الإشارة إلى أنها كانت الوحيدة فى ذلك المكان .

و « أن » فى قوله - تعالى - : « أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين » تفسيرية ، لأن النداء قول .

أى : نودى أن يا موسى تنبه وتذكر إنى أنا الله رب العالمين .

قال الإمام ابن كثير : وقوله - تعالى - : « أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين » أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى ذاته وصفاته وأقواله - سبحانه - (١) .

وقوله - سبحانه - : « وأن ألق عصاك » معطوف على قوله « أن ياموسى » فكلاهما مفسر للنداء ، والفاء فى قوله « فلما رآها تهتز . . . » فصيحة .

والمعنى : نودى أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ، ونودى أن ألق عصاك ، فألقاها ، « فلما رآها تهتز » أى : تضطرب بسرعة « كأنها جان » أى كأنها فى سرعة حركتها وشدة اضطرابها « جان » أى : ثعبان يدب بسرعة ، ويمرق فى خفة ولى مدبرا ولم يعقب ، أى : ولى هاربا خوفا منها ، دون أن يفكر فى العودة إليها ، ليتبين ماذا بها ، وليتأمل ما حدث لها .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٢ .

يقال : عقب المقاتل إذا كر راجعا إلى خصمه ، بعد أن فر من أمامه .

وهنا جاءه النداء مرة أخرى ، فى قوله - تعالى - : « يا موسى أقبل ولا تخف إنك من المؤمنين » .

أى : يا موسى أقبل نحو المكان الذى كنت فيه ، ولا تخف مما رأيته ، إنك من عبادنا الآمنين عندنا ، المختارين لحمل رسالتنا .

ثم أمره - سبحانه - بأمر آخر فقال : « أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء . . . » .

ولفظ « أسلك » من السلك - بتشديد السين مع الفتح - بمعنى إدخال الشىء فى الشىء .

أى : أدخل يدك يا موسى فى فتحة ثوبك ، تخرج بيضاء من غير سوء مرض أو عيب ، وأضمم إليك جناحك من الرهب ، والجناح : اليد ، والرهب : الخوف والفزع .

والمقصود بالجملة الكريمة « واضمم إليك جناحك من الرهب » إرشاد موسى إلى ما يدخل الطمأنينة على قلبه ، ويزيل خوفه .

والمعنى : افعل ياموسى ما أمرناك به ، فإذا أفزعك أمر يدك وماتراه من بياضها وشعاعها ، فأدخلها فى فتحة ثوبك ، تعد إلى حالتها الأولى .

وإذا إنتابك خوف عند معاينة الحية ، فأضمم يدك إلى صدرك ، يذهب عنك الخوف .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت مامعنى قوله : « واضمم إليك جناحك من الرهب » ؟ قلت : فيه معنيان ، أحدهما : أن موسى - عليه السلام - لما قلب الله العصا حية إفزع وإضطرب ، فاتقاها بيده ، كما يفعل الخائف من الشىء ، فقيل له : إن إتقاءك بيدك فيه غضاضة - أى منقصة - عند الأعداء

فإذا ألقيتها فعند ما تنقلب حية، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها، ثم أخرجها بيضاء، ليحصل الأمران : إجتناب ماهو غضاضة عليك، وإظهار معجزة أخرى.

والثاني : أن يراد بضم جناحه إليه، تجلده وضبط نفسه، وتشدده عند إنقلاب العصا حية، حتى لا يضطرب ..»(١).

وإسم الإشارة فى قوله «فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ..» يعود إلى العصا واليد. والتذكير لمراعاة الخبر وهو «برهانان» والبرهان : الحجة الواضحة النيرة التى تلجم الخصم، وتجعله لا يستطيع معارضتها. أى : فهاتان المعجزتان اللتان أعطيناك إياهما يا موسى، وهما العصا واليد، حجتان واضحتان كائنتان «من ربك» فاذهب بهما إلى «فرعون وملئه» لكى تبلغهم رسالتنا، وتأمرهم بإخلاص العبادة لنا.

«إنهم» أى : فرعون وملئه «كانوا قوما فاسقين» أى : خارجين من الطاعة إلى المعصية، ومن الحق إلى الباطل.

وهنا تذكر موسى ما كان بينه وبين فرعون وقومه من عداوة، فقال : «رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون» إذا ذهبت إليهم بهذه الآيات

وهو - عليه السلام - لا يقول ذلك، هروبا من تبليغ رسالة الله - تعالى - وإنما ليستعين برعايته - عز وجل - وبحفظه. عندما يذهب إلى هؤلاء الأقوام الفاسقين.

ثم أضاف إلى ذلك قوله : «وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ..» أى: هو أقدر منى على المدافعة عن الدعوة وعلى تبيان الحق وتوضيحه.

«فأرسله معى ردءا يصدقنى، إنى أخاف أن يكذبون» والردء : العون والنصير.

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٤٠٨

يقال : ردأته على عدوه وأردأته ، إذا أعنته عليه . وردأت الجدار إذا قويته بما يمنعه من أن ينقض .

أى : فأرسل أخى هارون معى إلى هؤلاء القوم ، لكى يساعدنى ويعيننى على تبليغ رسالتك ، ويصدقنى فيما سأدعوهم إليه ، ويخلفنى إذا ما اعتدى على . « إنى أخاف أن يكذبون ، إذا لم يكن معى أخى هارون يعيننى ويصدقنى .

والمتأمل في هذا الكلام الذى ساقه الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - يرى فيه إخلاصه فى تبليغ رسالة ربه ، وحرصه على أن يؤتى هذا التبليغ ثماره الطيبة على أكمل صورة ، وأحسن وجه .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت تصديق أخيه ما الفائدة فيه ؟

قلت : ليس الغرض بتصديقه أن يقول له صدقت ، أو يقول للناس صدق أخى ، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل به الكفار كما يصدق القول بالبرهان . وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك ، لا لقوله : صدقت ، فإن سحبان وباقلا يستويان فيه .»(١) .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ، أن الله - تعالى - قد أجاب لموسى رجاءه فقال : « قال سنشد عضدك بأخيك . »

شد العضد : كناية عن التقوية له ، لأن اليد تشتد وتقوى ، بشدة العضد وقوته . وهو من المرفق إلى الكتف .

أى قال - سبحانه - لقد إستجبنا لرجائك يا موسى ، وسنقويك ونعينك بأخيك « ونجعل لكما » بقدرتنا ومشيئتنا « سلطانا » أى : حجة وبرهاناً وقوة تمنع الظالمين « فلا يصلون إليكما » بأذى ولا يتغلبان عليكما بحجة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ صـ ٤١٠

وقوله « بآياتنا » متعلق بمحذوف . أى : فوضا أمركما إلى ، واذهبا إلى فرعون وقومه بآياتنا الدالة على صدقكما .

وقوله - تعالى - : « أنتما ومن اتبعكما الغالبون » مؤكد لمضمون ماقبله ، من تقوية قلب موسى ، وتبشيره بالغلبة والنصر على أعدائه .

أى : أجبنا طلبك ياموسى ، وسنقويك بأخيك ، فسيرا إلى فرعون وقومه، فسنجعل لكما الحجة عليهم، وستكونان أنتما ومن اتبعكما من المؤمنين أصحاب الغلبة والسلطان على فرعون وجنده .

ونفذ موسى وهارون - عليهما السلام - أمر ربهما - عز وجل - فذهبا إلى فرعون ليبلغاه دعوة الحق . وليأمراه بإخلاص العبادة لله - تعالى -

وتحكى الآيات الكريمة بعد ذلك ما دار بين موسى وبين فرعون وقومه من محاورات ومجادلات ، إنتهت بانتصار الحق ، وهلاك الباطل . . . تحكى الآيات كل ذلك فتقول :

« فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا ، مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ، وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى، رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ ، وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَظَنُّوا إِنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠)

وجعلناهُم أئمةً يدعُونَ إلى النـــارِ ويومَ القيامةِ لا يُنصَرُون (٤١) وأتبعناهُم فى هــذه الدُّنيا لعنَةً ويومَ القيامةِ هُم من المقبُوحِينَ (٤٢) ولقد آتينا موسَى الـكتابَ مِنْ بعدِ ما أهلـكنا القرونَ الأولَى بصائرَ للنَّاسِ وهدًى ورحمةً لعلَّهُم يتذكَّرونَ(٤٣) » .

والمراد بالآيات فى قوله - تعالى - « فلما جاءهم موسى بآيات بينات . . » : العصا واليد . وجمعهما تعظيم لشأنهما ، ولاشتمال كل واحدة منهما على دلائل متعددة على صدق موسى - عليه السلام - فيما جاء به من عند ربه - تعالى -

والمعنى : ووصل موسى إلى فرعون وقومه ، ليأمرهم بعبادة الله وحده ، فلما جاءهم بالمعجزات التى أيدناه بها ، والتى تدل على صدقه دلالة واضحة .

« قالوا » له على سبيل التبجح والعناد « ما هذا إلا سحر مفترى » أى : قالوا له : ما هذا الذى جئت به يا موسى إلا سحر أتيت به من عند نفسك .

ثم أكدوا قولهم الباطل هذا بآخر أشد منه بطلانا ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : « وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » .

أى : وما سمعنا بهذا الذى جئتنا به ياموسى، من الدعوة إلى عبادة الله وحده ومن إخبارك لنا بأنك نبى . . ما سمعنا بشىء من هذا كائنا أو واقعا فى عهد آبائنا الأولين وقولهم هذا يدل على إعراضهم عن الحق ، وعكوفهم على ماألفوه بدون تفكر أو تدبر وقد رد عليهم موسى ردا منطقيا حكيما ، حكاه القرآن فى قوله : « وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده . . . »

أى : وقال موسى فى رده على ، فرعون وملئه : ربى الذى خلقنى وخلقكم، أعلم منى ومنكم بمن جاء بالهدى والحق من عنده ، وسيحكم بينى وبينكم بحكمه العادل .

ولم يصرح موسى - عليه السلام - بأنه يريد نفسه ، بالإتيان بالهداية لهم من عند الله - تعالى - . ليكفكف من عنادهم وغرورهم ، وليرخي لهم حبل المناقشة ، حتى يخرس ألسنتهم عن طريق المعجزات التي أيده الله - تعالى - بها .

وقوله : « ومن تكون له عاقبة الدار » معطوف على ماقبله .

أى : وربى - أيضا - أعلم منى ومنكم بمن تكون له النهاية الحسنة ، والعاقبة الحميدة .

قال الآلوسى : «قوله : « ومن تكون له عاقبة الدار » أى : العاقبة المحمودة فى الدار ، وهى الدنيا ، وعاقبتها أن يختم للإنسان بها ، بما يفضى به إلى الجنة بفضل الله - تعالى - وكرمه »(1) .

وقوله - سبحانه - : «إنه لا يفلح الظالمون» تذييل قصد به بيان سنة من سننه - تعالى - التى لا تتخلف .

أى : إنه - سبحانه - قد اقتضت سنته أن لا يفوز الظالمون بمطلوب ، بل الذين يفوزون بالعاقبة الحميدة هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا .

ولكن هذا الرد المهذب الحكيم من موسى - عليه السلام - ، لم يعجب فرعون المتطاول المغرور ، فأخذ فى إلقاء الدعاوى الكاذبة ، التى حكاها القرآن عنه فى قوله : « وقال فرعون يا أيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى» .

أى : وقال فرعون لقومه - على سبيل الكذب والفجور - ياأيها الأشراف من أتباعى . إنى ماعلمت لكم من إله سواى .

وقوله هذا يدل على مابلغه من طغيان وغرور ، فكأنه يقول لهم : إنى لم أعلم بأن هناك إلها لكم سواى ، ومالا أعلمه فلا وجود له .

وقد قابل قومه هذا الهراء والهذيان ، بالسكوت والتسليم ، شأن الجهلاء

---

(1) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ٧٩

الجبناء وصدق الله إذ يقول : « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين »[1]

ثم تظاهر بعد ذلك بأنه جاد فى دعواه أمام قومه بأنه لا إله لهم سواه ، وأنه حريص على معرفة الحقيقة ، فقال لوزيره هامان : « فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى . . » .

والصرح : البناء الشاهق المرتفع ، أى : فاصنع لى ياهامان من الطين آجرا قويا ، ثم هيء لى منه بناء عاليا مكشوفا ، أصعد عليه ، لعلى أرى إله موسى من فوقه ، والمراد بالظن فى قوله : « وإنى لأظنه من الكاذبين » : اليقين أى : وإنى لمتيقن أن موسى من الكاذبين فى دعواه أن هناك إلها غيره . . فى هذا الكون .

وهكذا ، استخف فرعون بعقول قومه الجاهلين الجبناء ، فأفهمهم أنه لا إله لهم سواه ، وأن موسى كاذبا فيما ادعاه .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ « وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل ، وما كيد فرعون إلا فى تباب »[2].

قال ابن كثير : وذلك لأن فرعون ، بنى هذا الصرح ، الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته ، تكذيب موسى فيما قاله من أن هناك إلها غير فرعون ، ولهذا قال : « وإنى لأظنه من الكاذبين » أى : فى قوله إن ثم ربا غيرى . . . »[3]

---

(١) سورة الزخرف آية ٥٤ .
(٢) سورة غافر آية ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٢٤٨

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملت فرعون على هذا القول الساقط الكاذب ، فقال : « واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون » .

والاستكبار : التعالى والتطاول على الغير تحمق وجهل . أى : وتعالى فرعون وجنوده فى الأرض التى خلقناها لهم ، دون أن يكون لهم أى حق فى هذا التطاول والتعالى ، وظنوا واعتقدوا أنهم إلينا لا يرجعون ، لمحاسبتهم ومعاقبتهم يوم القيامة .

فماذا كانت نتيجة ذلك التطاول والغرور ، والتكذيب بالبعث والحساب؟ لقد كانت نتيجته كما قال - تعالى - بعد ذلك : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ... » .

والنبذ : الطرح والإهمال لشىء لحقارته وتفاهته .

أى : فأخذنا فرعون وجنوده بالعقاب الأليم أخذا سريعا حاسما ، فألقينا بهم فى البحر ، كما يلقى بالنواة أو الحصاة التى لا قيمة لها ، ولا اعتداد بها .

« فانظر ، أيها العاقل نظر تدبر واعتبار « كيف كان عاقبة الظالمين » ؟ لقد كانت عاقبتهم الإغراق الذى أزهق أرواحهم واستأصل باطلهم .

« وجعلناهم ، أى : فرعون وجنوده ، أئمة فى الكفر والفسوق والعصيان بسبب أنهم « يدعون » ، غيرهم إلى ما يوصل « إلى النار » وسعيرها والاحتراق بها .

« ويوم القيامة لا ينصرون » أى : ويوم القيامة لا يجدون من ينصرهم ، بأن يدفع العذاب عنهم بأية صورة من الصور .

« وأتبعناهم فى هذه الدنيا » التى قضوا حياتهم فيها فى الكفر والضلال ، أتبعناهم فيها « لعنة » أى : طردا وإبعادا عن رحمتنا .

« ويوم القيامة هم من المقبوحين » والشىء المقبوح : هو المطرود المبعد عن كل خير . أى : وهم يوم القيامة - أيضا - من المبعدين عن رحمتنا ، بسبب كفرهم وفسوقهم .

والتعبير بقوله - سبحانه - : « ويوم القيامة هم من المقبوحين » يتناسب كل التناسب مع ما كانوا عليه فى الدنيا من تطاول وغرور واستعلاء .

فهؤلاء الذين كانوا فى الدنيا كذلك ، صاروا فى الآخرة محل الازدراء وقبح الهيئة والاشمئزاز من كل عباد الله المخلصين .

ثم ختم - سبحانه - قصة موسى ببيان جانب مما منحه - عز وجل - له من نعم فقال : « ولقد آتينا موسى الكتاب » أى : آتيناه التوراة لتكون هداية ونورا « من بعد ما أهلكنا القرون الأولى » أى: أنزلنا التوراة على موسى ، من بعد إهلاكنا للقرون الأولى من الأقوام المكذبين ، كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم .

قال الآلوسى : « والتعرض لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم ، للإشعار بأنها نزلت بعد مساس الحاجة إليها ، تمهيدا لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن إهلاك القرون الأولى ، من موجبات اندارس معالم الشرائع ، وانطماس آثارها ، المؤديين إلى إختلال نظام العالم ، وفساد أحوال الأمم ، وكل ذلك يستدعى تشريعا جديدا . . »(١).

وقوله - تعالى - « بصائر للناس وهدى ورحمة » منصوب على أنه مفعول لأجله أو حال ، أى: آتيناه التوراة من أجل أن تكون أنوارا لقلوبهم يبصرون بها الحقائق ، كما يبصرون بأعينهم المرئيات ، ومن أجل أن تكون هداية لهم إلى الصراط المستقيم ، ورحمة لهم من العذاب .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ٨٤ .

وقوله - سبحانه - « لعلهم يتذكرون » تعليل لهذا الإيتاء ، وحض لهم على الشكر .

أى : آتيناهم الكتاب الذى عن طريقه يعرفون الحق من الباطل . . كى يكونوا دائما متذكرين لنعمنا ، وشاكرين لنا على هدايتنا لهم ورحمتنا بهم .

وإلى هنا نرى السورة الكريمة ، قد حدثتنا عن جوانب متعددة من حياة موسى - عليه السلام - .

حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، حيث أراد له أن يعيش فى بيت فرعون وأن يحظى برعاية امرأته ، وأن يعود بعد ذلك إلى أمه كى تقر عينها به ، دون أن يصيبه أذى من فرعون الذى كان يذبح الذكور من بنى إسرائيل ويستحيى نساءهم . . .

ثم حدثتنا عن رعاية - تعالى - له ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، حيث نجاه من القوم الظالمين ، بعد أن قتل واحدا منهم .

ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن خرج من مصر خائفا يترقب متجها إلى قرية مدين ، التى قضى فيها عشر سنين أجيرا عند شيخ كبير من أهلها .

ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن قضى تلك المدة ، وسار بأهله متجها إلى مصر ، وكيف أن الله - تعالى - أمره بتبليغ رسالته إلى فرعون وقومه ، وأنه - عليه السلام - قد لبى أمر ربه - سبحانه - وبلغ رسالته على أتم وجه وأكمله ، فكانت العاقبة الطيبة له ولمن آمن به ، وكانت النهاية الأليمة لفرعون وجنوده .

وهكذا طوفت بنا السورة الكريمة مع قصة موسى - عليه السلام - ذلك

التطواف الذى نرى فيه رعاية الله ـ تعالى ـ لموسى ، وإعداده لحمل رسالته ، كما نرى فيه نماذج متنوعة لأخلاقه الكريمة ، ولهمته العالية ، ولصبره على تكاليف الدعوة ، ولسنن الله ـ تعالى ـ فى خلقه ، تلك السنن التى لا تتخلف فى بيان أن العاقبة الحسنة للمتقين ، والعاقبة القبيحة للكافرين والفاسقين .

ثم بدأت السورة بعد ذلك فى تسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وفى بيان أن هذا القرآن من عند الله ، وفى بيان جانب من شبهات المشركين ، ثم تلقين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرد المزهق لها .. لنستمع إلى الآيات الكريمة التى تحكى لنا بأسلوبها البليغ ، هذه المعانى وغيرها فتقول :

«وما كنتَ بجانبِ الغربِىِّ إذ قضينا إلى موسَى الأمْرَ ، وما كنتَ من الشاهدِينَ (٤٤) ولـكنَّا أنشَـأنا قرونًا فتطاولَ عليهمُ العُمر ، وما كنتَ ثاوِيًا فى أهْـلِ مدْيَنَ تتلو عليهم آياتِنا ولـكنَّا كنَّا مُرسلينَ (٤٥) وما كنتَ بجانبِ الطُّور إذ نادَيْنَا ، ولـكِنْ رَحمةً من ربِّكَ لتنذِرَ قومًا ما أتاهمُ من نَذيرٍ من قبْلِك لعلَّهُم يتَذكَّرونَ (٤٦) ولولاَ أنْ تُصيبَهُم مُصيبةٌ بمـا قدَّمتْ أيْديهِمْ فيَقولُوا ربَّنـا لولا أرسلتَ إلَيْنَا رسُولاً فنتَّبـِعَ آياتِكَ ونـكُونَ مِنَ المؤْمنينَ (٤٧) فلمَّا جاءَهُمُ الحقُّ من عندِنَا قالُوا لولاَ أُوتِىَ مثلَ مَا أُوتِى موسَى أوَلَمْ يكْفرُوا بمَا أُوتِىَ موسَى مِنْ قبلُ ، قالُوا سِحْرانِ تظاهرَا ، وقالُوا إنَّا بكلٍّ كافرُونَ (٤٨) قلْ فأْتوا بكتابٍ من عندِ الله هوَ أهْدَى منهُما أتَّبِعْهُ إنْ كنتُم صادِقينَ (٤٩) فإنْ لم يستجِيبُوا لكَ فاعْلَمْ أنَّما يتَّبِعونَ أهْواءَهُمْ ومَن أضَلُّ ممن اتَّبع هَواهُ بغَيرِ هُدًى من الله ، إنَّ اللهَ لا يَهدى القومَ الظالمِينَ (٥٠) ولقَدْ وصَّلْنَا لهُمُ القولَ لعلَّهُم يتذكَّرونَ (٥١) » .

والخطاب فى قوله - تعالى - : « وما كنت بجانب الغربى .. » للرسول - صلى الله عليه وسلم - والمراد بجانب الغربى: الجانب الغربى لجبل الطور الذى وقع فيه الميقات، وفيه تلقى موسى للتوراة من ربه - تعالى -.

أى : وما كنت - أيها الرسول الكريم - حاضرا فى هذا المكان ، «إذ قضينا إلى موسى الأمر» أى ، وقت أن كلفناه بحمل رسالتنا ، وأنزلنا إليه التوراة ، لتكون هداية ونورا له ولقومه .

« وما كنت » أيضا - أيها الرسول الكريم - «من الشاهدين» لذلك، حتى تعرف حقيقة ما كلفنا به أخاك موسى . فتبلغه للناس عن طريق المشاهدة .

فالمقصود بالآية بيان أن ما بلغه الرسول - صلى الله عليه وسلم - للناس عن أخبار الأولين ، إنما بلغه عن طريق الوحى الذى أوحاه الله - تعالى - إليه ، وليس عن طريق آخر .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « يقول - تعالى - منبها على برهان نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث أخبر بالغيوب الماضية ، خبرا كان سامعه شاهد وراء لما تقدم ، وهو رجل أمى لا يقرأ شيئا من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، قال - تعالى - : « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

ثم قال - تعالى - : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر»[1].

وقوله - سبحانه : «ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر.. » بيان للأسباب التى من أجلها قص الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - أخبار الأمم السابقة .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٤٩

أى : أنت - أيها - أيها الرسول الكريم - لم تكن معاصرا لتلك الأحداث ولكن أخبرناك بها عن طريق الوحى ، والسبب فى ذلك أن بينك وبين موسى وغيره من الأنبياء أزمانا طويلة ، تغيرت فيه الشرائع والأحكام ، وعميت على الناس الأنباء ، فكان من الخير والحكمة أن نقص عليك أخبار السابقين بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، حتى يعرف الناس الأمور على وجهها الصحيح .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : كيف يتصل قوله : «ولكنا أنشأنا قرونا» بهذا الكلام ؟

قلت : إتصاله به وكونه إستدراكا له، من حيث إن معناه : ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحى إلى عهدك قرونا طويلة «فتطاول» على آخرهم : وهو القرن الذى أنت فيهم «العمر» .

أى : أمد إنقطاع الوحى ، واندرست العلوم ، فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وكسبناك - أى : وأعطيناك - العلم بقصص الأنبياء . فذكر سبب الوحى الذى هو إطالة الفترة ، ودل به على المسبب ، على عادة الله - تعالى - فى إختصاراته .(١)

قوله - سبحانه - : «وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا . . .» مؤكدة لمضمون ما قبله ، من عدم معرفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأخبار السابقين إلا عن طريق الوحى .

وقوله : «ثاويا» من الثواء بمعنى الإقامة . يقال : ثوى فلان بالمكان يثوى ثوا فهو ثاو ، إذا أقام فيه . والمثوى : المنزل ، ومنه الأثر القائل : أصلحوا مثاويكم، أى : منازلكم.

(١) تفسير الكشاف حـ ٣ ص ٤١٧

أي : وما كنت - أيها الرسول الكريم - مقيما في أهل مدين ، وقت تلاوتك على أهل مكة المكرمة ، قصة موسى والشيخ الكبير وما جرى بينهما ، حتى تنقلها إليهم بطريق المشاهدة وإنما أنت أخبرتهم بها عن طريق وسيننا الصادق المتمثل فيما أنزلناه عليك من آيات القرآن البينات .

فالضمير في قوله « تتلو عليهم » يعود على أهل مكة . والجملة حالية .

ويرى أكثر المفسرين أن الضمير لأهل مدين ، أي وما كنت مقيما في أهل مدين ، تقرأ عليهم آياتنا ، وتتعلم منهم ، والجملة حالية - أيضا - أو خبر ثان .

وعلى كلا التفسيرين فالمقصود بالجملة الكريمة إثبات أن ما أخبر به الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الأولين ، إنما هو عن طريق الوحي ليس غير .

وقوله - سبحانه - : « ولكنا كنا مرسلين لك وموحين إليك بتلك الآيات وفيها ما فيها عن أخبار الأولين ، لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

ثم ساق - سبحانه - ما يؤكد هذه المعاني تأكيدا قويا ، حتى تخرس ألسنة الكافرين ، فقال - تعالى - : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » .

أي وما كنت - أيضا أيها الرسول الكريم - بجانب الجبل المسمى بالطور وقت أن نادينا موسى ، وكلفناه بحمل رسالتنا ، وأعطيناه التوراة ، وأوحينا إليه بما أوحينا من أحكام وتشريعات .

وقوله - تعالى - : « ولكن رحمة من ربك » أي : ولكن فعلنا ما فعلنا ، بأن أرسلناك إلى الناس ، وقصصنا عليك ما نريده من أخبار الأولين ، من أجل رحمتنا بك وبالناس ، حتى يعتبروا ويتعظوا بأحوال السابقين ، فالعاقل من اتعظ بغيره .

فقوله - تعالى - : « رحمة » منصوب على أنه مفعول لأجله ، أو على المصدرية .

وقوله - سبحانه - : « لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك » متعلق بالفعل المعلل بالرحمة ، والمراد بالقوم : أهل مكة وغيرهم ممن بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم .

وجملة « ما أتاهم من نذير من قبلك » صفة لقوله « قوما » و« ما » موصولة مفعول ثان لتنذر ، وقوله : « من نذير » متعلق بأتاهم .

أى : أرسلناك رحمة ، لتنذر قوما العقاب الذى أتاهم من نذير من قبلك ، وكما قال - تعالى - : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

ويصح أن تكون « ما » نافية و « من » فى قوله « من نذير » للتأكيد ، فيكون المعنى : أرسلناك رحمة لتنذر هؤلاء المشركين من أهل مكة الذين لم يأتهم نذير من قبلك منذ أزمان متطاولة ، إذ الفترة التى بينك وبين أبيهم إسماعيل تزيد على ألفى سنة .

ورسالة إسماعيل إليهم قد اندرست معالمها ، فكانت الحكمة والرحمة تقتضيان إرسالك إليهم ، لتنذرهم سوء عاقبة الشرك .

أما معظم الرسل من قبلك - كموسى وعيسى وزكريا ويحيى وداود وسليمان فكانت مع تباعد زمانها عنك - أيضا - إلى غيرهم من بنى إسرائيل ، ومن الأمم الأخرى . المتناثرة فى أطراف الجزيرة العربية .

فالمراد بالقوم على هذا الرأى : العرب المعاصرون له - صلى الله عليه وسلم - كما قال - تعالى - : « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » .

ولعل هذا الرأى أقرب إلى سياق الآيات ، وإلى إقامة الحجة على مشركى قريش ، الذين وقفوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - موقف المكذب لرسالته ، المعادى لدعوته .

وقوله - سبحانه - : « لعلهم يتذكرون » تذييل قصد به حضهم على التذكر والاعتبار .

أى : أرسلناك إليهم كى يتذكروا ما ترشدهم إليه ، ويعتبروا بما جئتهم به ، ويخشوا سوء عاقبة مخالفة إنذاره لهم .

ثم أبطل - سبحانه - ما يتعللون به من معاذير فقال : « ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » .

و «لولا» الأولى : امتناعية ، تدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجوابها محذوف لدلالة الكلام عليه . و «أن» وما فى حيزها فى محل رفع بالابتداء .

و «ولا» الثانية : تحضيضية ، وجوابها قوله «فنتبع آياتك ....» وجملة «فيقولوا» عطف على أن تصيبهم ، ومن جملة ما فى حيز «لولا» الأولى .

والمعنى : «ولولا أن تصيب هؤلاء المشركين «مصيبة» أى : عقوبة شديدة ، بسبب اقترافهم للكفر والمعاصى «فيقولوا» على سبيل التعلل عند نزول العقوبة بهم «ربنا» أى : ياربنا هلا أرسلت إلينا رسولا من عندك «فنتبع آياتك» الدالة على صدقه «ونكون من المؤمنين به ربما جاء به من آيات من عندك .

أى : ولولا قولهم هذا ، وتعللهم بأنهم ماحملهم على الكفر، إلا عدم مجىء رسول إليهم يبشرهم وينذرهم ... لولا ذلك لما أرسلناك إليهم ، ولكنا أرسلناك إليهم لنقطع حجتهم ، ونزيل تعللهم ، ونثبت لهم أن استمرارهم على كفرهم - بعد إرسالك إليهم - كان بسبب عنادهم وجحودهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .

قال الإمام ابن كثير : «قوله - تعالى - : «ولولا أن تصيبهم مصيبة ...» أى : وأرسلناك إليهم -يامحمد- لتقيم عليهم الحجة ، ولتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بسبب كفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال - تعالى - بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن: «أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا : لو أنزل إلينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ...»(١)

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك موقفهم بعد مجىء الرسول - صلى الله عليه

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٥١ .

وسلم - إليهم فقال : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ... ».

أى : ظل مشركو قريش أزمانا متطاولة دون أن يأتيهم رسول ينذرهم ويبشرهم ، فلما جاءهم الحق من عندنا ، متمثلا فى رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وفيما أيدناه به من معجزات دالة على صدقه، وعلى رأسها القرآن الكريم.

لما جاءهم هذا الرسول الكريم ، قالوا، على سبيل التعنت والجحود : هلا أوتى هذا الرسول مثل ما أوتى موسى ، من توراة أنزلت عليه جملة واحدة، ومن معجزات حسية منها العصا واليد ، والطوفان ، والجراد ... الخ .

وقوله - عز وجل - : « أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل .. » رد عليهم لبيان أن ما قالوه هو من باب العناد والتعنت ، والاستفهام لتقرير كفرهم وتأكيده .

أى : قالوا ما قالوا على سبيل الجحود، والحال أن هؤلاء المشركين كفروا كفرا صريحا بما أعطاه الله - تعالى - لموسى من قبلك - يا محمد - من معجزات، كما كفروا بالمعجزات التى جئت بها من عند ربك ، فهم ديدنهم الكفر بكل حق .

ثم حكى - سبحانه - بعض أقوالهم الباطلة فقال: « قالوا سحران تظاهرا، وقالوا إنا بكل كافرون » .

وقوله : «سحران» خبر لمبتدأ محذوف. أى: قالوا ما يقوله كل مجادل بغير علم : هما - أى ما جاء به موسى وما جاء به محمد - عليهما الصلاة والسلام - « سحران تظاهرا » أى : تعاونا على إضلالنا ، وإخراجنا عن ديننا ، وقالوا - أيضا - « إنا بكل» أى بكل واحد مما جاءوا به « كافرون » كفرا لا رجوع معه إلى ما جاء به هذان النبيان - عليهما الصلاة والسلام - .

قال الآلوسى: «وقوله : «قالوا» استئناف مسوق لتقرير كفرهم، المستفاد من الإنكار السابق ، وبيان كيفيته ، و« سحران » يعنون بهما ما أوتى نبينا وما أوتى موسى ... « تظاهرا » أى : تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر،

وتأييده إياه ، وذلك أن أهل مكة بعثوا رهطا منهم إلى رؤساء اليهود فى عيد لهم ، فسألوهم عن شأنه - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود . قالوا ذلك .

وقرأ الأكثرون « قالوا ساحران تظاهرا » وأرادوا بهما محمد وموسى - عليهما الصلاة والسلام - »(١) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتحداهم ، وأن يفحمهم بما يخرس ألسنتهم فقال : « قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : لقد أنزل الله - تعالى - على موسى التوراة ، وأنزل القرآن على ، وأنا مؤمن بهما كل الإيمان ، فإن كنتم أنتم مصرون على كفركم « فأتوا بكتاب من عند الله ، هو أهدى منهما » أى هو أوضح منهما وأبين فى الإرشاد إلى الطريق المستقيم .

وقوله « أتبعه » مجزوم فى جواب الأمر المحذوف ، أى : إن تأتوا به أتبعه . « إن كنتم صادقين » فى زعمكم أن القرآن والتوراة نوع من السحر .

فالآية الكريمة تتهكم بهم ، وتسخر منهم ، بأسلوب بديع معجز ، لأنه من المعروف لكل عاقل أنهم ليس فى استطاعتهم - ولا فى استطاعة غيرهم - أن يأتوا بكتاب ، أهدى من الكتابين اللذين أنزلهما - سبحانه - على نبيين كريمين من أنبيائه ، هما موسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - .

ولذا قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « وهذا الشرط يأتى به المدل بالأمر المتحقق لصحته ، لأن امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٠ ص ٩١

أمر معلوم متحقق، لا مجال فيه للشك، ويجوز أن يقصد بحرف الشك التهكم بهم »(1).

وقوله - سبحانه - : « فإن لم يستجيبوا لك . . . » زيادة فى تثبيت قلب النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وتسليته عما أصابه منهم من أذى

أى : فإن لم يفعلوا ما تحديتهم به، من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين.

« فاعلم » - أيها الرسول الكريم - « أنما يتبعون أهواءهم » الباطلة، وشهواتهم الزائفة، عندما يجادلونك فى شئون دعوتك.

والاستفهام فى قوله : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . . » للنفى والإنكار.

أى : ولا أحد أضل ممن اتبع هواه وشيطانه، دون أن تكون معه هداية من الله - تعالى - تهديه إلى طريق الحق، لأن هذا الضال قد استحب العمى على الهدى، وآثر الغواية على الرشد.

وقوله - سبحانه - : « إن الله لا يهدى القوم الظالمين » تذييل مبين لسنة الله - تعالى - فى خلقه.

أى : إنه - سبحانه - جرت سنته أن لا يهدى القوم الظالمين إلى طريق الحق بسبب إصرارهم على الباطل، وتجاوزهم لكل حدود الحق والخير.

ثم أكد - سبحانه - قطع أعذارهم وحججهم بقوله : « ولقد وصلنا لهم القول، لعلهم يتذكرون ».

وقوله : « وصلنا » من الوصل الذى هو ضد القطع، والتضعيف فيه للتكثير.

أى : ولقد أنزلنا هذا القرآن عليك - أيها الرسول الكريم - متتابعا، وأنت أوصلته إليهم كذلك، ليتصل تذكيرك لهم، عن طريق ما اشتمل عليه من عقائد وآداب وأحكام وقصص.

(1) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٢٠

« لعلهم يتذكرون » أى : ليكون ذلك أقرب إلى تذكرهم وتعقلهم وتدبرهم ، لأن استماعهم فى كل يوم . أو بين الحين والحين إلى جديد منه ، أدعى إلى تذكرهم واعتبارهم .

فالمقصود بالآية الكريمة . قطع كل حجة لهم . وبيان أن القرآن الكريم قد أنزله ـ سبحانه ـ متتابعا ولم ينزله جملة واحدة ، لحكم من أعظمها اتصال التذكير بهداياته بين حين وآخر ، على حسب ما يجد فى المجتمع من أحداث .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد أقامت ألوانا من الحجج والبراهين ، على صدق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، كما حكت جانبا من شبهات المشركين ، وردت عليها بما يبطلها .

ثم تمدح السورة الكريمة بعد ذلك ، طائفة من أهل الكتاب ، استقامت قلوبهم ، وخلصت نفوسهم من العناد ، فاستقبلوا آيات الله ـ تعالى ـ ومن جاء بها استقبالا يدل على صدق إيمانهم ، فقال ـ تعالى ـ :

« الذينَ آتيناهُمُ الـكتابَ مِنْ قبلهِ هُمْ بهِ يؤمنُونَ (٥٢) وإذَا يتلَى عليهِمْ قالُوا آمنَّا بهِ ، إنَّه الحقُّ من ربِّنَا ، إنَّا كنَّا من قبلهِ مُسلمِينَ (٥٣) أُولئكَ يؤْتَوْنَ أَجرَهُمْ مرَّتَيْنِ بمَا صَبرُوا ، ويدرَءُونَ بالحسَنَةِ السَّيِّئةَ ومِمَّا رزَقناهُمْ يُنْفقُونَ (٥٤) وإذَا سَمِعوا اللَّغْوَ أَعرَضُوا عنهُ وقالُوا : لَنا أعمالُنا ولَـكُم أعمالُـكُم ، سلامٌ عليْـكُم لا نَبتغِي الجاهِلينَ (٥٥) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : أنها نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ـ فلما قدموا عليه ، قرأ عليهم سورة يس ، فجعلوا يبكون وأسلموا .

وقيل : نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود .

وقيل : نزلت فى نصارى نجران ...

وعلى أية حال فالآيات الكريمة تمدح قوما من أهل الكتاب أسلموا ، وتعرض بالمشركين الذين أعرضوا عن دعوة الإسلام ، مع أن فى اتباعها سعادتهم ورشدهم .

والضمير فى قوله « من قبله » يعود إلى القرآن الكريم ، أو إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالموصول من آمن من أهل الكتاب ، والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل .

أى : الذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى من قبل نزول القرآن عليك - أيها الرسول الكريم - هم به يؤمنون ، لأنهم يرون فيه الحق الذى لا باطل معه ، والهداية التى لا تشوبها ضلالة ...

« وإذا يتلى » عليهم هذا القرآن « قالوا » بفرح وسرور « آمنا به » بأنه كلام الله - تعالى - « إنه الحق من ربنا » أى : إنه الكتاب المشتمل على الحق الكائن من عند ربنا وخالقنا « إنا كنا من قبله » أى : من قبل نزوله « مسلمين » وجوهنا لله - تعالى - ، ومخلصين له العبادة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أى فرق بين الاستئنافين « إنه » و « إنا » ؟

قلت : الأول تعليل للإيمان به ، لأن كونه حقا من الله حقيق بأن يؤمن به . والثانى : بيان لقوله : « آمنا به » لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد وبعيده ، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم ، لأن آباءهم القدماء قرءوا فى الكتب الأول ذكره ، وأبناءهم من بعدهم »[1] .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء الأخيار من ثواب فقال : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا .. » .

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ٤٢٠

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة يؤتون أجرهم مضاعفا بسبب صبرهم على مغالبة شهواتهم ، وبسبب صبرهم على ما يستلزمه اتباع الحق من تكاليف .

قال القرطبي : وقوله ـ تعالى ـ « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ثبت فى صحيح مسلم عن أبي موسى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله ـ عز وجل ـ وحق سيده فله أجران ، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن تغذيتها ، ثم أدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران » .

قال علماؤنا : « لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبا من جهة نبيه، ثم إنه خوطب من جهة نبينا ، فأجابه واتبعه فله أجر الملتين[1] .

وقوله ـ تعالى ـ « ويدرءون بالحسنة السيئة » بيان لصفة أخرى من صفاتهم الحسنه .

و « يدرءون » من الدرء بمعنى الدفع، ومنه الحديث الشريف : «ادرءوا الحدود بالشبهات » .

أى : لا يقابلون السيئة بمثلها ، وإنما يعفون ويصفحون ، ويقابلون الكلمة الخبيثة بالكلمة الحسنة .

« ومما رزقناهم ينفقون » أى: ومما أعطيناهم من مال يتصدقون ، بدون إسراف أو تقتير .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٢٩٧ .

« وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » أي: وإذا سمعوا الكلام الساقط الذي لا خير فيه . انصرفوا عنه تكرما وتنزها .

« وقالوا » لمن تطاول عليهم وآذاهم « لنا أعمالنا » التي سيحاسبنا الله ـ تعالى ـ عليها « ولكم » ـ أيضا ـ « أعمالكم » التي سيحاسبكم الله ـ تعالى ـ عليها .

« سلام عليكم » أي : سلام متاركة منا عليكم ، وإعراض عن سفاهتكم ، فليس المراد بالسلام هنا : سلام التحية ، وإنما المقصود به سلام المتاركة والإعراض .

« لا نبتغي الجاهلين » أي : إن ديننا ينهانا عن طلب صحبة الجاهلين ، وعن المجادلة معهم

قال ابن كثير ما ملخصه : « لما انتهى وفد أهل الكتاب من لقائه مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وآمنوا به ، وقاموا عنه ، اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ، ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تكد تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم وفدا أحمق منكم .. فقالوا لهم: سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه»(١) .

* * *

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك أن الهداية منه وحده ، ورد على أقوال المشركين ، وبين سنة من سننه في خلقه ، كما بين أن ما عنده ـ سبحانه ـ أفضل وأبقى ، من شهوات الدنيا وزينتها ، فقال ـ تعالى ـ :

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٥٥

أعلَم بالمُهتدِين (٥٦) وقالُوا إنْ نتَّبِـع الهُدَى معَكَ نُتخطَفْ من أرْضِنا أَوَلَمْ نُمكِّنْ لهُم حَرَماً آمِناً يُجبى إليهِ ثمراتُ كلِّ شيء رِزقاً ، مِن لدُنّا ولـكنَّ أكثرَهُمْ لا يعلمونَ (٥٧) وكَمْ أهلَـكنا مِنْ قريةٍ بَطِرتْ معيشتَها ، فتِلكَ مساكِنهم لم تُسكَنْ من بَعدِهم إلا قليلاً ، وكُنّا نحنُ الوارِثينَ (٥٨) وما كانَ ربُّكَ مُهلِكَ القُرَى حتَّى يَبعثَ فى أمِّها رسُولاً يتلو عليهم آياتِنـا ، وما كُنّا مهلِـكى القُرَى إلاَّ وأهلُها ظَالمونَ (٥٩) وما أوتيتُم من شيء فمتاعُ الحيَاةِ الدُّنيـا وزينَتُها ، وما عندَ اللهِ خيرٌ وأبقى ، أفلاَ تعقِلُونَ (٦٠) أفمَنْ وعَدناهُ وعداً حسناً فهُوَ لاقيـهِ كمَنْ متَّعناهُ متاعَ الحياةِ الدُّنيا ، ثمَّ هُو يومَ القيامةِ من المُحضَرِينَ (٦١)» .

قال الإمام ابن كثير : « قوله ـ تعالى ـ : « إنك لاتهدى من أحببت » ثبت فى الصحيحين أن هذه الآية نزلت فى أبى طالب ، عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد كان يحوطه وينصره ... فلما حضرته الوفاة ، وحان أجله ، دعاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الإيمان والدخول فى الإسلام ، فسبق القدر فيه ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة التامة ... »[1].

والمعنى : « إنك » ـ أيها الرسول الكريم ـ « لاتهدى من احببت » أى : لاتستطيع بقدرتك الخاصة أن تهدى إلى الإيمان من تريد هدايته إليه .

« ولـكن الله يهدى من يشاء » أى : ولـكن الله ـ تعالى ـ وحده ، هو الذى يملك هداية من يشاء هدايته إلى الإيمان ، فهو ـ سبحانه ـ الخالق لـكل شىء ، وقلوب العباد تحت تصرفه ـ تعالى ـ يهدى من يشاء منها ويضل من يشاء ، على حسب مشيئته وحكمته ، التى تخفى على الناس . .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٥٦

« وهو - سبحانه - أعلم بالمهتدين» أى : بالقابلين للهداية المستعدين لها.
فبلغ - الرسول الكريم - ما كلفناك به ، ثم اترك بعد ذلك قلوب الناس إلى خالقهم ، فهو - سبحانه - الذى يصرفها كيف يشاء.

قال بعض العلماء : «وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر ، مأخوذا بصرامة هذا الدين واستقامته ، فهذا عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكافله وحاميه والذائد عنه ، لا يكتب الله له الإيمان ، على شدة حبه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشدة حب الرسول له أن يؤمن .

ذلك أنه إنما قصد إلى عصبية القرابة وحب الأبوة ، ولم يقصد إلى العقيدة ، وقد علم الله منه ذلك فلم يقدر له ما كان يحبه له - صلى الله عليه وسلم - ويرجوه ، فأخرج هذا الأمر - أى الهداية - من خاصة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وجعله خاصا بإرادته - سبحانه - وتقديره. وما على الرسول إلا البلاغ ، وما على الداعين بعده إلا النصيحة ، والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن ، والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد ، واستعدادهم للهدى والضلال »[1].

ثم حكى - سبحانه - جانبا من الاعتذارات الواهية التى تذرع بها المشركون فى عدم الدخول فى الإسلام .

فقال - تعالى - : « وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ... » .

والتخطف : الانتزاع بسرعة . يقال : فلان اختطفه الموت . إذا أخذه بغتة بدون إمهال .

وقد ذكروا فى سبب نزولها ، أن بعض المشركين أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال له : يا محمد ، نحن نعلم أنك على الحق ، ولكنا نخشى إن اتبعناك ، وخالفنا العرب ، أن يتخطفونا من أرضنا ، وإنما نحن أكلة - رأس - أى : قليلون لا نستطيع مقاومة العرب .

(١) تفسير فى ظلال القرآن ج ٢٠ ص ٣٦١ . للأستاذ سيد قطب

وقد رد الله - تعالى - على تعللهم هذا بقوله : « أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا . ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

وقوله : « يجبى إليه » أى : يحمل إليه ، يقال جبى فلان الماء فى الحوض إذا جمعه فيه ، وحمله إليه .

والاستفهام لتقريعهم على قولهم هذا الذى يخالف الحقيقة .

أى : كيف قالوا ذلك ، مع أننا قد جعلنا لهم حرما ذا أمان يعيشون من حوله ، وتأتيهم خيرات الأرض من كل مكان ، وقد فعلنا ذلك معهم وهم مشركون ، فكيف نعرضهم للخطف وهم مؤمنون .

قال صاحب الكشاف : « وكانت العرب فى الجاهلية حولهم - أى حول أهل مكة - يتغاورون ويتناحرون ، وهم آمنون مطمئنون فى حرمهم ، وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذى زرع ، والثمرات والأرزاق تجبى إليهم من كل مكان ، فإذا خولهم الله ما خولهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها ، وهم كفرة عبدة أصنام ، فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخطف والخوف ، ويسلبهم الأمن ، إذا ضموا إلى حرمة البيت ، حرمة الإسلام . . »(١) .

والتعبير بقوله - سبحانه - : « يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا » الإشعار بكثرة الخيرات والثمرات ، التى تأتى إلى أهله مكة من كل جانب من جوانب الأرض ، ومن كل نوع من أنواع ثمارها . والجملة الكريمة صفة من صفات الحرم .

وقوله - تعالى - : « من لدنا » أى : من جهتنا ومن عندنا وليس من عند غيرنا ، الذين تخشون غضبهم أو تخطفهم لكم ، إن اتبعتم الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٢٢

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة بيان سعة فضل الله - تعالى - ، وأنه هو القادر على كل شيء .

وقوله - تعالى - : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » متعلق بقوله « أو لم نمكن لهم حرما آمنا ... » .

أي : لقد جعلنا لهم حرما ذا أمن ، وأفضنا عليهم من خيرات الأرض ، ولكن أكثرهم يجهلون هذه الحقيقة ، ويجهلون أن اتباعهم للدين الحق ، يؤدي إلى سعادتهم في حياتهم وبعد مماتهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله يكفرون »(1) .

ثم بين سبحانه - الأسباب الحقيقية التي تؤدي إلى زوال النعم ، التي من بينها نعمة الأمان والاطمئنان ، فقال - تعالى - : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ... » .

وكم هنا خبرية للتكثير ، و « بطرت » من البطر ، بمعنى الأشر والغرور واستعمال نعم الله - تعالى - في غير ما خلقت له .

أي : وكثيرا من أهل قرى كانت أحوالهم كحال أهل مكة في الأمن وسعة الرزق ، فلما بطروا معيشتهم ، واستعملوا نعمنا في الشر لا في الخير ، وفي الفسوق لا في الطاعة ، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم وقراهم تدميرا .

إذا فبطر النعمة وعدم الشكر عليها ، هو السبب الحقيقي في الهلاك ، وليس اتباع الهدى كما زعم أولئك المشركون الجاهلون .

قال القرطبي : « بين - سبحانه - لمن توهم ، أنه لو آمن لقاتلته العرب

(1) سورة العنكبوت الآية ٦٧ .

وتخطفته ، أن الخوف فى ترك الإيمان أكثر ، فكم من قوم كفروا ثم حل بهم البوار ، والبطر : الطغيان بالنعمة .

و « معيشتها » أى : فى معيشتها ، فلما حذف «فى» تعدى الفعل ، كما فى قوله - تعالى - : « واختار موسى قومه سبعين رجلا ... » (١).

ثم بين - سبحانه - مآل مساكن هؤلاء الطاغين فقال : « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ... » .

أى : فتلك مساكن هؤلاء الطغاة ترونها يا أهل مكة فى أسفاركم - إنها لم تسكن من بعدهم إلا زمانا قليلا ، كالذى يرتاح بها وهو مسافر ثم يتركها إلى غير عودة إليها ، لأنها صارت غير صالحة لذلك لشؤمها .

« وكنا نحن الوارثين » أى : وكنا نحن وحدنا الوارثين لها منهم ، لأنهم لم يتركوا أحدا يرث منازلهم وأموالهم ، أو لأنها صارت خرابا لا تصلح للسكن .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر عدالته ، وسنة من سننه التى كتبها على نفسه فقال - تعالى - : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا . . »

والمراد . بأمها ، أكبرها وأعظمها كمكة بالنسبة للجزيرة العربية .

أى : إن حكمة الله - تعالى - وعدالته قد اقتضت ، أن لا يهلك قرية من القرى التى كفر أهلها ، حتى يبعث فى كبرى تلك القرى وأصلها رسولا من رسله الكرام ، يتلو على أهلها آياته ، ويبلغهم دعوته ، ويبين لهم الحق من الباطل .

وحكمة إرسال الرسول فى كبرى تلك القرى ، لأنها المركز والعاصمة ،

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٠١

التى تبلغ الرسالة إلى القرى التابعة لها، ولأنها فى العادة - المكان المختار لسكنى وجهاء القوم ورؤسائهم.

قال ابن كثير ما ملخصه: وفى هذه الآية دلالة على أن النبى - صلى الله عليه وسلم - المبعوث من أم القرى - وهى مكة -، رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام، كما قال - تعالى -: «وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها...»، وقال - تعالى -: «قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا...». وثبت فى الصحيحين أنه قال: بعثت إلى الأحمر والأسود، ولذا ختم به الرسالة والنبوة، فلا نبى بعده، ولا رسول، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة»[1].

وقوله - سبحانه -: «وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون» معطوف على ما قبله. - وهو قوله: «وما كان ربك مهلك القرى - ومؤكد له.

أى: وما كنا فى حال من الأحوال بمهلكى هذه القرى، إلا فى حال ظلم أهلها لأنفسهم، عن طريق تكذيبهم لرسلنا وإعراضهم عن آياتنا، وإيثارهم الكفر على الإيمان...

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى -: «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون».

ثم بين - سبحانه - أن هذه الدنيا ومافيها من متاع، هى شىء زهيد وضئيل بالنسبة لما ادخره - عز وجل - لعباده الصالحين من خيرات، فقال: «وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها...»

أى: وما أعطيتموه - أيها الناس - من خير، وما أصبتموه من مال، فهو متاع زائل من أعراض الحياة الدنيا الزائلة وحطامها الذى لادوام له، ومهما

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٥٨

كثر فهو إلى نفاد ، ومهما طال فله نهاية ، فأنتم تتمتعون بزينة الحياة الدنيا ثم تتركونها لغيركم .

« وما عند الله - تعالى - » من ثواب وعطاء جزيل فى الآخرة ، هو فى نفسه « خير وأبقى » لأن لذته خالصة من الشوائب والأكدار ، وبهجته لا تنتهى ولا تزول .

« أفلا تعقلون » هذه التوجيهات الحكيمة ، وتعملون بمقتضاها ، فإن من شأن العقلاء أن يؤثروا الباقى على الفانى ، والذى هو خير على الذى هو أدنى .

ثم نفى - سبحانه - التسوية بين أهل الجنة وأهل النار بأبلغ أسلوب فقال: « أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه ، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا . . . » .

فالاستفهام للإنكار ونفى المساواة بين الفريقين ، والمراد بالوعد : الموعود به وهو الجنة ونعيمها .

أى : إنه لا يستوى فى عرف أى عاقل ، حال المؤمنين الذين وعدناهم وعدا حسنا بالجنة ونعيمها ، وهم سيظفرون بما وعدناهم به لا محالة ، وحال أولئك الكافرين والفاسقين الذين متعناهم إلى حين بمتع الدنيا الزائلة .

وقوله - سبحانه - : « ثم هو يوم القيامة من المحضرين » معطوف على « متعناه » وداخل معه فى حيز الصلة ، ومؤكد لإنكار المساواة .

أى : ثم هو الذى متعناه بمتاع الحياة الدنيا الزائل ، من المحضرين لعذابنا فى النار . والمحضرين : جمع محضر . اسم مفعول من أحضره .

وهذا التعبير يشعر بإحضاره إلى النار وهو مكره خائف ، من العذاب المهين الذى أعدله ، فالآية الكريمة قد نفت - بأبلغ أسلوب - المساواة بين المؤمنين والكافرين .

. . .

ثم حكى ـ سبحانه ـ جانبا من أقوال المشركين يوم القيامة ، ومن أحوالهم السيئة ، ورد أمرهم وأمر غيرهم إليه وحده ـ عز وجل ـ فقال :

« ويَوْمَ يُنادِيهِمْ فيقولُ أينَ شُركائِيَ الذينَ كنتُم تزعُمونَ (٦٢) قال الذينَ حقّ عليهم القولُ ، ربَّنا هؤلاءِ الذينَ أغوَيْنا ، أغْوَيناهُمْ كما غوينَا ، تبرأنَا إليكَ ، ما كانوا إيّانا يعبدُونَ (٦٣) وقيلَ ادْعُوا شُركاءكُم فدعَوْهُمْ فلَمْ يَستجيبوا لهم ، ورأَوْا العذابَ لو أنَّهم كانوا يهتدُونَ (٦٤) ويوْمَ يناديهِمْ فيقولُ ماذَا أَجبتُمُ المُرسلينَ (٦٥) فعميتْ عليهِمُ الأنباءُ يومئذٍ فهُم لا يتساءلُونَ (٦٦) فأمَّا من تابَ وآمَن وعمِلَ صالحاً ، فعسَى أن يكونَ من المفلحينَ (٦٧) وربُّكَ يخلُقُ مايشاءُ ويختارُ ما كانَ لهم الخيرَةَ ، سُبحانَ اللهِ وتعالى عمّا يُشركُونَ (٦٨) وربُّكَ يعلَمُ ما تُكِنُّ صدُورُهُمْ وما يُعلنُونَ (٦٩) وهُو اللهُ لا إلهَ إلاّ هُو لهُ الحمدُ فى الأولى والآخرةِ ، وله الحكْمُ وإليه تُرجعُونَ (٧٠) » .

والظرف فى قوله ـ سبحانه ـ : « يوم يناديهم .... » منصوب بفعل مقدر ، ونداؤهم نداء إهانة وتحقير . والنداء صادر عن الله ـ تعالى ـ .

أى : واذكر ـ أيها المخاطب ـ لتتعظ وتعتبر ، حال أولئك الظالمين ، يوم يناديهم الله ـ تعالى فيقول لهم : « أين شركائى الذين كنتم تزعمون » أى : أين شركائى الذين كنتم فى الدنيا تزعمونهم شركائى ، لكى ينصروكم أو يدفعوا عنكم العذاب .

فمفعولا « تزعمون » محذوفان ، لدلالة الكلام عليهما . والمقصود بهذا الاستفهام « أين شركائى » : الخزى والفضيحة ، إذ من المعلوم أنه لا شركاء لله ـ تعالى لا فى ذاته ولا فى صفاته .

والمراد بالذين حق عليهم القول فى قوله - تعالى - : «قال الذين حق عليهم القول ...» رؤساؤهم فى الكفر ، ودعاتهم إليه كالشياطين ، ومن يشبهونهم فى التحريض على الضلال .

أى قال رؤساؤهم ودعاتهم إلى الكفر ، الذين ثبت عليهم العذاب بسبب إصرارهم على الفسوق والجحود .

«ربنا هؤلاء الذين أغوينا ..» أى : ياربنا هؤلاء هم أتباعنا الذين أضللناهم . «أغويناهم كما غوينا» أى : دعوناهم إلى الضلالة التى كنا عليها فأطاعونا فيما دعوناهم إليه .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله «هؤلاء» مبتدأ ، و«الذين أغوينا» صفته ، والراجع إلى الموصول محذوف و«أغويناهم» الخبر . والكاف صفة لمصدر محذوف تقديره : أغويناهم فغووا غيا مثل ماغوينا ، يعنون أنا لم نغو إلا باختيارنا ، لا أن فوقنا مغوين أغوونا بقسر منهم وإلجاء . أو دعونا إلى الغى وسولوه لنا ، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم ، لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلا ، لا قسرا أو إلجاء ، فلا فرق إذا بين غينا وغيهم ...»(١)

وقوله - سبحانه - «تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون» من كلام الرؤساء والشياطين ، فهو مقرر لما قبله ، ومؤكد له .

أى : تبرأنا إليك منهم ، ومن ادعائهم أننا أجبرناهم على الضلالة والغواية والحق أنهم ما كانوا يعبدوننا ، بل كانوا يعبدون ما سولته لهم أهواؤهم وشهواتهم الباطلة .

فالآية الكريمة تحكى تبرؤ رءوس الكفر من اتباعهم يوم القيامة ، ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : «وقال الشيطان لما قضى الأمر

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٢٦

إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ...»(١)

وقوله ـ سبحانه ـ : «واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا »(٢)

ثم وجه ـ سبحانه ـ إليهم توبيخا آخر فقال : « وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون » .

أى : وقيل لهؤلاء الكافرين على سبيل الفضيحة والتقريع : اطلبوا من شركائكم الذين توهمتم فيهم النفع والضر أن يشفعوا لكم ، أو أن ينقذوكم مما أنتم فيه من عذاب ، فطلبوا منهم ذلك لشدة حيرتهم وذلتهم « فلم يستجيبوا لهم » ولم يلتفتوا إليهم .

« ورأوا العذاب » أى : ورأى الشركاء والمشركون العذاب ماثلا أمام أعينهم .

و « لو » فى قوله : « لو أنهم كانوا يهتدون» شرطية ، وجوابها محذوف ، والتقدير : لو أنهم كانوا فى الدنيا مهتدين إلى طريق الحق ، لما أصابهم هذا العذاب المهين .

ويجوز أن تكون للتمنى فلا تحتاج إلى جواب ، ويكون المعنى « ورأوا العذاب » فتمنوا أن لو كانوا ممن هداهم الله ـ تعالى ـ إلى الصراط المستقيم فى الدنيا .

ثم وجه ـ سبحانه ـ إليهم نداء آخر لا يقل عن سابقه فى فضيحتهم وتقريعهم، فقال ـ تعالى ـ : « ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتم المرسلين » .

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .
(٢) سورة مريم الآية ٨١ ، ٨٢ .

أى : واذكر ـ أيها العاقل ـ حال هؤلاء الكافرين يوم يناديهم المنادى من قبل الله ـ عز وجل ـ فيقول لهم : ما الذى أجبتم به رسلكم عند ما أمروكم بإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ونهوكم عن الإشراك والكفر ؟

فالمقصود من السؤال الأول : توبيخهم على إشراكهم ، والمقصود من السؤال الثانى ، توبيخهم على تكذيبهم لرسلهم ، ولذا وقفوا من هذه الأسئلة موقف الحائر المذهول المكروب ، كما قال ـ تعالى ـ : « فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون » .

أى : فخفيت عليهم الحجج التى يجيبون بها على هذه الأسئلة ، وصاروا لفرط دهشتهم وذهولهم عاجزين عن أن يسأل بعضهم بعضا عن الإجابة .

وعدى « فعميت » بعلى ، لتضمنه معنى الخفاء ، قال ـ سبحانه ـ « فعميت عليهم الأنباء » ، ولم يقل : فعموا عن الأنباء ، للمبالغة فى بيان ذهولهم وصمتهم المطبق فى ذلك اليوم العسير ، حتى لكأنما الأنباء والأخبار عمياء لا تصل إليهم ، ولا تعرف شيئا عنهم .

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ : « فهم لا يتساءلون » يشعر بزيادة حيرتهم وفرط دهشتهم ، فهم جميعا قد صاروا فى حالة من الإبلاس والحيرة ، جعلتهم يتساوون فى العجز والجهل .

وكعادة القرآن الكريم فى الجمع بين حال الكافرين وحال المؤمنين ، أتبع الحديث عن الكافرين ، بالحديث عن المؤمنين فقال : « فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى » هذا التائب المؤمن المواظب على الأعمال الصالحة « أن يكون من المفلحين » أى : من الفائزين بالمطلوب .

قال ابن كثير : « وعسى » من الله ـ عز وجل ـ موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنه ـ أى وعطائه ـ لا محالة » (1)

---

(1) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٦١ .

ثم بين - سبحانه - أن مرد الأمور جميعها إليه ، وأنه هو صاحب الخلق والأمر فقال : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ... » .

أى : وربك - أيها الرسول الكريم - يخلق ما يشاء أن يخلقه ، ويختار من يختار من عباده لحمل رسالته ، ولتبليغ دعوته ، « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

و « ما » فى قوله - تعالى - « ما كان لهم الخيرة » نافية والخيرة من التخير وهى بمعنى الاختيار ، والجملة مؤكدة لما قبلها من أنه - سبحانه - يخلق ما يشاء ويختار .

أى : وربك وحده يخلق ما يشاء خلقه ويختار ما يشاء اختياره لشئون عباده ، وماصح وما استقام لهؤلاء المشركين أن يختاروا شيئا لم يختره الله - تعالى - أو لم يرده ، إذ كل شىء فى هذا الوجود خاضع لإرادته وحده - عز وجل - ، ولا يملك أحد كائنا من كان أن يقترح عليه شيئا ، ولا أن أن يزيد أو ينقص فى خلقه شيئا . . .

وليس لهؤلاء المشركين أن يختاروا للنبوة أو لغيرها أحد لم يختره الله - تعالى - لذلك ، « فالله - عز وجل - أعلم حيث يجعل رسالته » .

قال القرطبى ما ملخصه : « قوله : « ما كان لهم الخيرة » أى : ليس يرسل من اختاروه هم .

وقيل : يجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب يختار ، ويكون المعنى ، ويختار الذى كان لهم فيه الخيرة .

والصحيح الأول ، لإطباقهم الوقف على قوله « ويختار » ، و « ما » نفى عام لجميع الأشياء ، أى يكون للعبد فيها شىء سوى اكتسابه بقدرة الله - عز وجل - .

وقال الثعلبى : و « ما » نفى ، أى : ليس لهم الاختيار على الله . وهذا أصوب .

كقوله ـ تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكونَ لهم الخيرة من أمرهم .. »[1].

وقوله ـ تعالى ـ : « سبحان الله وتعالى عما يشركون ، تنزيه له ـ عز وجل ـ عن الشرك والشركاء .

أى تنزه الله ـ تعالى ـ وتقدس بذاته وصفاته عن إشراك المشركين ، وهلاك الضالين .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن علمه شامل لكل شىء فقال : « وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » .

أى : وربك ـ أيها الرسول الكريم ـ يعلم علما تاما ما تخفيه صدور هؤلاء المشركين من أسرار ، وما تعلنه من أقوال ، وسيحاسبهم على كل ذلك حسابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . .

« وهو الله » ـ سبحانه « لا إله إلا هو » المستحق العبادة والخضوع « له الحمد فى الأولى » ،

أى : فى الدنيا ، وله الحمد ـ أيضا ـ « فى الآخرة » ، وله ، وحده « الحكم » النافذ « وإليه » وحده « ترجعون » للحساب لا إلى غيره .

• • •

ثم أمر ـ سبحانه ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذكر الناس بمظاهر قدرته ـ سبحانه ـ فى هذا الكون . وأن يوقظ مشاعرهم للتأمل فى ظاهرتين كونيتين ، هما الليل والنهار ، فإن التدبر فيما اشتملتا عليه من تنظيم دقيق ، من شأنه أن يبعث على الإيمان بقدرة موجدهما ، وهو الله عز وجل . قال ـ تعالى ـ :

« قلْ أرأيتُم إنْ جعل اللهُ عليكُم الليلَ سَرْمداً إلى يومِ القيامة »

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ١٥٠ .

مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بضياء أفلاَ تسمعُونَ (٧١) قل أرأيتم إن جعلَ اللهُ عليكم النهارَ سرمداً إلى يومِ القيامةِ ، منْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بليلٍ تسكُنُون فيهِ أفلاَ تبصِرُونَ (٧٢) ومِنْ رَحمتِه جعلَ لكُمُ الليلَ والنهارَ لتسكُنُوا فيه ، ولتبتغُوا منْ فضلِه ولعلكُم تشكُرونَ (٧٣) ويومَ ينادِيهمْ فيقولُ أينَ شركائِى الذينَ كنتُم تزعمُونَ (٧٤) ونزعنَا مِنْ كلٌ أمةٍ شَهيداً فقُلنَاهاتُوا برهَانكم ، فعلِمُوا أنَّ الحقَّ للهِ ، وضلَّ عنهم ما كانُوا يفترُونَ (٧٥) » .

والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع ، والمراد به هنا : دوام الزمان من ليل أو نهار.

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ليعتبروا ويتعظوا إلى مظاهر قدرتنا ورحمتنا ، أخبرونى ماذا كان يحصل لكم إن جعل الله - تعالى - عليكم الزمان ليلا دائما إلى يوم القيامة ، « من إله » - تعالى - « يأتيكم بضياء » تبصرون عن طريقه عجائب هذا الكون ، وتقضون فيه حوائجكم « أفلا تسمعون » ما أرشدناكم إليه ، سماع تدبر وتفهم واعتبار يهديكم إلى طاعة الله - تعالى - وشكره على نعمه .

ثم قال لهم : أخبرونى بعد ذلك ، لو جعل الله - تعالى - عليكم الزمان ضياء دائما إلى يوم القيامة « من إله غير الله » - تعالى - « يأتيكم بليل تسكنون فيه » أى : تستريحون فيه من عناء العمل والكد والتعب بالنهار « أفلا تبصرون » أى : أفلا تبصرون هذه الدلائل الساطعة الدالة على قدرة الله - تعالى - ورأفته بكم .

إن دوام الزمان على هيئة واحدة من ليل أو نهار، يؤدى إلى اختلال الحياة، وعدم توفر أسباب المعيشة السليمة لكم، بل ربما أدى إلى هلاككم.

إن المشاهد من أحوال الناس، أنهم مع وجود الليل لساعات محدودة، يشتاقون لطلوع الفجر، لقضاء مصالحهم، ومع وجود النهار لساعات محدودة - أيضا - يتطلعون إلى حلول الليل، ليستريحوا فيه من عناء العمل.

وختم - سبحانه - الآية الأولى بقوله: «أفلا يسمعون»، لأن حاسة السمع - فيما لو كان الليل سرمدا - هي أكثر الحواس استعمالا في تلك الحالة المفترضة، وختم الآية الثانية بقوله: «أفلا تبصرون»، لأن حاسة البصر - فيما لو كان النهار سرمدا - من أكثر الحواس استعمالا في هذه الحالة.

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه، كما قيل «بليل تسكنون فيه»؟

قلت: ذكر الضياء - وهو ضوء الشمس - لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة، ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة»(١).

وقوله - سبحانه -: «ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون» بيان لمظاهر فضل الله - تعالى - على الناس، حيث جعل الليل والنهار على تلك الحالة التي يعيشون فيها.

أي: ومن رحمته بكم - أيها الناس - أنه - سبحانه - لم يجعل زمان الليل سرمدا، ولا زمان النهار نهارا، بل جعلهما متعاقبين، وجعل لكل واحد منهما زمانا محددا مناسبا لمصالحكم ومنافعكم، فالليل تسكنون فيه وتريحون فيه أبدانكم، والنهار تنتشرون فيه لطلب الرزق من الله تعالى.

وقد فعل - سبحانه - ذلك لمصلحتكم، كي تشكروه على نعمه، وتخلصوا له العبادة والطاعة.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٢٨

وبعد هذا الحديث عن مشاهد الكون ، عادت السورة - المرة الثالثة - إلى الحديث عن أحوال المجرمين يوم القيامة ، فقال - تعالى - : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون » .

أى : كن متذكرا - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، حال المجرمين يوم القيامة ، يوم يناديهم الله - تعالى - على سبيل التقريع والتأنيب فيقول لهم : أين شركائى الذين كنتم فى دنياكم تزعمون أنهم شركائى فى العبادة والطاعة

إنهم لا وجود لهم إلا فى عقولكم الجاهلة ، وأفكاركم الباطلة ، وتقاليدكم السقيمة .

قال - تعالى - : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون »(١)

ثم سجل - سبحانه - على هؤلاء المجرمين إجرامهم عن طريق شهادة رسلهم عليهم ، فقال : « ونزعنا من كل أمة شهيدا . . » .

أى : أخرجنا بسرعة من كل أمة من الأمم شهيدا يشهد عليهم ، والمراد به الرسول الذى أرسله - سبحانه - إلى تلك الأمة المشهود عليها . « فقلنا هاتوا برهانكم » أى : فقلنا لهؤلاء المشركين - بعد أن شهد عليهم أنبياؤهم بأنهم قد بلغوهم رسالة الله - قلنا لهم : هاتوا برهانكم وأدلتكم على صحة ما كنتم عليه من شرك وكفر فى الدنيا . والأمر هنا للتعجيز والإفضاح .

ولذا عقب - سبحانه - عليه بقوله : « فعلموا أن الحق لله » أى : فعجزوا عن الإتيان بالبرهان ، وعلموا أن العبادة الحق إنما هى لله - تعالى - وحده .

« وضل عنهم ما كانوا يفترون » أى : وغاب عنهم ما كانوا يفترونه فى حياتهم ، من أن معبوداتهم الباطلة ستشفع لهم يوم القيامة .

وبعد هذا البيان المتنوع عن دعاوى المشركين والرد عليها ، وعن أحوالهم يوم القيامة ، وعن أحوال المؤمنين الصادقين . . . بعد كل ذلك ، ختم سبحانه

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٤ .

قصة موسى - عليه السلام - التي جاء الحديث عنها في كثير من آيات هذه السورة - ختمها بقصة قارون الذي كان من قوم موسى - عليه السلام - ، فقال - تعالى - :

« إنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قومِ موسى فبَغَى عليهم ، وآتيناهُ من الكنُوزِ ما إنَّ مفاتِحَه لتنُوءُ بالعُصبَةِ أُولي القوةِ ، إذْ قالَ لهُ قومُه لا تفرَحْ إنَّ اللهَ لا يحبُّ الفَرِحِين (٧٦) وابتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ، ولا تَنْسَ نصيبكَ مِنَ الدُّنيا ، وأحْسِن كما أحْسَنَ اللهُ إليكَ ، ولاتبْغِ الفسادَ في الأرضِ إن اللهَ لا يحبُّ المفسدينَ (٧٧) قالَ إنَّما أوتيتُه عَلَى علمٍ عندِي ، أوَلَمْ يعلَمْ أنَّ اللهَ قد أهلَكَ من قبلِه من القُرُونِ من هُوَ أشدُّ منهُ قوةً وأكثَرُ جَمْعاً ، ولا يسألُ عنْ ذُنوبِهِمُ المجرِمُونَ (٧٨) فخرجَ عَلَى قومِه في زِينتَهِ ، قال الذينَ يرِيدُونَ الحياةَ الدُّنياَ : يا ليتَ لَنا مثلَ ما أُوتِيَ قارُون ، إنَّه لذُو حظٍّ عظيمٍ (٧٩) وقالَ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ ويلَكم ، ثوابُ اللهِ خيرٌ لمنْ آمَن وعمِلَ صالِحًا ، ولا يلقَّاهَا إلاَّ الصابِرُون (٨٠) فخَسفْنَا بِه وبِدارِه الأرضَ فما كانَ لهُ مِنْ فئةٍ ينصرُونَه من دونِ اللهِ وما كانَ من المنتصِرِينَ (٨١) وأصبحَ الذينَ تَمنَّوْا مكانهُ بالأمسِ يقولُونَ ويكأنَّ اللهَ يبسطُ الرِّزقَ لِمَنْ يشاءُ مِن عبادهِ ويقدِرُ ، لولاَ أنْ مَنَّ اللهُ علَيْنَا لخسَفَ بِنَا ، ويكأنَّه لا يفْلِحُ الكافِرُونَ (٨٢) تلكَ الدَّارُ الآخرةُ نجعلُهاَ للذينَ لا يرِيدُونَ علُوًّا في الأرضِ ولا فساداً ، والعاقبةُ للمتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جاء بالحسنةِ فلَهُ خيرٌ

منها ، ومَنْ جاء بالسيئةِ فلاَ يُجْزَى الذينَ عَمِلوا السيئاتِ إلا ما كانُوا يعمَلُون (٨٤) » .

قال القرطبى: « قوله ـ تعالى ـ : « إن قارون كان من قوم موسى.... »: لما قال ـ تعالى ـ : « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها » بين أن قارون أوتيها وأغتر بها ، ولم تعصمه من عذاب الله ، كما لم تعصم فرعون ولستم ـ أيها المشركون ـ بأكثر عددا ومالا من قارون وفرعون، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه .

قال النخعى وقتادة وغيرهما : كان قارون ابن عم موسى... وقيل كان ابن خالته ... »[1]

وقوله « فبغى عليهم » من البغى وهو مجاوزة الحد فى كل شيء . يقال : بغى فلان على غيره بغيا ، إذا ظلمه واعتدى عليه . وأصله من بغى الجرح ، إذا ترمى إليه الفساد .

والمعنى : إن قارون كان من قوم موسى ، أى : من بنى إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى ، كما أرسل إلى فرعون وقومه .

« فبغى عليهم » أى : فتطاول عليهم ، وتجاوز الحدود فى ظلمهم وفى الاعتداء عليهم .

ولم يحدد القرآن كيفية بغيه أو الأشياء التى بغى عليهم فيها ، للإشارة إلى أن بغيه قد شمل كل ما من شأنه أن يسمى بغيا من أقوال أو أفعال .

وقوله ـ تعالى ـ : « وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » بيان لما أعطى الله ـ تعالى ـ لقارون من نعم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٣ ص٣١٠

والكنوز: جمع كنز وهو المال الكثير المدخر، و «ما» موصولة، وهى المفعول الثانى لآتينا.

وصلتها «إن» وما فى حيزها. وقوله: «مفاتحه» جمع مفتح -بكسر الميم وفتح التاء- وهو الآلة التى يفتح بها. أو جمع مفتح -بفتح الميم والتاء- بمعنى الخزائن التى تجمع فيها الأموال.

وهو -أى لفظ مفاتحه- اسم إن، والخبر: «لتنوء بالعصبة أولى القوة».

وقوله «لتنوء» أى لتعجز أو لتثقل. يقال: ناء فلان يحمل هذا الشىء، إذا أثقله حمله وأتعبه: والباء فى قوله: «بالعصبة» للتعدية. والعصبة: الجماعة من الناس من غير تعيين بعدد معين، سموا بذلك لأنهم يتعصب بعضهم لبعض ومنهم من خصها فى العرف، بالعشرة إلى الأربعين.

والمعنى: وآتينا قارون -بقدرتنا وفضلنا- من الأموال الكثيرة، ما يثقل حمل مفاتح خزائنها، العصبة من الرجال الأقوياء، بحيث تجعلهم شبه عاجزين عن حملها

قال صاحب الكشاف: «وقد بولغ فى ذكر ذلك -أى فى كثرة أمواله- بلفظ: الكنوز، والمفاتح، والنوء، والعصبة، وأولى القوة»(١).

والمراد بالفرح فى قوله -سبحانه-: «إذ قال له قومه لا تفرح»: البطر والأشر والتفاخر على الناس، والاستخفاف بهم، واستعمال نعم الله -تعالى- فى السيئات والمعاصى.

وجملة: «إن الله لا يحب الفرحين» تعليل للنهى عن الفرح المذموم.

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ٦٣٠

أى : لقد أعطى الله - تعالى - قارون نعما عظيمة ، فلم يشكر الله عليها ، بل طغى وبغى ، فقال له العقلاء من قومه : لا تفرح بهذا المال الذى بين يديك فرح البطر الفخور ، المستعمل لنعم الله فى الفسوق والمعاصى ، فإن الله - تعالى - لا يحب من كان كذلك .

ثم قالوا له - أيضا - على سبيل النصح والإرشاد : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » أى : واطلب فيما أعطاك الله - تعالى - من أموال عظيمة ، ثواب الدار الآخرة ، عن طريق إنفاق جزء من مالك فى وجوه الخير ، كالإحسان إلى الفقراء والمحتاجين .

« ولا تنس نصيبك من الدنيا » أى : اجعل مالك زادا لآخرتك ، ولا تترك التنعم بنعم الله فى دنياك ، فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، ولضيفك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه .

« وأحسن كما أحسن الله إليك » أى : وأحسن إلى عباد الله بأن تترك البغى عليهم ، وتعطيهم حقوقهم ، مثل ما أحسن الله إليك بنعم كثيرة » .

« ولا تبغ الفساد فى الأرض » أى : ولا تطلب الفساد فى الأرض عن طريق البغى والظلم ، إن الله لا يحب المفسدين » كما أنه - سبحانه - لا يحب الفرحين المختالين .

وهكذا ساق العقلاء من قوم قارون النصائح الحكيمة له ، والتى من شأن من اتبعها أن ينال السعادة فى دنياه وأخراه .

ولكن قارون قابل هذه النصائح ، بالغرور وبالإصرار على الفساد والجحود فقال - كما حكى القرآن عنه - : « إنما أوتيته على علم عندى » .

أى : قال قارون فى الرد على ناصحيه : إن هذا المال الكثير الذى تحت يدى ، إنما أوتيته بسبب علمى وجدى واجتهادى ... فكيف تطلبون منى أن

أتصرف بمقتضى نصائحكم ؟ لا لن أتبع تلك النصائح التى وجهتموها إلى، فإن هذا المال مالى ولا شأن لكم بتصرفى فيه ، كما أنه لا شأن لكم بتصرفاتى الخاصة ، ولا بسلوكى فى حياتى التى أملكها .

وهذا القول يدل على أن قارون ، كان قد بلغ الذروة فى الغرور والطغيان وجحود النعمة .

ولذا جاءه التهديد المصحوب بالسخرية منه ومن كنوزه، فى قوله - تعالى -: « أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا . . » .

والمقصود بهذا الاستفهام التعجيب من حاله ، والتأنيب له على جهله وغـــروره .

أى : أبلغ الغرور والجهل بقارون أنه يزعم أن هذا المال الذى بين يديه جمعه بمعرفته واجتهاده ، مع أنه يعلم - حق العلم عن طريق التوراة وغيرها - أن الله - تعالى - قد أهلك من قبله ، من أهل القرون السابقة عليه من هو أشد منه فى القوة ، وأكثر منه فى جمع المال واكتنازه .

فالمقصود بالجملة الكريمة تهديده وتوبيخه على غروره وبطره .

وقوله - سبحانه - : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » جملة حالية . أى: والحال أنه لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون سؤال استعتاب واستعلام ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء ، وإنما يسألون - كما جاء فى قوله - تعالى - «فوربك لنسألنهم أجمعين » - سؤال توبيخ وإفضاح .

فالمراد بالنفى فى قوله - سبحانه - « ولا يسأل . . . » سؤال الاستعلام والاستعتاب ، والمراد بالإثبات فى قوله : «فلنسألن » . أو فى قوله: «فوربك لنسألنهم . . » . سؤال التقريع والتوبيخ .

أو نقول : إن فى يوم القيامة مواقف ، فالمجرمون قد يسألون فى موقف، ولا يسألون فى موقف آخر ، وبذلك يمكن الجمع بين الآيات التى تنفى السؤال والآيات التى تثبته .

ثم حكى القرآن بعد ذلك مظهرا آخر من مظاهر غرور قارون وبطره فقال : ﴿ فخرج على قومه فى زينته ﴾ ، والجملة الكريمة معطوفة على قوله قبل ذلك « قال إنما أوتيته على علم عندى » ، وما بينهما اعتراض . والزينة : اسم لما يتزين به الإنسان من حلى أو ثياب أو مايشبههما .

أى : قال ماقال قارون على سبيل الفخر والخيلاء ، ولم يكتف بهذا القول بل خرج على قومه فى زينة عظيمة ، وأبهة فخمة ، فيها مافيها من ألوان الرياش والخـــدم . .

وقد ذكر بعض المفسرين روايات متعددة ، فى زينته التى خرج فيها ، رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها ، ويكفى أن نعلم أنها زينة فخمة ، لأنه لم يرد نص فى تفاصيلها .

وأمام هذه الزينة الفخمة التى خرج فيها قارون ، انقسم الناس إلى فريقين فريق استهوته هذه الزينة ، وتمنى أن يكون له مثلها ، وقد عبر القرآن عن هذا الفريق بقوله : « قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم » .

أى : خرج قارون على قومه فى زينته ، فما كان من الذين يريدون الحياة الدنيا وزخارفها من قومه ، إلا أن قالوا على سبيل التمنى والانبهار ... ياليت لنا مثل ما أوتى قارون من مال وزينة ورياش، إنه لذو حظ عظيم ، ونصيب ضخم ، من متاع الدنيا وزينتها .

هكذا قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، وهم الفريق الأول من قوم قارون . أما الفـــريق الثانى المتمثل فى أصحاب الإيمان القوى ، والعلم النافع ،

فقد قابلوا أصحاب هذا القول بالزجر والتعنيف ، وقد حكى القرآن ذلك عنهم فقال : « وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون » .

وكلمة «ويلكم» أصلها الدعاء بالهلاك ، وهى منصوبة بمقدر . أى : ألزمكم الله الويل .

ثم استعملت فى الزجر والتعنيف والحض على ترك ماهو قبيح ، وهذا الاستعمال هو المراد هنا .

أى : وقال الذين أوتوا العلم النافع من قوم قارون ، لمن يريدون الحياة الدنيا : كفوا عن قولكم هذا ، واتركوا الرغبة فى أن تكونوا مثله ، فإن « ثواب الله » فى الآخرة «خير» مما تمنيتموه ، وهذا الثواب إنما هو « لمن آمن وعمل صالحا » . فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل .

وهذه المثوبة العظمى التى أعدها الله ـ تعالى ـ لمن آمن وعمل صالحا « لا يلقاها » أى : لا يظفر بها ، ولا يوفق للعمل لها « إلا الصابرون » على طاعة الله ـ تعالى ـ ، على ترك المعاصى والشهوات .

قال صاحب الكشاف : « والراجع فى « ولا يلقاها » للكلمة التى تكلم بها العلماء ، أو للثواب ، لأنه فى معنى المثوبة أو الجنة ، أو للسيرة والطريقة وهى الإيمان والعمل الصالح »(١) .

ثم جاءت بعد ذلك العقوبة لقارون ، بعد أن تجاوز الحدود فى البغى والفخر والإفساد فى الأرض . وقد حكى ـ سبحانه ـ هذه العقوبة فى قوله : «فخسفنا به وبداره الأرض ..» .

وقوله ـ تعالى ـ «فخسفنا» من الخسف وهو النزول فى الأرض ، يقال :

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٤٣٢

خسف المكان خسفا - من باب ضرب - إذا غار فى الأرض. ويقال: خسف القمر، إذا ذهب ضوؤه، وخسف الله بفلان الأرض، إذا غيبه فيها.

قال ابن كثير: ولما ذكر الله - تعالى - اختيال قارون فى زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت فى الصحيح - عند البخارى من حديث الزهرى عن سالم - أن أباه حدثه: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة»[1].

أى: تمادى قارون فى بغيه، ولم يستمع لنصح الناصحين، فغيبناه فى الأرض هو وداره، وأذهبناهما فيها إذهابا تاما.

«فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله» أى: فما كان لقارون من جماعة أو عصبة تنصره من عذاب الله، بأن تدفعه عنه، أو ترحمه منه.

«وما كان» قارون «من المنتصرين» بل كان من الأذلين الذين تلقوا عقوبة الله - تعالى - باستسلام وخضوع وخشوع، دون أن يستطيع هو أو قومه رد عقوبة الله - تعالى -.

ثم - بين - سبحانه - ما قاله الذين كانوا يتمنون أن يكونوا مثل قارون فقال - تعالى -: «وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون «ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، لولا أن من الله علينا لخسف بنا، ويكأنه لا يفلح الكافرون»».

ولفظ «وى» اسم فعل بمعنى أعجب، ويكون - أيضا - للتحسر والتندم، وكان الرجل من العرب إذا أراد أن يظهر ندمه وحسرته على أمر فائت يقول: وى. وقد يدخل هذا اللفظ على حرف «كأن» المشددة - كما فى الآية - وعلى المخففة

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٦٦

قال الجمل ما ملخصه قوله : « ويكأن الله . . . » فى هذا اللفظ مذاهب :
أحدها : أن « وى » كلمة برأسها ، وهى اسم فعل معناها أعجب، أى: أنا ، « والكاف » للتعليل ، « وأن » وما فى حيزها مجرورة بها ، أى : أعجب لأن الله ـ تعالى ـ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، . . . » وقياس هذا القول أن يوقف على « وى » وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائى .

الثانى : أن كأن هنا للتشبيه ، إلا أنه ذهب معناه وصارت للخبر واليقين ، وهذا ـ أيضا ـ يناسبه الوقف على « وى » .

الثالث : أو « ويك » كلمة برأسها ، والكاف حرف خطاب ، و « أن » معمولة لمحذوف . أى : اعلم أن الله يبسط . . . وهذا يناسب الوقف على « ويك » وقد فعله أبو عمرو .

الرابع : أن أصل الكلمة ويلك ، فحذفت اللام وهذا يناسب الوقف على الكاف ـ أيضا ـ كما فعل أبو عمرو .

الخامس : أن « ويكأن » كلها كلمة مستقلة بسيطة ومعناها : ألم تر . . . ولم يرسم فى القرآن إلا « ويكأن » و « ويكأنه » متصلة فى الموضعين . . . ووصل هذه الكلمة عند القراءة لا خلاف بينهم فيه . . .

والمعنى : وبعد أن خسف الله ـ تعالى ـ الأرض بقارون ومعه داره، أصبح الذين تمنوا أن يكونوا مثله « بالأمس » أى : منذ زمان قريب ، عندما خرج عليهم فى زينته ، أصبحوا يقولون بعد أن رأوا هلاكه : « ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » أى: صاروا يقولون ما أعجب قدرة الله ـ تعالى ـ فى إعطائه الرزق لمن يشاء من عباده وفى منعه عمن يشاء منهم ، وما أحكمها فى تصريف الأمور ، وما أشد غفلتنا عند ما تمنينا أن نكون مثل قارون، وما أكثر ندمنا على ذلك .

لولا أن الله - تعالى -، قد من علينا - بفضله وكرمه - لخسف بنا الأرض كما خسفها بقارون وبداره .

« ويكأنه لا يفلح الكافرون» أى : ما أعظم حكمة الله - تعالى - فى إهلاكه للقوم الكافرين ، وفى إمهاله لهم ثم يأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر .

ثم ختم - سبحانه - قصة قارون ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ...» .

واسم الإشارة « تلك » مبتدأ ، والدار الآخرة صفة له ، ونجعلها ... خبره ، وجاءت الإشارة بهذه الصيغة المفيدة للبعد ، للإشعار بعظم هذه الدار وعلو شأنها .

أى : تلك الدار الآخرة وما فيها من جنات ونعيم ، ونجعلها خالصة لعبادنا الذين لا يريدون بأقوالهم ولا بأفعالهم « علوا فى الأرض» أى : تطاولا وتعاليا فيها « ولا فسادا » أى : ظلما أو بغيا أو عدوانا على أحد .

« والعاقبة » الطيبة الحسنة ، إنما هى « للمتقين » الذين صانوا أنفسهم عن كل سوء وقبيح .

« من جاء » فى دنياه « بالحسنة »» أى : بالأعمال الحسنة « فله » فى مقابلها عندنا بفضلنا وإحساننا «خير منها» أى : فله عندنا خير مما جاء به من حسنات ، بأن نضاعفها له ، ونثيبه عليها ثوابا عظيما لا يعلم مقداره أحد .

« ومن جاء » بالأعمال « السيئة » فلا يجزى الذين عملوا ، الأعمال « السيئات إلا ما كانوا يعملون » أى : فلا يجزون إلا الجزاء الذى يناسب أعمالهم فى القبح والسوء .

وهكذا يسوق لنا القرآن فى قصصه العبر والعظات ، لقوم يتذكرون .

فمن قصة قارون نرى أن كفران النعم يؤدى إلى زوالها ، وأن الغرور

والبغى والتفاخر كل ذلك يؤدى إلى الهلاك ، وأن خير الناس من يبتغ فيما آتاه الله من نعم ثواب الآخرة ، دون أن يهمل نصيبه من الدنيا ، وأن العاقل هو من يستجيب لنصح الناصحين ، وأن الناس فى كل زمان ومكان ، منهم الذين يريدون زينة الحياة الدنيا ، ومنهم الأخيار الأبرار الذين يفضلون ثواب الآخرة ، على متع الحياة الدنيا ، وأن العاقبة الحسنة قد جعلها ـ سبحانه ـ لعباده المتقين ، وأنه ـ سبحانه ـ يجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

* * *

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ، ببشارة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وبتثبيت قلبه ، وبأمره بالمضى فى تبليغ رسالة ربه بدون خوف أو وجل .. فقال ـ تعالى ـ :

« إِنَّ الذى فَرَضَ عليكَ القرآنَ لَرَادُّكَ إلى معادٍ ، قل ربِّى أعلمُ مَن جَاء بالهدَى ، ومَنْ هُوَ فى ضلَالٍ مُبينٍ (٨٥) وما كنتَ ترجُو أنْ يُلقَى إليكَ الكتابُ إلا رحمةً من رَبِّكَ فلا تكونَنَّ ظهيراً للكافرِينَ (٨٦) ولا يَصدُّنَّكَ عنْ آياتِ اللهِ بعدَ إذْ أُنزلتْ إليكَ ، وادعُ إلى ربِّكَ ، ولا تكونَنَّ مِنَ المشركينَ (٨٧) ولا تدعُ مع اللهِ إلهاً آخرَ لا إلهَ إلا هُوَ ، كلُّ شىءٍ هالكٌ إلا وَجْهَهُ ، له الحكمُ وإليه تُرجَعُونَ (٨٨) » .

قال القرطبى : « قوله ـ تعالى ـ : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد . . » ختم ـ سبحانه ـ السورة ببشارة نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ برده إلى مكة قاهرا لأعدائه . وقيل : هو بشارة له بالجنة . والأول أكثر . وهو قول جابر بن عبد الله ، وابن عباس ، ومجاهد . وغيرهم .

قال القتبي : معاد الرجل بلده ، لأنه ينصرف عنه ثم يعود إليه ... وقيل إلى معاد . أي : إلى الموت ... »[1].

قال الآلوسي : «وقد يقال : أطلق ـ سبحانه ـ المعاد على مكة ، لأن العرب كانت تعود إليها في كل سنة ، لمكان البيت فيها ، وهذا وعد منه ـ عز وجل ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بمكة أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يهاجر منها ثم يعود إليها . وروى عن غير واحد أن الآية نزلت بالجحفة بعد أن خرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة مهاجرا واشتاق إليها . ووجه ارتباطها بما تقدمها : تضمنها الوعد بالعاقبة الحسنى في الدنيا ، كما تضمن ماقبلها الوعد بالعاقبة الحسنى في الآخرة»[2].

والمعنى : «إن الذي فرض عليك القرآن » ـ أيها الرسول الكريم ـ ، بأن أنزله إليك ، وكلفك بحفظه وتلاوته على الناس، والعمل بأوامره ونواهيه.

«لرادك إلى معاد » أي : لرادك إلى المكان الذي أنت فيه وهو مكة، بعد أن تهاجر منه .

تعود إليه ظاهرا منتصرا ، بعد أن خرجت منه وأنت مطارد من أعدائك .

تعود إليه ومعك الآلاف من أتباعك، بعد أن خرجت منه وليس معك سوى صاحبك أبي بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ.

وقد حقق الله ـ تعالى ـ هذا الوعد لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقد عاد الرسول إلى مكة ومعه أصحابه المؤمنون ، بعد سنوات قليلة من هجرتهم منها .

قال صاحب الكشاف : «ووجه تنكيره ـ أي لفظ المعاد ـ أنها كانت في ذلك اليوم معادا له شأن ، ومرجعا له اعتداد ، لغلبة رسول الله ـ صلى الله

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١٣ ص ٣٢١

(٢) تفسير الآلوسي جـ ٢٠ ص ١٢٨

عليه وسلم - عليها، وقهره لأهلها، لظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه ...»(١)

ثم أرشد - سبحانه - نبيه إلى ما يرد به على دعاوى المشركين فقال: «قل ربي أعلم من جاء بالهدى، ومن هو في ضلال مبين».

أى: قل - أيها الرسول الكريم - لمن خالفك وكذبك، ربي وحده هو الأعلم بالمهتدى وبالضال منى ومنكم، وسيجازى كل فريق بما يستحقه، وستعلمون - أيها المشركون - لمن عقبى الدار.

ثم ذكره - سبحانه - بنعمة اختصاصه بالنبوة وحمل الرسالة فقال: «وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ...».

أى: وما كنت - أيها الرسول الكريم - قبل وحينا إليك بالرسالة، تتوقع أو تظن أننا سنكلفك بها، لكننا كلفناك بها وشرفناك بحملها رحمة منا بالناس فأنت الرحمة المهداة والنعمة المسداه إليها، لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

وما دام الأمر كذلك، فأكثر من شكر الله - تعالى - وامض فى طريقك ولا «تكونن ظهيرا» أى: معينا ونصيرا «للكافرين».

«ولا يصدنك» صاد «عن» تبليغ «آيات الله» - تعالى -، وعن العمل بها «بعد إذ أنزلت إليك» من ربك:

«وادع» الناس جميعا «إلى» دين «ربك» وإلى طريقه «ولا تكونن من المشركين» الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة والطاعة.

«ولا تدع مع الله» - تعالى - «إلها آخر» أى: واحذر أن تعبد مع الله - تعالى - إلها آخر، فإن الحال والشأن والحق أنه «لا إله» مستحق للعبادة «إلا هو» وحده عز وجل.

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٤٢٦

« كل شىء » فى هـــذا الوجود « هالك » ومعدوم وزائل « إلا وجهه » - عز وجل - .

« له » - سبحانه - « الحكم » النافذ الذى لا مرد له.

« وإليه » وحـــده « ترجعون » - أيها الناس - فيحاسبكم على ماقدمتم وما أخرتم « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله » .

وبعد : فهذه سورة القصص ، وهذا تفسير لها ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوى

صباح السبت ٣ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ٢٣ / ٣ / ١٩٨٥ م

فهرس إجمالي لتفسير « سورة القصص »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقـــدمة والتمهيد	٤٨٥
١	طسم . تلك آيات الكتاب المبين ...	٤٩٠
٧	وأوحينا إلى أم موسى ...	٤٩٦
١٤	ولما بلغ أشده واستوى ...	٥٠٥
٢٢	ولما توجه تلقاء مدين ...	٥١٣
٢٩	فلما قضى موسى الأجل ...	٥٢٤
٣٦	فلما جاءهم موسى بآياتنا ...	٥٣٢
٤٤	وما كنت بجانب الغربى ...	٥٣٩
٥٢	الذين آتيناهم الكتاب ...	٥٤٨
٥٦	إنك لا تهدى من أحببت ...	٥٥١
٦٢	ويوم يناديهم فيقول ...	٥٥٩
٧١	قل أرأيتم إن جعل الله ...	٥٦٤
٧٦	إن قارون كان من قوم موسى ...	٥٦٨
٨٥	إن الذى فرض عليك القرآن ...	٥٧٨